ماريو بارغاس يوسا



رواية

ترجمة

صالح علماني



ماريو بارغاس يوسا

Mario Vargas Llosa

حلم السلتي

El sueño del celta

رواية

ترجمة

صالح علماني



Book: El sueño del celta

الكتاب: حلم السلتي

Author: Mario Vargas Llosa

المؤلف: ماريو بارغاس يوسا ـ ترجمة: صالح علماني

First Edition: 2012

الطبعة الأولى ٢٠١٢



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى ألبارو وغونثالو ومورجانة.
وإلى خوسيفينا، وليتنمدرو،
وأريادنا، وأيتانا، وإسابيل وأنايس.

كل واحد منا هو، على التوالي، ليس **واحداً**، وإنما **كثيرون**. وهذه الشخوص المتوالية التي ينطلق بعضها من بعضها الآخر، تقدّم عادة في ما بينها أشد التناقضات غرابة وإثارة للدهشة.

خوسيه إنريكي دوروه

موتيفات بروتيو

الكونغو

I

عندما فتحوا باب الزنزانة، دخلت أيضاً، مع دفقة الضوء وهبة الريح، ضجة الشارع التي تُخمدها الجدران الحجرية فاستيقظ روجر مذعوراً. وبينما هو لا يزال يرمش، مشوشاً، مصارعاً من أجل استعادة السكينة، لمح شبح *الشريف* مستنداً إلى فراغ الباب. كان وجهه المترهل، بشاربه الأشقر وعينيه النمامتين، يتأمله بجفاء لم يحاول مداراته من قبل قطّ. هذا شخص سيتألم إذا ما استجابت الحكومة الإنكليزية لطلبه بالرحمة.

ـ زيارة ـ دمدم *الشريف* دون أن يرفع بصره عنه.

نهض واقفاً وهو يفرك ذراعيه. كم من الوقت نام؟ أحد عذابات سجن بينتونفيل يتمثل في عدم معرفة الوقت. ففي سجن بريكستون وفي برج لندن كان يَسمعُ قرع النواقيس التي تشير إلى كل نصف ساعة وإلى تمام الساعات؛ أما هنا، فالجدران السميكة لا تسمح بأن تنفذ إلى داخل السجن ضجة أجراس كنيسة كاليدونيان رود ولا صخب سوق إيسلينغتون. والحراس القائمون على الباب ينفذون بصرامة الأمر بعدم التوجه إليه بالكلام. وضع *الشريف* القيد في معصميه وأومأ إليه بأن يخرج أمامه. أيحمل إليه محاميه خبراً طيباً؟ أتكون الحكومة قد اجتمعت لتتخذ قراراً؟ ربما يكون اتخاذهم القرار بتخفيف الحكم هو

السبب في نظرات *الشريف* التي يبدو جفاؤها أشد زخماً من أي وقت آخر. كان يمشي في الممر الطويل ذي الآجر الأحمر الذي سوّدته القذارة، بين أبواب الزنازين المعدنية وبعض الجدران حائلة اللون حيث توجد كل عشرين أو خمس وعشرين خطوة نافذة عالية مزودة بقضبان حديدية يمكن من خلالها رؤية قطعة صغيرة من السماء الرمادية. لماذا يشعر بكل هذا البرد الشديد؟ الشهر تموز، قلب الصيف، ولا مسوغ لهذا الجليد الذي يجعل جلده يقشعر.

لدى دخوله إلى قاعة الزيارات الضيقة، أحس بالغمِّ. فمن هو بانتظاره هناك ليس محاميه، الأستاذ جورج غافن دافي، وإنما أحد معاونيه، شاب أشقر ممتقع الوجه، بارز الوجنتين، يلبس كمتأنق، وكان قد رآه خلال أيام المحاكمة الأربعة يذهب ويجيء بأوراقٍ لمحاميي الدفاع. لماذا أرسل الأستاذ غافن دوفي أحد مساعديه بدل أن يحضر بنفسه؟

صوّب إليه الشاب نظرة باردة. وكان في عينيه غيظ وقرف. ماذا أصاب هذا الأحمق؟ «إنه ينظر إليّ كما لو أنني وحش ضار»، فكر روجر.

ـ هل من جديد؟

نفى الشاب بحركة من رأسه. واستنشق هواءً قبل أن يتكلم:

ـ بشأن طلب العفو، لا شيء بعد ـ دمدم بجفاء، وبتكشيرة تزيد من امتقاع وجهه ـ يجب الانتظار إلى أن يجتمع مجلس الوزراء.

كان روجر منزعجاً من حضور *الشريف* والحارس الآخر في القاعة الصغيرة. ومع أنهما ظلا صامتين ودون حركة، إلا أنه يعرف أنهما

يصغيان بانتباه لما يتبادله من حديث. وكانت هذه الفكرة تُثقل على صدره وتزيد من صعوبة تنفسه.

ـ أخبار الخارج لا تصل إلى سجن بينتونفيل. ما الذي جرى؟

وماذا لو أن قيادة البحرية الألمانية قد قررت أخيراً شن الهجوم على بريطانيا العظمى من الشواطئ الأيرلندية؟ وماذا لو أن الغزو المنتظر قد وقع وبدأت مدافع القيصر تنتقم في هذه اللحظات للوطنيين الأيرلنديين الذين أعدمهم الإنكليز رمياً بالرصاص في انتفاضة أسبوع الفصح؟ إذا كانت الحرب قد اتخذت هذا المسار، فإن خططه تتحقق على الرغم من كل شيء.

ـ لقد صار الوضع صعباً الآن، وربما صار النجاح مستحيلاً ـ كرر معاون المحامي. كان شاحباً، يكبح غيظه بينما روجر يلمح جمجمته تحت بشرة وجهه البيضاء. راوده هاجس بأن *الشريف*، وراء ظهره، يبتسم.

ـ عمَّ تتكلم حضرتك؟ لقد كان السيد غافن دافي متفائلاً بشأن طلب العفو. ما الذي حدث كي يبدّل رأيه.

ـ يومياتك ـ تهجى الشاب بتكشيرة استياء أخرى. كان قد خفض صوته ووجد روجر مشقة في سماعه ـ لقد اكتشفتها سكوتلنديارد في بيتك بشارع إبوري.

احتفظ بصمت طويل منتظراً أن يقول روجر شيئاً. ولأن هذا الأخير أصيب بالبكم، فقد أطلق لسخطه العنان وعوج فمه:

ـ كيف أمكن لك أن تكون على هذا القدر من الحماقة، يا رجل الله ـ كان يتكلم ببطء يجعل حنقه أشد تأثيراً ـ. كيف أمكن لك أن تصوغ

بالحبر والورق مثل تلك الأمور، يا رجل الله. وإذا كنتَ قد فعلت ذلك، كيف لم تتخذ احتياطاً أولياً بإتلاف تلك المذكرات قبل أن تبدأ التآمر ضد الإمبراطورية البريطانية.

«أن يدعوني هذا الصبي (يا رجل الله) ينطوي على إهانة»، فكر روجر. إنه فتى سيئ التربية، فهو في سن تعادل ضعف عدد سنوات عمر ذلك الشاب المتكلف.

ـ مقاطع من تلك المذكرات صارت متداولة الآن في كل مكان ـ أضاف المساعد، وقد صار أكثر هدوءاً، وإن كان لا يزال مستاءً، ولم يعد ينظر إليه الآن ـ في قيادة البحرية، الناطق باسم الوزارة، الكابتن البحري ريجينالد هول شخصياً، سلّم نسخاً لعشرات الصحف. إنها في كل أنحاء لندن. في البرلمان، وفي مجلس اللوردات، وفي أندية الليبراليين والمحافظين، في هيئات التحرير، في الكنائس. لا حديث في أي أمر آخر في المدينة.

لم يقل روجر شيئاً. لم يتحرك. كان يشعر مرة أخرى بذلك الإحساس الذي هيمن عليه في أحيان كثيرة خلال الشهور الأخيرة، منذ ذلك الصباح الرمادي الماطر من شهر نيسان ١٩١٦، حين جرى اعتقاله وهو يرتجف من البرد، في مكينز فوت، جنوبي أيرلندا: ليس هو المعنيّ، إنهم يتكلمون عن شخص آخر، وشخص آخر هو من تحدث له هذه الأمور.

ـ أعرفُ أن حياتك الخاصة لا تعنيني، ولا تعني السيد غافن دافي ولا أي شخص آخر ـ أضاف المعاون الشاب باذلاً جهده في تخفيف الغضب الذي يخالط صوته ـ. إنها مسألة مهنية بصرامة. السيد غافن

دافي أراد أن يُطلعك على الوضع. وأن يحذرك. يمكن لطلب الرحمة أن يكون في خطر. فصباح اليوم، ظهرت في بعض الصحف احتجاجات، واتهامات بخيانة الأمة، وإشاعات حول مضمون يومياتك. ويمكن للرأي العام المؤيدّ للالتماس أن يتأثر. إنه مجرد افتراض بالطبع. السيد غافن دافي سيُبقيك على اطلاع. هل ترغب في إيصال رسالة إليه؟

نفى السجين بحركة تكاد تكون غير ملحوظة من رأسه. واستدار على الفور مواجهاً باب صالة الزيارات. أومأ *الشريف* بوجهه ممتلئ الخدين إلى الحارس. فسحب هذا الأخير المزلاجَ الثقيل وانفتح الباب. بدا له طريق العودة إلى الزنزانة بلا نهاية. خلال المسير في الممر الطويل ذي جدران الآجر المتحجرة الحمراء التي يخالطها السواد، راوده إحساس بأنه قد يتعثر في أية لحظة ويسقط على وجهه فوق تلك الأحجار الرطبة ولا يعود للنهوض. عند وصوله إلى باب الزنزانة الحديدي، تذكر: يوم جاؤوا به إلى سجن بينتونفيل قال له *الشريف* إن جميع السجناء الذين شغلوا هذه الزنزانة، دون أي استثناء، قد انتهوا إلى المشنقة.

ـ هل يمكنني الاستحمام اليوم؟ ـ سأل قبل أن يدخل.

نفى السجان البدين برأسه وهو ينظر إلى عينيه بالاشمئزاز نفسه الذي لمحه روجر في عيني معاون المحامي.

ـ لا يمكنك الاستحمام حتى يوم تنفيذ حكم الإعدام ـ قال *الشريف* متلذذاً بالكلمات ـ إذا كانت هذه هي رغبتك الأخيرة في ذلك اليوم. هناك آخرون، بدل أن يطلبوا الاستحمام، يطلبون وجبة دسمة. وهذه

صفقة سيئة لمستر إيليس، لأنهم عندئذ، حين يشعرون بالحبل، يتبرزون. ويخلّفون المكان ممتلئاً بالقذارة. مستر إيليس هو الجلاد، إذا كنتَ لا تعرف ذلك.

حين سمع إقفال الباب وراء ظهره، ذهب ليستلقي على السرير الضيق. أغمض عينيه. كان يمكن للأمر أن يكون طيباً لو أنه أحس بالماء البارد المتدفق من تلك الماسورة يوتر بشرته ويصبغها بزرقة البرودة. السجناء في سجن بينتونفيل، باستثناء المحكومين بالإعدام، يمكنهم الاستحمام بالصابون مرة كل الأسبوع تحت دفق ذلك الماء البارد. وظروف الزنازين هناك مقبولة. وبالمقابل، تذكر بقشعريرةٍ قذارة سجن بريكستون، حيث امتلأ بالقمل والبراغيث التي تكاثرت في فراش سريره الضيق وغطت ظهره وساقيه وذراعيه بلسعاتها. حاول التفكير في ذلك، ولكن كان يعود إلى ذاكرته، مرة بعد أخرى، الوجه المستاء والصوت المقيت للمعاون الأشقر المزين كغندور الذي أرسله إليه الأستاذ غافن دافي بدل أن يأتي هو بنفسه لإطلاعه على الأخبار السيئة.

II

عن مولده في الأول من أيلول ١٨٦٤، في دويلز كوتِج، لاوسن تيراس، بضاحية سانديكوف بدبلن، لا يتذكر شيئاً، وهذا طبيعي. فعلى الرغم من أنه عرف دوماً أنه رأى النور في عاصمة أيرلندا، إلا أنه ظل لشطر لا بأس به من حياته يعتبر أن الأمر الواقع هو ما رَسَّخَه في ذهنه أبوه النقيب روجر كيسمنت الذي خدم ثمانية أعوام بتميز في لواء الخيالة

الخفيفة الثالث بالهند. غير أن مسقط رأسه الحقيقي هو كونتية آنتريم، في قلب أُلستر، بأيرلندا البروتستانتية المؤيدة لبريطانيا، حيث استقرت سلالة آل كيسمنت منذ القرن الثامن عشر.

ترعرع روجر وتعلم كأنجليكاني من أتباع الكنيسة الأيرلندية، مثله مثل إخوته أغنيس (نينا) وتشارلز وتوم ـ والثلاثة أكبر منه سناً ـ، ولكنه حدَس، منذ ما قبل بلوغه سن الرشد، أن أسرته ليست كلها شديدة الانسجام في مسألة الدين مثلما هي في الشؤون الأخرى، حتى إنه لم يكن مستحيلاً على طفل لا يزيد عمره على سنوات قليلة أن يلحظ أن أمه، عندما تكون مع أخواتها وأبناء عمومتها الذين من اسكتلندا، تتصرف بطريقة كمن تخفي شيئاً. وسيكتشف، عند بلوغه سن المراهقة، أن أمه آن جيفسون، من أجل أن تتزوج من أبيه، قد تحولت ولو بالتظاهر إلى البروتستانتية، وأنها في الخفاء عن زوجها مازالت كاثوليكية (أو «باباوية» مثلما كان يمكن للنقيب كيسمنت أن يقول)، فهي تعترف للكاهن، وتسمع القداس، وتشارك في تناول خبز القربان، وأنه هو نفسه، وبسرِّية بالغة الحرص، قد عُمِّد كاثوليكياً عند بلوغه الرابعة من العمر، في أثناء رحلة إجازة قام بها هو وإخوته برفقة أمهم إلى رييل، شمالي الغيل، حيث يعيش الأخوال والخالات.

في تلك السنوات في دبلن، أو خلال الفترات التي أمضتها الأسرة في لندن وجيرسي، لم يكن روجر يولي الدين أدنى اهتمام. ولكنه، كيلا يستثير استياء أبيه، كان يصلي خلال قداس يوم الأحد، ويرتل ويتابع القداس باحترام. كانت أمه قد أعطته بعض الدروس في العزف على البيانو، وكان لها صوت صافٍ ومرتعش يُكسبها تصفيقاً في

الاجتماعات العائلية التي تغني فيها أغنيات شعبية أيرلندية. ما كان يستثير اهتمامه حقاً في ذلك الحين هي القصص التي يرويها النقيب كيسمنت، حين يكون رائق المزاج، له ولأخوته. قصص عن الهند وأفغانستان، ولاسيما عن معاركه ضد الأفغان والسيخ. تلك الأسماء وتلك الأمكنة الإكزوتيكية، وتلك الرحلات عبر غابات وجبال تخبئ كنوزاً ووحوشاً وضواري، وشعوباً مغرقة في القِدم ذات عادات غريبة، وآلهة رهيبين، كانت تطلق لمخيلته العنان. لقد كانت تلك القصص تُضجر إخوته في بعض الأحيان، أما روجر الصغير فيمكن له قضاء ساعات وأيام يستمع إلى مغامرات أبيه عند التخوم النائية للإمبراطورية.

عندما تعلم القراءة كان يروقه الاستغراق في قصص كبار الملاحين، من الفايكنغ والبرتغاليين والإنكليز والإسبان، ممن مخروا عباب بحار الكوكب وأشاعوا الخرافات القائلة إنه لدى بلوغ نقطة محددة من البحر المحيط، تبدأ مياه البحر بالغليان، وتنفتح هاويات، وتظهر مسوخ هائلة يمكن لأشداقها أن تبتلع سفينة كاملة. وإن كان روجر، لو خُيِّر بين القصص المسموعة والمقروءة، يفضل على الدوام الاستماع إلى تلك القصص من فم أبيه. فقد كان للنقيب كيسمنت صوت دافئ، وكان يصف بحيوية وبمفردات غنيةٍ أدغالَ الهند أو صخور جبال ممر خيبر في أفغانستان، حيث تعرضت، ذات مرة، كتيبة خيالته الخفيفة لكمين نصبته جماعة من ذوي العمائم المتعصبين؛ فواجههم الجنود الإنكليز الشجعان بالرصاص أولاً، ثم بالحراب بعد ذلك، وأخيراً بالخناجر والأيدي العارية، إلى أن أجبروهم على الانسحاب مهزومين. ولكن لم تكن الأحداث المسلحة هي أكثر ما يبهر مخيلة روجر الصغير، وإنما الرحلات، وشق دروب في أمكنة لم يصل إليها الرجل الأبيض من قبل

قطّ، ومآثر الصمود البدني، والتغلب على عوائق الطبيعة. لقد كان أبوه مسلياً ولكنه شديد الصرامة ولا يتردد عن جلد أبنائه عندما يسيئون التصرف، بمن فيهم ابنته نينا، المرأة الصغيرة، فهكذا تجري المعاقبة على الأخطاء في الجيش وقد تأكد له أن هذه الطريقة في العقاب وحدها هي الفعالة.

ومع أن روجر كان يُقدّر أباه، إلا أن الشخص الذي يحبه حقاً هو أمه، تلك المرأة ممشوقة القامة التي تبدو كأنها تطفو بدل أن تمشي، ذات العينين الزرقاوين والشعر الأشقر، واليدين شديدتي النعومة اللتين تغمرانه بالسعادة حين تتغلغلان في تجعيدات شعره أو تداعبان جسده أثناء الاستحمام. وأحد أول الأمور التي تعلمها ـ أكان عمره آنذاك خمس أم ست سنوات؟ ـ أنه لا يستطيع الجري وإلقاء نفسه بين ذراعي أمه إلا عندما لا يكون النقيب قريباً منه. فهذا الأب المخلص لتقاليد تزمت أسرته، لم يكن مؤيداً لأن يترعرع الأطفال وسط الدلال، لأن ذلك يجعلهم ضعفاء في الصراع من أجل الحياة. فكان روجر يظل بعيداً عن أمه آن جيفسون الشاحبة، أثناء وجود أبيه. ولكن حين يخرج أبوه للقاء مع أصدقائه في ناديه أو للقيام بنزهة، يركض نحوها، فتغطيه بالقبلات والمداعبات. فكان تشارلز ونينا وتوم يحتجون أحياناً: «أنت تحبين روجر أكثر منا». فتؤكد لهم الأم أن لا، وأنها تحبهم جميعاً بالتساوي، وكل ما هنالك هو أن روجر صغير جداً ويحتاج إلى عناية وحنان أكثر من الكبار.

عندما ماتت أمه عام ١٨٧٣ كان عمر روجر تسع سنوات. وكان قد تعلم السباحة وصار يكسب كل السباقات مع أطفال في مثل سنه، بل

ومن هم أكبر منه سناً. وخلافاً لنينا وتشارلز وتوم الذين ذرفوا الكثير من الدموع خلال السهر على جثمان آن جيفسون ودفنها، لم يبك روجر ولو مرة واحدة. ففي تلك الأيام الكئيبة تحول منزل آل كيسمنت إلى قاعة مأتمية، تغصّ بأناس يرتدون ملابس الحداد، يتكلمون بأصوات خفيضة، ويعانقون النقيب كيسمنت والأطفال بوجوه حزينة ويتلفظون بعبارات التعزية. لم يستطع النطق بجملة واحدة لأيام عديدة، كما لو أنه أصيب بالبكم. كان يردّ بحركات من رأسه أو إيماءات بيديه على الأسئلة ويظل جدّياً، مطأطئ الرأس ونظرته زائغة، حتى في الليل وهو في عتمة الحجرة، يظل بلا قدرة على النوم. ومنذ ذلك الحين، وعلى امتداد ما تبقى من حياته، ظلت صورة آن جيفسون تأتي، بين حين وآخر، لتزوره في أحلامه بتلك الابتسامة المتوسلة، فاتحة له ذراعيها اللتين سيلوذ بهما، شاعراً بالحماية والسعادة بتلك الأصابع المرهفة في رأسه، في ظهره، على خديه، بإحساس يبدو أنه يحميه من شرور العالم.

سرعان ما وجد إخوته العزاء. وكذلك روجر في الظاهر. لأنه لم يعد قطّ إلى ذكر الموضوع، على الرغم من استعادته النطق. وعندما يذكّره أحد الأقارب بأمه، يصيبه البكم ويظل معتكفاً في صمته إلى أن يبدل ذلك الشخص موضوع الحديث. وفي ساعات أرقه، تُظهر له هواجسه، في الظلام، وجه عاثرةِ الحظ آن جيفسون ينظر إليه بأسى.

أما من لم يجد العزاء ولم يعد هو نفسه فكان النقيب روجر كيسمنت. ولأنه لم يكن من النوع الذي يكشف عن مشاعره، ولم يره روجر وإخوته يغدق الملاطفات على أمهم قطّ، فقد فوجئ الأطفال

الأربعة بالكارثة التي شكّلها لأبيهم اختفاء زوجته. صار يمضي الآن، وهو المتأنق جداً، مرتدياً أي شيء، وبلحية نامية، ووجه عابس، ونظرة مستاءة كما لو أن أبناءه هم المذنبون في ترمله. وبعد قليل من موت آن، قرر ترك مدينة دبلن وأرسل الأطفال الأربعة إلى ألستر، إلى ماغرنتمبل هاوس، بيت الأسرة، ومنذ ذلك الحين تولى العم جون كيسمنت وزوجته شارلوت مسؤولية تربية الإخوة. وكما لو أن أباهم يريد التنصل منهم، ذهب ليعيش على بُعد أربعين كيلومتراً من المكان، بأدير أرمز هوتيل في باليمينا، حيث كان النقيب كيسمنت، حسب عبارات تفلت من العم جون «شبه مجنون من الحزن والوحدة»، يقضي أيامه ولياليه في الروحانيات، محاولاً التواصل مع المتوفاة من خلال وسطاء روحيين وأوراق لعب وكرات بلور.

لم يرَ روجر أباه منذ ذلك الحين إلا مرات نادرة، ولم يعد يسمعه يروي تلك القصص عن الهند وأفغانستان. وقد توفي النقيب كيسمنت بداء السل في العام ١٨٧٦، بعد ثلاث سنوات من موت زوجته. وكان روجر قد أكمل الثانية عشرة من العمر. وفي مدرسة أبرشية باليمينا، حيث أمضى ثلاث سنوات، كان تلميذاً ساهياً، ينال درجات عادية، باستثناء اللغتين اللاتينية والفرنسية والتاريخ القديم، وهي المواد التي تفوق فيها. وكان يكتب شعراً، ويبدو طوال الوقت مستغرقاً في تأملاته، ويلتهم كتب رحلات عبر أفريقيا والشرق الأقصى. ويمارس الرياضة، وخاصة السباحة. ويذهب في عطلات نهاية الأسبوع إلى قلعة غالغورم، قلعة آل يونغ، حيث يدعوه أحد زملائه في الدراسة. ولكن روجر كان يقضي مع روز مود يونغ وقتاً أطول مما يقضيه مع زميله. وكانت تلك الجميلة المثقفة والكاتبة تجوب قرى صيادي الأسماك والفلاحين في

أنتريم لتجمع قصائد وأساطير وأغنيات باللغة الغالية. ومن فمها سمع أول مرة عن الحروب الملحمية في الميثولوجيا الأيرلندية. القلعة المشيدة بأحجار سوداء، وذات الأبراج، والشعارات المنقوشة والمداخن، ولها واجهة كواجهة كاتدرائية، بناها في القرن السابع عشر ألكسندر كولفيل، وهو لاهوتي ذو وجه وقح ـ حسب الصورة المرسومة له والمعلقة في البهو ـ ويقال في باليمينا إنه عقد اتفاقاً مع الشيطان، وإن شبحه يهيم على وجهه في المكان. وفي بعض الليالي المقمرة، كان روجر يتجرأ على البحث عنه وهو يرتجف في الدهاليز والحجرات الخاوية، ولكنه لم يجده قط.

بعد سنوات طويلة من ذلك فقط سيتعلم الشعور بالراحة في ماغرنتمبل هاوس، بيت آل كيسمنت المشمس والذي سُمي من قبل كَلفترين. لأنه في السنوات الست التي أمضاها هناك، ما بين التاسعة والخامسة عشرة من عمره، مع العم جون والعمة شارلوت وأقربائه الآخرين من جهة أبيه، كان يشعر على الدوام بأنه أجنبي في ذلك المنزل المهيب الذي تُفاقم من عزله الأحجار الرمادية، والطوابق الثلاثة، والأسقف المستعارة العالية، والجدران المغطاة بالبلاب، والسقوف القوطية الزائفة، والستائر التي تبدو كأنها تخفي أشباحاً. والحجرات الفسيحة، والممرات الطويلة، والسلالم ذات المساند الخشبية المستهلكة ودرجاتها التي تصرّ. ولكنه كان يستمتع، بالمقابل، بالهواء الطلق بين أشجار الدراق والدردار والجميز الضخمة التي تصمد للرياح الإعصارية، والهضاب اللطيفة حيث الأبقار والأغنام، والتي يمكن من فوقها رؤية قرية باليكاسل، والبحر، والصخور البارزة التي ترتطم بها الأمواج قبالة جزيرة راثلن، وفي أيام الأجواء الصافية، يظهر طيف

اسكتلندا بصورة ضبابية. وكثيراً ما كان يذهب إلى قريتي كاشيندون وكاشيندال المجاورتين اللتين تبدوان مسرح أساطير أيرلندية قديمة، وغلندات أيرلندا الشمالية التسعة، تلك الأودية النحيلة المحاطة بهضاب وسفوح صخرية، ترسم النسُور دوائر فوق قممها، وهو مشهد يُشعره بالشجاعة والحماسة. وكانت تسليته المفضلة القيام بنزهات إلى تلك الأراضي القاسية، حيث يعيش فلاحون لا يقلون قِدماً عن المشهد نفسه، ويتكلم بعضهم في ما بينهم اللغة الأيرلندية القديمة التي كان عمه جون وأصدقاؤه يتبادلون حولها سخريات قاسية. لم يكن أخواه تشارلز وتوم يشاطرانه حماسته لحياة الهواء الطلق ولا استمتاعه بنزهات المشي عبر الريف أو تسلق جبال انتريم الوعرة؛ أما أخته نينا بالمقابل فكانت تشاطره ذلك، ولهذا، وعلى الرغم من أنها تكبره بثمانية أعوام، فقد كانت أخته المفضلة وعلاقته بها دائماً على خير ما يرام. ومعها قام بعدة رحلات إلى خليج مارلو، المغطى بصخور سوداء وشاطئ حصوي، عند سفح غلينشيسك، الذي سترافقه ذكراه مدى الحياة وظل يتحدث عنه دوماً، في رسائله الأسرية، على أنه «ذلك الركن من الفردوس».

ولكن العطلات الصيفية هي ما كان يروق روجر أكثر من النزهات في الريف. كان يقضيها في ليفربول، حيث الخالة غريس، شقيقة أمه، وكان يشعر في بيتها أنه محبوب ومُحتَضن: من الخالة غريس طبعاً، ولكن من زوجها أيضاً، الخال إدوارد بانيستير الذي جاب مناطق كثيرة من العالم ويقوم برحلات عمل إلى أفريقيا. ويعمل لدى شركة الملاحة التجارية «إلدر ديمبستر لاين»، التي تنقل شحنات بضائع ومسافرين بين بريطانيا العظمى وغرب أفريقيا. وكان أبناء الخالة غريس والخال إدوارد، هم أفضل رفاق روجر في اللعب، أفضل من إخوته، وخاصة

جيرترود بانيستر، جي، التي كان منذ طفولته المبكرة على علاقة طيبة بها لم يكدرها أي زعل قطّ. لقد كانا متحدين إلى حدٍّ قالت لهما معه أخته نينا مازحة ذات مرة: «أنتما ستنتهيان إلى الزواج». وقد ضحكت جي، أما روجر فتورد وجهه بحمرة الخجل حتى حافة شعره. لم يتجرأ على رفع بصره وتلعثم: «لا، لا، لماذا تقولين هذه الحماقة».

أثناء وجوده في ليفربول، حيث أبناء خالته، كان روجر يتغلب أحياناً على خجله ويستجوب الخال إدوارد حول أفريقيا، تلك القارة التي يملأ مجرد ذكرها رأسه بغابات، وضوارٍ، ومغامرات، ورجال بواسل. وبفضل الخال إدوارد بانيستر سمع لأول مرة بالدكتور ديفيد لفينغستون، الطبيب والمبشر الاسكتلندي الذي كان يكتشف منذ سنوات القارة الأفريقية، يجوب أنهاراً مثل الزامبيزي والشير، ويُطلق تسميات على جبال وأمكنة مجهولة، ويحمل المسيحية إلى القبائل المتوحشة. لقد كان أول أوروبي يجتاز أفريقيا من ساحل إلى الساحل الآخر، وأول من جاب صحراء كالاهاري وتحول إلى البطل الأوسع شعبية في الإمبراطورية البريطانية. وكان روجر يحلم به، ويقرأ الكتيبات التي تصف مآثره ويتلهف إلى الانضمام إلى حملاته، وأن يواجه المخاطر إلى جانبه، ويساعده في إيصال الديانة المسيحية إلى أولئك الوثنيين الذين لم يخرجوا بعد من العصر الحجري. وقد اختفى الدكتور لفينغسون أثناء بحثه عن منابع النيل، وضاع أثره كما لو أن الأدغال الأفريقية قد ابتلعته. كان عمر روجر آنذاك سنتين. وعندما توغل في الأدغال، عام ١٨٧٢، مغامرٌ ومكتشف أسطوري آخر، هنري مورتون ستانلي، صحفي من أصل غيليّ ومكلف من جريدة في نيويورك، وأعلن للعالم أنه عثر حياً على الدكتور لفينغستون، وكان على وشك أن

يكمل الثمانين من عمره. لقد عاش الطفل روجر تلك القصة الروائية بذهول وحسد. وعندما عُلم بعد عام من ذلك، أن الدكتور لفينغستون قد مات دون أن يقبل مغادرة الأراضي الأفريقية أو العودة إلى إنكلترا، أحس روجر أنه قد فقد أحدُ أقربائه المحببين. فعندما يكبر، سيصير هو أيضاً مكتشفاً، مثل هذين الجبارين، ليفنغستون وستانلي، اللذين يوسعان حدود الغرب ويعيشان حياة بالغة الاستثنائية.

وحين بلغ الخامسة عشرة من العمر نصحه العم جون كيسمنت بأن يهجر الدراسة ويبحث عن عمل، لأنه ليس لديه هو وإخوته دخل يعيشون منه. وقد وافق على النصيحة برغبة طيبة. وباتفاق مشترك قررا أن يذهب روجر إلى ليفربول، حيث إمكانات العمل أكبر مما هي عليه في أيرلندا الشمالية. وبالفعل، بعد قليل من وصوله إلى حيث يعيش آل بانيستير، حصل له الخال إدوارد على وظيفة في الشركة التي عمل هو نفسه فيها لسنوات عديدة. بدأ أعماله كمتدرب في شركة تجهيز السفن بعد قليل من بلوغه الخامسة عشرة. كان يبدو أكبر من سنه. فهو طويل القامة، له عينان زرقاوان عميقتان، نحيل، أسود الشعر ومجعده، بشرته شديدة البياض وأسنانه منتظمة، قنوع، متكتم، متأنق، لطيف وخدوم. يتكلم إنكليزية موسومة بلكنة أيرلندية، وكان هذا سبباً لسخرية أبناء خالته.

كان شاباً جدياً، عنيداً، قليل الكلام، غير مؤهل ثقافياً تأهيلاً كبيراً ولكنه مجتهد. تولى واجباته في الشركة بجدية عالية، مصمماً على التعلم. وضعوه في قسم الإدارة والمحاسبة. وكانت مهماته في البدء مهمات مراسل. يحمل وثائق أو يأتي بها من مكتب إلى آخر ويذهب

إلى المرفأ للقيام بمعاملات بين السفن، وفي الجمارك والمستودعات. وكان رؤسائه يقدرونه. خلال السنوات الأربع التي أمضاها في العمل في شركة «إلدر ديمبستر لاين» لم يتوصل إلى إقامة صداقة حميمة مع أحد، بسبب أسلوبه في حياة الانزواء وعاداته المتقشفة: عدو للقصف والعربدة، يكاد لا يشرب، ولم يُرَ قطّ يتردد على بارات الميناء ومواخيره. وكان منذ ذلك الحين مدخناً متمادياً. شغفه بأفريقيا وسعيه إلى إحراز جدارة في الشركة دفعاه إلى أن يقرأ بتمعن، ويضع ملاحظات على الكتيبات والمطبوعات المتداولة في المكاتب ذات العلاقة بالتجارة البحرية بين الإمبراطورية البريطانية وغرب أفريقيا. ثم يردد بعد ذلك بقناعة الأفكار التي تروجها تلك النصوص. فحمل المنتجات الأوربية إلى أفريقيا واستيراد المواد الخام التي تنتجها الأراضي الأفريقية ليس مجرد عملية تجارية محضة، وإنما هو مشروع لمصلحة تقدم الشعوب الحبيسة في عصور ما قبل التاريخ، الغارقة في أكل اللحم البشري وتجارة الرقيق. كما أن التجارة تحمل إلى هناك الدين، والأخلاق، والقانون، والقيم الأوروبية الحديثة المثقفة والحرة والديمقراطية، وهو تقدم سينتهي إلى تحويل أبناء القبائل التعساء إلى رجال ونساء من عصرنا. ومن أجل هذا المشروع تشكّل الإمبراطورية البريطانية طليعة أوروبا ويجب الشعور بالفخر لكوننا جزءاً منها ومن العمل الذي تنجزه شركة «إلدر ديمبستر لاين». فكان زملاؤه في العمل يتبادلون نظرات السخرية متسائلين إن كان الشاب روجر كيسمنت أحمق أم أنه ماكر، وهل هو يصدق حقاً تلك البلاهات أم أنه يصرح بها ليكسب الأهلية أمام رؤسائه.

خلال سنوات عمله الأربع في ليفربول ظل روجر يعيش في بيت

الخالين غريس وإدوارد ويقدم إليهما جزءاً من راتبه، ويعاملانه كابن لهما. وكانت علاقته جيدة بأبناء خالته، ولاسيما مع جيرترود التي يخرج معها في أيام الآحاد والعطل للتجذيف وصيد السمك إذا كان الطقس جيداً، أو يبقى في البيتْ يقرأ بصوت عال إلى جانب المدفأة إذا كان الجو ماطراً. لقد كانت علاقتهما أخوية، دون أي ذرة من الخبث أو المغازلة. وقد كانت جيرترود هي أول شخص يريها قصائده التي يكتبها سراً. توصل روجر إلى معرفة حركة الشركة بكل تفاصيلها، ودون أن يكون قد وطأ بقدميه الموانئ الأفريقية، كان يتحدث عنها كما لو أنه أمضى حياته في مكاتبها، ومتاجرها، ومعاملاتها، وعاداتها، وبين الناس الذين يسكنونها.

قام بثلاث رحلات إلى غرب أفريقيا في السفينة «س.س. بوني». وقد شجعته التجربة كثيراً إلى حدّ أنه استقال من عمله بعد الرحلة الثالثة، وأخبر إخوته وخالته وزوجها وأبناءهما بأنه قرر الذهاب إلى أفريقيا. وقد فعل ذلك بطريقة حماسية، كما عبر عنها في قوله للخال إدوارد، «مثل أولئك الصليبيين الذين كانوا ينطلقون في العصور الوسطى إلى الشرق من أجل تحرير أورشليم». ذهبت الأسرة لوداعه في المرفأ وذرفت جي ونينا بعض الدموع. كان روجر قد أكمل العشرين من العمر.

III

عندما فتح ***الشريف*** باب الزنزانة وقَزَّمَه بنظرته، كان روجر يتذكر، بخجل، أنه كان مؤيداً على الدوام لأحكام الإعدام. وأعلن ذلك على

الملأ قبل سنوات في **التقرير *حول بوتومايو*** الذي أعدّه لوزارة الخارجية، ذلك **الكتاب الأزرق**، حيث طالب بإنزال عقوبة، تكون أمثولة، بالبيروي خوليو سيسر آرانا، ملك المطاط في بوتومايو: «إذا توصلنا على الأقل إلى أن يُشنق على هذه الجرائم الفظيعة، فستكون بداية النهاية لذلك العذاب اللامتناهي، والاضطهاد الجهنمي ضد السكان الأصليين التعساء». لا يمكن له أن يكتب الآن هذه الكلمات نفسها. وكانت قد خطرت لذهنه، قبل ذلك، ذكرى الاستياء الذي اعتاد الشعور به كلما دخل بيتاً واكتشف وجود طيور في قفص. فطيور الكناري أو الحساسين أو الببغاوات الحبيسة تبدو له دوماً ضحايا قسوة بلا جدوى.

ـ لديك زيارة ـ دمدم *الشريف* وهو يتأمله بازدراء واضح في عينيه وصوته. وبينما روجر ينهض وينفض بيدية زي السجين، أضاف *الشريف* بتهكم: ـ أنت اليوم في الصحف مرة أخرى يا سيد كيسمنت. ليس كخائن لوطنك...

ـ وطني هو أيرلندا ـ قاطعه روجر.

ـ ... وإنما بسبب قذاراتك ـ وكان *الشريف* يفرقع بلسانه كما لو أنه سيبصق ـ خائن ومنحط في آن واحد. يا لك من قمامة! سيكون من الممتع رؤيتك تتأرجح على حبل أيها السير السابق روجر.

ـ هل ردَّت الحكومة التماس الرحمة؟

ـ ليس بعد ـ تأخر *الشريف* في الردّ ـ ولكنها سترده. وكذلك جلالة الملك طبعاً.

ـ لن ألتمس منه الرحمة. إنه ملككم أنتم، وليس ملكي أنا.

ـ أيرلندا بريطانية ـ دمدم *الشريف* ـ والآن أكثر من أي وقت مضى.

بعد سحق تمرد عيد الفصح الجبان في دبلن. طعنة في الظهر ضد بلاد في حالة حرب. ما كنتُ لأعدم قادة التمرد رمياً بالرصاص، وإنما شنقاً.

صمت لأنهما وصلا إلى قاعة الزيارات.

لم يكن الأب كاري، الكاهن الكاثوليكي في سجن بينتونفيل، هو من جاء لزيارته، وإنما هي جيرترود، جي، ابنة خالته. عانقته بقوة كبيرة وأحس روجر بأنه يرتعش بين ذراعيها. فكَّر في عصفور مخدر من البرد. كم هرمتْ جي منذ سجنه ومحاكمته. تذكر صبية ليفربول العفريتة والباسلة، وامرأة الحياة في لندن، الجذابة والعاشقة التي كان أصدقاؤه في لندن يلقبونها *Hoppy* (**العرجاء الصغيرة**)، بسبب ساقها المريضة. إنها الآن عجوز صغيرة وعليلة، وليست المرأة المعافاة القوية والواثقة من نفسها التي كانت عليها قبل سنوات قليلة. لقد انطفأ نور عينيها الصافي، وهنالك تجعدات في وجهها وعنقها ويديها. وترتدي ثياباً قاتمة، ملابس مستهلكة.

ـ لابد أنني أعبق برائحة قذارة العالم كلها ـ قال روجر وهو يشير إلى ملابس السجن الصوفية ذات اللون الأزرق ـ لقد حرموني من حق الاستحمام. سيسمحون لي بالاستحمام مرة واحدة، إذا ما نفذوا حكم الإعدام بي.

ـ لن يفعلوا ذلك، سيوافق مجلس الوزراء على الاسترحام ـ أكدت جيرترود وهي تهز رأسها لإضفاء مزيد من القوة على كلماتها ـ سيتدخل الرئيس الأمريكي ويلسن من أجلك لدى الحكومة البريطانية يا روجر.

لقد وعد بإرسال برقية. سيمنحونك العفو، ولن يكون ثمة إعدام، صدقني.

كانت تقول ذلك بطريقة متوترة، وبصوت منكسر إلى حدّ أحس معه روجر بالأسى من أجلها، ومن أجل جميع الأصدقاء الذين، مثل جي، يعانون هذه الأيام من الغمّ وانعدام اليقين نفسيهما. رغب في أن يسألها عن هجمات الصحف عليه التي ذكرها السجان، ولكنه كبح نفسه. هل سيتدخل رئيس الولايات المتحدة ويلسن من أجله؟ سيكون ذلك بفضل مبادرات جون ديفوي والأصدقاء الآخرين في منظمة «كلان نا غيل». إذا ما فعل ذلك سيكون لمسعاه مفعول. مازال هناك احتمال واحد لتخفف الحكومة الحكم.

لم يكن ثمة مكان للجلوس، فظل روجر وجيرترود واقفين، متلاصقين جداً، ومولّيين ظهريهما للشريف والحارس. حضور الأربعة يحوّل قاعة الزيارات الصغيرة إلى مكان يسبب رهاب الأمكنة المغلقة.

ـ لقد أخبرني غافن دوفي أنهم طردوكِ من مدرسة الملكة آن ـ قال روجر معتذراً ـ أعرف أنني السبب. أتقدم منكِ بألف اعتذار يا عزيزتي جي. آخر ما يمكن أن أريده هو التسبب لك بالضرر.

ـ لم يطردوني، طلبوا مني أن أوافق على إلغاء عقد عملي. وقدموا إليّ أربعين جنيهاً تعويضاً. لا يهمني ذلك. لقد توفر لي مزيد من الوقت لمساعدة إليس ستوبفورد غرين في مساعيها لإنقاذ حياتك. وهذا هو المهم الآن.

أمسكت يد ابن خالتها وضغطت عليها بحنان. كانت جي تُعلّم منذ سنوات طويلة في مدرسة مستشفى الملكة آن، في كافرشام، حيث

توصلت إلى أن تكون معاونة المديرة. وقد أحبت كثيراً عملها الذي اعتادت أن تروي عنه طرائف مسلية في رسائلها إلى روجر. والآن، بسبب صلة قرابتها بموبوء، ستتحول إلى عاطلة عن العمل. ألديها ما تعيش عليه أو من يمد لها يدُ المساعدة؟

ـ لا أحد يصدق الأمور المشينة التي تُنشر ضدك ـ قالت جيرترود خافضة صوتها كثيراً، كما لو أنه يمكن للرجلين اللذين هناك ألا يسمعاها ـ. جميع الأشخاص المحترمين ساخطون من استخدام الحكومة تلك الافتراءات لانتزاع القوة من البيان الذي وقّع عليه أناس مهمون كثيرون لمصلحتك يا روجر.

انقطع صوتها كما لو أنها ستنفجر في النحيب. فعانقها روجر مجدداً.

ـ لقد أحببتكِ كثيراً يا جي، يا عزيزتي جي ـ همس في أذنها ـ وأنا أحبك الآن أكثر من أي وقت آخر. وسأشكركِ على الدوام لوفائك لي في السراء والضراء. ولهذا فإن رأيك هو أحد الآراء القليلة التي تهمني. أنت تعلمين أن كل ما فعلته كان من أجل أيرلندا، أليس كذلك؟ في سبيل قضية نبيلة وكريمة، مثلما هي قضية أيرلندا. أليس كذلك يا جي؟

راحت تنتحب بصوت خافت، ووجهها ملتصق بصدره.

ـ لديكما عشر دقائق وقد انقضت خمسٌ منها ـ ذكّرهما ***الشريف*** دون أن يلتفت للنظر إليهما ـ. مازالت لديكما خمس دقائق أخرى.

ـ الآن، وقد صار لديّ الكثير من الوقت للتفكير ـ قال روجر في أذن ابنة خالته ـ أتذكر بكثرة تلك السنوات في ليفربول، عندما كنا فتيين وكانت الحياة تبتسم لنا يا جي.

ـ الجميع كانوا يظنون أننا متحابان وأننا سوف نتزوج ذات يوم ـ دمدمت جي ـ أنا أيضاً أتذكر تلك الفترة بحنين يا روجر.

ـ كنا أكثر من حبيبين يا جي. كنا شقيقين، شريكين متواطئين. كنا وجهي العملة نفسها. هكذا كنا متحدين. لقد كنتِ أشياء كثيرة بالنسبة إليّ. كنتِ الأم التي فقدتُها وأنا في التاسعة. والأصدقاء الذين لم أحصل عليهم قطّ. لقد كنتُ أشعر وأنا معك دائماً أنني أفضل حالاً مما أكون عليه مع أخويّ. كنت تمنحينني الثقة، والأمان في الحياة، والسعادة. وفي ما بعد، خلال سنواتي كلها في أفريقيا، كانت رسائلك جسري الوحيد مع بقية العالم. أنت لا تدرين بأي سعادة كنتُ أتلقى رسائلك وكيف كنت أقرؤها وأعيد قراءتها يا عزيزتي جي.

صمت. لم يشأ أن تلحظ ابنة خالته أنه يوشك هو أيضاً على البكاء. فمنذ فتوته يمقت، بسبب تربيته المتزمتة دون شك، إظهار تدفق العواطف أمام الملأ، ولكنه في هذه الشهور الأخيرة يرتكب أحياناً بعض الضعف الذي يزعجه كثيراً في الآخرين. لم تقل جي شيئاً. ولكنها كانت ترتعش وهي تعانقه، وأحس روجر بأنفاسها المتهدجة التي تُوسِّع صدرها وتضيقه.

ـ أنتِ الشخص الوحيد الذي أريته قصائدي. هل تتذكرين؟

ـ أتذكر أنها كانت بالغة السوء ـ قالت جيرترود ـ ولكنني كنت أحبك كثيراً إلى حدّ امتداحها. بل إنني حفظتُ بعضها عن ظهر قلب.

ـ كنتُ ألاحظ جيداً أنها لا تعجبك يا جي. ومن حسن الحظ أنني لم أنشر شيئاً منها قطّ. كنتُ على وشك أن أفعل ذلك كما تعلمين.

تبادلا النظرات وانتهيا إلى الضحك.

ـ إننا نفعل كل شيء، كل شيء، لمساعدتك يا روجر ـ قالت جي وهي تستعيد الجدّية من جديد. لقد شاخ صوتها أيضاً، فقد كان من قبل ثابتاً وبهيجاً، وهو الآن متردد ومشروخ ـ. من نحبك كثيرون. إليس هي الأولى بالطبع. إنها تحرك ٱلأرض والسماء. تكتب رسائل، تزور سياسيين، وسلطات، ودبلوماسيين. تشرح، تتوسل. تطرق كل الأبواب. إنها تقوم بمساع كي تأتي لزيارتك. الأمر صعب. لا يُسمح بالزيارة إلا للأقارب. ولكن إليس معروفة، ولها نفوذ. ستحصل على التصريح وتجيء إليك، ولسوف ترى ذلك. أتعرف أن سكوتلاند يارد فتشت بيتها وقلبته رأساً على عقب عند وقوع الانتفاضة؟ لقد أخذوا أوراقاً كثيرة. إنها تحبك وتقدرك كثيراً يا روجر.

«أعرف ذلك»، فكر روجر. وهو أيضاً يحب إليس ستوبفورد غرين ويقدّرها. فالمؤرخة، وهي أيرلندية من أسرة أنجليكانية مثل كيسمنت، وبيتها أحد أكثر الصالونات الثقافية ارتياداً في لندن، مركز مسامرات واجتماعات القوميين ودعاة الحكم الذاتي الأيرلندي، كانت أكثر من صديقة له ومستشارة له في الموضوعات السياسية. وقد علّمته وجعلته يكتشف ويحب ماضي أيرلندا، تاريخها الطويل وتأثيرها الثقافي قبل أن يحتويها الجار القوي. لقد نصحته بقراءة كتب، ونوّرته في محادثات حماسية، وحثته على مواصلة دروس اللغة الأيرلندية التي لم يتوصل قطّ، لسوء الحظ، إلى اتقانها. وفكر: «سأموت دون أن أتكلم الغيليّة». وفيما بعد، عندما تحوّل إلى قومي راديكالي، كانت هي أول شخص بدأ بتسميته في لندن باللقب الذي أطلقه عليه هربرت وارد وكان روجر معجباً بذلك اللقب: «السلتي».

ـ عشر دقائق ـ أصدر *الشريف* حكمه ـ. إنه موعد الوداع.

أحس بابنة خالته تعانقه، وأن فمها يحاول الاقتراب من أذنه، دون التمكن من ذلك، فقد كان أطول قامة منها بكثير. كلمته خافضة صوتها حتى جعلته شبه غير مسموع:

ـ كل تلك الأمور الفظيعة التي تقولها الصحف هي افتراءات، أكاذيب خسيسة. أليس كذلك يا روجر؟

أخذه السؤال على حين غرة، فتأخر في الردّ بضع ثوانٍ.

ـ لست أدري ما الذي تقوله الصحافة عني يا عزيزتي جي. فهي لا تصل إلى هنا. ولكن ـ بحث بدقة عن الكلمات ـ، من المؤكد أنها كذلك. أريد أن يبقى أمرٌ واحد ماثلاً في ذهنك يا جي. وأن تصدقيني. لقد أخطأتُ مرات كثيرة بالطبع. ولكن ليس لدي ما أخجل منه. وليس عليكِ أنت أو أي واحد من أصدقائي أن تخجلوا مني. أنت تصدقينني، أليس كذلك يا جي؟

ـ طبعاً أصدقك ـ أجهشت ابنة خالته وهي تغطي فمها بكلتا يديها.

في طريق عودته إلى الزنزانة، أحس روجر بأن عينيه مغرورقتان بالدموع. بذل جهداً عظيماً كيلا يلحظ *الشريف* ذلك. غريب أن تأتيه الرغبة في البكاء. فهو، على ما يتذكر، لم يبكِ خلال تلك الشهور، منذ اعتقاله. ولم يبك خلال استجوابه في سكوتلانديار، ولا خلال جلسات المحاكمة، ولا عند سماعه الحكم عليه بالشنق. لماذا الآن؟ من أجل جيرترود. من أجل جي. رؤيتها تتألم على ذلك النحو، ترتاب على ذلك النحو، يعني على أقل تقدير كم هو شخصه وحياته ثمينان بالنسبة إليها. لم يكن وحيداً إذاً مثلما كان يشعر.

IV

رحلة القنصل البريطاني روجر كيسمنت إلى أعالي نهر الكونغو التي بدأت في الخامس من حزيران ١٩٠٣ وبدّلت حياته، كان يجب أن تبدأ قبل عام من ذلك. فبعد أن خدم في شركة أولد كالبار (نيجيريا)، ولورنسو ماركيز (مابوتو)، اقترح على وزارة الخارجية أن يقوم بهذه الحملة منذ أن استقر رسمياً في العام ١٩٠٠ كقنصل لبريطانيا العظمى في بوما ـ القرية الشوهاء ـ متذرعاً بأن أفضل طريقة لتقديم تقرير حول وضع السكان الأصليين في **دولة الكونغو المستقلة** هي في الخروج من هذه العاصمة النائية والتوجه إلى غابات وقبائل وسط وأعالي الكونغو. فهناك يجري الاستغلال الذي ما فتئ يُخبر عنه في تقاريره إلى وزارة الشؤون الخارجية منذ وصوله إلى هذه المناطق. وأخيراً، بعد التمعن في مصالح الدولة العليا التي تقلب معدة القنصل، بالرغم من أنه يعرفها جيداً ـ فبريطانيا العظمى حليفة لبلجيكا ولا تريد أن تلقي بها إلى ذراعي ألمانيا ـ، خوّلته وزارة الخارجية القيام بالرحلة إلى القرى، والمحطات، والبعثات، والمواقع، والمعسكرات، والورش التي يجري فيها استخراج المطاط، الذهب الأسود المرغوب بشراهة الآن في العالم بأسره من أجل عجلات وواقيات صدمات الشاحنات والسيارات وألف استخدام صناعي ومنزلي آخر. عليه أن يتحقق على أرض الواقع من صحة الشكاوى حول المظالم المقترفة ضد الأهالي في كونغو جلالة ليوبولد الثاني، **ملك البلجيكيين**، والتي تتقدم بها جمعية حماية السكان الأصليين في لندن، وبعض الكنائس المعمدانية والبعثات التبشيرية الكاثوليكية في أوروبا والولايات المتحدة.

أعدّ العدة للرحلة بدقته المعهودة، وبحماسة يداريها أمام الموظفين البلجيكيين والمستوطنين والتجار في بوما. لقد صار بإمكانه الآن أن يجادل أمام رؤسائه، عن معرفة بالقضية، أنه على الإمبراطورية البريطانية، الوفية لتقاليدها في العدالة والإنصاف، أن تتزعم حملة دولية تضع حداً نهائياً لذلك العار. ولكن عندئذ، في منتصف العام ١٩٠٢، أتته إصابته الثالثة بالملاريا، وكانت أسوأ من سابقتيها اللتين عانى منهما منذ أن قرر عام ١٨٨٤، في نوبة مثالية وحلم مغامر، أن يترك أوروبا ويأتي إلى أفريقيا ويعمل، من خلال التجارة، في سبيل المسيحية والمؤسسات الاجتماعية والسياسية الغربية، وتحرير أفريقيا من التخلف والمرض والجهل.

لم تكن محض كلمات. فقد كان يؤمن بعمق بذلك كله، عندما وصل، وهو في العشرين من عمره، إلى القارة السوداء. الإصابتان الأوليان بحمى المستنقعات لم تنقضّا عليه إلا بعد زمن من ذلك. كان قد حقق رغبة حياته: المشاركة في حملة يترأسها أشهر مغامر في الأراضي الأفريقية: هنري مورتون ستانلي. الخدمة تحت إمرة المكتشف الذي تمكن خلال رحلة أسطورية امتدت قرابة ثلاث سنوات (بين عامي ١٨٧٤ و١٨٧٧) من اجتياز أفريقيا من الشرق إلى الغرب، متتبعاً مسار نهر الكونغو من منبعه حتى مصبه على الأطلسي! مرافقة البطل الذي عثر على الدكتور ليفنغستون بعد أن كانت آثاره قد اختفت! حينذاك، وكما لو أن الآلهة أرادت إخماد حماسته، أُصيب إصابته الأولى بالملاريا. ولكنها لم تكن شيئاً يُذكر بالمقارنة مع إصابته الثانية، بعد ثلاث سنوات من ذلك (١٨٨٧)، وهذه بدورها ليست شيئاً يذكر أيضاً بالمقارنة مع إصابته الأخيرة عام ١٩٠٢، وقد ظن معها، لأول مرة

في حياته، أنه سيموت. وقد كانت مشاعر الحماسة هي نفسها في فجر ذلك اليوم من منتصف العام ١٩٠٢، عندما أحس، وكانت الحقيبة معدّة وفيها خرائطه والبوصلة والأقلام ودفاتر تدوين الملاحظات، أنه يرتجف حين فتح عينيه في حجرة نومه في الطابق العلوي من بيته في بوما، بحي المستوطنين، على بُعد خطوات قليلة من المقر الحكومي، بيته الذي يستخدمه كمقر إقامة ومكتب قنصلية في آن واحد. أزاح الكلّة جانباً ونظر عبر النافذة التي بلا زجاج ولا ستائر، وإنما بشبكة معدنية للوقاية من الحشرات، ورأى مياه النهر العظيم الموحلة تتلقى طعنات وابل المطر، وجزر المكان مغطاة بالخضرة. لم يستطع النهوض. تراخت ساقاه وكأنهما خرقتان من قماش. بدأ كلبه البولدوغ **جون** بالتواثب والنباح مذعوراً. أسلم نفسه للتهاوي في الفراش من جديد. كان جسده يتّقد والبرد ينخر عظامه. صرخ مستدعياً شارلي وماركو، كبير الخدم والطاهي الكونغوليين اللذين ينامان في الطابق السفلي، ولكن أياً منهما لم يرد عليه. لا بد أنهما في الخارج، ولأن العاصفة فاجأتهما، سيكونان قد سارعا إلى الاحتماء تحت شجرة باوباب ريثما يتوقف المطر. أهي الملاريا مرة أخرى؟ وأطلق القنصل لعنة. أتأتي الإصابة عشية الحملة بالضبط؟ سيصاب بالإسهال، والنزف، وبضعف يضطره إلى التزام الفراش أياماً وأسابيع، طائش الذهن وبنوبات قشعريرة.

كان شارلي أول من رجع من الخدم، وكان يقطر ماءً. «اذهب لاستدعاء الدكتور سالابير»، أمره روجر، ليس بالفرنسية وإنما بلغة اللينغالا. والدكتور سالابير هو أحد طبيبين اثنين في بوما، ميناء النخاسة قديم - وكانت تسمى آنذاك مبوما - وإليها كان يأتي في القرن السادس عشر تجار الرقيق البرتغاليون من جزيرة سان تومي لشراء عبيد من زعماء

القبائل الأوغاد في مملكة كونغو البائدة التي تحولت الآن على يد البلجيكيين إلى عاصمة دولة الكونغو المستقلة. وخلافاً لما هي عليه الحال في ماتادي، لم يكن في بوما مستشفى، وإنما مستوصف للحالات المستعجلة فقط، تديره راهبتان بلجيكيتان. وصل الطبيب بعد نصف ساعة يجرجر قدميه ويستند إلى عكاز. كان أقل هرماً مما يبدو عليه، ولكن المناخ القاسي، وأكثر من ذلك الكحول، جعلاه يشيخ. كان يبدو عجوزاً هرماً. ويلبس كمتشرد. حذاؤه بلا رباط ويرتدي صداراً مفتوح الأزرار. ومع أن النهار مازال في بدايته، إلا أن عينيه كانتا متوقدتين بالحمرة.

ـ أجل يا صديقي، إنها الملاريا، وماذا سيكون غيرها. يا للحمى. أنت تعرف الدواء: الكينين، وسوائل وافرة، وحمية مرق، وبسكويت طويل، وأغطية سميكة من أجل التعرق. لا تحلم بالنهوض قبل أسبوعين. وأقل من ذلك الحلم بالخروج في رحلة، ولا حتى إلى الناصية المجاورة. نوبات الحمى تحطم الجسم، وأنت تعرف ذلك جيداً.

لم يكونا أسبوعين، وإنما ثلاثة أسابيع أمضاها منهاراً من الحمى والارتعاش. فقد ثمانية كيلوغرامات من وزنه، وفي اليوم الأول الذي استطاع النهوض فيه، ما لبث بعد خطوات قليلة أن هوى منهاراً على الأرض منهوكاً، وفي حال من الضعف لا يتذكر أنه شعر بمثلها من قبل. نظر الدكتور سالابير إلى عينيه بتمعن وحذره بصوت أجش وبمزاج حريف:

ـ في حالتك هذه سيكون الخروج في الحملة ضرباً من الانتحار.

جسدك محطم ولن يتحمل حتى اجتياز جبال البلور. فما بالك بقضاء عدة أسابيع من العيش في العراء. لن تستطيع الوصول ولو إلى مبانزا ـ نغونغو. توجد طُرق أسرع لقتل النفس أيها السيد القنصل: رصاصة في الفم أو حقنة إستركنين. إذا أحتجت إليها يمكنك الاعتماد عليّ. لقد ساعدتُ كثيرين على القيام بالرحلة العظمى الأخيرة.

أبرق روجر كيسمنت إلى وزارة الخارجية بأن حالته الصحية تضطره إلى تأجيل الحملة. ولأن الأمطار حوّلت بعد ذلك الغابات والنهر إلى أمكنة غير سالكة، كان لا بد للحملة إلى أعماق دولة الكونغو المستقلة من الانتظار بضعة شهور أخرى، ستتحول إلى سنة كاملة. سنة أخرى، راح يسترد خلالها عافيته من الحمى ببطء ويحاول استعادة ما فقده من وزنه، وعاد خلالها إلى لعب التنس، والسباحة، ولعب البريدج أو الشطرنج لتمضية ليالي بوما الطويلة، بينما هو يصرّف مجدداً أعماله القنصلية المملة: تسجيل ملاحظات عن السفن التي تصل أو تغادر، الحمولات التي يُفرغها تجار أمبيرس ـ بنادق، ذخائر، سياط، خمور، صور دينية، صلبان، مسابح خرز ملون ـ وتلك التي تُشحن إلى أوروبا: أكداس المطاط الضخمة، قطع العاج وجلود الحيوانات. أهذا هو التبادل الذي كانت مخيلته الشبابية ترى أنه سينقذ الكونغوليين من أكل اللحم البشري ومن تجار زنجبار العرب الذين يتحكمون بتجارة الرقيق، وسيفتح لهم الأبواب إلى الحضارة!

ظل ثلاثة أسابيع طريح الفراش تحت وطأة حمى البرداء، يهذي أحياناً ويتناول قطرات من الكينين ممزوجة بمغلي أعشاب يحضرها له شارلي وماوكو ثلاث مرات في اليوم ـ لم تكن معدته تتقبل سوى أنواع

من الحساء وقطع من السمك أو الدجاج المسلوق ـ، ويلعب مع جون، كلبه *البولدوغ* ورفيقه الأكثر وفاء. لم يكن يجد الحماسة حتى للتركيز في القراءة.

خلال تلك العطالة الاضطرارية، تذكر روجر بكثرة حملة عام ١٨٨٤ تحت قيادة بطله هنري مورتون ستانلي. لقد عاش آنذاك في الأدغال، وزار ما لا حصر له من قرى السكان الأصليين، وخيّم في أمكنة جرداء في الغابة تحيط بها أشجار حيث القردة تزعق والضواري تزمجر. كان متوتراً وسعيداً بالرغم من لسع البعوض ودويبات أخرى لا ينفع معها التدليك بالكحول الممزوج بالكافور. يمارس السباحة في بحيرات وأنهار ذات جمال مبهر، دون خوف من التماسيح، وكان لا يزال مقتنعاً آنذاك بأنهم، بعمل ما يعملونه، هو والأربعمئة حمال ودليل ومعاون أفريقي، والعشرون رجلاً أبيض ـ انكليز، وألمان، وبلجيك، وفرنسيون ـ الذين يشكلون الحملة، وكذلك ستانلي نفسه أيضاً، إنما هم رأس حربة التقدم في هذا العالم الذي يكاد لا يتجاوز العصر الحجري الذي خلّفته أوروبا وراءها منذ قرون طويلة.

بعد سنوات من ذلك، في غفوات ويقظة رؤى الحمى، كان يشعر بالخجل حين يفكر بالعمى الذي كان عليه. لم يكن ينتبه بأي حال، في البدء، إلى سبب تلك الحملة التي يقودها ستانلي ويمولها ملك البلجيكيين الذي كان يعتبره ـ مثلما تعتبره أوروبا، والغرب، والعالم ـ الملك الإنساني العظيم، المنكب على القضاء على وصمات العار تلك المتمثلة بالرق وأكل اللحم البشري، وتحرير القبائل من الوثنية والعبودية التي تبقيهم في حالة همجية.

كانت لا تزال هناك سنة أخرى قبل أن تعمد القوى الأوربية العظمى، في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥، إلى أن تقدم هدية للملك ليوبولد الثاني هي دولة الكونغو المستقلة هذه التي تزيد مساحتها على مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع - أكبر بخمس وثمانين مرة من مساحة بلجيكا -، ولكن ملك البلجيكيين كان قد بدأ إدارة الأراضي التي سيهدونها إليه كي يطبق على العشرين مليون كونغولي الذين يُقدَّر أنهم يسكنونها، مبادئه المُخَلِّصة. ولهذا الغرض تعاقد العاهل ذو اللحية الممشطة مع ستانلي العظيم متنبئاً - بقدرته العجيبة في اكتشاف حالات الضعف الإنساني - بأن هذا المكتشف قادر على اجتراح مآثر بقدر ما هو قادر على اقتراف نذالات عظيمة مادامت المكافأة على مستوى شهواته.

السبب الظاهري لحملة عام ١٨٨٤ التي خاض فيها روجر تجربته الأولى كمكتشف هو تهيئة القبائل الموزعة على ضفاف أعالي ووسط وأسفل نهر الكونغو، على امتداد آلاف الكيلومترات من الغابات الكثيفة، والشعاب الجبلية، والشلالات، والجبال المغطاة بالنباتات، قبل مجيء التجار والإداريين الأوروبيين الذين ستأتي بهم مؤسسة الكونغو الدولية (AIC) التي يترأسها ليوبولد الثاني، فور منحه التفويض من القوى العظمى. وعلى ستانلي ومرافقيه أن يشرحوا لزعماء تلك القبائل شبه العراة، الموشومين والمزينين بالريش، وبأشواك في وجوههم وأذرعهم أحياناً، أو بأقماع مجوفة من ثمر السُّعادى لعضوهم الذكري، ويوضحوا لهم نوايا الأوروبيين الخيّرة: سيأتون لمساعدتهم على تحسين ظروف حياتهم، وتخليصهم من الأوبئة، مثل داء النوم القاتل، وتعليمهم وفتح أعينهم على حقائق هذا العالم والعالم الآخر،

وبفضل ذلك كله سيتمكن أبناؤهم وأحفادهم من التوصل إلى حياة محترمة وعادلة وحرة.

وفكر: «لم أنتبه آنذاك لأني لم أشأ الانتباه». كان شارلي قد دثره بكل ما في البيت من بطاطين. وعلى الرغم من ذلك، ومن الشمس المشعة في الخارج، ظلّ القنصل منكمشاً على نفسه، متجمداً، يرتجف تحت الكلّة مثل ورقة. ولكنّ الأسوأ من عماه الإرادي كان إيجاده تفسيرات يمكن لأي مراقب محايد أن يدعوه معها مخادعاً. ففي كل القرى التي تصل إليها حملة العام ١٨٨٤، وبعد توزيع خرز وتوافه رخيصة، وتقديم التفسيرات المعهودة من خلال تراجمة (كثيرون منهم لا يتوصلون إلى التفاهم مع الوطنيين)، كان ستانلي يجعل زعماء القبائل وسحرتها يوقِّعون على اتفاقيات مكتوبة بالفرنسية، يلتزمون فيها بتقديم الأيدي العاملة، والمأوى، والأدلاء، والطعام لموظفي ووكلاء وعاملي مؤسسة الكونغو الدولية في أعمالهم التي سيقومون بها لإنجاز أهداف المؤسسة. فكانوا يوقّعون بخربشات لها شكل حرف إكس أو شكل عيدان أو لطخات أو رسوم، دون التفوه بكلمة ودون أن يعرفوا ما الذي يوقِّعون عليه أو ما يعنيه التوقيع أصلاً، مبتهجين بالعقود والأساور وزينات الزجاج الملون التي يتلقونها ورشفات الخمر التي يدعوهم ستانلي إلى تناولها نخباً للاتفاق.

«لم يكونوا يعرفون ما الذي يفعلونه، أما نحن فكنا نعرف أن ذلك لمنفعتهم وهذا يبرر الخديعة»، هكذا كان يفكر الشاب روجر كيسمنت. وهل من طريقة أخرى لعمل ذلك؟ كيف يمكن إضفاء الشرعية على عملية الاستعمار التالية مع أناس لا يمكنهم فهم كلمة واحدة من تلك «الاتفاقيات» التي يُرتهن فيها مستقبلهم ومستقبل ذريتهم؟ كان لابد من

إضفاء نوع من الشرعية على المشروع الذي يريد له العاهل البلجيكي أن يتحقق بالإقناع والحوار، خلافاً لمشاريع أخرى جرى تطبيقها بالدم والنار، بالغزو والقتل والنهب. أليست هذه طريقة سلمية ومدنية؟

ومع مرور السنوات ـ ثمانية عشر عاماً مضت منذ مشاركته في حملة ١٨٨٤ تحت قيادة ستانلي ـ، توصل روجر كيسمنت إلى نتيجة أن بطل طفولته وشبابه كان أحد أشد المحتالين الذين بلا وازع من ضمير، ممن تغوطهم الغرب على القارة الأفريقية. ولكنه لا يستطيع مع ذلك، مثل جميع من عملوا معه، إلا الاعتراف بكاريزمية ستانلي وجاذبيته وسحره، ذلك المزيج من الجسارة والحسابات الباردة التي يحوك منها المغامر مآثره. كان يذهب ويجيء عبر أفريقيا زارعاً الموت والخراب من جهة ـ بإحراقه ونهبه القرى، وإعدام الوطنيين، وسلخه ظهور حماليه بسياط من جلود أفراس النهر خلّفت آلاف القروح على الأجساد الأبنوسية في الجغرافية الأفريقية كلها ـ وكان من جهة أخرى يشق دروباً للتجارة والتبشير الديني في الأراضي الفسيحة الممتلئة بالضواري والوحوش والأوبئة التي يبدو أنها تحترمه كواحد من جبابرة الأساطير الهوميرية والقصص التوراتية.

ـ ألا ينتابك في بعض الأحيان الندم، وخز الضمير، بسبب ما نفعله؟

انبثق السؤال من فم الشاب بطريقة متهورة. ولم يعد بإمكانه سحبه. كانت ألسنة لهب الموقد في وسط المخيم تفرقع في الأغصان المشتعلة والحشرات الطائشة التي تحترق فيها.

ـ ندم؟ وخز ضمير؟ ـ جعد رئيس الحملة أنفه وعكر وجهه المغطى

بالنمش والمحروق بالشمس، كما لو أنه لم يسمع هذه الكلمات من قبل ويحاول أن يفهم ما الذي تعنيه ـ لأي سبب؟

ـ بسبب الاتفاقيات التي نجعلهم يوقعونها ـ قال الشاب كيسمنت متغلباً على اضطرابه ـ. فهم يضعون حيواتهم، وشعوبهم، وكل ما يملكونه في يد مؤسسة الكونغو الدولية. وليس بينهم شخص واحد يعرف ما الذي يوقّع عليه، لأن أياً منهم لا يتكلم الفرنسية.

ـ لو أنهم يعرفون الفرنسية، فلن يفهموا أيضاً هذه الاتفاقيات ـ ضحك المكتشف ضحكة صريحة، مفتوحة، وهي إحدى مزاياه الأكثر لطفاً ـ حتى أنا لا أفهم ما تعنيه هذه الاتفاقيات.

لقد كان رجلاً قوياً وقصير القامة جداً، شبه قزم، له هيئة رياضية، وهو لا يزال شاباً، بعينين بنيتين، تطلقان شرراً، وشارب كثيف، وشخصية لا تُقاوم. ينتعل على الدوام جزمة عالية، ويحمل مسدساً معلقاً على خصره، ويرتدي سترة فاتحة اللون كثيرة الجيوب. عاود الضحك من جديد، وضحك كذلك رؤساء فرق الحمالين الذين يتناولون قهوة ويدخنون قرب ستانلي وروجر حول النار، متملقين زعيمهم. أما الشاب روجر فلم يضحك. وقال بأسلوب مهذب:

ـ أما أنا فأفهمها، وإن كان صحيحاً أن الكلام المبهم الذي كُتبت به يبدو أنه قد صِيغ، عمداً، كيلا يُفهم. إنها تُختزل إلى أمر شديد البساطة. أن يسلموا أراضيهم لمؤسسة الكونغو الدولية مقابل وعود بمساعدة اجتماعية. إنهم يلتزمون بدعم المشاريع: طرق، جسور، مراسٍ، ورش. وبتقديم الأيدي العاملة اللازمة للعمل في الريف والأمن العام. وبتوفير الطعام للموظفين والعمال طيلة الفترة التي تستمر فيها الأعمال. دون أن تُقدم لهم المؤسسة أي شيء بالمقابل. لا أجور ولا

تعويضات. لقد كنتُ أظن دوماً أننا هنا من أجل مصلحة الأفارقة يا سيد ستانلي. أريد من حضرتك، أنت من أكنُّ لك التقدير منذ بداية وعيي، أن تقدم لي مسوغات لأواصل الايمان بأن الأمر كذلك. بأن هذه الاتفاقيات هي من أجل مصلحتهم حقاً.

ساد صمت طويل، تكسره فرقعة النار وزمجرات متفرقة تطلقها الحيوانات الليلية التي تخرج بحثاً عن قوتها. كان المطر قد توقف منذ بعض الوقت ولكن الجو لا يزال رطباً وثقيلاً ويبدو كما لو أن كل شيء في محيط المكان يبرعم، ينمو، ويزداد كثافة. بعد ثمانية عشر عاماً من ذلك، وبين الصور المضطربة التي تقلّبها الحمى في ذهنه، سيتذكر روجر نظرة المفاجأة الفاحصة، الساخرة للحظة، التي تأمله بها هنري مورتون ستانلي.

ـ أفريقيا لم تُخلق للضعفاء ـ قال أخيراً، كما لو أنه يكلم نفسه ـ. هذه الأمور التي تُقلقك هي علامة ضعف. أعني في هذا العالم الذي نعيش فيه. لا بد أنك لاحظت أن هذا العالم ليس الولايات المتحدة ولا إنكلترا. في أفريقيا لا يمكن للضعفاء أن يستمروا طويلاً. تقضي عليهم اللسعات، الحميات، السهام المسمومة، أو ذباب التسي تسي.

إنه غيليّ، ولكن لابد أنه عاش لوقت طويل في الولايات المتحدة، لأن لإنكليزيته موسيقى وتعبيرية وتقلبات اللهجة الأمريكية.

ـ كل هذا من أجل مصلحتهم، طبعاً ـ أضاف ستانلي، وهو يحرك رأسه مشيراً باتجاه دائرة الأكواخ المخروطية في القرية التي نصبوا مخيمهم بجانبها ـ سيأتي مبشرون لإخراجهم من الوثنية وتعليمهم أنه يجب على المسيحي ألا يأكل لحم قريبه. وأطباء لتلقيحهم ضد الأوبئة

ومعالجتهم خيراً من مشعوذيهم. وشركات توفر لهم العمل. ومدارس يتعلمون فيها اللغات المتحضرة. حيث يعلمونهم لبس الملابس، والصلاة للرب الحقيقي، والتكلم بالمسيحية وليس بلهجات القردة هذه التي يتكلمون بها. وشيئاً فشيئاً سيستبدلون عاداتهم الهمجية بعادات الكائنات المتحضرة والمتعلمة. لو أنهم يعرفون ما نفعله من أجلهم لقبّلوا أقدامنا. ولكن حالهم العقلية أقرب إلى حال التمساح أو فرس النهر منها إلى حالتك أو حالتي. ولهذا نقرر نحن عنهم ما يناسبهم ونجعلهم يوقّعون هذه الاتفاقيات. سوف يشكرنا أبناؤهم وأحفادهم. ولن يكون مستغرباً، بعد بعض الوقت، أن يبدؤوا بعبادة ليوبولد الثاني مثلما يعبدون الآن أوثانهم وفزاعاتهم.

في أي مكان من ضفاف النهر العظيم كان ذلك المخيم؟ يبدو له بغموض أنه كان بين بولوبو وشومبيري وأن القبلية التي تقيم هناك تنتمي إلى شعب بانيك. ولكنه غير متأكد. هذه المعلومات مدونة في يومياته، إن كان بالإمكان إطلاق تسمية يوميات على خليط الملاحظات المبعثرة في دفاتر وأوراق متفرقة دونها على امتداد سنوات طويلة. ولكنه يتذكر على أي حال، وبوضوح كامل، تلك المحادثة. والاستياء الذي كان يشعر به حين ذهب للاستلقاء في فراشه بعد حديثه مع هنري مورتون ستانلي. هل بدأ بالانهيار منذ تلك الليلة ثالوثه الشخصي المقدس القائم على الحرف C المكرر ثلاثاً؟ فحتى ذلك الحين كان يظن أن الاستعمار يُبَرر بها: مسيحية، حضارة، وتجارة[١]. مذ كان مجرد معاون محاسب

(١) الكلمات الثلاث التي تشكل ثالوثه الشخصي المقدس تبدأ بالحرف: C وهي cristianismo (مسيحية) وcivilización (حضارة) وcomercio (تجارة).

متواضع في شركة «إلدر ديمبستر لاين» في ليفربول، كان يفترض أن هنالك ثمناً لابد من دفعه. فلا مفر من ارتكاب أعمال متعسفة. وليس جميع المستعمرين الذين يجيئون أناساً إيثاريين مثل الدكتور ليفنغستون، بل يأتي كذلك محتالون متعسفونٌ، ولكن عند إجراء الحسابات، تكون المنافع أكبر بكثير من الأضرار. غير أن الحياة الأفريقية راحت تكشف له أن الأمور ليست واضحة كما هي النظرية.

خلال السنة التي عمل فيها تحت إمرته، ودون أن يتخلى عن تقديره لجرأة هنري مورتون ستانلي وكفاءته القيادية لحملته عبر الأراضي المجهولة التي يمر منها نهر الكونغو وروافده التي لا تُحصى، أدرك روجر كيسمنت أيضاً أن المكتشف كان سراً متجولاً. كل الأشياء التي تقال عنه هي تناقضات مختلطة على الدوام، بحيث يستحيل معرفة أيها الصحيح وأيها الزائف وكم في الصحيح منها من المبالغة والخيال. لقد كان واحداً من غير القادرين على التمييز بين الواقع والخيال.

الشيء الواضح الوحيد لديه هو أن فكرة المحسن العظيم للوطنيين لا تتفق مع الحقيقة. وقد عرف ذلك من خلال الاستماع إلى رؤساء العمال الذين رافقوا ستانلي في رحلته بين عامي ١٨٧١ و١٨٧٢ للبحث عن الدكتور ليفنغستون، وهي حملة، كما يقولون، أقل سلمية بكثير من هذه الحملة التي يبدو فيها، بتعليمات من ليوبولد الثاني نفسه دون شك، أشد حذراً بكثير في التعامل مع القبائل التي جعل زعمائها ـ مجموعهم ٤٥٠ زعيماً ـ يوقّعون على التنازل عن أراضيهم وعن قوة عملهم. فالأمور التي يرويها أولئك الرجال الذين حولتهم الأدغال إلى أفظاظ وغير إنسانيين عن حملة ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ تجعل شعر المستمع

ينتصب. قرى تباد، زعماء قبائل تُقطع رؤوسهم وتُطلق النيران على نسائهم وأبنائهم إذا هم رفضوا تقديم الغذاء لرجال الحملة أو امتنعوا عن التنازل لهم عن حمالين وأدلاء وحملة سيوف يشقون لهم الطريق في الغابة. وكان رفاق ستانلي القدماء أولئك يخافونه ويتلقون تأنيبه لهم بصمت وبعيون تنظر إلى الأرض. ولكنهم يثقون ثقة عمياء بقراراته ويتكلمون بتوقير ديني عن رحلته الشهيرة التي استمرت ٩٩٩ يوماً بين عامي ١٨٧٤ و١٨٧٧ ومات فيها جميع البيض الذين معه وقسم كبير من الأفارقة.

عندما انعقد مؤتمر برلين، في شهر شباط ١٨٨٥، دون أن يحضره كونغولي واحد، وتلطفت القوى العظمى الأربع عشرة، بزعامة بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا، بأن قدمت إلى ليوبولد الثاني - وكان إلى جانبه على الدوام هنري مورتون ستانلي - أراضي الكونغو الممتدة على مساحة مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع، وسكانها العشرين مليوناً من أجل أن «يفتح تلك الأراضي للتجارة، ويلغي الرق ويُحضّر ويُنصّر الوثنيين فيها»، احتفى روجر كيسمنت بالحدث، وكان قد أكمل للتو السنة الحادية والعشرين من عمره، والسنة الأولى من حياته في أفريقيا. وقد احتفى بالحدث كذلك جميع موظفي مؤسسة الكونغو الدولية الذين كانوا منذ بعض الوقت في تلك الأراضي من أجل التهيئة لذلك التنازل، بوضع أسس المشروع الذي ينوي العاهل البلجيكي وضعه موضع التنفيذ. لقد كان كيسمنت آنذاك شاباً قوياً، طويل القامة، نحيلاً، ذا شعر ولحية صغيرة شديدي السواد، وعينين بنيتين عميقتين، قليل الميل إلى المزاح، ويبدو أشبه برجل ناضج. وكانت اهتماماته تبلبل زملاءه. فمن منهم سيأخذ على محمل الجد

الكلام عن «مهمة أوروبا في تمدين أفريقيا» الذي يستحوذ على ذهن الفتى الأيرلندي؟ ولكنهم كانوا يقدرونه لأنه محب للعمل ومستعد دائماً لتقديم المساعدة والحلول في مناوبة أو لجنة محل من يطلب منه ذلك. وكان يبدو بعيداً من الرذائل كلها، باستثناء التدخين. فهو يكاد لا يشرب الكحول، وعندما تنفلت الألسن، في المخيمات، بفعل الشراب، ويدور الحديث عن النساء، يبدو عليه عدم الشعور بالراحة والرغبة في الانصراف. وهو لا يعرف الكلل في التجوال في الغابة، كما أنه سبّاح متهور في الأنهار والبحيرات، يضرب الماء بذراعيه بقوة أمام أفراس النهر الناعسة. ولديه شغف بالكلاب، ويتذكر زملاؤه في حملة العام ١٨٨٤ الاستطلاعية، يوم غرس خنزير بري أنيابه في كلبه الفوكس تيرير المدعو *سبيندلر*، كيف أصيب بنوبة عصبية حين رأى الحيوان الصغير ينزف من خاصرته الممزقة. وخلافاً للأوروبيين الآخرين في الحملة، لم يكن يهتم بالمال. فهو لم يأتِ إلى أفريقيا حالماً بالثراء، وإنما مدفوعاً بأمور غير مفهومة مثل حمل التقدم إلى المتوحشين. وكان ينفق راتبه ـ ثمانون جنيهاً إسترلينياً سنوياً ـ في دعوات لزملائه. ومع أنه يعيش ببساطة في المأكل، إلا أنه يعتني بمظهره، فهو يتأنق، ويستحم ويسرح شعره في الولائم كما لو أنه في لندن أو ليفربول أو دبلن وليس في فسحة من الغابة أو على ضفة نهر. وكانت لديه سهولة في اللغات، فقد تعلم الفرنسية والبرتغالية، ويرطن باللهجات الأفريقية بعد أيام قليلة من مجاورته لإحدى القبائل. ويواظب دوماً على تدوين ملاحظات حول ما يراه في دفاتر مدرسية. وقد اكتشف أحدهم أنه يكتب الشعر. فمازحوه في هذا الشأن ولم يسمح له الخجل بأكثر من التلعثم بتكذيب. وقد اعترف في إحدى المرات بأن أباه جلده بالحزام، وهو طفل، لهذا يتأثر

عندما يجلد مراقبو العمالِ الحمالين حين تقع منهم حمولة أو يتوانون في تنفيذ الأوامر. وكانت له نظرة حالمة بعض الشيء.

عندما ترد إلى ذهن روجر ذكرى ستانلي تملؤه مشاعر متناقضة - كان لا يزال يتعافى من الملاريا -. فالمغامر الغاليّ لم ير في أفريقيا إلا ذريعة للمآثر الرياضية والغنائم الشخصية. ولكن كيف يمكن إنكار أنه أحد تلك الشخصيات الخرافية والأسطورية التي يبدو أنها قد حطمت، بالجسارة وازدراء الموت والطموح، حواجزَ محدوديّة القدرات الإنسانية؟ لقد رآه يحمل بين ذراعيه أطفالاً ينهش الجدري وجوههم وأبدانهم، ويقدم الماء من زمزميته بالذات لوطنيين يحتضرون من الكوليرا أو داء النوم، كما لو أنه لا يمكن لشيء أن يصيبه بالعدوى. من هو في الحقيقة بطل الإمبراطورية البريطانية ومطامع ليوبولدو الثاني هذا؟ كان روجر متأكداً من أن السر لن ينكشف أبداً وأن حياة ستانلي ستظل محجوبة على الدوام وراء شبكة عنكبوت من الاختلاق والتلفيق. ما هو اسمه الحقيقي؟ فاسمه هنري مورتون ستانلي اتخذه من التاجر الذي كان كريماً معه في سنوات فتوته في نيو أوليانز، وربما يكون قد تبناه. يقال إن اسمه الحقيقي جون رولاندز، ولكن أحداً لا يذكر ذلك. كما أن أحداً لا يذكر أنه ولد في الغال وأمضى طفولته في أحد ملاجئ الأيتام التي ينتهي إليها الأطفال الذين بلا آباء ولا أمهات ممن يلتقطهم مأمورو الصحة من الشارع. ويبدو أنه سافر منذ صباه إلى الولايات المتحدة متخفياً في سفينة شحن، وقاتل هناك خلال الحرب الأهلية كجندي في صفوف الاتحاديين أولاً، ثم في صفوف اليانكيين بعد ذلك. ويُعتقد أنه عمل صحفياً في ما بعد وكتب تقارير إخبارية عن تقدم الرواد نحو منطقة الغرب الأمريكي وصراعهم مع الهنود الحمر. وعندما أرسلته جريدة

نيويورك هيرالد إلى أفريقيا للبحث عن ديفيد ليفنغستون، لم تكن لدى ستانلي أدنى خبرة كمكتشف. ولأنه استطاع البقاء على قيد الحياة وهو يجوب غابات عذراء، كمن يبحث عن إبرة في حقل قش، توصل إلى العثور، في أوجيجي، يوم العاشر من تشرين الثاني ١٨٧١، على من أصابه الذهول، وفق اعتراف متبجح، عندما حياه بالقول: «أظن أنك الدكتور ليفنغستون؟»

ما كان يستثير إعجاب روجر كيسمنت، في شبابه، من إنجازات ستانلي، أكثر من إعجابه بحملته من منابع نهر الكونغو حتى مصبه على الأطلسي، هو إنشاؤه، بين عامي ١٨٧٩ و١٨٨١، الـ *caravan trail*. أي ***طريق القوافل*** الذي شق سبيلاً للتجارة الأوروبية من مصب النهر العظيم حتى بحيرة ***بول***، البحيرة النهرية الهائلة التي ستُسمى مع مرور السنوات: ستانلي بول. وفي ما بعد، اكتشف روجر أن تلك كانت عملية أخرى من عمليات ملك البلجيكيين المسبقة من أجل خلق البنية التحتية التي ستسمح له، منذ انعقاد مؤتمر برلين، باستغلال الأراضي. وقد كان ستانلي هو المُنَفِّذ الجريء لتلك الخطة.

«وأنا»، قال روجر كيسمنت مرات كثيرة في سنواته الأفريقية لصديقه هربرت وارد، مع وعيه المتزايد لما تعنيه دولة الكونغو المستقلة، «كنتُ أحد أدواته منذ اللحظة الأولى». مع أنه لم يكن كذلك بالكامل، فعند وصوله إلى أفريقيا، كانت قد مضت خمس سنوات على عمل ستانلي في شق **طريق القوافل** الذي أُنجزت مرحلته الأولى مع بداية العام ١٨٨٠، ابتداء من فيفا حتى إنسانغويلا، بطول ثلاثة وثمانين كيلومتراً باتجاه أعالي نهر الكونغو، وسط أدغال كثيفة ومستنقعية، تملؤها صدوع

عميقة، وأشجار تنغل بالدود ومستنقعات نتنة تحجب عنها قمم الأشجار الكثيفة ضوء الشمس. ومن هناك حتى موليانغا، حوالي مئة وعشرين كيلومتراً على شكل أخدود، يصبح نهر الكونغو صالحاً لملاحة سفن يقودها ربابنة متمرسون قادرون على تجاوز الدوامات المائية واللجوء، في ساعات هطول الأمطار وارتفاع منسوب المياه، إلى المخاضات الضحلة أو إلى المغاور كيلا ترتطم سفنهم بالصخور وتضيع في دوامات الماء السريعة التي تتشكل وتتلاشى باستمرار. عندما بدأ روجر العمل في مؤسسة الكونغو الدولية التي تحولت، منذ العام ١٨٨٥، إلى دولة الكونغو المستقلة، كان ستانلي قد أنشأ، بين كينشاسا وندولو، محطة عمّدها باسم ليوبولدفيل. حدث ذلك في كانون الأول ١٨٨١، حين كان لا يزال أمام روجر كيسمنت ثلاث سنوات كي يأتي إلى الأدغال، وأربع سنوات كي تولد بصورة شرعية دولة الكونغو المستقلة. وفي أثناء ذلك كانت هذه المنطقة الاستعمارية، الأكثر اتساعاً في أفريقيا، التي أنشأها ملك لم تطأها قدماه قطّ، قد صارت واقعاً تجارياً يمكن لرجال الأعمال الأوربيين دخوله من المحيط الأطلسي، والتغلب على عوائق في الكونغو الأدنى لا يمكن تجاوزها بسبب الدوامات، ومساقط المياه، والالتفاف حول شلالات ليفنغستون، بفضل طريق برية، تمتد حوالي خمسمئة كيلومتر، شقها ستانلي بين بوما وفيفا حتى ليوبولدفيل وبحيرة بول. عندما وصل روجر إلى أفريقيا كان تجار جريئون، من طلائع ليوبولد الثاني المتقدمة، قد بدؤوا التوغل في الأراضي الكونغولية وإخراج أولى شحنات العاج والجلود والمطاط من منطقة تغطيها أشجار تنز منها عصارة سوداء في متناول يد من يرغب في جمعها.

في سنواته الأفريقية الأولى ذرع روجر كيسمنت طريق القوافل عدة

مرات، نحو أعالي النهر، من بوما وفيفا حتى ليوبولدفيل، أو نحو أسفل النهر، من ليوبولدفيل إلى المصب على الأطلسي، حيث تتحول المياه الخضراء والكثيفة إلى الملوحة، وحيث توغلت، في العام ١٤٨٢، سفينة الملاح البرتغالي دييْغو كاو أول مرة إلى داخل الأراضي الكونغولية. وقد توصل روجر إلى معرفة الكونغو السفلى أفضل من أي أوروبي آخر مقيم في بوما أو في ماتادي، وهما المحوران اللذان بدأت منهما عملية الاستعمار البلجيكية بالتقدم نحو عمق أراضي القارة.

طوال ما تبقى من حياته، ظل روجر يأسف ـ وهو ما يقوله مرة أخرى الآن، في العام ١٩٠٢، بينما هو يعاني الحمى ـ لأنه كرس أعوامه الثمانية الأولى في أفريقيا للعمل، كبيدق في لعبة شطرنج، في بناء دولة الكونغو المستقلة، موظفاً في ذلك وقته وصحته وجهوده ومثاليته، ومعتقداً أنه يعمل بتلك الطريقة في سبيل أهداف محبة للبشر.

وكان في بعض الأحيان، وهو يسعى للبحث عن مسوغات، يتساءل: «كيف كان يمكن لي أن أنتبه إلى كل ما يحدث في تلك الأراضي الممتدة لمليونين ونصف المليون كيلومتر مربع، وأنا أقوم بأعمال رئيس عمال أو قائد جماعة في حملة ستانلي عام ١٨٨٤ وفي حملة الأمريكي هنري شيلتون سانفورد بين عامي ١٨٨٦ و١٨٨٨، في محطات وورش حديثة الإنشاء على امتداد طريق القوافل؟». لقد كان آنذاك مجرد قطعة صغيرة في الجهاز الضخم الذي بدأ يتجسد دون أن يدري أحد، باستثناء خالقه الخبيث وجماعة محدودة وحميمة من معاونيه، ما الذي سيصير إليه.

ومع ذلك، خلال المرتين اللتين تحدث فيهما إلى ملك

البلجيكيين، في العام ١٩٠٠، وكانت وزارة الخارجية البريطانية قد عيَّنته للتو قنصلاً في بوما، أحس روجر كيسمنت بريبة كبيرة بذلك الرجل المربوع، المتشح بالأوسمة، ذي اللحية الممشطة، والأنف الضخم وعينيّ نبي، حين دعاه للعشاء وهو يعرف أنه مارٌ من بروكسل في طريقه إلى الكونغو. أبهة ذلك القصر ذي السجاجيد الوثيرة، وثريات الكريستال، والمرايا المزركشة بنقوش، والتماثيل الشرقية، سببت له دواراً. كان هناك نحو اثني عشر مدعواً، إضافة إلى الملكة ماريا إنريكيتا، وابنتها الأميرة كليمنتينا والأمير فيكتور نابليون الفرنسي. احتكر العاهل الحديث طيلة الليل. كان يتكلم كواعظ ملهم، وعندما يصف قسوة تجار العبيد العرب الذين ينطلقون من زنجبار للقيام «بغزواتهم»، كان صوته الخشن يكتسب نبرة صوفية. فعلى أوروبا المسيحية أن تضع حداً لتجارة اللحم البشري تلك. لقد قرر ذلك وستكون هذه هي تقدمة بلجيكا الصغيرة للحضارة: تحرير تلك البشرية المعذبة من ذلك الرعب. السيدات المتأنقات كنّ يتثاءبن والأمير نابليون يهمس بمغازلات لجارته، ولا أحد يستمع إلى الفرقة الموسيقية التي تعزف كونشيرتو لهايدن.

وفي صباح اليوم التالي استدعى ليوبولد الثاني القنصلَ الإنكليزي ليتبادل معه الحديث على انفراد. استقبله في مكتبه الخاص، حيث الكثير من التحف الخزفية، وتماثيل من اليشب والعاج. كان العاهل يعبق برائحة الكولونيا، وأظفاره مطلية بالبرنيق. وكما في العشية، لم يكد روجر يتمكن من قول شيء. تحدث ملك البلجيكيين عن مسعاه الكيخوتي، وكم هو غير مفهوم من قبل صحفيين وسياسيين حاقدين. مما لا شك فيه أن أخطاء تقترف وأن هنالك تجاوزات. والسبب؟ عدم

سهولة التعاقد مع أناس جديرين وقادرين يرغبون في العمل في الكونغو النائية. وطلب من القنصل إذا ما لاحظ أن هناك ما يستدعي الإصلاح في مقر عمله الجديد أن يخبره به شخصياً. الانطباع الذي خلفه له ملك البلجيك هو أنه شخصية محبة للأُبهة والملذات.

والآن، في العام ١٩٠٢، بعد سنتين من ذلك اللقاء، يقول إنه كان كذلك دون شك، ولكنه في الآن نفسه رجل دولة يتمتع بذكاء ميكافيلي وبارد. فما إن أسس ليوبولد الثاني دولة الكونغو المستقلة، حتى أصدر مرسوماً في العام ١٨٨٦، حوّل بموجبه إلى Domaine de la Couronne (ملكية للتاج) نحو مئتين وخمسين ألف كيلومتر مربع بين نهري كاساي وروكي، أشار عليه مستشاروه ـ وعلى رأسهم ستانلي ـ بأنها مناطق غنية بأشجار المطاط. وأُبقيت تلك المساحة الشاسعة بمنأى عن أية امتيازات للشركات الخاصة، يختص العاهل بارتيادها. وجرى استبدال مؤسسة الكونغو الدولية، كهيئة قانونية، بدولة الكونغو المستقلة، رئيسها ومالكها الوحيد هو ليوبولد الثاني.

وبالتوضيح للرأي العام العالمي أن الطريقة الفعالة الوحيدة للقضاء على تجارة الرقيق هي إنشاء «قوة نظام»، أرسل الملك إلى الكونغو ألفي جندي من الجيش النظامي البلجيكي على أن تضاف إليهم ميليشيا من عشرة آلاف وطني، يتولى الأهالي الكونغوليون تموينها. وعلى الرغم من أن القسم الأعظم من ذلك الجيش كان تحت قيادة ضباط بلجيكيين، إلا أنه تسرب إلى صفوفه، وخاصة إلى المناصب القيادية في المليشيا، أشخاص سيئو السمعة، وقوادون، وسجناء سابقون، ومغامرون متعطشون إلى الثروة خارجون من القيعان ومن أحياء المواخير في نصف

أوروبا. واستقرت القوة العامة (La Force Publique)، ككائن طفيلي في جسد حيّ، في متاهة القرى الموزعة على منطقة بمساحة أوروبا الممتدة من إسبانيا حتى حدود روسيا، كي يعولها ذلك المجتمع الأفريقي الذي لم يفهم ما الذي يحدث له، باستثناء أن الغزو الذي ينقض عليه هو جائحة أشد أذى من صيادي العبيد، ومن الجراد، ومن النمل الأحمر، ومن أعمال السحر التي تأتي بداء النوم المميت. لأن جنود وميليشيا القوة العامة كانوا جشعين أفظاظاً، لا يعرفون الشبع سواء في الطعام أو الشراب أو النساء أو الحيوانات أو الجلود أو العاج، وباختصار في كل ما يصلح للسرقة أو الأكل أو الشرب أو البيع أو المضاجعة.

وفي الوقت نفسه الذي بدأ فيه استغلال الكونغوليين بهذه الطريقة، بدأ العاهل الإنساني بمنح امتيازات لشركات من أجل «شق طريق الحضارة لوطنيي أفريقيا من خلال التجارة»، وفق التفويض الذي تلقاه. سقط بعض التجار ميتين تحت وطأة حمى المستنقعات، أو لدغات الأفاعي، أو التهمتهم الضواري بسبب جهلهم بالأدغال، وقلة منهم سقطوا بسهام وحراب مسمومة أطلقها الوطنيون الذين تجرؤوا على التمرد ضد أولئك الغرباء المسلحين بأسلحة تدوي كأنها الرعد أو تحرق كالصاعقة، والذين يوضحون لهم أنه عليهم، بمقتضى اتفاقيات وقعها زعماؤهم، أن يهجروا زرعهم، وصيدهم البري والنهري، وطقوسهم، وروتين حياتهم كي يتحولوا إلى أدلاء أو حمالين أو صيادين أو جامعي مطاط، دون أن يتلقوا أية أجور مقابل ذلك. عدد لا بأس به من أصحاب الامتيازات، من أصدقاء وأعوان العاهل البلجيكي، جمعوا خلال وقت قصير ثروات طائلة، ولاسيما الملك نفسه.

فمن خلال نظام الامتيازات، راحت الشركات تتمدد عبر دولة الكونغو المستقلة في موجات دائرية متزايدة الاتساع، ومتوغلة أكثر فأكثر إلى وسط وأعالي نهر الكونغو وشبكة روافده. وكانت تلك الشركات تتمتع بالسيادة في مناطق سيطرتها. ففضلاً عن كونها تحظى بحماية القوة العامة، لديها ميليشياتها الخاصة التي يقف على رأسها دوماً عسكري سابق، أو سجان سابق، أو قاطع طريق، وكان بعض هؤلاء يتحولون إلى مشهورين في أفريقيا كلها بفعل وحشيتهم. لقد تحولت الكونغو خلال سنوات قليلة إلى المنتج العالمي الأول للمطاط الذي يطالب العالم المتحضر أكثر فأكثر بكميات أكبر منه من أجل عرباته وسياراته وقطاراته، إضافة إلى كل أنواع أنظمة النقل والزينة والديكور والري.

لم يكن روجر كيسمنت يعي أي شيء من ذلك بصورة كاملة خلال تلك الأعوام الثمانية ـ ١٨٨٤ حتى ١٨٩٢ ـ التي تعرَّق فيها بغزارة، وعانى من حمى المستنقعات، وتحمص بالشمس الأفريقية، وامتلأ جسده بقروح اللسع والخمش والخدش من النباتات والحيوانات الضارة، وكان يعمل بدأب لدعم مشروع ليوبولد الثاني التجاري والسياسي. أما ما عرفه بالفعل في تلك الامتدادات الشاسعة فهو ظهور وسيادة شعار عملية الاستعمار: السوط.

من الذي اخترع تلك الأداة الحساسة والمطواعة والفعالة في حث وتخويف ومعاقبة تكاسل أو خراقة أو حماقة تلك الكائنات ذات الساقين التي لها لون الأبنوس والتي لا تفعل الأشياء أبداً مثلما يأمل البيض منها أن تفعله، سواء العمل في الحقول أو تسليم درنات المنهوت ولحم

الظباء والخنازير البرية وغيرها من الأطعمة المفروضة على كل قرية أو أسرة، أو الضرائب المفروضة لتمويل أشغال عامة تشيدها الحكومة؟ يقال إن المخترع هو نقيب في القوة العامة يدعى مسيو شيكو، بلجيكي من الرعيل الأول، رجل عملي وواسع المخيلة بالتأكيد، يتمتع بقوة ملاحظة حادة، فقد انتبه قبل الجميع إلى أنه يمكن أن يُصنع من جِلد فرس النهر سوط أشد متانة وأذى من أمعاء الخيول والسنوريات، حبل مقدد قادر على إحداث حرقة ونزف وقروح وألم أشد من أي سوط آخر، وهو في الوقت نفسه أخف حملاً وأكثر عملية، وبإدخاله في مقبض خشبي صغير، يتيح لرؤساء العمال والحراس والسجانين وقادة الجماعات أن يلفوه حول خصورهم أو يعلقوه على أكتافهم، دون أن يلحظوا، لخفة وزنه، أنهم يحملونه. ومجرد وجوده بين أيدي عناصر القوة العامة يثير الرهبة: تتسع عيون الزنوج والزنجيات وصغار الزنوج فور التعرف إليه، يلمع بياض حدقات وجوههم القاتمة رعباً لتخيلهم أن السوط، حيال أي خطأ أو تعثر أو نقص، سيمزق الهواء بصفيره المؤكد ويهوي على سيقانهم ومؤخراتهم وظهورهم ويجعلهم يولولون.

أحد أول أصحاب الامتيازات في دولة الكونغو المستقلة هو الأمريكي هنري شلتون سانفورد. وكان وكيل ليوبولد الثاني وجاسوسه لدى حكومة الولايات المتحدة وقطعة أساسية في إستراتيجيته من أجل دفع القوى العظمى إلى التنازل له عن الكونغو. في العام ١٨٨٦ أسس حملة سانفورد الاستكشافية للمتاجرة بالعاج، ولبان المضغ، والمطاط، وزيت النخيل، والنحاس في منطقة أعالي الكونغو بكاملها. وقد نُقل الأجانب الذين كانوا يعملون في مؤسسة الكونغو الدولية، مثل روجر كيسمنت، إلى حملة سانفورد الاستكشافية، وتولى وظائفهم موظفون

بلجيكيون. انتقل روجر إلى العمل في حملة سانفورد مقابل مئة وخمسين جنيهاً إسترلينياً سنوياً.

بدأ العمل في شهر أيلول ١٨٨٦ كوكيل مسؤول عن التخزين والنقل في ماتادي، وهي كلمة تعني «حجر» بلغة الكيكونغو. وعندما استقر روجر هناك، لم تكن هذه المحطة المقامة على طريق القوافل أكثر من أرض خلاء مفتوحة في الغابة بقوة مناجل المتشيتي على ضفاف النهر العظيم. وحتى تلك المنطقة كانت قد وصلت، قبل أربعة قرون من ذلك، سفينة دييغو كاو الشراعية، وقد خلّف الملاح البرتغالي اسمه مكتوباً على صخرة هناك، ومازال بالإمكان قراءته. بدأت شركة مقاولين ومهندسين ألمان ببناء البيوت الأولى، بأخشاب صنوبر مستوردة من أوروبا ـ استيراد أخشاب إلى أفريقيا! ـ وتشييد مراسٍ ومستودعات، وهي أعمال قوطعت ذات صباح ـ روجر يتذكر جيداً ذلك الحدث ـ بدوي مزلزل وباندفاع قطيع أفيال إلى تلك الفجوة في الغابة، أشرفت معه الدسكرة الوليدة على الاختفاء. وخلال ستة، ثمانية، خمسة عشر، ثمانية عشر عاماً كان روجر كيسمنت يرى كيف أن تلك الضيعة الضئيلة التي بدأ العمل ببنائها أمام عينيه لتُستخدم مستودعاً لبضائع حملة سانفورد الاستكشافية، أخذت بالاتساع متسلقة الهضاب المحيطة، وتزايدت بيوت المستوطنين مكعبة الشكل، المشيدة من الخشب، والمؤلفة من طابقين، مع شرفات طويلة، وسقوف مخروطية، وحدائق صغيرة، ونوافذ محمية بشِباك معدنية، وامتلأت البلدة بالشوارع والتقاطعات والناس. ففضلاً عن الكنيسة الكاثوليكية الأولى، كنيسة كينكاندا، صارت هناك الآن، في العام ١٩٠٢، واحدة أخرى أكبر وأهم، كنيسة نوتردام ميديترس، وبعثة تبشيرية معمدانية، وصيدلية،

ومستشفى فيه طبيبان وعدة راهبات ممرضات، ومكتب بريد، ومحطة قطارات بديعة، ومركز شرطة، ومحكمة، وعدة مستودعات جمارك. وظهرت حول مدينة المستوطنيين ضاحية أكواخ متعددة الأشكال من القصب والطين. كان روجر يقول أحياناً إنه وهنا، في ماتادي، يتبدى حضور الحضارة الأوربية والحداثة والديانة المسيحية أكثر مما في العاصمة بوما. فقد صار في ماتادي مقبرة صغيرة على رابية توندوا، بجوار البعثة التبشيرية. ومن ذلك المرتفع تُرى ضفتا النهر ومقطع طويل منه. كان الأوروبيون يُدفنون في المقبرة. ولا يتجول في المدينة والمرسى من السكان الأصليين سوى أولئك الذين يعملون خدماً أو حمالين ولديهم تصريح يحدد هويتهم. وأي وطني آخر يتجاوز تلك الحدود يُطرد إلى الأبد من ماتادي بعد أن يدفع غرامة ويتلقى عقوبة الجلد. وحتى العام ١٩٠٢ كان يمكن للحاكم العام أن يتباهى بأنه لم تُسجل في بوما وفي ماتادي أي حادثة سرقة أو قتل أو اغتصاب.

ومن السنتين اللتين عمل فيهما لدى حملة سانفورد الاستكشافية، ما بين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين من عمره، سيظل روجر كيسمنت يتذكر إلى الأبد واقعتين: نقل المركب *فلوريدا*، طوال عدة شهور، من مرفأ بنانا الصغير عند مصب نهر الكونغو على الأطلسي حتى ستانلي بول، عبر طريق القوافل. وحادثة الملازم فرانكي الذي كسر دفعة واحدة هدوءه الذهني الذي يمازحه بشأنه صديقه هربرت وارد، وكان على وشك أن يلقي بنفسه إلى دوامات المياه في نهر الكونغو، ونجا بأعجوبة من تلقي رصاصة.

كانت *الفلوريدا* سفينة مهيبة جاءت بها حملة سانفورد الاستكشافية

إلى بوما لتعمل كسفينة شحن في وسط وأعالي نهر الكونغو، وهذا يعني في الجانب الآخر من جبال البلور. وكانت شلالات ليفنغستون، سلسلة الشلالات التي تفصل بوما وماتادي عن ليوبولدفيل، تنتهي في عقدة دوامات أكسبتها تسمية مرجل الشيطان. وابتداء من هناك باتجاه الشرق يصبح النهر صالحاً للملاحة على امتداد آلاف الكيلومترات. أما باتجاه الغرب فيفقد النهر ألف قدم من الارتفاع في انحداره نحو البحر، مما يجعله في مقاطع طويلة غير صالح للملاحة. ومن أجل نقل *الفلوريدا* براً حتى ستانلي بول، جرى تفكيك السفينة إلى مئات القطع وحملها، بعد تصنيفها وتعليبها، على ظهور الحمالين لمسافة ٤٧٨ كيلومتراً على طريق القوافل. وقد عُهد إلى روجر كيسمنت بأكبر القطع وأثقلها وزناً: بدن السفينة. فقام بكل شيء. ابتداء من مراقبة بناء العربة الضخمة التي رُفع إليها هيكل السفينة وحتى تجنيد مئة الحمالين وحاملي سيوف المتشيتي لجر الحمولة الهائلة عبر مرتفعات جبال البلور ومنخفضاتها، وتوسيع الدرب بضربات سيوف المتشيتي. وأنجز مسطحات ترابية ومواقع دفاعية، ونصب مخيمات، ووفر علاج المرضى والمصابين بالحوادث، وأخمد المنازعات بين أفراد من اثنيات مختلفة، ونظَّم نوبات الحراسة وتوزيع الأطعمة وعمليات الصيد البحري والنهري عندما تشح المؤن. لقد كانت ثلاثة شهور من المخاطر والقلق، ولكنها شهور حماسة أيضاً، ووعي بإنجاز شيء يعني التقدم، ومعركة ناجحة ضد طبيعة معادية. وكل ذلك، كما سيردد روجر مرات ومرات خلال السنوات التالية، دون استخدام السوط أو السماح بأن يسيء استخدامه رؤساء العمال الذين يسمون «الزنجباريين» لأنهم يأتون من زنجبار، عاصمة النخاسة، أو لأنهم يتصرفون بقسوة تجار الرقيق.

وعندما تمت إعادة تركيب السفينة *فلوريدا* في بحيرة ستانلي بول النهرية وجُهزت للإبحار، سافر روجر في السفينة نفسها عبر وسط وأعالي نهر الكونغو، بعد أن تأكد من مخازن ونقل بضائع حملة سانفورد الاستكشافية في مناطق سيزورها مجدداً، بعد سنوات، خلال رحلته إلى الجحيم عام ١٩٠٣: بولوبو، لكوليلا، منطقة إيروبو، وأخيراً محطة خط الاستواء التي أعيدت تسميتها باسم محطة كوكيلهاتفيل.

أما الحادث مع الملازم فرانكي الذي لم يكن، خلافاً لروجر، يشعر بأي اشمئزاز من السوط ويستخدمه بسخاء، فوقع لدى العودة من رحلة إلى خط الاستواء، على بُعد حوالي خمسين كيلومتراً صعوداً مع النهر من بوما، في قرية تافهة بلا اسم. كان الملازم فرانكلي، على رأس ثمانية من جنود القوة العامة، جميعهم من الوطنيين، قد قام بحملة تأديبية بسبب مشكلة نقص الأيدي العاملة الأبدية. فهم على الدوام بحاجة متزايدة لمن يحمل بضائع الحملات التي تذهب وتجيء بين بوما ـ ماتادي وليوبولدفيل ـ ستانلي بول. ولأن القبائل ترفض تسليم رجالها للقيام بتلك الخدمة المنهكة، كانت القوة العامة، وكذلك أصحاب الامتيازات الخاصون أحياناً، يقومون بهجمات ضد القرى العاصية، وفضلاً عن اقتياد الرجال القادرين على العمل مقيدين في رتل، كانوا يحرقون بعض الأكواخ، ويصادرون جلوداً وعاجاً وماشية، ويجلدون زعماء القبائل بقسوة كي ينفذوا في المستقبل التزاماتهم الواردة في الاتفاقيات.

حين دخل روجر وفريقه الصغير المؤلف من خمسة حمالين

و«زنجباري» إلى الضيعة، كانت الأكواخ الثلاثة أو الأربعة قد تحولت إلى رماد، وكان الأهالي قد هربوا. والاستثناء الوحيد هو فتى، يكاد يكون طفلاً، كان ملقى على الأرض، مقيد اليدين والقدمين إلى أوتاد، بينما الملازم فرانكي يُفرغ إحباطه بالانهيال بالسوط على ظهر الفتى. لم يكن الضباط هم الذين يتولون الضرب بالسياط عادة وإنما الجنود. ولكن الملازم كان يشعر دون شك بأنه قد أهين بسبب هرب القرية كلها، ويريد الانتقام. بدا وجهه محتقناً بالغضب، يقطر العرق منه غزيراً، ويطلق زمجرة صغيرة مع كل ضربة سوط. لم يتوقف حين رأى ظهور روجر وجماعته. واكتفى بالرد على تحيته بهز رأسه دون أن يوقف العقاب. لابد أن الصبي كان قد غاب عن الوعي منذ بعض الوقت. وكان ظهره وساقاه كتلة دامية، ويتذكر روجر تفصيلاً آخر من المشهد: إلى جانب الجسد الصغير العاري هنالك رتل من النمل.

ـ لا يحق لك أن تفعل هذا أيها الملازم فرانكي ـ قال له بالفرنسية، ثم أضاف ـ كفى!

أنزل الملازم الضئيل السوط وأعاد النظر إلى الشبح الطويل ذي اللحية، الأعزل، الذي يحمل في يده عصا يتلمس بها الطريق ويزيح الأوراق اليابسة خلال المسير. وكلب يتقافز حول ساقية. المفاجأة جعلت وجه الملازم المدور ذا الشارب المشذب والعينين المختلجتين، يتحول من الاحتقان إلى الشحوب ثم إلى الاحتقان من جديد.

ـ ما الذي قلته؟ ـ زمجر. ورآه روجر يفلت السوط، ويمد يده اليمنى إلى حزامه ويعالج القراب الذي يظهر منه مقبض المسدس. وخلال ثانية واحدة أدرك أنه يمكن للضابط في سورة غضبه أن يطلق

النار عليه. فكانت استجابة سريعة. وقبل أن يتمكن الآخر من سحب السلاح، أمسك به من عنقه وأطاح، في الوقت نفسه، بضربة من يده بالمسدس الذي كان قد أخرجه. حاول الملازم فرانكي التخلص من الأصابع التي تشد على خناقه. كانت عيناه جاحظتين كعيني ضفدع.

لم يتحرك جنود القوة العامة الثمانية الذين كانوا يتأملون مشهد التعذيب وهم يدخنون، ولكن روجر أفترض أنهم ارتبكوا مما حدث، وأنهم يضعون أيديهم على بنادقهم وينتظرون أمراً من قائدهم ليتصرفوا.

ـ اسمي روجر كيسمنت، أعمل لدى حملة سانفورد الاستكشافية وأنت تعرفني جيداً أيها الملازم فرانكي، لأننا لعبنا ذات مرة البوكر معاً في ماتادي ـ قال مفلتاً ذلك وهو ينحني ليلتقط المسدس ويعيده في إيماءة مهذبة ـ. الطريقة التي تجلد بها هذا الفتى تعتبر جناية، مهما كان الخطأ الذي اقترفه. وأنت تعرف ذلك خيراً مني باعتبارك ضابطاً في القوة العامة، لأنك تعرف دون شك قوانين دولة الكونغو المستقلة. وإذا ما مات هذا الفتى بسبب جلدك له، سيُثقل اقتراف الجريمة على ضميرك.

ـ عند مجيئي إلى الكونغو اتخذت الاحتياطات بترك ضميري في بلادي ـ قال الضابط. وقد تحولت ملامحه الآن إلى السخرية وبدا كما لو أنه يتساءل إن كان كيسمنت مهرجاً أم مجنوناً. وكانت هستيرياه قد تلاشت ـ. لحسن الحظ أنك كنت سريعاً، لأني كنت على وشك إطلاق رصاصة عليك. وكنتُ سأدخل بذلك في مشكلة دبلوماسية جدية بقتلي شخصاً إنكليزياً. أنصحك على كل حال بألا تتدخل، مثلما فعلت للتو،

مع زملائي في القوة العامة. إنهم سيئو الطبع ويمكن أن تلقى معهم مصيراً أسوأ مما لقيته معي.

كان غضبه قد انقضى وبدا الآن مكتئباً. وخرخر بأن هناك من نبه هؤلاء الأهالي إلى مجيئه. وعليه أن يعود الآن إلى ماتادي صفر اليدين. لم يقل شيئاً عندما أمر كيسمنت رجاله بأن يفكوا وثاق الفتى، وأن يضعوه في أرجوحة نوم، ربطوها إلى عصوين، وانطلق به نحو بوما. وعندما وصلوا إلى هناك، بعد يومين، ظل الفتى حياً على الرغم من الجراح والدماء التي فقدها. تركه روجر في المركز الصحي. ثم ذهب إلى المحكمة ليقدم شكوى ضد الملازم فرانكي بتهمة إساءة استخدام السلطة. وخلال الأسابيع التالية أستُدعي مرتين ليقدم إفادته، وخلال جلستي الاستجواب الطويلتين والبلهاوين مع القاضي أدرك أن شكواه ستُحفظ دون أن يتعرض الضابط ولو لمجرد التوبيخ.

وعندما أصدر القاضي حكمه أخيراً بإهمال الشكوى لعدم توفر الأدلة ولأن الضحية رفض تأكيد الشكوى، كان روجر كيسمنت قد استقال من حملة سافورد الاستكشافية ورجع إلى العمل من جديد تحت إمرة هنري مورتون ستانلي ـ الذي أطلق عليه الكيكونغوليون في المنطقة لقب «Bula Matadi» («كاسر الأحجار») ـ، في سكة الحديد التي بدأ مدّها بموازاة طريق القوافل، من بوما وماتادي حتى ليوبولدفيل ـ ستانلي بول. وبقي الفتى للعمل مع روجر وصار منذ ذلك الحين خادمه المنزلي ومساعده ورفيق رحلاته عبر أفريقيا. ولأنه لم يعرف أن يخبره باسمه قطّ، أطلق عليه كيسمنت اسم شارلي. وهو لا يزال معه منذ ستة عشر عاماً.

استقالة روجر كيسمنت من حملة سانفورد الاستكشافية كانت بسبب حادثة مع أحد مديري الشركة. لم يأسف لذلك، لأن العمل إلى جانب ستانلي في سكة الحديد، وإن كان يتطلب جهداً بدنياً هائلاً، إلا أنه أعاد إليه الحلم الذي جاء من أجله إلى أفريقيا. فشق الغابة ونسف الجبال من أجل وضع العوارض وخطوط السكة هو العمل الريادي الذي حلم به. الساعات التي كان يقضيها في العراء، يُشوى تحت الشمس أو يتبلل بوابل المطر، يوجه العمال وحملة سيوف المتشيتي، يُصدر الأوامر «للزنجباريين»، يراقب حسن إنجاز فرق العمل لأعمالها، يدحو الأرض ويسويها ويعززها حيث توضع العوارض، يشذب الأدغال الكثيفة، هي ساعات التركيز والشعور بأنه يقوم بعمل يفيد الأوروبيين والأفارقة على السواء، المستعمِرين والمستعمَرين. لقد قال له هربرت وارد ذات يوم: «حين تعرفتُ إليك، ظننتُ أنك مجرد مغامر. ولكنني صرت أعرف الآن أنك متصوف».

لم يكن يروق لروجر الانتقال من البريّة إلى القرى للتفاوض حول تقديم العمال وحاملي سيوف المتشيتي من أجل سكة الحديد. فقد تحول نقص الأيدي العاملة إلى المشكلة رقم واحد مع تعاظم دولة الكونغو المستقلة ونموها. فعلى الرغم من أن زعماء القبائل قد وقّعوا «اتفاقيات»، إلا أنهم صاروا الآن يدركون ما تعنيه، وكانوا يمتنعون عن السماح بذهاب الأهالي للعمل في شق الطرق، أو بناء المحطات والمستودعات، أو جمع المطاط. وقد توصل روجر، أثناء عمله في حملة سانفورد الاستكشافية، من أجل التغلب على ذلك الرفض، مع أنه غير مضطر إلى ذلك قانونياً، إلى جعل الشركة تقدم للعمال أجراً ضئيلاً، يُدفع عيناً على العموم. وقد بدأت شركات أخرى تفعل ذلك

أيضاً. ولكن التعاقد معهم لم يكن سهلاً حتى في هذه الحالة. فزعماء القبائل يتذرعون بأنهم لا يستطيعون التخلي عن رجال لابد من وجودهم للعناية بالمزروعات والقيام بالصيد البري والنهري لتوفير غذائهم. وكثيراً ما يحدث، كلما اقترب مجنِدو العُمال، أن يختبئ الرجال الذين في سن العمل بين النباتات البرية. وهكذا بدأت الحملات التأديبية، وعمليات التجنيد الإجباري، وممارسة حبس النساء في ما سمي ***maisons d'otages*** ***(بيوت الرهائن)*** لضمان عدم هرب أزواجهن.

وسواء في حملة ستانلي أو في حملة هنري شلتون سانفورد، كان روجر مسؤولاً في أحيان كثيرة عن التفاوض مع القبائل المحلية بشأن تقديم العمال الوطنيين. وبفضل سهولة تعلمه اللغات، صار قادراً على التفاهم معهم بلغتي الكيكونغو واللينغالا ـ وبعد ذلك بالسواحلية أيضاً ـ، وإن كان يحتاج إلى مساعدة تراجمة على الدوام. مجرد سماعه يرطن بلغاتهم كان يخفف من ريبة السكان الأصليين. وكانت أساليبه الناعمة وصبره وسلوكه المحترم يسهل الحوار، فضلاً عن الهدايا التي يحملها إليهم: ملابس وسكاكين وأشياء منزلية أخرى، وكذلك الخرز الزجاجي الذي يروقهم جداً. فكان يعود إلى المخيم ومعه حفنة رجال لإزالة الأدغال وأعمال العتالة. وقد اشتُهر بأنه «صديق الزنوج»، وهو أمر يرى فيه بعض زملائه ضرباً من الشفقة، بينما يرى فيه آخرون، ولاسيما بعض ضباط القوة العامة، سلوكاً يبعث على الاشمئزاز.

كانت تلك الزيارات إلى القبائل تسبب لروجر انزعاجاً راح يتزايد مع مرور السنوات. لقد كان يفعل ذلك في أول الأمر برغبة كبيرة، لأنها تشبع فضوله في معرفة شيء عن العادات، واللغات، والزينات،

والأعراف، والمأكولات، والرقصات، والأغاني، والممارسات الدينية لتلك الشعوب التي تبدو راكدة في قاع العصور، والتي تختلط فيها براءة بدائية، صحية ومباشرة، بعادات قاسية، مثل تقديم الأطفال التوائم قرابين في بعض القبائل، أو قتل عدد معين من الخدم ـ وهم عبيد في معظم الأحيان ـ لدفنهم مع الزعماء، وممارسة أكل اللحم البشري لدى بعض الجماعات مما يجعلها مرهوبة وممقوتة من قبل الجماعات الأخرى. وكان يخرج من تلك المفاوضات بإحساس مبهم بالضيق، الإحساس بأنه يلعب لعبة قذرة مع أولئك البشر الذين من زمن آخر ولا يمكنهم فهمه مهما بذل من جهد، لهذا، وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي يتخذها للتخفيف من تعسف تلك الاتفاقيات، يشعر بوخز الضمير لأنه تصرف خلافاً لقناعاته، وللأخلاق، وخلافاً لذلك «المبدأ الأول»، مثلما يسمي الرب.

ولهذا أقدم في الأيام الأخيرة من شهر كانون الأول ١٨٨٨، قبل أن يكمل عاماً من العمل في سكة حديد ستانلي، على الاستقالة وذهب للعمل في البعثة التبشيرية المعمدانية في نغومبي لوتيه، مع الزوجين بينتلي اللذين كانا يديران البعثة. لقد اتخذ القرار بغتة، بعد محادثة بدأت في ساعة الغسق وانتهت مع أول أضواء الفجر، في أحد بيوت حي المستوطنين في ماتادي، مع شخص كان هناك بصورة عابرة. لقد كان تيودور هارت ضابطاً سابقاً في البحرية البريطانية. وقد هجر البحرية البريطانية ليصبح مبشراً معمدانياً في الكونغو. كان المعمدانيون موجودين هناك منذ انطلاق الدكتور ديفيد لفينغستون في اكتشاف القارة الأفريقية والتبشير بالإنجيلية. وقد فتحوا لهم بعثات في بالابلا، وبانزا مانتيك، ونغومبي لوتيت، ودشنوا للتو بعثة أخرى في أرلينغتون، على

مقربة من ستانلي بول. وكان تيودور هارت، زائر هذه البعثات، يقضي وقته متنقلاً من واحدة إلى أخرى، مقدماً العون للقسس ويدرس طريقة فتح مراكز أخرى. وقد خلفت تلك المحادثة لدى روجر كيسمنت تأثيراً سيتذكره طوال ما تبقى من حياته، وكان يمكن له، في أيام إصابته الثالثة هذه بحمى المستنقعات عام ١٩٠٢، أن يستعيدها بأدق تفاصيلها.

ما كان يمكن لأحد أن يتصور، وهو يسمعه يتكلم، أن تيودور هارت كان في ما مضى ضابطاً، وأنه شارك، كبحار، في عمليات عسكرية مهمة قامت بها البحرية البريطانية. لم يكن يتحدث عن ماضية وعن حياته الخاصة. كان خمسينياً له مظهر مميز وأساليب مهذبة. وفي تلك الليلة الهادئة في ماتادي، بلا أمطار ولا غيوم، وبسماء ملطخة بنجوم تنعكس في مياه النهر وحفيف متقطع من الرياح الدافئة التي تبعثر شعريهما، كان كيسمنت وهارت، يستلقيان في أرجوحتي نوم متجاورتين، بدأا محادثة ما بعد تناول الطعام، ظن روجر في أول الأمر أنها لن تستمر سوى لحظات ريثما يغلبهما النعاس بعد تناولهما العشاء، وأنها ستكون تبادلاً عادياً لحديث يطويه النسيان. مع ذلك، وبعد قليل من بدء المحادثة، حدث ما جعل قلبه يخفق بقوة أكبر من المعهود. أحس بهدهدة صوت القس هارت الرقيق والدافئ، وهو يمضي في الكلام حول موضوعات لا يتطرق إليها أبداً مع زملائه في العمل - باستثناء مرة واحدة مع هربرت وارد - وأقل من ذلك مع رؤسائه. مخاوف، وهموم، وشكوك يخفيها كما لو أنها شؤون مقيتة. أكان لذلك كله أي معنى؟ وهل المغامرة الأوروبية في أفريقيا هي ما يُقال ويُكتب عنها وما يعتقد بها؟ وهل ستأتي بالحضارة والتقدم والحداثة من خلال حرية التجارة والتنصير؟ وهل يمكن إطلاق تسمية متحضرين على بهائم

«القوة العامة» الذين يسرقون كل ما يستطيعون سرقته في الحملات التأديبية؟ وكم من المستوطنين ـ التجار منهم والجنود والموظفون والمغامرون ـ لديهم حدّ أدنى من الاحترام للوطنيين ويعتبرونهم إخوة لهم، أو بشراً على الأقل؟ خمسة بالمئة؟ واحد من كل مئة؟ الحقيقة، الحقيقة، أنه لم يجد خلال السنوات التي أمضاها هناك سوى عدد أقل من عدد أصابع اليدين من الأوروبيين الذين لا يعاملون الزنوج كحيوانات بلا روح، ككائنات يمكن خداعها واستغلالها وجلدها، بل وحتى قتلها، دون أي إحساس بتأنيب الضمير.

استمع تيودور هارت بصمت إلى انفجار مرارة الشاب كيسمنت. وعندما تكلم لم يبد عليه أنه فوجئ بما سمعه. بل على العكس، اعترف بأن شكوكاً رهيبة تسيطر عليه هو نفسه أيضاً منذ سنوات. ومع ذلك، فإن مسألة «الحضارة» تلك، على المستوى النظري على الأقل، تنطوي على الكثير من الصحة. ألم تكن مريعة ظروف حياة الوطنيين؟ مستويات نظافتهم، شعوذاتهم، جهلهم بأدنى قواعد المفاهيم الصحية، ألا يموتون كما الذباب؟ ألم تكن مأساوية حياتهم لمجرد البقاء؟ لدى أوروبا الكثير مما تقدمه إليهم كي يخرجوا من البدائية. كي تتوقف بعض الممارسات الهمجية، مثل التضحية بالأطفال والمرضى لدى قبائل كثيرة، والحروب التي يقتتلون فيها، والعبودية وأكل اللحم البشري الذي مازالوا يمارسونه في بعض الأمكنة. أضف إلى ذلك، ألم يكن جيداً بالنسبة إليهم معرفة الرب الحقيقي، واستبدالهم الأوثان التي كانوا يعبدونها بالرب المسيحي، رب الرحمة والحب والعدالة؟ صحيح أن أناساً أشراراً كثيرين قد جاؤوا إلى هنا، وربما هم أسوأ من في أوروبا. ألم يكن ثمة علاج لهذا؟ كان لابد من مجيء الأشياء الطيبة من القارة

القديمة. ليس جشع التجار ذوي الأرواح القذرة، وإنما العلم، والقوانين، والتعليم، والحقوق الفطرية للكائن البشري، الأخلاق المسيحية. لم يعد التراجع ممكناً، أليس كذلك؟ من غير المجدي التساؤل عما إذا كان الاستعمار جيداً أم سيئاً، أجل، كان من الأفضل ترك الكونغوليين أحراراً لمصيرهم من دون الأوروبيين. ولكن عندما تصل الأمور إلى حدّ لا سبيل إلى التراجع عنه، لا يعود مجدياً تبديد الوقت في التساؤل إن كان من الأفضل عدم حدوث ما حدث. من الأفضل محاولة توجيهها نحو طريق جيد. لقد كان ممكناً على الدوام تقويم ما هو معوج. ألم تكن هذه هي أفضل تعاليم المسيح؟

وحين سأله روجر، عند الفجر، إن كان ممكناً لعلماني مثله، لم يكن شديد التدين قطّ، أن يعمل في إحدى بعثات تبشير الكنيسة المعمدانية الموجودة في مناطق أدنى ووسط نهر الكونغو، أطلق تيودور هارت قهقهة خفيفة:

ـ لابد أنها إحدى مصايد الرب ـ هتف ـ. فالزوجان بينتلي، في بعثة نغومبي لوتيت، يحتاجان إلى معاون علماني يساعدهما في أعمال المحاسبة. والآن، وقد سألتني هذا السؤال، ألا يكون الأمر أكثر من مجرد مصادفة؟ ألا يكون إحدى تلك المصايد التي ينصبها لنا الرب أحياناً كي يذكّرنا على الدوام بأنه موجود وبأنه علينا ألا نيأس أبداً؟

على الرغم من أن عمل روجر في بعثة نغومبي لوتيت، منذ كانون الثاني حتى آذار ١٨٨٩، كان قصير الأمد إلا أنه كان شديد الزخم، وقد أتاح له الخروج من عدم اليقين الذي عاش فيه منذ بعض الوقت. كان يكسب عشرة جنيهات يومياً ومنها عليه أن يدفع نفقاته، ولكن رؤية

السيد وليم هولمان بينتلي وزوجته يعملان منذ الصباح حتى الليل، بكل تلك الحماسة والقناعة، ومشاركتهما العيش في البعثة التي هي مركز ديني، ولكنها في الوقت نفسه مستوصف، ومركز تلقيح، ومدرسة، ودكان بضائع، ومكان ترفيه ومساعدة ونصح، صارت المغامرة الاستعمارية تبدو له أقل فظاظة، وأكثر عقلانية، بل ومتحضرة. وشجع فيه هذا الإحساس رؤيته كيف برزت حول هذين الزوجين جماعة صغيرة من الأفارقة المتحولين إلى الكنيسة الذين بدا من خلال ملبسهم، كما من خلال أغنيات الكورال اليومية التي يتدربون عليها من أجل قداس يوم الأحد، ودروس محو الأمية والعقيدة المسيحية، أنهم آخذون بهجر حياة القبيلة والبدء بحياة حديثة ومسيحية.

لم يكن عمله يقتصر على ضبط سجل إيرادات البعثة التبشيرية ونفقاتها. فهذا لا يستغرق منه سوى وقت قصير. لقد كان يقوم بكل شيء، ابتداء من كنس أوراق الشجر اليابسة وقص عشب قطعة الأرض الصغيرة المحيطة بالبعثة ـ وكان صراعاً يومياً ضد النباتات التي تسعى إلى استعادة الأرض الخلاء المنتزعة منها ـ، وحتى الخروج لاصطياد فهد كان يأكل طيور الحظيرة. وكان يتولى النقل عبر الدرب أو عبر النهر في زورق صغير، لحمل أو المجيء بمرضى، أو معدات، أو عمال، ويراقب عمل دكان البعثة، حيث يمكن لوطنيي الأمكنة المحيطة أن يبيعوا أو يشتروا بضائع. يفعلون ذلك بالمقايضة، إنما كان يجري تداول الفرنكات البلجيكية والجنيهات الإسترلينية أيضاً. وكان الزوجان بينتلي يسخران من عدم كفاءته في التجارة وميله إلى التبذير، فهو يرى أن جميع الأسعار غالية ويرغب في تخفيضها، مع أن ذلك يحرم البعثة من هامش الربح الضئيل الذي يتيح لها استكمال ميزانيتها الهزيلة.

وعلى الرغم من المودة التي توصل إلى الشعور بها تجاه الزوجين بينتلي، وراحة الضمير التي منحه إياها العمل إلى جانبهما، كان روجر يعرف منذ البدء أن وجوده في بعثة نغومبي لوتيه التبشيرية سيكون مرحلة عابرة. لقد كان العمل محترماً وإثارياً، ولكنه بلا مغزى ما لم يرافقه ذلك الإيمان الذي يبث الحماسة في تيودور هارت والزوجين بينتلي، وهو غير متوافر لديه، على الرغم من أنه يحاكي حركاتهم وتظاهراتهم بحضوره جلسات القراءة التفسيرية للكتاب المقدس، ودروس العقيدة، وقداس يوم الأحد. لم يكن ملحداً، ولا لا أدرياً، بل هو شخص غير مبال لا ينكر وجود الرب ـ أو «المبدأ الأول» ـ ولكنه عاجز عن الشعور بالراحة في حضن الكنيسة، والتضامن والتآخي مع مؤمنين آخرين، والإحساس بأنه جزء من مقام مشترك. وقد حاول أن يشرح ذلك لتيودور هارت في محادثته الطويلة تلك في ماتادي، مع شعوره بأنه أخرق ومشوش. فطمأنه البحار السابق: «إنني أفهمك جيداً يا روجر. إن للرب أساليبه. فهو يُقلقنا، يستثير هواجسنا، ويدفعنا إلى البحث. إلى أن يأتي يوم يضيء فيه كل شيء، وهناك يكون **هو**. وهذا ما سيحدث لك، ولسوف ترى».

لم يحدث له ذلك خلال تلك الشهور الثلاثة على الأقل. والآن، في العام ١٩٠٢، بعد ثلاثة عشر عاماً على ذلك، مازال على عدم يقينه الديني. لقد فارقته الحمى، وقد خسر الكثير من وزنه، ومع أنه يشعر بالدوار أحياناً بسبب ضعفه، إلا أنه عاد لمزاولة مهامه كقنصل في بوما. ذهب لزيارة الحاكم العام وغيره من السلطات. وعاد إلى لعب الشطرنج والبريدج. وكان موسم الأمطار في ذروته وسيستمر لعدة شهور.

في بدايات شهر آذار ١٨٨٩، مع انتهاء عقده مع القس وليم هولمان بينتلي، رجع للمرة الأولى إلى إنكلترا بعد غياب خمس سنوات.

V

ـ المجيء إلى هنا كان من أصعب الأمور التي قمتُ بها في حياتي ـ قالت إليس على سبيل التحية وهي تشد على يده ـ ظننتُ أنني لن أتمكن من المجيء أبداً. ولكن ها أنذا معكَ هنا أخيراً.

كانت إليس ستويفور غرين تحتفظ بمظهر الشخصية باردة الأعصاب، العقلانية، البعيدة عن المشاعر، ولكن روجر يعرفها بما يكفي ليعلم أنها متأثرة حتى العظم. كان يلحظ الرعشة الخفيفة في صوتها التي لا تستطيع مواراتها وذلك النبض السريع في انفها الذي يُبدي أن هناك ما يُقلقها دوماً. كانت قد تجاوزت السبعين من العمر، لكنها تحتفظ بهيئتها الشبابية. فالتجاعيد لم تَمحُ نداوة وجهها ذي النمش ولا بريق عينيها الزرقاوين والمتفولذتين. وفيهما يلمع على الدوام ذلك الضوء الذكي. كانت ترتدي، بأناقتها المتزنة المعهودة، ثوباً فاتح اللون، وبلوزة خفيفة وجزمة عالية الكعب.

ـ يا للسعادة يا عزيزتي إليس، يا للسعادة ـ كرر كيسمنت وهو يمسك بكلتا يديها ـ ظننتُ أنني لن أعود لرؤيتكِ أبداً.

ـ جئتُكَ ببعض الكتب، وبعض الحلوى وشيء من الثياب، ولكن

حراس البوابة انتزعوا كل ذلك مني ـ وأومأت بإيماءة عجز ـ. آسفة. هل أنت في حالة جيدة؟

ـ أجل، أجل ـ قال روجر بجزع ـ لقد فعلتِ الكثير من أجلي خلال كل هذا الوقت. ألا توجد أخبار بعد؟

ـ ستجتمع الحكومة يوم الخميس ـ قالت ـ وأعلم من مصدر جيد أن هذا الموضوع على رأس جدول الأعمال. إننا نفعل الممكن، وحتى المستحيل، يا روجر. لقد صار الالتماس يحمل قرابة خمسين توقيعاً، وجميعهم أناس مهمون. علماء، فنانون، كتّاب، سياسيون. وقد أكد لنا جون ديفوي أن برقية رئيس الولايات المتحدة إلى الحكومة الإنكليزية ستصل فيّ أي لحظة. جميع الأصدقاء يتحركون لقطع الطريق، أعني لمواجهة تلك الحملة المشينة في الصحف. أنت مطلع على الأمر، أليس كذلك؟

ـ بصورة غامضة ـ قال كيسمنت بإيماءة استياء ـ لا تصل إلى هنا أخبار من الخارج ولدى السجانين أوامر بعدم التكلم إليّ. ***الشريف*** وحده يفعل ذلك، ولكن ليهينني. أتظنين أن إمكانية تخفيف العقوبة مازالت قائمة يا أليس؟

ـ هذا ما أظنه بالطبع ـ أكدت بحزم، ولكن كيسمنت فكر في أن قولها كذبة مشفقة ـ جميع أصدقائي يؤكدون لي أن الحكومة ستقرر ذلك بالإجماع. لو كان هناك وزير واحد ضد تنفيذ الإعدام، فسوف تنجو. ويبدو أن رئيسك القديم في وزارة الخارجية، السير إدوارد غري، ضد الإعدام. لا تفقد الأمل يا روجر.

لم يكن شريف سجن بينتونفيل في قاعة الزيارات هذه المرة. كان

هناك حارس شاب وحذر فقط، يوليهما ظهره وينظر إلى الممر من خلال قضبان حديد البوابة متظاهراً بعدم الاهتمام بمحادثة روجر والمؤرخة. «لو أن جميع سجاني سجن بينتونفيل بمثل هذا الوقار، فإن الحياة هنا ستكون محتملة أكثر بكثير»، فكر روجر. وتذكر أنه لم يسأل إليس بعد عن أحداث دبلن.

ـ أعرف أن سكوتلنديارد قد ذهبت، خلال انتفاضة عيد الفصح، لتفتيش بيتكِ في شارع غروسنفور ـ قال ـ مسكينة يا إليس. هل جعلوكِ تمرين بلحظات عصيبة؟

ـ ليس إلى هذا الحدّ يا روجر. لقد أخذوا أوراقاً كثيرة. رسائل شخصية، وثائق. آمل أن يعيدوها إليّ، لا أظن أنها تنفعهم في شيء ـ تنهدت بصعوبة ـ. لم يكن ما جرى لي شيئاً يذكر بالمقارنة مع ما تعرض له الناس هناك في أيرلندا.

أمازال القمع القاسي متواصلاً؟ كان روجر يسعى جاهداً لعدم التفكير في عمليات الإعدام رمياً بالرصاص، وفي القتلى، وفي عواقب ذلك الأسبوع المأساوي. ولكن لا بد أن إليس قد قرأت في عينيه الفضول لما يريد معرفته.

ـ لقد توقفت عمليات الإعدام، هكذا يبدو ـ دمدمت وهي تلقي نظرة إلى الحارس الذي يدير ظهره ـ هنالك حوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة معتقل، وفق تقديراتنا. وقد جاؤوا بمعظمهم إلى هنا ووزعوهم على سجون في كافة أنحاء إنكلترا. حددنا وجود حوالي ثمانين امرأة بينهم. هنالك جمعيات عديدة تساعدنا. ومحامون إنكليز كثيرون عرضوا علينا تولي قضايا السجناء مجاناً.

كانت الأسئلة تتصادم في رأس روجر. كم من الأصدقاء بين القتلى، بين الجرحى، بين المعتقلين؟ ولكنه كبح نفسه. لماذا التحري عن أمور لا يمكنه عمل شيء بشأنها ولن تنفع إلا في زيادة مرارته؟

ـ أتعرفين يا إليس؟ أحد الأسباب التي تجعلني أرغب في أن يخففوا عني حكم الإعدام، هو أنني سأموت، إذا هم لم يخففوا الحكم، دون أن أكون قد تعلمت اللغة الأيرلندية. أما إذا خففوا الحكم فسوف أبدأ بتعلمها بعمق، وأعدك بأننا سنتكلم باللغة الغيلية ذات يوم في قاعة الزيارات هذه.

هزت رأسها موافقة مع ابتسامة لم تخرج معها كاملة.

ـ الغيلية لغة صعبة ـ قالت وهي تربت على ذراعه ـ إنها تحتاج إلى كثير من الوقت والصبر لتعلمها. لقد عشتَ حياة مضطربة جداً يا عزيزي. ولكن لا تحزن، فقلة هم الأيرلنديون الذين قدَّموا ما قدمته أنت في سبيل أيرلندا.

ـ بفضلك أنتِ يا عزيزتي إليس. إنني مدين لك بأشياء كثيرة. صداقتك، حسن ضيافتك، ذكاؤك، ثقافتك. تلك السهرات في أيام الثلاثاء في شارع غروسنفور مع أشخاص استثنائيين، في تلك الأجواء بالغة اللطف. إنها أفضل ذكريات حياتي. يمكنني الآن أن أخبركِ بهذا وأن أشكرك عليه يا صديقتي العزيزة. أنتِ من علمتني أن أحب ماضي أيرلندا وثقافتها. لقد كنت معلمة كريمة، أغنيتِ حياتي كثيراً.

كان يقول ما شعر به وصمت عنه على الدوام، بفعل الحياء. فمنذ أن تعرف إليها، كان يقدّر ويحب المؤرخة والكاتبة إليس ستوبفورد غرين التي أسهمت كتبها ودراساتها حول الماضي التاريخي والأساطير

والخرافات الأيرلندية أكثر من أي شيء آخر في منح كيسمنت هذا «الكبرياء السلتي» الذي يفاخر به بكثير من القوة إلى حدّ أنه يستثير، في بعض الأحيان، سخرية أصدقائه الوطنيين أنفسهم. لقد تعرف إلى إليس قبل أحد عشر عاماً، عندما طلب منها العون في قضية **جمعية إصلاح الكونغو** التي أسسها روجر مع إيدموند د. موريل. عند بدء معركة هؤلاء الأصدقاء الجدد الشاملة ضد ليوبولد الثاني ومخلوقه الميكافيلي المتمثل بدولة الكونغو المستقلة. الحماسة التي عملت بها إليس ستوبفورد غرين في حملة تنديده بأهوال الكونغو كانت حاسمة لدفع كثير من أصدقائها الكتّاب والسياسيين إلى الانضمام إليها. وقد تحولت إليس إلى الوصية والموجهة الفكرية لروجر الذي ما إن يتواجد في لندن حتى يهرع كل أسبوع إلى صالون الكاتبة. إلى تلك السهرات التي يحضرها أساتذة جامعيون وصحفيون وشعراء ورسامون وموسيقيون وسياسيون ممن هم، بصورة عامة، منتقدون مثلها للإمبريالية والاستعمار ومناصرون لـ Home Rule أو الحكم الذاتي لأيرلندا، وحتى وطنيون رديكاليون يطالبون باستقلال أيرلندا التام. في الصالونات الأنيقة والمترعة بالكتب في بيت شارع غروسنفور، حيث تحتفظ إليس بمكتبة زوجها المتوفى، المؤرخ جون ريتشارد غرين، تعرف روجر إلى و. ب. يتس، والسير أرثر كانون دويل، برنارد شو، وج. ك. شيستيرتون، وجون غالسورثي، وروبرت كانينغهام غراهام وغيرهم كثير من الكتّاب الرائجين.

ـ لدي سؤال كان عليّ أن أوجهه أمس إلى جي، لكنني لم أتجرأ ـ قال روجر ـ هل وقّع كونراد على الالتماس؟ لم يأتِ أي من المحامي أو جي على ذكر اسمه.

نفت إليس بحركة من رأسها.

ـ أنا نفسي كتبتُ إليه طالبة توقيعه ـ أضافت مستاءة ـ. وكانت مسوغاته مشوشة. لقد كان متهرباً على الدوام من الدخول في القضايا السياسية. ربما لا يشعر بالأمان التام بسبب وضعه كمواطن إنكليزي مندمج. وهو من جانب آخر، كبولوني، يكره ألمانيا بقدر كراهيته لروسيا لأنهما أزالا بلده من الوجود لقرون طويلة. وباختصار، لست أدري. لقد أسفنا جميعنا نحن أصدقاءك أشد الأسف لموقفه. يمكن للمرء أن يكون كاتباً كبيراً ومجرد رعديد في المسائل السياسية. أنت تعرفه خيراً من الجميع يا روجر.

هز كيسمنت رأسه موافقاً. وندم لأنه وجه السؤال. كان من الأفضل له ألا يعرف ذلك. فغياب هذا التوقيع سيعذبه الآن بقدر ما يعذبه إخبار المحامي غافن دافي له بامتناع صديقه، أخوه *البولدوغ*، إدموند د. موريل، عن التوقيع أيضاً على طلب تخفيف العقوبة. وقد برر رفيقه في النضال لمصلحة سكان الكونغو الأصليين، امتناعه عن التوقيع بحجة الولاء الوطني في أزمنة الحرب.

ـ عدم توقيع كونراد لن يغير كثيراً في الأمور ـ قالت المؤرخة ـ فتأثيره السياسي على حكومة أسكويث معدوم.

ـ لا، لن يؤثر طبعاً ـ وافقها روجر.

ربما لم تكن له أهمية في نجاح الالتماس أو إخفاقه، ولكنه بالنسبة إلى روجر، في أعماقه الحميمة، يملك تلك الأهمية. فلسوف يُشعره بالتحسن أن يتذكر، في نوبات اليأس التي تنتابه في زنزانته، أن شخصاً

بمثل شهرة كونراد، يقدّره أناس كثيرون ـ بمن فيهم هو نفسه ـ يسانده في هذه الأزمة ويوصل إليه، بذلك التوقيع، رسالة تفهّم وصداقة.

ـ أنتَ عرفته منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ ـ سألته إليس، كما لو أنها تحدس أفكاره.

ـ منذ ستة وعشرين عاماً بالضبط. في حزيران ١٨٩٠، في الكونغو ـ حدد روجر ـ لم يكن قد صار كاتباً بعد. وإن يكن، إذا لم تخني الذاكرة، قد قال لي إنه بدأ كتابة رواية. إنها ***جنون آلماير*** دون شك، أول رواية نشرها. وقد أرسلها إليّ مع إهداء. مازلت أحتفظ بالنسخة في مكان ما. لم يكن قد نشر شيئاً بعد. وكانت إنكليزيته تكاد لا تُفهم بسبب لكنته البولونية القوية.

ـ ومازالت غير مفهومه حتى الآن ـ ابتسمت إليس ـ فهو لا يزال يتكلم الإنكليزية بتلك اللكنة المريعة. مثل من «يمضغ الحصى»، كما يقول برنارد شو. ولكنه يكتبها بطريقة سماوية، سواء أعجبنا ما يكتبه أم لم يعجبنا.

أعادت الذاكرة إلى روجر ذكرى ذلك اليوم من شهر حزيران ١٨٩٠، عندما وصل إلى ماتادي ذلك الربان الشاب في البحرية التجارية البريطانية، وكان يتعرق من حر الصيف الرطب الذي بدأ للتو، ويبدي انزعاجه من لسع البعوض الذي ينقض بضراوة على بشرته الأجنبية. ثلاثيني له جبين منحسر، ولحية صغيرة شديدة السواد، وجسم متين، وعينان غائرتان، يدعى كونراد كورزينيوفسكي، وهو بولوني متجنس إنكليزي منذ سنوات قليلة. ومتعاقد مع الشركة البلجيكية المغفلة للتجارة في أعالي الكونغو، وقد جاء للخدمة كقبطان في أحد المراكب

البخارية التي تنقل البضائع بين ليوبولدفيل ـ كينشاسا وشلالات ستانلي البعيدة في كيسانغاني. كانت تلك هي وجهته الأولى كربان سفينة، وكان ذلك يملؤه بأحلام ومشاريع. لقد وصل إلى الكونغو مشبعاً بكل الأوهام والخرافات التي ختم بها ليوبولد الثاني صورته كإنساني عظيم وعاهل منكب على تمدين أفريقيا وتحرير الكونغوليين من العبودية والوثنية وممارسات همجية أخرى. وعلى الرغم من خبرته الطويلة في الترحال عبر بحار آسيا وأميركا، وقراءاته الواسعة وموهبته في تعلم اللغات، كان هناك في البولوني شيء من البراءة والطفولة أغوى كيسمنت على الفور. وكان التعاطف متبادلاً، فمنذ ذلك اليوم الذي تعارفا فيه وطوال ثلاثة أسابيع تالية، ذهب بعدها كورزينيوفسكي برفقة ثلاثين حمالاً عبر طريق القوافل إلى ليوبولدفيل ـ كينشاسا، حيث عليه أن يتسلم قيادة سفينته ***ملك البلجيكيين***، كانا يلتقّيان صباحاً ومساء وليلاً.

قاما بجولات في محيط ماتادي، حتى فيفا التي لم تكن قد وُجدت بعد، والتي ستكون العاصمة الأولى والعابرة للمستعمرة، والتي لم يبق منها ولو أطلال، وكانا يصلان حتى نهر مبوزو، حيث احتجزت، كما تقول الأسطورة، دوامات وطفرات شلالات لفينغستون ومرجل الجحيم، الملاح البرتغالي دييغو كاو، قبل أربعة قرون. وفي سهل لوفوندي، أرى روجر الشاب البولندي المكان الذي أقام فيه المكتشف هنري مورتون ستانلي بيته الأول الذي اختفى بعد سنوات في حريق. ولكنهما، قبل ذلك كله، تبادلا الحديث كثيراً، وحول أمور كثيرة، وإن تكن معظم أحاديثهما حول ما يحدث في دولة الكونغو المستقلة المحدثة التي وصلها كونراد للتو، وحيث كان روجر قد أمضى ست

سنوات. بعد أيام قليلة على تلك الصداقة تكوّنت لدى البولوني فكرة مختلفة جداً عن تلك التي جاء بها حول المكان الذي أتى للعمل فيه. و«افتُضَّت عذريته» كما قال لروجر وهو يودعه، في فجر يوم السبت، الثامن والعشرين من حزيران ١٨٩٠، عند توجهه إلى جبال البلور. هذا ما قاله له، بلكنته الحصوية والحاسمة: «لقد افتضَّتَ عذريتي يا كيسمنت، حول ليوبولد الثاني، وحول دولة الكونغو المستقلة، وربما حول الحياة نفسها». وكرر بدراماتيكية: «افتضَّتَ عذريتي».

وعادا للقاء عدة مرات، خلال رحلات روجر إلى لندن، وتبادلا بعض الرسائل. وبعد ثلاثة عشر عاماً من ذلك اللقاء الأول، في حزيران ١٩٠٣، تلقى كيسمنت، وكان موجوداً في انكلترا، دعوة من جوزيف كونراد (هكذا صار يدعى بعد أن تحول إلى كاتب مشهور) لقضاء نهاية الأسبوع في بينت فارم، بيته الريفي في هياث، بكنت. وكان الروائي يعيش هناك مع زوجته وابنه حياة بسيطة ومنعزلة. ويحتفظ روجر بذكرى دافئة من تينك اليومين إلى جانب الكاتب. فقد صار يتخلل شعره ولحيته الآن بعض الشيب، وازداد سمنة واكتسب من عجرفة المثقفين في أسلوبه في التعبير. ولكنه أبدى نحوه انفتاحاً استثنائياً. وعندما هنأه روجر على روايته الكونغولية *«قلب الظلام»* التي قرأها للتو وهزت أعماقه ـ قال له ـ لأنها الوصف الأكثر استثنائية للأهوال التي يعيشها الكونغو. طوقه كونراد بيديه:

ـ كان عليّ أن أذكر اسمك كمؤلف مساعد لهذا الكتاب يا كيسمنت ـ أكد وهو يربت على ظهره ـ. ما كان لي أن أكتبه دون مساعدتك. أنت

من أزلت الغشاوة عن عيني حول أفريقيا، وحول دولة الكونغو المستقلة، وحول الوحش البشري.

وفي حديث على انفراد بعد تناول الطعام ـ كانت السيدة كونراد الفطنة، وهي امرأة من أصول متواضعة جداً، قد انسحبت مع ابنها الطفل للراحة ـ قال الكاتب لروجر، بعد الكأس الثاني من نبيذ أوبورتو، إنه يستحق نيل لقب «بارتولومي دي لاس كاساس[1] البريطاني» بسبب ما يقوم به لمصلحة السكان الأصليين الكونغوليين. اصطبغ روجر بحمرة الخجل حتى أذنيه من ذلك الإطراء. كيف يمكن لشخص لديه مثل تلك الفكرة الطيبة عنه، وقدم له ولإدموند د. موريل مساعدة كبيرة في حملتهما ضد ليوبولد الثاني، أن يرفض التوقيع على مذكرة تطالب فقط بتخفيف عقوبة الإعدام عنه؟ ما الذي يورطه في ذلك مع الحكومة؟

كان يتذكر لقاءات أخرى متباعدة مع كونراد، خلال زياراته لندن. فقد التقى به ذات مرة، في ناديه، نادي ويلنغتون كلوب في ميدان غروسنفور، حيث يجتمع مع زملاء من وزارة الخارجية. وقد أصر الكاتب على أن يبقى روجر لتناول كأس كونياك معه بعد أن يودع زملاءه. استذكرا الحالة المعنوية الكارثية التي عاد بها البحار إلى ماتادي، بعد ستة شهور من مروره العابر منها. كان روجر لا يزال يعمل

---

(١) بارتولومي دي لاس كاساس: Bartolome de las Casas كاهن إسباني مولود في أشبيلية (١٤٧٤-١٥٦٦)، منذ وصوله إلى العالم الجديد عام ١٥٠٢، ناضل بحماسة ضد تعسف الفاتحين الإسبان لهنود أميركا، ولاسيما في المكسيك، حتى أُطلق عليه لقب «حامي الهنود»، و«رسول بلاد الهند»، ألف كتاباً توثيقياً بالغ الأهمية بعنوان «القصة الدقيقة لتدمير بلاد الهند».

في ذلك المكان، مسؤولاً عن المستودعات والنقل. لم يكن كونراد كورزينيوفسكي ولو مجرد شبح للشاب المتحمس والمفعم بالأحلام الذي عرفه روجر قبل نصف عام. فقد أثقلت كاهله سنون، وكانت أعصابه متوترة ولديه مشاكل في المعدة بسبب الطفيليات. كانت حالات الإسهال المتتالية قد أفقدته الكثير من وزنه. ولم يكن يحلم، في مرارته وتشاؤمه، إلا بالعودة في أسرع وقت إلى لندن، ليضع الحقيقة بين أيدي المختصين.

ـ أرى أن الأدغال لم تكن رحيمة معك يا كونراد. لا تخف. هكذا هي الملاريا، تتأخر في المغادرة حتى بعد انقضاء الحمى.

كانا يتبادلان الحديث، بعد تناول الطعام، على شرفة البيت الصغير الذي يشكل منزل روجر ومكتبه. لم يكن هناك قمر ولا نجوم في ليل ماتادي، ولكن المطر لم يهطل وكان أزيز الحشرات يهدهد لهما بينما هما يدخنان ويتناولان رشفات من الكأسين اللتين في يديهما.

ـ لم تكن الأدغال هي الأسوأ، ولا هذا المناخ بالغ السوء، والحمى التي أبقتني في ما يشبه الغيبوبة قرابة أسبوعين ـ قال البولوني شاكياً ـ ولا حتى الديزنطاريا المرعبة التي جعلتني أتبرز دماً لخمسة أيام متواصلة. الأسوأ، الأسوأ يا كيسمنت هو كوني شاهداً على الأشياء الفظيعة التي تحدث يومياً في هذه البلاد اللعينة. الأشياء التي يقترفها الشياطين السود والشياطين البيض أينما وجّه أحدنا عينيه.

كان كونراد قد قام برحلة ذهاب وإياب في السفينة البخارية الصغيرة التي عليه أن يقودها، واسمه: ***ملك البلجيكيين***، انطلاقاً من ليوبولدفيل ـ كينشاسا حتى شلالات ستانلي. وقد سار كل شيء بصورة سيئة في

تلك الرحلة إلى كيسانغاني. كان على وشك الغرق حين انقلب الزورق الذي علق فيه المجذفون غير المجربين في إحدى الدوامات بالقرب من كينشاسا. وأبقته الملاريا طريح الفراش محموماً في قمرته الضيقة، لا يجد القوة للنهوض. وهناك علم أن قبطان *ملك البلجيكيين* السابق قد قتل بسهم في نزاع مع وطنيي إحدى القرى. كما أن موظفاً آخر من موظفي الشركة البلجيكية المغفلة للتجارة في أعالي الكونغو، والذي ذهب كونراد لإحضاره من دسكرة معزولة حيث كان يجمع العاج والمطاط، قد مات بمرض غير معروف خلال الرحلة. ولكن ما أثار حنق البولوني ليس النكبات الجسدية التي أحاطت به.

ـ إنه الفساد الأخلاقي، فساد الروح الذي يغزو كل شيء في هذه البلاد ـ كرر بصوت أجوف، ضبابي، كمن هو مصاب برعشة رؤيا قيامية.

ـ لقد حاولتُ أن أهيئك لما ستواجهه عندما تعارفنا ـ ذكّره كيسمنت ـ يؤسفني أنني لم أكن أكثر وضوحاً في شرح ما ستجده هناك في أعالي الكونغو.

ما الذي أثر فيه كل ذلك التأثير؟ أهو اكتشافه أن ممارسات بدائية جداً مثل أكل اللحم البشري مازالت شائعة لدى بعض القبائل؟ أم تداول العبيد لدى القبائل وفي المواقع التجارية حيث مازال يتم انتقالهم من مالك إلى آخر مقابل بعض الفرنكات؟ أم إخضاع المحرِّرين المزعومين للكونغوليين لأشكال أشد سوءاً من اضطهاد العبودية؟ أتكون قد أثقلت عليه رؤية ظهور الوطنيين مشققة بضربات السياط؟ أيكون أنه رأى، أول مرة في حياته، رجلاً أبيض يجلد زنجياً إلى أن يتركه وقد تحول جسده

إلى شبكة متقاطعة من الجراح؟ لم يطلب منه تحديد السبب، ولكن قبطان ***ملك البلجيكيين*** كان شاهداً، دون شك، على أمور رهيبة حين انتهى إلى الاستقالة والتخلي عن عقد عمله لثلاث سنوات كي يرجع بأسرع ما يمكن إلى إنكلترا. وقد أخبر روجر، إضافة إلى ذلك، أنه في ليوبولدفيل ـ كينشاسا، لدى عودته من شلالات ستانلي، دخل في جدال عنيف مع كاميل ديلكومان، مدير الشركة البلجيكية المغفلة للتجارة في أعالي الكونغو، وقال له إنه «همجي بسترة وقبعة». إنه يريد الآن أن يعود إلى الحضارة، وهو ما يعني له إنكلترا.

ـ هل قرأتِ ***قلب الظلام***؟ ـ سأل روجر إليس ـ أتظنين أن تلك الرؤية للكائن البشري عادلة؟

ـ أعتقد أنني لا أعرف ـ ردّت المؤرخة ـ لقد ناقشنا الرواية مطولاً في إحدى سهرات الثلاثاء، عند صدورها. هذه الرواية هي قطع مكافئ تحول أفريقيا بمقتضاه المتحضرين الأوروبيين الذين يذهبون إليها إلى برابرة. بينما أثبت ما أوردته أنت في ***تقرير حول الكونغو*** العكس: إننا نحن الأوروبيين من حملنا إلى هناك أسوأ الفظائع. أضف إلى ذلك أنك أقمت عشرين عاماً في أفريقيا دون أن تتحول إلى متوحش. بل إنك رجعت أكثر تحضراً مما كنت عليه عند خروجك من هنا مؤمناً بمنافع الاستعمار والإمبراطورية.

ـ كونراد يقول إن الفساد الأخلاقي البشري خرج إلى السطح في الكونغو. لدى البيض والسود على السواء. لقد أرقتني رواية ***قلب الظلام*** مرات كثيرة. أنا أظن أنها لا تصف الكونغو، ولا الواقع، ولا

التاريخ، وإنما تصف الجحيم. الكونغو مجرد ذريعة لتقديم هذه الرؤية الفظيعة التي ينظر بها بعض الكاثوليكيين إلى الشر المطلق.

ـ آسف لمقاطعتكما ـ قال الحارس وهو يلتفت إليهما ـ لقد مرت خمس عشرة دقيقة والإذن بالزيارة يقضي بعشر دقائق فقط. يجب أن تتبادلا الوداع.

مدّ روجر يده إلى إليس، ولكنها، وأمام مفاجأته، فتحت له ذراعيها. ضمته إليها بقوة. «سنواصل عمل كل شيء، كل شيء، من أجل إنقاذ حياتك يا روجر»، همست في أذنه. وفكر هو: «لماذا تسمح إليس لنفسها بهذا الانفتاح، لا بد أنها مقتنعة بأن الالتماس سيُرفض».

وبينما هو عائد إلى الزنزانة شعر بالحزن. هل سيرى إليس ستوبفورد غرين مرة أخرى؟ كم من الأشياء تمثلها في نظره! ليس هناك من يجسد مثل المؤرخة ولعه بأيرلندا، ولعه الأخير والأشد زخماً، الأشد تصميماً، ولع استنفده ومن المحتمل أن يودي به إلى الموت. «ولستُ نادماً»، كرر. فقرون الاضطهاد الطويلة سببت الكثير من الآلام لأيرلندا، وكثرة الجور تستحق من المرء التضحية في سبيل هذه القضية النبيلة. لقد أخفق دون شك. فالخطة الدقيقة المحكمة التي وضعها لتسريع تحرر أيرلندا، بربطه النضال بألمانيا وضبطه لتوافق عمل هجومي يقوم به جيش وبحرية القيصر الألماني ضد إنكلترا مع انتفاضة قومية، لم تتم مثلما خطط لها. ولم يستطع كذلك أن يوقف ذلك التمرد. والآن، أُعدم رمياً بالرصاص شين ماكديرموت، وباتريك بيرز، وإيامون سينت، وتوم كلارك، وجوزيف بلانكيت وآخرون كثيرون. مئات الرفاق سيتعفنون في السجن لسنوات لا يعلم مداها إلا الله. ستبقى

أمثولتهم على الأقل، كما كان يقول المتهور جوزيف بلانكيت في برلين. أمثولتهم في التآمر، في الحب، في التضحية، من أجل قضية مشابهة للقضية التي جعلته يناضل ضد ليوبولد الثاني في الكونغو، وضد خوليو س. آرانا وجامعي المطاط بمنطقة بوتومايو في الأمازون. قضية العدالة، قضية المحروم ضد الأقوياء والمستبدين الذين يدوسونه. هل ستتمكن الحملة التي تدعوه منحطاً وخائناً من محو كل ما عداها؟ وما أهمية ذلك في نهاية الأمر. فالمهم يحسم هناك في الأعالي، والكلمة الأخيرة للرب الذي بدأ، أخيراً، يشفق عليه منذ بعض الوقت.

وبينما هو مستلق على ظهره فوق سريره الضيق، وعيناه مغمضتان، عاد جوزيف كونراد إلى ذاكرته. هل كان سيشعر بأنه أحسن حالاً لو أن البحار السابق وقّع على الالتماس؟ ربما نعم، وربما لا. ما الذي أراد أن يقوله له في تلك الليلة، في بيته بكنت، عندما أكد له: «قبل الذهاب إلى الكونغو، لم أكن سوى حيوان بائس»؟ لقد أذهلته الجملة، مع أنه لم يفهمها بالكامل. ما الذي تعنيه؟ ربما تعني أن ما فعله وما لم يفعله، ما رآه وما سمعه خلال تلك الشهور الستة في وسط وأعالي الكونغو قد أيقظت فيه حالات قلق أعمق وأكثر سمواً من الشرط الإنساني، أسمى من الخطيئة الأصلية، أسمى من الشر، أسمى من التاريخ. يمكن لروجر أن يفهم ذلك جيداً. فالكونغو قد أنسنته هو أيضاً، أن كون المرء إنساناً يعني معرفته الحدود القصوى التي يمكن أن يبلغها الجشع، والبخل، والأحكام المسبقة، والقسوة. وهذا هو الفساد الأخلاقي، أجل: إنه شيء لا وجود له بين الحيوانات، شيء يختص به الإنسان حصرياً. وقد كشفت له الكونغو أن هذه الأشياء تشكل جزءاً من الحياة. لقد فتحت عينيه. «افتُضّت عذريته» هو أيضاً، كما حدث للبولوني. عندئذ تذكر أنه

وصل إلى أفريقيا، حين كان في العشرين، وهو لا يزال بكراً. أليس ظلماً أن تتهمه الصحافة، أن تتهمه هو وحده، من بين أبناء بني البشر الكثيرين، بأنه حثالة، كما قال له **شريف** سجن بينتونفيل؟

ومن أجل مقاومة خمود الهمة الذي راح يسيطر عليه، حاول أن يتخيل كم سيكون من الممتع الاستحمام مطولاً في حوض حمّام، بكثير من الماء والصابون، بينما يلتصق بجسده جسد عارٍ آخر.

VI

انطلق من ماتادي يوم الخامس من حزيران ١٩٠٣، بالقطار الذي أنشأه ستانلي وشارك هو نفسه في مدّ سكته في شبابه. وخلال يومي الرحلة اللذين استغرقهما الطريق البطيء إلى ليوبولدفيل كان يفكر، بصورة مهووسة، بمأثرة رياضية قام بها في سنوات شبابه: كونه أول أبيض يسبح في أكبر نهر على طريق القوافل بين مانيانا وبحيرة ستانلي: نهر نكيسي. لقد فعل مثل ذلك، بعدم وعي كامل، في أنهار أصغر في الكونغو الأوسط والأدنى، أنهار كويلو، ولوكونغو، ومبوزو، ولونزادي، حيث كانت توجد تماسيح أيضاً، ولم يحدث له أي شيء. ولكن نهر نكيسي أكبر وأشد تدفقاً، عرضه حوالي مئة متر، وهو مملوء بالدوامات المائية بسبب قربه من الشلال العظيم. لقد حذره السكان الأصليون من أن في ذلك تهوراً، ويمكن للمياه أن تجره وتلطمه بالصخور. وبالفعل، بعد ضربات قليلة من ذراعيه، أحس روجر بتشنج ساقيه وبأنه يتقدم نحو مركز المياه تدفعه تيارات متلاقية لا يستطيع

التملص منها على الرغم من ضربات ساقيه وذراعيه النشطة. وعندما بدأت قواه تخونه ـ كان قد ابتلع بضع دفقات من الماء ـ تمكن من الاقتراب من الضفة منقلباً بقوة موجة. وهناك تشبث ببعض الصخور كيفما استطاع. وعندما تسلق المنحدر كانت الخدوش تملأ بدنه. وكان قلبه يوشك على الخروج من فمه.

استمرت الرحلة التي انطلق بها أخيراً ثلاثة شهور وعشرة أيام. وسيفكر روجر، في ما بعد، في أن تلك الفترة قد بدّلت أسلوب حياته وحوّلته إلى رجل آخر، أكثر تبصراً وواقعية مما كان عليه من قبل بشأن الكونغو، وأفريقيا، والكائنات البشرية، وأيرلندا، والحياة. غير أن تلك التجربة جعلت منه، أيضاً، كائناً أكثر ميلاً إلى التعاسة. وخلال ما تبقى له من سنوات في الحياة، سيقول مرات كثيرة، في لحظات فتور الهمة، إنه كان من الأفضل له ألا يقوم بتلك الرحلة إلى وسط وأعالي الكونغو ليتأكد مما هو صحيح من اتهامات بظلم السكان الأصليين في مناطق المطاط يوجهها في لندن بعض الإنكليز وذلك الصحفي المدعو ادموند د. موريل الذي يبدو أنه كرس حياته لانتقاد ليوبولد الثاني ودولة الكونغو المستقلة.

في المقطع الأول من الرحلة، بين ماتادي وليوبولدفيل، فوجئ بإقفار المشهد من الناس، ففي قرى مثل تومبا، حيث قضى الليل، يبللها بالماء واديا نسيلي وندولو، وكانت في ما مضى تعج بالناس، صارت شبه مقفرة، فيها مسنون شبحيون يجرجرون أقدامهم على الأرض الترابية، أو يتكورون مستندين إلى جذوع الأشجار، بعيون مغمضة، كأنهم موتى أو نائمون.

في تلك الشهور الثلاثة والعشرة أيام، كان يتكرر مرة بعد أخرى، ككابوس، الانطباع بالإقفار من السكان واختفاء الناس، وتلاشي القرى التي مرّ بها، أو قضى الليل أو تاجر فيها قبل خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً. يتكرر الأمر في المناطق كلها، سواء على ضفاف نهر الكونغو وروافده، أم في المناطق الداخلية، عند توغل روجر لجمع شهادات مبشرين، وموظفين، وضباط وجنود القوة العامة، والسكان الأصليين الذين يستطيع استجوابهم بلغات اللينغالا والكيكونغو والسواحلية، أو بلغاتهم الخاصة مستعيناً بمترجمين. أين هم الناس؟ الذاكرة لا تخونه. فالكثافة البشرية ماثلة في ذاكرته، جموع الأطفال، والنساء، والرجال الموشومين ذوي الأسنان القواطع المبرودة، وعقود الأسنان، والذين يظهرون أحياناً بالرماح والأقنعة، ممن كانوا يحيطون به في الماضي، يتفحصون ويتلمسون. كيف يمكن أن يكونوا قد تبخروا خلال سنوات قليلة؟ بعض القرى انقرضت، وفي قرى أخرى تناقص السكان إلى النصف، أو الثلث، أو حتى إلى العُشر. وتمكن في بعض الأماكن من التوصل إلى أرقام دقيقة. ففي لوكوليلا، مثلاً، حين زارها روجر أول مرة في العام ١٨٨٤، كانت هذه البلدة المأهولة تضم أكثر من خمسة آلاف نسمة. أما الآن فيكاد لا يوجد فيها سوى ٣٥٢ شخصاً. معظمهم في حالة مدمرة من الشيخوخة أو الأمراض، وبعد أن أجرى كيسمنت تفتيشه، توصل إلى أن ٨٢ شخصاً فقط من المتبقين على قيد الحياة مازالوا قادرين على العمل. كيف تبخر أكثر من أربعة آلاف من سكان لوكوليلا؟

تفسيرات وكلاء الحكومة، وموظفي شركات جمع المطاط وضباط القوة العامة، هي نفسها دائماً: الزنوج يموتون كالذباب بسبب داء

النوم، والجدري، والتيفوس، والبرداء، وذات الرئة، وحمى المستنقعات وأوبئة أخرى تعيث خراباً، بسبب سوء التغذية، بتلك الأجساد غير المهيأة لمقاومة الأمراض. هذا صحيح، فقد كانت الأوبئة تُحدث أضراراً. وبصورة خاصة داء النوم الذي تتسبب به، كما اكتُشف قبل سنوات قليلة، ذبابة تسي تسي التي تهاجم الدم والدماغ، وتسبب لضحاياها شللاً في الأعضاء وسباتاً لا يخرجون منه قطّ. ولكن روجر كيسمنت، وبعد بلوغه ذلك الحدّ من رحلته، ظل يتساءل عن سبب إقفار الكونغو من السكان، ليس بحثاً عن أجوبة، وإنما ليُثبت أن الأكاذيب التي يسمعها ما هي إلا تعليمات يرددها الجميع. فهو يعرف الجواب جيداً. الجائحة التي بخرت قسماً كبيراً من كونغوليي وسط وأعالي الكونغو هي جائحة الجشع والقسوة، جائحة لمطاط، عدم إنسانية ذلك النظام، واستغلال المستعمرين الأوروبيين القاسي للأفارقة.

لقد قرر وهو في ليوبولدفيل أن يمتنع عن استخدام أي وسيلة نقل رسمية، من أجل الحفاظ على استقلاليته وكيلا يجد نفسه خاضعاً لضغوط السلطات. وبإذن من وزارة الخارجية استأجر من اتحاد البعثات التبشيرية المعمدانية الأمريكية السفينة ***هنري ريد*** مع طاقم بحارتها. كان التفاوض بطيئاً، وكذلك التزود بالحطب والمؤن للرحلة. فكان لا بد لإقامته في ليوبولدفيل ـ كينشاسا أن تمتد من السادس من حزيران حتى الثاني من تموز، اليوم الذي أبحروا فيه باتجاه أعالي النهر. لقد كان ذلك الانتظار حكيماً. فالحرية التي وفرها له السفر في سفينته الخاصة، والتوغل والتوقف أينما شاء، أتاحت له التقصي عن أمور ما كان له أن يكتشفها أبداً لو أنه خضع للتعليمات الاستعمارية. وما كان يمكن له أن يتوصل أبداً إلى كل تلك الحوارات مع الأفارقة أنفسهم، لو أنه لم يكن

يمضي دون مرافقة أي نوع من العسكريين أو السلطات المدنية البلجيكية.

لقد توسعت ليوبولدفيل كثيراً عما كانت عليه منذ المرة الأخيرة التي جاء فيها روجر إليها، قبل ست أو سبع سنوات. لقد امتلأت بالبيوت والمستودعات، والبعثات التبشيرية، والمكاتب، والمحاكم، والجمارك، والمفتشين، والقضاة، والمحاسبين، والضباط والجنود، والمتاجر والأسواق. هناك رهبان وقسس في كل مكان. وهو أمر أزعجه في المدينة الوليدة منذ اللحظة الأولى. لم يكن استقبالهم له هناك سيئاً. وقد عاملوه بمودة، ابتداء من الحاكم حتى المفوض، مروراً بالقضاة والمفتشين الذين ذهب لتحيتهم، وحتى القسس البروتستانت والمبشرين الكاثوليك الذين زارهم. وأبدوا جميعهم استعدادهم لأن يقدموا إليه المعلومات التي يطلبها، وإن كانت تلك المعلومات، مثلما تأكد بعد أسابيع، متهربة أو مزيفة بصورة وقحة. كان يشعر بشيء معادٍ وضاغط يضمخ الجو والهيئة التي راحت المدينة تكتسبها. أما برازافيل، عاصمة الكونغو الفرنسي المجاورة، التي تنتصب هناك في الجهة المقابلة، على الضفة الأخرى للنهر، والتي اجتاز النهر إليها مرتين، فقد أحدثت لديه انطباعاً أقل جوراً، بل لطيفاً. ربما بسبب شوارعها المفتوحة وحسنة التخطيط وطيب مزاج أهلها. لم يلحظ فيها تلك الأجواء السرية البغيضة السائدة في ليوبولدفيل. وخلال قرابة أربعة أسابيع قضاها هناك، للتفاوض بشأن استئجار السفينة ***هنري ريد***، حصل على معلومات كثيرة، ولكن كان يراوده على الدوام إحساس بأن أحداً هناك لا يصل إلى عمق الأمور، حتى إن أطيب الناس نية كانوا يخفون

عنه شيئاً ما، ويخفونه عن أنفسهم بالذات، خوفاً من مواجهة حقيقة رهيبة وجلية.

وسيقول له، في ما بعد، صديقه هربرت وارد إن ذلك كله محض أحكام مسبقة، وإن الأمور التي رآها وسمعها في الأسابيع التالية شوشت، بأثر رجعي، ذكراه عن ليوبولدفيل. ومع ذلك، لم تحتفظ ذاكرته بصور سيئة فقط عن المدينة التي أسسها هنري مورتون ستانلي عام ١٨٨١. فذات صباح، بعد جولة طويلة مشياً على قدميه مستغلاً برودة النهار، وصل روجر إلى المرسى. وهناك تركز انتباهه، فجأة، على شابين أسمرين شبه عاريين يفرغان حمولة بعض الزوارق وهما يغنيان. كانا يبدوان فتيين جداً. يرتديان مئزرين خفيفين لا يخفيان شكل إليتيهما بالكامل. وكلاهما نحيل الجسم ومرنه، حركاتهما في تفريغ حزم البضائع إيقاعية تعطي انطباعاً بالعافية والتناسق والجمال. ظل يتأملهما طويلاً. وتأسف لأنه لا يحمل آلة التصوير. فقد رغب في تصويرهما، كي يتذكر في ما بعد أنه لم يكن كل شيء قبيحاً وقذراً في مدينة ليوبولدفيل الناشئة.

عندما أبحرت ***هنري ريد*** أخيراً، في الثاني من تموز ١٩٣٠، وراحت تجتاز بحيرة ستانلي النهرية الصقيلة والهائلة، أحس روجر بالتأثر. ففي الضفة الفرنسية كانت تُرى، في الصباح النقي، منحدرات رملية تُذكِّره بالمنحدرات الصخرية البيضاء في دوفر. كانت طيور أبو منجل ذات الأجنحة الكبيرة تحوم فوق البحيرة، أنيقة ومتكبرة، وتلمع تحت الشمس. ظلَّ بهاء المشهد على حاله دون تبدل لفترة لا بأس بها من النهار. وبين حين وآخر كان المترجمون والحمالون وحملة مناجل

المتشيتي يشيرون بهياج إلى الوحل حيث تظهر آثار فيلة، وأفراس نهر، وجواميس، وظباء. وكان كلبه البولدوغ **جون** سعيداً بالرحلة، يركض من جهة إلى أخرى في المركب ليطلق فجأة نباحاً مدوياً. ولكن الوصول إلى تشومبيري، حيث توقفوا لجمع الحطب، تبدل مزاج **جون** بغتة، فسيطر عليه الغضب، وتدبر أمره ليعض خلال ثوان قليلة خنزيراً وعنزة وحارس بستان الخضراوات الذي يملكه قسس جمعية التبشير المعمدانية بجوار دار البعثة. فكان على روجر أن يعوض عنهم بهدايا.

ومنذ يوم الرحلة الثاني بدأت تمر بهم مراكب بخارية وزوارق محملة بسلال مملوءة بالمطاط تمضي نزولاً في نهر الكونغو نحو ليوبولدفيل. وسيرافقهم هذا المشهد طيلة ما تبقى من مسارهم، كما بدؤوا يرون، من آن لآخر، بين أدغال الضفاف، بروز أعمدة التلغراف الذي يجري إنشاؤه، وسقوف ضياع يهرب ساكنوها متوغلين في الغابة حين يرون اقترابهم. وفي ما بعد، عندما كان روجر يرغب في استجواب وطنيين في إحدى القرى، صار يرسل إليهم أولاً أحد المترجمين ليشرح لأهالي القرية أن القنصل البريطاني يأتي وحده، وليس معه أي ضابط بلجيكي، لتقصي حاجاتهم وما يواجهون من مشكلات.

وفي اليوم الثالث، في بولوبو، حيث كانت هناك أيضاً بعثة لجمعية التبشير المعمدانية، وجد المقدمة الأولى لما كان ينتظره. فمن أثرت فيه أكثر من الجميع بين فريق المبشرين المعمدانيين، لنشاطها وذكائها ولطفها، هي الدكتورة ليلي دي هايلز. فهي طويلة القامة، لا تعرف الكلل، متقشفة، ثرثارة، تقيم منذ أربعة عشر عاماً في الكونغو، وتتكلم

عدة لغات محلية وتدير مستشفى للسكان المحليين بكثير من الإنكباب والفعالية. كان المكان مزدحماً. وبينما هما يذرعان شِباك النوم المعلقة والأسرَّة والحصائر التي يرقد عليها المرضى، سألها روجر بكل تعمد عن سبب وجود ضحايا كثيرين بجراح في إلياتهم وسيقانهم وظهورهم. فنظرت إليه مس هايلز بتسامح.

ـ إنهم ضحايا جائحة تسمى السوط أيها السيد القنصل. وهو وحش أشد ضراوة من الأسود وأفاعي الكوبرا. ألا توجد سياط في بوما وفي ماتادي؟

ـ إنها لا تستخدم بحرية واسعة كما هي الحال هنا.

لابد أنه كان للدكتورة هايلز في شبابها شعر ضارب إلى الحمرة، ولكنه امتلأ مع مرور السنوات بالشيب ولم تبق فيه سوى بعض الخصلات المشتعلة التي تفلت من منديل تغطي به رأسها. وكانت الشمس قد حمصت وجهها المعروق، وعنقها وذراعيها، أما عيناها الخضراوان فما زالتا فتيتين ولامعتين، تتلألأان بإيمان جامح.

ـ وإذا كنت ترغب في معرفة سبب وجود كونغوليين كثيرين أيديهم وأعضاؤهم التناسلية مضمدة، فيمكنني أن أفسر لك هذا الأمر أيضاً ـ أضافت ليلي هايلز متحدية ـ. لأن جنود القوة العامة يقطعون أيديهم وأعضاءهم الذكرية أو يهشمونها بضربات الماتشيتي. لا تنسى ذكر هذا في تقريرك. إنها أمور لا تقال عادة في أوروبا عندما يدور الحديث عن الكونغو.

في مساء ذلك اليوم، وبعد أن أمضى عدة ساعات في التحدث، من خلال مترجمين، إلى الجرحى والمرضى في مستشفى بولوبو، لم

يستطع روجر تناول العشاء. أحس بأنه أخطأ بحق قسس البعثة، ومنهم الدكتورة هايلز، الذين قاموا بشي فروج في فرنهم. اعتذر لهم بالقول إنه لا يشعر بأنه على ما يرام. كان متأكداً من أنه، إذا ما تذوق لقمة واحدة، سيتقيأ على مضيفيه.

ـ إذا كان ما رأيتَه قد أصابكَ بالتوعك، فربما لن يكون من الملائم أن تقابل النقيب ماسارد ـ نصحه رئيس البعثة ـ. فمجرد الاستماع إليه تجربة. . . حسن، كيف أقول لك ذلك، إنها تجربة تحتاج إلى معدة متينة.

ـ هذا ما رأيت عليه نصف الكونغو أيها السادة.

لم يكن بيير ماسارد، النقيب في القوة العامة، شخصاً مرموقاً في بولوبو وإنما في مبونغو، حيث توجد حامية ومعسكر تدريب للأفارقة الذين سيكونون جنوداً في تلك القوة المكلفة بحفظ النظام والأمن. وقد كان في رحلة تفتيش، ونصب خيمة صغيرة على مقربة من البعثة التبشيرية. دعاه القسس للتحدث مع القنصل، وحذروا هذا الأخير من أن الضابط مشهور بطبعه النزق. السكان المحليون يلقبونه «مالو مالو» ومن المآثر المشؤومة التي تنسب إليه إقدامه على قتل ثلاثة أفارقة متمردين، وضعهم في رتل واحد، وأرداهم برصاصة واحدة. وبالتالي يمكن انتظار أي شيء منه، ومن غير المناسب استثارته.

كان رجلاً قوياً وأقرب إلى قصر القامة، له وجه مربع وشعر حليق بالكامل، وأسنان ملطخة بالنيكوتين، وابتسامة متجمدة على وجهه. عيناه صغيرتان ومشقوقتان قليلاً، وصوته حاد، شبه أنثوي. كان القسس قد أعدوا مائدة حلوى من درنات المنيهوت وعصير مانغا. ومع أنهم لا

يشربون الكحول إلا أنهم لم يعترضوا على إحضار كيسمنت زجاجة براندي من السفينة ***هنري ريد*** وزجاجة أخرى من النبيذ. صافح النقيب الجميع باحتفالية، وحيا روجر بانحناءة باروكية داعياً إياه «***صاحب السعادة، السيد القنصل***». تبادلا نخباً وشربا وأشعلا سيجارتيهما.

ـ إذا كنت تسمح لي أيها النقيب ماسارد، أرغب في توجيه سؤال إليك ـ قال روجر.

ـ يا لفرنسيتك الجيدة أيها السيد القنصل. أين تعلمتها؟

ـ بدأت تعلمها وأنا فتى في إنكلترا. ولكنني أتقنتها هنا، في الكونغو، حيث أعيش منذ سنوات طويلة. لا بد أنني أتكلمها بلكنة بلجيكية، هذا ما أتصوره.

ـ وجِّه إليّ كل ما ترغب فيه من أسئلة ـ قال ماسارد وهو يشرب رشفة أخرى ـ البراندي الذي جئت به رائع، لابد من قول هذا.

كان القسس المعمدانيون الأربعة هناك هادئين وصامتين، كأنهم متحجرون. كانوا أمريكيين، اثنان شابان واثنان مسنان. وكانت الدكتورة هايلز قد غادرت إلى المستشفى. وكان الغروب قد بدأ وصار يُسمع أزيز الحشرات الليلية. ومن أجل إبعاد البعوض أشعلوا موقداً يفرقع فيه الحطب بنعومة ويتعالى منه الدخان أحياناً.

ـ سأقول لك بكل صراحة أيها النقيب ماسارد ـ قال كيسمنت ببطء، دون أن يرفع صوته ـ تلك الأيدي المهشمة والأعضاء التناسلية المقطوعة التي رأيتُها في مستشفى بولوبو تبدو لي وحشية لا يمكن القبول بها.

ـ وهي كذلك، طبعاً هي كذلك ـ وافق الضابط فوراً، وهو يومئ بحركة استياء ـ بل هي أسوأ من ذلك أيها السيد القنصل: إنها ضرب من

الهدر. فهؤلاء الرجال المبتورون لم يعودوا قادرين على العمل، أو أنهم يقومون بالعمل بصورة سيئة ويكون مردود عملهم في أدنى الحدود. إنها جريمة حقيقية بالنظر إلى النقص في الأيدي العاملة هنا. جئني بالجنود الذين قطعوا تلك الأيدي وتلك الأعضاء التناسلية وسوف أسلخ ظهورهم بالسياط حتى لا تبقى قطرة دم واحدة في أوردتهم.

وزفر متضايقاً من مستوى البلاهة التي يعاني منها العالم. ثم عاد لتناول رشفة براندي أخرى وليأخذ مجة كبيرة من سيجارته.

- هل تسمح القوانين أو الأنظمة ببتر أعضاء الأفارقة؟ - سأله روجر كيسمنت.

أطلق النقيب ماسارد قهقهة، فاستدار وجهه المربع من الضحك وظهرت فيه أخاديد مضحكة.

- إنها تحظر ذلك بصورة جازمة - قال مؤكداً وهو يحرك يديه ضد شيء في الهواء - اجعل هؤلاء البهائم ذوي الساقين يفهمون ما هي القوانين والأنظمة. إفهام ضبع أو قُرادة أسهل من إفهام كونغولي.

عاد إلى الضحك ولكنه غضب على الفور. وكادت تختفي ملامحه التي كانت قاسية وخداه المخددان تحت جفنيه المنتفخين.

- سأشرح لك ما الذي يحدث، وعندئذ ستتفهم الوضع - أضاف متنهداً، ومنهوكاً مسبقاً لاضطراره إلى شرح أمور شديدة الوضوح مثل كروية الأرض -. كل شيء يتولد من قلق بسيط جداً - أكّد وهو يومئ بيديه مرة أخرى بغضب ضد ذلك العدو المجنح -. القوة العامة غير قادرة على تبذير الذخائر. لا يمكننا السماح للجنود بتبديد الرصاص الذي نوزعه عليهم في قتل القردة والأفاعي وغيرها من الحيوانات القذرة

التي يروقهم أن يحشوا بها بطونهم نيئة أحياناً. نعلمهم في التدريب أنه يمكن استخدام الذخائر في الدفاع عن النفس فقط، وعندما يعطي الضباط الأمر باستخدامها. ولكن هؤلاء الزنوج يجدون صعوبة في طاعة الأوامر مهما تلقوا من ضربات السياط. ولهذا السبب اتُخذ التدبير. هل فهمت الأمر أيها السيد القنصل؟

ـ لا، لم افهم أيها النقيب ـ قال روجر ـ. أي تدبير تعني؟

ـ أن تقطع يد أو عضو كل من يطلق الرصاص ـ أوضح النقيب ـ من أجل التأكيد على عدم تبذيرهم الرصاص في الصيد. إنها طريقة رشيدة لتفادي هدر الذخائر، أليس كذلك؟

زفر من جديد وتناول رشفة براندي أخرى. ثم بصق باتجاه الفراغ.

ـ ولكن لا، لم يكن الأمر كذلك ـ قال النقيب على الفور متذمراً، وغاضباً من جديد ـ. لأن هؤلاء البراز وجدوا الطريقة للتهرب من التدبير. احزر بأية طريقة؟

ـ لا يخطر لي أي شيء ـ قال روجر.

ـ الأمر بسيط جداً. قطعهم أيدي الأحياء وأعضاءهم التناسلية، لجعلنا نعتقد أنهم أطلقوا النار على أشخاص، بينما يكونون قد فعلوا ذلك على قردة وثعابين وغيرها من القذارات التي يبتلعونها. أتدرك الآن لماذا يوجد في المستشفى كل أولئك الشياطين التعساء الذين فقدوا أيديهم وحماماتهم؟

توقف طويلاً وشرب ما تبقى من البراندي في كأسه. بدا أنه مكتئب، بل إنه أظهر تكشيرة استياء.

ـ إننا نفعل ما نستطيعه أيها القنصل ـ أضاف النقيب ماسارد متكدراً ـ

وأؤكد لك أن الأمر ليس سهلاً بأي حال. فهؤلاء المتوحشون، فضلاً عن أنهم أجلاف، هم مزيفون بالولادة. إنهم يكذبون، ويخدعون، ويفتقرون إلى المشاعر والمبادئ. حتى إن الخوف لا يفتح مداركهم. أؤكد لك أن عقوبات قاسية تُتخذ في القوة العامة بحق من يقطعون أيدي الأحياء وحماماتهم ليخدعونا ويواصلوا الصيد بالذخائر التي تقدمها لهم الدولة. قم بزيارة لمواقعنا وستتأكد من ذلك بنفسك أيها السيد القنصل.

استمر الحديث مع النقيب ماسارد طوال الوقت الذي استمرت فيه نار الموقد التي كانت تفرقع عند أقدامهما، لساعتين على الأقل، وعندما تبادلا الوداع كان القسس المعمدانيون الأربعة قد انسحبوا منذ وقت لا بأس به للنوم. وكان الضابط والقنصل قد شربا البراندي والنبيذ. وكانا سكرانين بعض الشيء، غير أن روجر كيسمنت ظل محافظاً على صفاء ذهنه. وكان بإمكانه، بعد شهور أو سنوات من ذلك، أن يشير بالتفصيل إلى العبارات القاسية والاعترافات التي سمعها، والطريقة التي كان يحتقن بها بتأثير الكحول وجه النقيب ماسارد المربع. وستكون لديه خلال الأسابيع التالية محادثات كثيرة أخرى مع ضباط القوة العامة، ضباط بلجيكيون وإيطاليون وفرنسيون وألمان، سمع من أفواههم أموراً رهيبة، ولكن أشدها بروزاً ولفتاً للاهتمام في ذاكرته، كرمز للواقع الكونغولي، ستظل تلك المحادثة، في ليل بولوبو، مع النقيب ماسارد. ففي إحدى اللحظات تحول النقيب إلى شخص عاطفي. واعترف لروجر بأنه يشتاق كثيراً إلى زوجته. لم يكن قد رآها منذ عامين ولا يتلقى منها سوى رسائل قليلة. ربما لم تعد تحبه. ربما تكون قد ارتبطت بعشيق. ولم يكن ذلك مستغرباً. فقد كان يحدث لكثير من الضباط والموظفين ممن يأتون، في خدمة بلجيكا وجلالة الملك، لدفن

أنفسهم في ذلك الجحيم، والإصابة بأمراض، والتعرض للدغ الأفاعي، والعيش بلا وسائل الراحة الأولية. ولماذا؟ من أجل كسب رواتب بائسة، تكاد لا تسمح بتوفير شيء. وهل سيكون هناك من يشكرهم فيما بعد في بلجيكا؟ على العكس. فهناك في الوطن الأم حكم مسبق عنيد ضد «المستعمرين». فالضباط والموظفون العائدون من المستعمرة يتعرضون للتمييز، ويُستبعدون، كما لو أنهم، لكثرة ما رافقوا المتوحشين، قد تحولوا أيضاً إلى متوحشين.

وعندما انحرف النقيب بيير ماسارد بالحديث إلى موضوع الجنس، أحس روجر باستياء ورغب في المغادرة. لكن النقيب كان قد سكر، مما اضطره إلى البقاء كيلا يُغضبه ويتشاجر معه. وبينما هو يكبح اشمئزازه، استمع إليه قائلاً لنفسه إنه لم يأتِ إلى بولوبو لإقرار العدالة، وإنما للتقصي وجمع المعلومات. وكلما كان تقريره دقيقاً وكاملاً، ستكون مساهمته أكثر فعالية ضد هذه اللعنة المؤسساتية التي تحول إليها الكونغو. كان النقيب ماسارد يشفق على ضباط ورتباء الجيش البلجيكي الشباب الذين يأتون بوهم تعليم هؤلاء الأفارقة التعساء كيف يصيرون جنوداً. وماذا عن حياتهم الجنسية؟ عليهم أن يتركوا خطيباتهم أو زوجاتهم وعشيقاتهم هناك في أوروبا. وماذا عن حالهم هنا؟ لا وجود حتى لمومسات جديرات بهذه التسمية في هذه العزلات التي تخلت عنها يد الرب. لا وجود إلا لبعض الزنجيات المقززات الممتلئات بالحشرات واللاتي لابد أن يكون المرء مخموراً تماماً كي يضاجعهن، معرضاً نفسه لأن ينتقل إليه قمل العانة، أو دم الحيض، أو قرحة زُهرية. وهذا يكلفه هو، على سبيل المثال، جهداً كبيراً. يعاني العجز، رباه! وهذا ما لم يحدث له من قبل قطّ في أوروبا. عجز في الفراش، يصيبه هو، بيير

ماسارد! بل إن مص البوق ليس بالطريقة التي يُنصح بها، لأنه يمكن لتلك الأسنان، مع اعتياد زنجيات كثيرات على بردها وشحذها، أن تعض المرء فجأة أو تخصيه.

أمسك فتحة سرواله وانفجر في القهقهة وهو يبدي تكشيرة داعرة. وانتهز روجر فرصة أن ماسارد واصل الاحتفاء بحركته تلك، فنهض واقفاً.

ـ يجب أن أنصرف أيها النقيب. علي الرحيل غداً باكراً، وأريد أن أستريح قليلاً.

شد النقيب على يده بصورة آلية، ولكنه واصل الكلام، دون أن ينهض عن كرسيه، بصوت رخو وعينين زجاجيتين. وبينما كان روجر يبتعد، سمعه يتلعثم بأن اختياره المهنة العسكرية كان خطأ حياته الكبير، خطأ سيواصل دفع ثمنه طوال ما تبقى من حياته.

أبحر روجر في اليوم التالي في السفينة *هنري ريد* باتجاه لوكوليلا. وبقي فيها ثلاثة أيام يتبادل الحديث نهاراً وليلاً مع كل أنواع البشر: موظفون، مستوطنون، رؤساء عمال، سكان محليون. ثم تقدم بعد ذلك حتى إيكوكو، حيث توغل في بحيرة مانتومبا. في ما حولها توجد تلك الأراضي الشاسعة المسماة «أملاك التاج». وحولها تعمل شركات المطاط الخاصة الأساسية، مثل شركة لولونغا كومبني، وآبير كومباني، وشركة أنفرسيوس للتجارة في الكونغو التي لها امتيازات واسعة جداً في المنطقة كلها. زار عشرات القرى، بعضها على ضفاف البحيرة الشاسعة مباشرة وأخرى في المناطق الداخلية. ومن أجل الوصول إلى هذه الأخيرة كان لا بد له من التنقل في زوارق صغيرة بالتجذيف أو بعصا

دفع طويلة، والسير بعد ذلك لساعات وسط الأدغال الكثيفة والرطبة، يشق الطريق فيها بمناجل المتشيتي سكانٌ محليون يضطرونه في أحيان كثيرة إلى الخوض في الماء حتى الخصر في أراضٍ مستنقعية أو ذات وحول نتنة، وسط سحب من البعوض أو أشباح خفافيش صامتة. لقد صمد طوال تلك الأسابيع للإنهاك، والمصاعب الطبيعية، وقسوة المناخ دون فتور عزيمة، في حالة من الحمى الروحية، كأنه مسحور، لأنه في كل يوم، في كل ساعة، يشعر بأنه يغوص في طبقات أعمق من المعاناة والشر الخبيث. أتكون هذه هي حال الجحيم الذي وصفه دانتي في *الكوميديا الإلهية*؟ لم يقرأ هذا الكتاب من قبل، وقد أقسم في تلك الأيام أن يقرأه فور وصول نسخة منه إلى يديه.

السكان الأصليون الذين كانوا، في بداية الرحلة، يركضون هاربين فور رؤيتهم اقتراب السفينة *هنري ريد*، لاعتقادهم أن السفينة البخارية الصغيرة محملة بالجنود، سرعان ما صاروا يخرجون للقائها ويرسلون إليها مبعوثين كي تزور قراهم. فقد انتشر بين السكان المحليين خبر أن القنصل البريطاني يجوب المنطقة لسماع شكاواهم ومطالبهم، وصاروا عندئذ يأتون إليه بشهادات وقصص كل منها أسوأ من الأخرى. كانوا يظنون أنه قادر على تقويم كل ما هو معوج في الكونغو. وكان يشرح لهم، دون طائل، أنه لا يتمتع بأية سلطات. وأنه سوف يُطلع الحكومة البريطانية على تلك المظالم، وستتولى هي وحلفاؤها مطالبة الحكومة البلجيكية بوضع حدّ لتعسف المُعَذِّبين والمجرمين وعقوباتهم. هذا هو كل ما يمكنه عمله. أكانوا يفهمونه؟ بل إنه لم يكن متأكداً من أنهم يسمعونه. كانوا متلهفين جداً للكلام، للإخبار عما يجري لهم، إلى حدّ لا يولون اهتماماً إلى ما يقوله. يتكلمون بتدفق، وبيأس وحنق، وهم

يغصون بالكلام. وكان على المترجمين أن يقاطعوهم، ويتوسلوا إليهم أن يتكلموا ببطء كي يتمكنوا من القيام بعملهم على أحسن وجه.

كان روجر يستمع، ويسجل ملاحظات. وبعد ذلك يقضي ليالي بكاملها وهو يكتب في بطاقاته ودفاتره ما سمعه، كيلا يضيع شيء من ذلك. يكاد لا يأكل إلا لقيمات. وكان مغموماً من الخوف من أنه يمكن لتلك الأوراق التي يسوّدها أن تضيع، ولم يعد يدري أين يخبئها، وأية احتياطات يتخذ للحفاظ عليها. اختار أن يأخذها معه أينما ذهب، محمولة على كاهل حمال لدية أمر بعدم الابتعاد عنه أبداً.

يكاد لا ينام، وعندما يهزمه التعب والنعاس، تنقض عليه الكوابيس وتنقله من الخوف إلى الذهول من رؤى شيطانية لحالة من الأسى والحزن يفقد فيها كل شيء علة وجوده: أسرته، أصدقاؤه، أفكاره، بلاده، مشاعره، عمله. وفي تلك اللحظات يشتاق أكثر من أي وقت آخر لصديقه هربرت وارد وحماسته المعدية لكل ظواهر الحياة، تلك السعادة المتفائلة التي لا يمكن لشيء أو أحد أن يكبحها.

في ما بعد، حين انتهت تلك الرحلة وكتب تقريره وغادر الكونغو، وصارت سنواته العشرون في أفريقيا مجرد ذكرى، قال روجر كيسمنت أكثر من مرة إنه إذا كانت هنالك كلمة تشكل جذر كل الأمور الفظيعة التي حدثت هناك، فلا بد أن تكون هذه الكلمة هي الجشع. جشع إلى ذلك الذهب الأسود الذي تحتويه بوفرة غابات الكونغو، لسوء حظ أهلها. فقد كانت تلك الثروة هي اللعنة التي سقطت على أولئك التعساء، وإذا ما استمرت الأمور على ذلك النحو، فسوف تؤدي إلى اختفائهم عن وجه الأرض. هذه هي النتيجة التي توصل إليها خلال

تلك الشهور الثلاثة وعشرة أيام: إذا لم ينفد المطاط أولاً فسيكون الكونغوليون هم الذين سينقرضون في ذلك النظام الذي يقضي عليهم بالمئات والآلاف.

في تلك الأسابيع، ومنذ دخوله في مياه بحيرة مانتومبا، ستختلط الذكريات عليه كاختلاط ورق اللعب. ولو لم يحمل في دفاتره سجلاً دقيقاً للتواريخ والأمكنة والشهادات والملاحظات، لكان ذلك كله مختلطاً ومنقلباً رأساً على عقب في ذهنه. لقد كان يغمض عينيه، فتظهر له وتختفي، كما في زوبعة دوارية، تلك الأجساد الأبنوسية بقروح جراحها الضاربة إلى الحمرة كأنها أفاعٍ تشق الظهور والإليات والأرجل، وبقايا سواعد الأطفال والشيوخ المبتورة، والوجوه الهزيلة، الجثثية، كأن الحياة والشحم والعضلات قد سُحبت منها، ولم يبق فيها سوى الجلد وعظم الجمجمة وتلك الملامح أو التكشيرة الثابتة التي تعكس، أكثر من الألم، ذهولاً غير متناهٍ مما يعانونه. وهي الحال نفسها على الدوام، وقائع تتكرر مرة بعد أخرى في جميع القرى والدساكر التي ذهب إليها روجر كيسمنت بدفاتره وأقلامه وآلة تصويره.

كل شيء كان بسيطاً وواضحاً في نقطة البداية. فقد حُددت لكل قرية واجبات محددة بدقة: تقديم حصص أسبوعية أو نصف شهرية من الأطعمة ـ منيهوت، أو دواجن، أو لحم ظباء، أو خنازير برية، أو ماعز، أو بط ـ لإطعام حامية القوة العامة والعمال الذين يشقون الطرق، وينصبون أعمدة التلغراف، ويبنون المراسي والمستودعات. كما يجب على القرية أن تقدم كمية معينة من المطاط في سلال مجدولة من ألياف نباتات متسلقة يصنعها الأهالي أنفسهم. وتتنوع العقوبة على عدم إنجاز

هذه الواجبات. فتقديم كمية أقل مما هو محدد من الأطعمة أو المطاط، يُعاقب عليها بالجلد بالسياط، ليس أقل من عشرين جلدة، وقد تصل أحياناً إلى خمسين أو مئة جلدة. كثير من المعاقبين ينزفون ويموتون. والسكان الأصليون الذين يهربون ـ وهم قليلون جداً ـ يضحون بعائلاتهم، لأن نساءهم يُحتجزن كرهائن، في هذه الحالة، في ***بيوت الرهائن*** التي تملكها القوة العامة في كل حامية. وهناك تتعرض نساء الهاربين للجلد، ويحكم عليهن بعذاب الجوع والعطش، ويجري إخضاعهن أحياناً لأصناف منحرفة من التعذيب كإجبارهن على ابتلاع برازهن أو براز حراسهن.

حتى الترتيبات المقررة من السلطة الاستعمارية ـ سواء في الشركات الخاصة أم في أملاك الملك ـ لم تكن تُحترم. ففي كل الأمكنة كان النظام يُخترق ويتحول إلى الأسوأ على يد الجنود والضباط المكلفين بتطبيقه، ففي كل قرية كان العسكريون ووكلاء الحكومة يزيدون حصص الجباية المفروضة كي يبقى لهم جزء من الأطعمة وسلال من المطاط يحققون بها صفقات صغيرة بإعادة بيعها.

وفي كافة الضياع التي زارها روجر، كانت شكاوى زعماء القبائل هي نفسها: إذا تفرغ جميع الرجال لجمع المطاط، كيف يمكن لهم أن يخرجوا إلى الصيد وزراعة المنيهوت وغيرها من الأغذية لتوفير الطعام للسلطات والقادة والحراس والعمال؟ كما أن أشجار المطاط آخذة بالنفاد مما يضطر جامعي المطاط إلى التوغل أبعد فأبعد، إلى مناطق مجهولة وموحشة تعرَّض كثيرون منهم فيها لهجمات الفهود والأسود

والأفاعي. لم يكن ممكناً إنجاز كل تلك المطالب مهما بذلوا من جهود.

في الأول من أيلول ١٩٠٣ أكمل روجر تسعة وثلاثين عاماً من حياته. كان يبحر في نهر لوبوري. وكان قد خلّف وراءه في اليوم السابق قرية إزي إزولو على الهضاب المؤدية إلى جبل بونغاندانغا. وسيبقى عيد ميلاده ذاك مسجلاً في ذاكرته بطريقة لا تُمحى، كما لو أن الرب، أو ربما الشيطان، أراد في ذلك اليوم أن يُثبت أنه لا وجود لحدود في مسألة القسوة البشرية، وأنه يمكن على الدوام التقدم أكثر فأكثر في اختراع أساليب لإنزال العذاب بالآخر.

طلع الصباح غائماً ومتوعداً بعاصفة، ولكن الأمر لم يصل إلى هطول وابل المطر، وظل جو فترة الصباح كلها مشحوناً بشحنة كهربية. كان روجر يتهيأ لتناول الفطور عندما وصل إلى المرسى المرتجل، حيث توقفت السفينة ***هنري ريد***، كاهنٌ لاترابيّ، من بعثة تلك الطائفة التبشيرية في قرية كوكيلهاتفيل: إنه الأب هاتوت. كان طويل القامة ونحيلاً مثل أحد شخوص لوحات غريكو، بلحية طويلة شائبة وعينين يتطاير منهما شيء يمكن له أن يكون غضباً أو رعباً أو ذهولاً، أو الأمور الثلاثة مجتمعة.

ـ أنا أعرف ما الذي تفعله حضرتك في هذه الأراضي أيها السيد القنصل ـ قال وهو يمد إلى روجر كيسمنت يداً معروقة. وكان يتكلم فرنسية متعثرة بفعل مطلب ملح يُثقل عليه ـ. أرجوك أن ترافقني إلى قرية «والا». إنها على مسافة ساعة أو ساعة ونصف فقط من هنا. عليك أن تراها بأم العين.

كان يتكلم كما لو أنه يعاني حمى الملاريا ورعشتها.

ـ لا بأس يا أبتاه ـ وافق روجر ـ ولكن اجلس، تناول فنجان قهوة، وكُل معي شيئاً قبل ذلك.

وبينما هو يتناول الفطور، شرح الأب هاتوت للقنصل أن الرهبان اللاترابيين في بعثة كوكيلهاتفيل لديهم أوامر من طائفتهم بكسر نظام الانغلاق الذي يسود الطائفة في أمكنة أخرى، من أجل تقديم العون للسكان المحليين، «الذين هم بحاجة شديدة إلى العون في هذه الأراضي، حيث يبدو أن الشيطان آخذ بكسب المعركة ضد الرب».

لم يكن صوت الراهب وحده يرتعش، بل عيناه ويداه وروحه كذلك. كان يرمش دون توقف. وكان يرتدي غفارة خشنة ملطخة ومبللة، وكانت قدماه المغطاتان بالوحل والخدوش محشورتين في صندل من سيور جلدية. لقد أمضى الأب هاتوت قرابة عشر سنوات في الكونغو. وهو يجوب منذ حوالي ثمانية أعوام قرى المنطقة بين فترة وأخرى. لقد صعد حتى قمة بونغاندانغا ورأى فهداً عن قرب، بدل أن ينقض عليه، تنحى عن الطريق وهو يهز ذيله. كان يتكلم لغات السكان المحليين، وقد اكتسب ثقة الأهالي، وبخاصة أهالي قرية والا، «أولئك الشهداء».

انطلقا في المسير عبر درب ضيق، وسط أشجار متشابكة شاهقة، يقطعه بين حين وآخر جدول نحيل. كان يُسمع تغريد طيور غير مرئية، ويحلق في بعض الأحيان سرب ببغاوات وهو يطلق الصراخ فوق رأسيهما. لاحظ روجر أن الراهب يمشي عبر الغابة بطلاقة، دون تعثر، كما لو أن لديه خبرة طويلة بهذه المسيرات بين الآجام. وراح الأب

هاتوت يشرح له ما حدث في «والا». فبما أن القرية التي تردّت أحوالها كثيراً لم تستطع أن تسلم الكمية الأخيرة المحددة لها من الأطعمة والمطاط والأخشاب، ولا أن تقدم عدد الأيدي العاملة التي تطلبها السلطة، حضرت فصيلة من ثلاثين جندياً من القوة العامة بقيادة الملازم تانفيل، من حامية كوكيلهاتفيل. ولدى رؤيتهم يقتربون هرب أهالي القرية جميعهم إلى الجبل. لكن المترجمين ذهبوا للبحث عنهم والتأكيد لهم أنه بإمكانهم العودة. وأنه لن يحدث لهم شيء، وأن الملازم تانفيل لا يريد شيئاً سوى أن يشرح لهم الترتيبات الجديدة والتفاوض مع القرية. فأمرهم زعيم القبيلة بالعودة. وما كادوا يصلون إلى القرية حتى انقض عليهم الجنود. جرى تقييد الرجال والنساء إلى الأشجار وجلدهم. حاولت امرأة حبلى أن تبتعد جانباً لتبول فقتلها جندي برصاصة لاعتقاده أنها تريد الهرب. وجرى اقتياد عشر نساء أخريات إلى *بيت الرهائن* في كوكيلهاتفيل. ومنح الملازم قرية «والا» مهلة أسبوع لاستكمال الحصة المدينة بها وإلا تم قتل النساء العشر رمياً بالرصاص وإحراق القرية.

وعندما وصل الأب هاتوت إلى «والا»، بعد أيام من هذه الواقعة، وجد أمامه مشهداً رهيباً. فمن أجل التمكن من جمع الكميات المطلوبة، باعت عائلات القرية أبناءها وبناتها، وباع اثنان من رجال القرية زوجتيهما، إلى تجار متجولين يمارسون تجارة الرقيق خفية عن السلطات. ويعتقد الراهب أن عدد من بيع من الأطفال والنساء يبلغ ثمانية أشخاص على الأقل، ولكنهم قد يكونون أكثر. وكان الأهالي مذعورين. فقد أرسلوا منهم من يشتري مطاطاً وأطعمة لسداد الدين،

ولكنهم لم يكونوا متأكدين من أن يكون المال الذي حصلوا عليه من البيع كافياً.

- هل تصدق أن شيئاً كهذا يحدث في العالم أيها السيد القنصل؟

- أجل يا أبتاه. إنني أصدق الآن كل الشرور والفظاعات التي يروونها لي. وإذا كنتُ قد تعلمت شيئاً في الكونغو، فهو عدم وجود وحش أشد دموية من الكائن البشري.

«لم أرَ أحداً يبكي في والا»، هذا ما سيفكر فيه روجر كيسمنت في ما بعد. كما أنه لم يسمع أحداً يشكو. بدا كما لو أن القرية مسكونة ببشر آليين، بكائنات شبحية تتنقل من مكان إلى آخر، على غير هدى، في حيز خلاء من الغابة، بين حوالي ثلاثين كوخاً من عيدان نباتية وذات سقوف مخروطية من السعف، كما لو أن لعنة قد حلّت بالقرية وحوّلت سكانها إلى أشباح. ولكنها أشباح بظهور ومؤخرات تغطيها قروح جراح حديثة، بل إن على بعضها بقايا دماء تشير إلى أن الجروح مازالت مفتوحة.

وبمساعدة الأب هاتوت الذي يتكلم لغة القبيلة بطلاقة، أنجز روجر عمله. استجوب كل واحد وكل واحدة من السكان، وسمعهم يكررون ما كان قد سمعه وسيسمعه كثيراً في ما بعد. فهنا أيضاً، في «والا»، فوجئ أيضاً بأن أياً من تلك الكائنات البائسة لم يشكُ مما هو أساسي: بأي حق جاء هؤلاء الغرباء لغزوهم، واستغلالهم، وإساءة معاملتهم؟ لم يكن يشغلهم سوى الأمر المباشر: الحصص. إنها كميات مبالغ فيها، فليس هناك من قوة بشرية قادرة على جمع كل ذلك المطاط، وكل تلك الأطعمة، وتقديم كل تلك الأيدي العاملة. لم يكونوا يشكون حتى من

الجلد بالسياط ومن أخذ الرهائن. لا يطالبون إلا بشيء من تخفيض الحصص المفروضة كي يتمكنوا من توفيرها وترضى السلطات بذلك عن أهالي «والا».

بقي روجر تلك الليلة في القرية. وفي اليوم التالي ودّع الأب هاتوت، ومضى بدفاتره المكتظة بالملاحظات والشهادات. لقد قرر تحويل خط سيره المبرمج. رجع إلى بحيرة مانتومبا، أوقف السفينة *هنري ريد* وتوجه إلى كوكيلهاتفيل. كانت القرية كبيرة، شوارعها ترابية وغير منتظمة، بيوتها مبعثرة وسط أشجار نخيل أو مربعات أرض مزروعة. وفور نزوله إلى البر، ذهب إلى مقر حامية القوة العامة، وهو فضاء فسيح فيه أبنية فظة المظهر وسياج من أعمدة صفراء.

كان الملازم تانفيل قد خرج في مهمة عمل. فاستقبله النقيب مارسيل جانيو، قائد الحامية والعسكري المسؤول عن كافة المحطات ومواقع القوة العامة في المنطقة. كان أربعينياً طويل القامة، نحيلاً ومفتول العضلات، بشرته ضاربة إلى السمرة بفعل الشمس وشعره رمادي حليق بالكامل. يعلق حول عنقه ميدالية عليها رسم العذراء، ووشم حيوان صغير على ذراعه. أدخله إلى مكتب مهلهل على جدرانه أعلام صغيرة وصورة لليوبولد الثاني بزي المراسم العسكري. قدّم إليه فنجان قهوة. وأجلسه قبالة منضدة عمله الصغيرة الممتلئة بكتيبات ومساطر وخرائط وأقلام رصاص، على مقعد مزعزع يبدو أنه على وشك الانهيار مع كل حركة يتحركها روجر كيسمنت. لقد عاش النقيب في طفولته بإنكلترا، إذ كانت لأبيه تجارة هناك، وهو يتكلم الإنكليزية بصورة جيدة. إنه ضابط محترف تقدّم متطوعاً للمجيء إلى الكونغو منذ

خمس سنوات، «من أجل الوطن، أيها السيد القنصل»، قالها بسخرية لاذعة.

كان على وشك الترقية والعودة إلى الوطن الأم. استمع إلى روجر دون أن يقاطعه ولو مرة واحدة، بجدية، وبتركيز عميق ـ في الظاهر ـ على ما يسمعه. ولم يطرأ أي تبدل على ملامحه الوقورة والعصية على التفسير حيال أي تفصيل. كان كلام روجر دقيقاً ومحدداً. قال بوضوح تام ما هي الأمور التي قيلت له وما هي الأشياء التي رآها بأم عينه: الظهور المشققة بالسياط، وشهادات من باعوا أبناءهم لاستكمال الحصص المفروضة عليهم والتي لم يستطيعوا جمعها. وأوضح أن حكومة صاحب الجلالة ستُحاط علماً بتلك الفظائع، ولكنه يرى كذلك أن من واجبه، باسم الحكومة التي يمثلها، أن يبين احتجاجه على مسؤولية القوة العامة عن إساءات مريعة كالتي حدثت في «والا». لقد كان شاهد عيان على أن تلك القرية قد تحولت إلى جحيم مصغر. وعندما انتهى كان وجه النقيب جانيو لا يزال عصياً على الاختراق. انتظر للحظات طويلة، بصمت. وأخيراً هز رأسه في حركة ضئيلة، وقال بعذوبة:

ـ لا بد أنك تعلم أيها السيد القنصل أننا نحن، أعني القوة العامة، لسنا من نسن القوانين. عملنا يقتصر على تنفيذها.

كانت نظراته صافية ومباشرة، دون أي ظل من الضيق أو الاستياء.

ـ أعرف القوانين والأنظمة التي تحكم دولة الكونغو المستقلة أيها النقيب. ليس فيها ما يبيح بتر أعضاء الأهالي، وجلدهم إلى أن تنزف دماؤهم كلها، وأخذ نسائهم رهائن كيلا يهرب أزواجهن، وابتزاز القرى

إلى حدّ اضطرار الأمهات إلى بيع أبناءهن من أجل التمكن من تقديم حصص المأكولات والمطاط التي تطالبونهم بها.

ـ نحن؟ ـ بالغ النقيب جانيو في إظهار المفاجأة. أنكر بهز رأسه، وبينما هو يومئ كان حيوان الوشم الصغير يتحرك ـ نحن لا نبالغ في شيء على أحد. إننا نتلقى أوامر ونقوم بتنفيذها، هذا هو كل شيء. القوة العامة ليست من يحدد تلك الحصص يا سيد كيسمنت. من يحددها هي السلطات السياسية ومديرو الشركات صاحبة الامتيازات. نحن منفذو سياسة لم نتدخل بأي حال في وضعها. لم يطلب أحد رأينا قطّ. ولو أنهم فعلوا ذلك فربما أمكن للأمور أن تكون أفضل.

صمت النقيب، وبدا ساهياً للحظة. ومن خلال النوافذ الواسعة ذات الشبك المعدني كان روجر يرى أرضاً خلاء مستطيلة بلا أشجار، حيث ينتظم في مشية عسكرية تشكيلٌ من الجنود الأفارقة، يرتدون بناطيل من الخام، بينما صدورهم عارية وأقدامهم حافية. يبدلون اتجاههم وفق أوامر يصدرها إليهم صف ضابط، ولكن ضابط الصف ينتعل جزمة ويرتدي قميصاً عسكرياً ويعتمر قبعة.

ـ سأُجري تحقيقاً. وإذا كان الملازم تانفيل قد ارتكب أو تستر على إساءات، فسوف يُعاقب ـ قال النقيب ـ وسيُعاقب الجنود كذلك، طبعاً، إذا كانوا قد بالغوا في استخدام السوط. هذا كل ما يمكنني أن أعدك به. وما سوى ذلك خارج عن قدرتي، إنه مسؤولية القضاء. فتغيير هذا النظام ليس من مهمات العسكريين، وإنما هي مهمة القضاة والسياسيين. مهمة الحكومة السامية. وهذا أمر تعرفه كما أظن.

وأطلت فجأة من صوته نبرة يأس.

ـ لا شيء أحب إليّ من استبدال هذا النظام. فأنا أيضاً يزعجني ما يحدث هنا. فما نحن مضطرون إلى عمله يسيء إلى مبادئي ـ تلمس الميدالية التي في عنقه، وأضاف: ـ إلى مبادئي. إنني رجل كاثوليكي جداً. وهناك، في أوروبا، كنت ملتزماً على الدوام بمعتقداتي. أما هنا، في الكونغو، فالأمر غير ممكن أيها السيد القنصل. هذه هي الحقيقة المحزنة. ولهذا سأكون سعيداً بعودتي إلى بلجيكا. وأؤكد لك أنني لن أعود إلى وضع قدمي في أفريقيا أبداً.

نهض النقيب جانيو من وراء منضدته، واقترب من إحدى النوافذ. وظل صامتاً للحظات وهو يدير ظهره للقنصل، ويتأمل أولئك المجندين الذين لا يتوصلون أبداً إلى ضبط مشيتهم العسكرية، فهم يتعثرون، واصطفاف تشكيلهم معوج.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فيمكن لك أن تفعل شيئاً لوضع حدّ لهذه الجرائم ـ دمدم روجر كيسمنت ـ ليس هذا ما جاء الأوروبيون من أجله إلى أفريقيا.

ـ آه، ليس هذا؟ ـ التفت إليه النقيب جانيو، ولاحظ القنصل أن لون الضابط قد شحب قليلاً ـ لأي شيء جئنا إذاً؟ أعرف ما ستقول: لحمل الحضارة، والمسيحية، والتجارة الحرة. أمازلت تصدق هذا يا سيد كيسمنت؟

ـ لم أعد أصدقه ـ ردّ روجر كيسمنت في الحال ـ. لقد كنتُ أصدقه من قبل، أجل. ومن كل قلبي. آمنت به لسنوات طويلة، بكل سذاجة الفتى المثالي الذي كنت عليه. كنتُ أؤمن أن أوروبا تأتي إلى أفريقيا

لإنقاذ الحيوات والأرواح. . . لتحضير المتوحشين. وأنا أعرف الآن أنني كنت على خطأ.

بدل النقيب جانيو ملامحه وبدا لروجر، فجأة، أن وجه الضابط قد بدّل ذلك القناع الجامد بآخر أكثر إنسانية. حتى إنه راح ينظر إليه بالإشفاق اللطيف الذي يستحقه البلهاء.

ـ إنني أحاول تطهير نفسي من خطيئة الشباب تلك أيها النقيب. ولهذا السبب جئت إلى كوكيلهاتفيل. ولهذا السبب أقوم، بأقصى قدر من الإسهاب، بتوثيق أعمال التعسف التي تُقترف هنا باسم الحضارة المزعومة.

ـ أتمنى لك النجاح أيها السيد القنصل ـ سخر منه النقيب جانيو بابتسامة ـ ولكن إذا سمحت لي أن أكلمك بصراحة، فإني أخشى أنك لن تحقق النجاح. لا وجود لقوة بشرية قادرة على تغيير هذا النظام. لقد فات الوقت على ذلك.

ـ إنني راغب، إن كنت لا تمانع، في زيارة السجن ***وبيت الرهائن***، حيث تحتفظون بالنساء اللاتي جاؤوا بهنّ من «والا» ـ قال روجر مغيراً الموضوع فجأة.

ـ يمكنك زيارة أي مكان تشاءه ـ وافق الضابط ـ إنك في بيتك. ولكن اسمح لي أن أذكّرك ثانية بما قلته لك. لسنا نحن من اخترعنا دولة الكونغو المستقلة. إننا نقوم بتشغيلها وحسب. هذا يعني أننا من ضحاياها أيضاً.

كان السجن عنبراً من الخشب والآجر، بلا نوافذ، وبمدخل وحيد، يحرسه جنديان محليان مسلحان ببندقيتين. كان هناك حوالي اثني عشر

رجلاً، بعضهم شيوخ طاعنون في السن، شبه عراة، مستلقون على الأرض، واثنان من السجناء مقيدان إلى حلقات مثبتة بالجدار. لم تكن تلك الوجوه الخائرة وغير المعبرة ولا تلك الهياكل العظمية الصامتة التي لاحقته عيونها من جانب إلى آخر أثناء اجتيازه المكان هي التي صدمته، وإنما رائحة البول والبراز.

ـ لقد حاولنا أن نعلمهم قضاء حاجتهم البدنية في هذه الدلاء ـ قال النقيب الذي خمن ما يفكر فيه، وهو يشير إلى إناء ـ ولكنهم غير معتادين. إنهم يفضلون الأرض. وها هم. لا تهمهم الرائحة. بل ربما لا يشعرون بها.

بيت الرهائن كان مكاناً أصغر، ولكن المشهد يبدو أكثر مأساوية، لأن مزدحم إلى حد لم يكد روجر يتمكن معه من التجوال بين تلك الأجساد المكدسة وشبه العارية. كان المكان ضيقاً بحيث لا يمكن لنساء كثيرات أن يجلسن أو يستلقين، ويضطررن إلى البقاء واقفات.

ـ هذا وضع استثنائي ـ أوضح النقيب جانيو مشيراً إليهن ـ لم يجتمع مثل هذا العدد قطّ. هذه الليلة سننقل نصفهن إلى إحدى حظائر الجنود كي يتمكنَّ من النوم.

وهنا أيضاً كانت رائحة البول والبراز لا تطاق. بعض النساء كن شابات، وطفلات تقريباً. وكانت لهن جميعاً النظرة الشاردة نفسها، شبه المسرنمة، كأنها آتية مما وراء الحياة، وهي النظرة التي سيراها كيسمنت في كثير من الكونغوليات على امتداد رحلته. وكانت إحدى الرهائن تحمل طفلاً حديث الولادة بين ذراعيها، هادئاً جداً إلى حدّ يبدو معه ميتاً.

ـ أي معيار تتبع حضرتك لإطلاق سراحهن؟ ـ سأله القنصل.

ـ لستُ أنا من يقرر وإنما القاضي يا سيدي. هنالك ثلاثة قضاة في كوكيلهاتفيل. ولا يوجد سوى معيار وحيد: عندما يسلّم الأزواج الحصص المفروضة عليهم يستطيعون أخذ نسائهم.

ـ وإذا لم يفعلوا؟

هز النقيب كتفيه.

ـ بعضهن يتمكنّ من الهرب ـ قال خافضاً صوته، ودون أن ينظر إليه ـ وأخريات يأخذهن الجنود ويجعلوهن نساء لهم. وهؤلاء أوفرهن حظاً. والبعض منهن يصبن بالجنون وينتحرن. وأخريات يمتن غماً، أو بفعل الكوليرا أو الجوع. فكما رأيت حضرتك، يكاد لا يوجد لديهن ما يأكلنه. وهذا ليس خطأنا أيضاً. فأنا لا أتلقى أطعمة تكفي حتى للجنود. وأقل من ذلك للسجناء. في بعض الأحيان نجمع نحن الضباط شيئاً لتحسين وجبة السجناء الجماعية. هكذا هي الأمور. إنني أول من يأسف لهذه الحال. وإذا ما تمكنت حضرتك من تحسين الوضع فإن القوة العامة ستكون شاكرة.

ذهب روجر كيسمنت لزيارة القضاة البلجيكيين الثلاثة في كوكيلهاتفيل، ولكن واحداً منهم فقط وافق على استقباله. الاثنان الآخران اختلقا أعذاراً لتجنب اللقاء به. أما الأستاذ دوفال بالمقابل، وهو خمسيني بدين وأنيق يرتدي، على الرغم من الحر الاستوائي، صداراً ومعصمي قميص وسترة طويلة مزينة بالخرز، فأدخله إلى مكتبه غير المزركش وقدم إليه فنجان شاي. استمع إليه بأدب وهو يتعرق بغزارة. كان يمسح وجهه بين حين وآخر بمنديل صار مبللاً. وفي بعض

الأحيان يؤيد بحركة من رأسه وبملامح حزينة ما يعرضه عليه القنصل. وعندما انتهى طلب منه أن يفصِّل ذلك كله كتابة. وبهذه الطريقة يتمكن من أن يرفع إلى المحكمة التي هو عضو فيها قرار اتهام بهدف فتح تحقيق رسمي بشأن تلك الأحداث المؤسفة. وإن كان من الأفضل، صحح الأستاذ دوفال بإصبع ينقر على ذقنه، أن يرفع السيد القنصل بنفسه ذلك التقرير إلى المحكمة العليا التي أقيمت الآن في ليوبولدفيل. فبحكم كونها هيئة أرفع مقاماً وأكبر تأثيراً، يمكن لها أن تعمل بفعالية أكبر في كافة أنحاء المستعمرة. ليس لمعالجة هذه الحالات وحسب، وإنما كذلك لتقديم تعويضات مادية لعائلات الضحايا وللضحايا أنفسهم. فقال له روجر كيسمنت إنه سيفعل ذلك. ثم ودعه وهو مقتنع بأن الأستاذ دوفال لن يحرك إصبعاً في القضية، ولا المحكمة العليا في ليوبولدفيل كذلك. ولكنه سيرفع التقرير مكتوباً مع ذلك.

عند الغروب، حين كان على وشك الرحيل، جاء أحد الأهالي ليقول له إن رهبان بعثة اللاترابيين يريدون رؤيته. وهناك التقى مجدداً بالأب هاتوت. كان الرهبان ـ وهم ستة ـ يريدون الطلب منه أن يُخرج خفية في سفينته البخارية الصغيرة حفنة الهاربين الذين يتولون هم تخبئتهم في مركز اللَترابا منذ عدة أيام. جميعهم يتحدرون من قرية بونغيندا في أعالي نهر الكونغو، حيث قامت القوة العامة بعملية تأديبية لا تقل قسوة عن عملية «والا» لأن الأهالي لم يقدموا حصص المطاط المفروضة عليهم.

مقر اللَترابا في كوكيلهاتفيل هو بيت كبير من الطين والحجر والخشب، يتألف من طابقين ويبدو كحصن من الخارج. نوافذه

مسدودة. وكان الأباتي دوم جيسوالدو، وهو من أصل برتغالي، عجوزاً هرماً، مثل مثله راهبين آخرين، وثلاثتهم هزيلون جداً ويبدون ضائعين في مسوحهم البيضاء ذات الكتفيات السوداء والأحزمة الجلدية الخشنة. المسنون وحدهم هم الرهبان، أما الآخرون هناك فهم علمانيون. والجميع، مثلما هو الأب هاتوت، لهم ذلك النحول الذي يُظهرهم كهياكل عظمية، كما لو أن تلك الهيئة هي شعار اللاترابيين في المكان. وفي الداخل، كان البناء مضيئاً، ذلك أن أبنية البعثة كلها بلا سقوف، باستثناء المصلى وقاعة الطعام وحجرة نوم الرهبان. وهناك حظيرة دواجن، ومقبرة، ومطبخ فيه موقد ضخم.

ـ أية جريمة اقترفها هؤلاء الذين تطلبون مني إخراجهم من هنا خفية عن السلطات؟

ـ جريمتهم أنهم فقراء أيها السيد القنصل ـ قال دوم جيسوالدو بأسى ـ حضرتك تعرف ذلك جيداً. وقد رأيتَ للتو في «والا» ما يعنيه كون المرء فقيراً ومسكيناً وكونغولياً.

هز كيسمنت رأسه موافقاً. لا شك أنه عمل رحمة يطلبه منه الكهنة اللاترابيين. ولكنه كان متردداً. فبحكم كونه دبلوماسياً، سيكون من المجازفة إخراج هاربين من العدالة، مهما كانت أسباب ملاحقتهم غير محقة، لأنه يمكن لذلك أن يورط بريطانيا العظمى ويجرد مهمة الاستعلام التي يقوم بها من طبيعتها بالكامل في نظر القوة العامة.

ـ هل يمكنني مقابلتهم والتحدث إليهم؟

وافق دوم جيسوالدو. وانسحب الأب هاتوت ثم رجع بعد قليل مع جماعة الهاربين. كانوا سبعة أشخاص، جميعهم ذكور، بينهم ثلاثة

أطفال. وكانت أيديهم اليسرى جميعاً مبتورة أو مهشمة بضربات أعقاب بنادق. وتوجد آثار سياط على صدورهم وظهورهم. زعيم الجماعة يدعى مانشوندا ويضع قنزعة ريش على رأسه ومجموعة عقود من أسنان حيوانات. وتبدو على وجهه آثار جروح قديمة هي علامات طقوس الرجولة في قبيلته. تولى الأب هاتوت مهمة الترجمة بينهما. كانت قرية بونغيندا قد تخلَّفت مرتين متتاليتين عن تقديم حصتها من المطاط - فأشجار المنطقة استُنفدت من العصارة - لمبعوثي شركة لولونغا، صاحبة الامتياز في المنطقة. عندئذ بدأ الحراس الأفارقة التابعون للقوة العامة، والمرابطون في القرية، بأعمال الجلد بالسياط وتقطيع الأيدي والأرجل. حدث غليان غضب، وقَتل الشعبُ في تمرده أحد الحراس، بينما تمكن الآخرون من الهرب. وبعد بضعة أيام، احتل طابور من القوة العامة قرية بونغيندا وأضرم النار في البيوت كلها، وقتل عدداً لا بأس به من السكان، رجالاً ونساء، بعضهم ماتوا حرقاً في أكواخهم، وجاؤوا بالمتبقين إلى سجن كوكيلهاتفيل وإلى ***بيت الرهائن***. كان الزعيم مانسوندا يظن أنهم هم الوحيدون الذين تمكنوا من الهرب بفضل الكهنة اللاترابيين. وإذا ما قبضت عليهم القوة العامة فسيكونون ضحايا العقاب، مثل الآخرين، لأن تمرد الوطنيين في أي مكان في الكونغو يعاقب دوماً بإبادة القبيلة كلها.

- لا بأس يا أبتاه - قال كيسمنت - سآخذهم معي في السفينة ***هنري ريد*** إلى أن أُبعدهم من هنا. ولكن حتى أقرب مكان على الضفة الفرنسية.

- فليكافئك الرب أيها السيد القنصل - قال له الأب هاتوت.

ـ هذا ما لا أدريه يا أبتِ ـ أجابه القنصل ـ فأنا وأنتم نخرق القانون في هذه الحالة.

ـ إنه قانون البشر ـ صحح له الكاهن اللاترابي ـ ونحن نخرقه لنكون أوفياء لقانون الرب بالضبط.

شارك روجر كيسمنت الكهنة في عشائهم العشبي البسيط. وتبادل الحديث معهم لبعض الوقت. ومازحه دوم جيسوالدو بأن الرهبان اللاترابيين يخرقون، على شرفه، قاعدة التزام الصمت المعمول بها في طائفتهم. بدا له أن الكهنة والعلمانيين مرهقون ومهزومون، مثله هو نفسه، بسبب هذه البلاد. كيف أمكن له الوصول إلى هذه الحال؟ فكر بصوت عال أمامهم. وروى لهم كيف جاء منذ تسعة عشر عاماً إلى أفريقيا ممتلئاً بالحماسة، ومقتنعاً بأن مؤسسة الاستعمار ستأتي بحياة محترمة للأفارقة. كيف أمكن لعملية الاستعمار أن تتحول إلى هذا النهب المريع، إلى هذه القسوة الدوارية حيث يعمد أناس يدّعون أنهم مسيحيون إلى تعذيب وقتل وتقطيع أطراف كائنات مسالمة ويخضعونها لقسوة شديدة الفظاعة، بمن في ذلك الأطفال والشيوخ؟ أولم نأت نحن الأوربيين إلى هنا للقضاء على النخاسة وجذب الناس إلى ديانة الإحسان والعدالة؟ فهذا الذي يحدث هنا الآن هو أسوأ من تجارة العبيد، أليس كذلك؟

تركه الكهنة يفرّج عن نفسه دون أن يقولوا شيئاً. أيكون السبب أنهم، خلافاً لما قاله رئيس الدير، لا يريدون خرق قاعدة التزام الصمت؟ لا.. إنهم مشوشون وحزينون جداً مثله على الكونغو.

ـ دروب الرب لا يمكن أن يسبر غورها خاطئون من أمثالنا أيها

السيد القنصل ـ تنهد دوم جيسوالدو ـ المهم هو عدم الوقوع في اليأس. عدم فقدان الإيمان. ووجود رجال مثلك هنا يرفع من معنوياتنا ويعيد إلينا الأمل. نتمنى لك النجاح في مهمتك. وسنصلي من أجل أن يتيح لك الرب عمل شيء لهذه الإنسانية التعيسة.

صعد الهاربون السبعة إلى السفينة ***هنري ريد*** عند فجر اليوم التالي، في أحد أكواع النهر، حين كانت السفينة البخارية الصغيرة بعيدة بعض الشيء عن كوكيلهاتفيل. وخلال الأيام الثلاثة من وجودهم في السفينة، ظل روجر متوتراً وقلقاً. لقد قدم لطاقم السفينة تفسيراً غامضاً لتبرير وجود الوطنيين السبعة مبتوري الأيدي وبدا له أن الرجال يرتابون بتلك الجماعة التي لا اتصال لهم بها، وينظرون إليها نظرة شك. وعند بلوغ إريبو، اقتربت ***هنري ريد*** من الضفة الفرنسية لنهر الكونغو، وفي تلك الليلة، بينما كان بحارة السفينة نائمين، انسلت سبعة أشباح صامتة واختفت بين آجام الضفة. ولم يسأل أحدٌ القنصل بعد ذلك عما جرى لهم:

وعند هذا المستوى من الرحلة بدأ روجر كيسمنت يشعر بالتوعك. ولم يكن توعكاً معنوياً ونفسياً وحسب، وإنما راح جسده كذلك يعاني من مفاعيل عدم النوم، ومن لسع الحشرات، والانحطاط البدني الشديد، وربما قبل ذلك كله بسبب حالته المعنوية حيث كان الغضب يخالط وهن الهمة، وإرادته في إنجاز عمله يخالطها هاجس أن تقريره لن يفيد شيئاً كذلك، لأن بيروقراطيي وزارة الخارجية، هناك في لندن، والسياسيين العاملين في خدمة جلالة الملك سيقررون أنه من غير الملائم معاداة حليف مثل ليوبولد الثاني، وأن نشر تقرير يتضمن

اتهامات بالغة الجدّية ستكون له نتائج تضر بمصالح بريطانيا العظمى لأن ذلك يعني إلقاء بلجيكا إلى أحضان ألمانيا. أليست مصالح الإمبراطورية أهم من شكاوى نائحة من بعض المتوحشين أشباه العراة ممن يعبدون حيوانات هِرِّيَّة وأفاعيَ ويأكلون لحوم البشر؟

بذل جهوداً تفوق طاقة البشر للتغلب على هبات اليأس، وآلام الرأس، والغثيان، والتوعك البدني ـ كان يشعر بأن جسده ينحل لأنه اضطر إلى فتح ثقوب جديدة في حزامه ـ وواصل زياراته للقرى والمواقع والمحطات، واستجوابه للقرويين والموظفين والحراس وجامعي المطاط، وتجاوزه بقدر ما يستطيع المشهد اليومي للأجساد المعذبة بالسياط، والأيدي المقطوعة، وقصص عمليات القتل والحبس والابتزاز والاختفاء الكابوسية. ووصل إلى حدّ التفكير في أن تلك المعاناة الكونغولية المعممة تعبق، في الهواء وفي النهر وفي الخضرة التي تحيط به، برائحة خاصة، بنتانة ليست طبيعية فقط، وإنما روحية وميتافيزيقية أيضاً.

«أظن أنني آخذ بفقدان عقلي يا عزيزتي جي»، هذا ما كتبه لابنة خالته جيرترود من محطة بونغاندانغا يوم قرر الاستدارة وبدء رحلة الرجوع إلى ليوبولدفيل. «بدأتُ اليوم العودة إلى بوما. كان عليّ، وفق مخططاتي أن أواصل التقدم في أعالي الكونغو لأسبوعين آخرين. ولكن صارت تتوافر لدي في الحقيقة مادة أكثر من كافية كي أُثبت في تقريري الأمور التي تحدث هنا. وأخشى ألا أتمكن من كتابة تقريري إذا ما واصلت تقصي الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها خبث وعار الكائنات البشرية. إنني على حافة الجنون. لا يمكن لكائن بشري طبيعي

أن يغوص لشهور طويلة في هذا الجحيم دون أن يفقد سلامته، دون أن يصاب باختلال ذهني. أشعر بأن شيئاً من ذلك يحدث لي في بعض الليالي، أثناء أرقي. هنالك ما ينفرط في ذهني. إنني أعيش في غم دائم. وإذا ما واصلت الغوص في ما يحدث هنا فسوف انتهي أنا أيضاً إلى الضرب بالسياط وتقطيع الأيدي وقتل الكونغوليين ما بين الغداء والعشاء، دون أن يسبب لي ذلك أدنى انزعاج ضميري ودون أن يُفقدني شهيتي. لأن هذا ما يحدث للأوربيين في هذه البلاد المعذبة».

ومع ذلك فإن تلك الرسالة الطويلة لم تتحدث عن الكونغو تحديداً، وإنما عن أيرلندا. «وهكذا يا عزيزتي جي، سيبدو لك الأمر كما لو أنه عارض آخر من أعراض الجنون، ولكن هذه الرحلة إلى أعماق الكونغو أفادتني في اكتشاف بلادي نفسها. في فهم وضعها، قدرها، واقعها. ففي هذه الأدغال لم أجد الوجه الحقيقي لليوبولد الثاني فقط، بل وجدت أيضاً أناي الحقيقية: الأيرلندي الحقيقي. وعندما أرجع سأكون مفاجأة لك يا جي. سوف تجدين صعوبة في التعرف إلى ابن خالتك روجر. لدي انطباع بأنني قد استبدلت جلدي، مثل بعض أنواع الثعابين، وأنني استبدلت ذهنيتي وربما روحي كذلك».

وكان ذلك صحيحاً. فخلال الأيام التي استغرقتها ***هنري ريد*** في النزول عبر نهر الكونغو حتى ليوبولدفيل ـ كينشاسا، حيث رست أخيراً عند غروب يوم الخامس عشر من أيلول ١٩٠٣، لم يكد القنصل يتبادل الكلام مع طاقم السفينة. كان يبقى معتكفاً في قمرته الضيقة، أو مستلقياً في أرجوحة نوم في مؤخر السفينة، إذا سمحت حالة الجو بذلك، ومعه

كلبه الوفي جون قابعاً عند قدميه، ساكناً ومتيقظاً، كما لو أن عدوى غمّ سيده قد انتقلت إليه.

لم يكن يفكر إلا في بلاد طفولته وشبابه التي أصابه خلال تلك الرحلة الطويلة حنين مفاجئ إليها، يزيح من رأسه صور الرعب الكونغولية الساعية إلى تدميره معنوياً وتعكير توازنه النفسي. كان يتذكر سنوات حياته الأولى في دبلن، مدللاً ومحمياً من أمه، وسنواته في مدرسة باليمينا وزيارته لقلعة الأشباح في غالغورم، ونزهاته مع أخته نينا في ريف شمالي أنتريم (بالغ الوداعة إذا ما قورن بالريف الأفريقي!) والسعادة التي كانت تمده بها النزهات إلى تلك القمم الصغيرة التي تحرس غلينشيسك، المفضلة لديه بين قمم الكونتية التسع، تلك القمم التي تكنسها الرياح والتي يمكن أن يلمح من فوقها أحياناً تحليق النسور بأجنحتها الكبيرة المفتوحة وأعرافها المنتصبة في تحدٍ للسماء.

أليست أيرلندا مستعمرة أيضاً، مثل الكونغو؟ ومع أنه أصر لسنوات طويلة على عدم تقبل هذه الحقيقة التي كان أبوه وأيرلنديون كثيرون مثله في ألستر ينكرونها بسخط أعمى. ولماذا يكون ما هو سيئ للكونغو جيد لأيرلندا؟ أولم يغزُ الإنكليز أيرلندا؟ ألم يضموها إلى الإمبراطورية بالقوة، دون استشارة سكانها المغزوين والمحتلين، مثلما يفعل البلجيكيون بالكونغوليين؟ لقد خفَّت وطأة ذلك العنف مع مرور الزمن، ولكن أيرلندا مازالت مستعمرة، أزيلت سيادتها بعمل جار أقوى منها. إنها حقيقة يرفض أيرلنديون كثيرون رؤيتها. ما الذي سيقوله أبوه إذا ما سمعه يقول مثل هذه الأشياء؟ هل سيُشهر «سوطه» الصغير؟ وماذا عن أمه؟ هل ستستنكر ذلك آن جيفسون إذا علمت أن ابنها آخذ بالتحول في

عزلات الكونغو إلى قومي، إن لم يكن بالعمل فبالفكر على الأقل؟ في أمسيات العزلة تلك، بينما هو محاط بمياه نهر الكونغو البنية والمحملة بأوراق وأغصان وجذوع، اتخذ روجر كيسمنت القرار: فور عودته إلى أوروبا سيسعى للحصول على مجموعة جيدة من الكتب المكرسة لتاريخ وثقافة أيرلندا التي يعرفها بصورة سيئة.

لم يبق في ليوبولدفيل سوى أقل من ثلاثة أيام، دون أن يسعى خلالها للقاء أحد. ففي الحالة التي كان عليها لم يكن يجد الحماسة لزيارة السلطات والمعارف والاضطرار إلى التحدث إليهم ـ والكذب عليهم طبعاً ـ حول رحلته في وسط وأعالي نهر الكونغو وحول ما رآه في تلك الشهور. أرسل برقية مشفرة إلى وزارة الخارجية في لندن يخبرهم فيها بأن لديه مادة كافية تؤكد الشكاوى حول إساءة معاملة السكان الأصليين. وطلب منحه الإذن بالانتقال إلى منطقة الأملاك البرتغالية المجاورة كي يكتب تقريره بهدوء أكبر من خضوعه لضغوط الخدمة القنصلية في بوما. وكتب شكوى مطولة، هي في الوقت ذاته احتجاج رسمي، إلى مدعي عام المحكمة العليا في ليوبولدفيل ـ كينشاسا حول أحداث «والا»، طالب فيها بإجراء تحقيق وفرض عقوبات على المسؤولين عنها. وحمل عريضته شخصياً إلى المدعي العام، حيث وعده موظف حذر بأنه سيطلع المدعي العام، الأستاذ ليفرفيل على العريضة فور عودته من رحلة لصيد الفيلة مع مدير مكتب التسجيل التجاري، مسيو كلوتار.

ذهب روجر كيسمنت في القطار إلى ماتادي، حيث أمضى ليلة واحدة فقط. ومن هناك نزل إلى بوما في سفينة شحن بخارية. وفي

مكتبه القنصلي وجد كومة من المراسلات وبرقية من رؤسائه تمنحه الإذن بالسفر إلى لواندا لكتابة تقريره. كان عليه أن يكتبه بصورة مستعجلة وبأقصى ما يمكن من التفاصيل. ففي إنكلترا كانت الحملة ضد دولة الكونغو المستقلة في ذروتها، وكانت تشارك فيها الصحف الرئيسية، مؤكدة أو منكرة وقوع «الفظائع». وإلى احتجاجات الكنيسة المعمدانية كان قد انضم، منذ بعض الوقت، الصحفي البريطاني من أصل فرنسي أدمون د. موريل، وهو صديق سري ومتواطئ مع روجر كيسمنت. وكانت كتاباته تسبب اضطراباً كبيراً في مجلس العموم، وكذلك في الرأي العام. فقد جرت مناظرة حول الموضوع في البرلمان. وكانت وزارة الخارجية، ووزير الخارجية اللورد لنسدون شخصياً، ينتظرون بفارغ الصبر تقرير روجر كيسمنت.

في بوما، كما في ليوبولدفيل ـ كينشاسا، تجنب روجر قدر ما استطاع اللقاء بأشخاص من الحكومة المحلية، بل إنه كسر البروتوكول، وهو أمر لم يفعله خلال كل سنوات خدمته القنصلية. فبدلاً من زيارة الحاكم العام، أرسل إليه رسالة يعتذر فيها عن عدم ذهابه شخصياً ليسلم عليه متذرعاً بأسباب صحية. ولم يذهب ولو مرة واحدة للعب التنس، أو البلياردو، أو الورق، ولم يَدعُ أحداً أو يتقبل دعوة أحد لتناول الغداء أو العشاء. بل إنه لم يعد يذهب للسباحة باكراً في الصباح في أمكنة هادئة من النهر، وهو ما اعتاد ممارسته بصورة شبه يومية، حتى في الأحوال الجوية السيئة. فقد كان متأكداً من أنه لن يتمكن أبداً من أن يصف بصدق لأصدقائه ومعارفه في بوما ما يفكر فيه بشأن كل ما رآه وسمعه وعاشه في وسط وأعالي الكونغو خلال الأربعة عشر أسبوعاً الأخيرة.

كرس وقته كله لحل الشؤون القنصلية المستعجلة والإعداد لرحلته إلى كابِندا ولواندا. كان يأمل أنه بخروجه من الكونغو، ولو إلى منطقة استعمارية أخرى، سوف يشعر بأنه أقل ضيقاً، وأكثر حرية. لقد حاول عدة مرات البدء في كتابة مسودة التقرير، ولكنه لم يتمكن من عمل ذلك. لم يكن القنوط وحده هو الذي يمنعه، وإنما كانت يده اليمنى تعاكسه بإصابتها المفاجأة بتشنج كلما همّ بملامسة الورق بريشة الكتابة. وقد عاد البواسير لإزعاجه. ولم يكن يكاد يأكل، وكان خادماه، شارلي وماوكو، يطلبان منه بقلق، وهما يريان حالته تسوء، أن يستدعي الطبيب. لكنه لم يفعل ذلك، على الرغم من أنه هو نفسه كان قلقاً من أرقه وانعدام شهيته وتوعكاته البدنية، لأن رؤية الدكتور سالابير تعني التحدث، التذكر، ورواية كل ذلك الذي يريد تناسيه وحسب حالياً.

في الثامن والعشرين من أيلول أبحر في سفينة نحو بانانا، ومن هناك، نقلته سفينة بخارية في اليوم التالي، ومعه شارلي، إلى كابِندا. أما كلبه البولدوغ **جون** فبقي مع ماوكو. لكنه لم يشعر مع ذلك بمزيد من الطمأنينة والثقة بالنفس خلال الأيام الأربعة التي أمضاها في كايندا، حيث كان له بعض المعارف الذين تناول العشاء معهم، ولأنهم كانوا يجهلون أمر رحلته إلى أعالي نهر الكونغو، فإنهم لم يضطروه إلى التحدث عما لا يريده. لم يشعر بالتحسن إلا في لواندا التي وصل إليها في الثالث من تشرين الأول. القنصل الإنكليزي هناك، مستر بريسكلي، وهو شخص متحفظ وخدوم، وفر له مكتباً صغيراً في مقر قنصليته. وهناك بدأ أخيراً العمل صباحاً ومساء بوضع الخطوط العريضة لتقريره.

ولكنه لم يشعر بأنه على ما يرام حقاً، وأنه عاد مثلما كان من قبل،

إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام من وصوله إلى لواندا، عند الظهر، بينما هو جالس إلى منضدة في مقهى باريس القديم، حيث كان يذهب لتناول الطعام بعد العمل طيلة فترة الصباح. وكان يتصفح جريدة قديمة آتية من لشبونة عندما لمح، في الشارع المقابل، عدداً من الوطنيين شبه العراة يُفرغون عربة كبيرة ممتلئة بأكياس محصول زراعي، ربما هو القطن. وكان أحدهم، أكثرهم فتوة، جميلاً جداً. له جسد طويل ورياضي، وعضلات يبرزها الجهد الذي يقوم به في ظهره وساقيه وذراعيه. وكانت بشرته السوداء الضاربة إلى نوع من الزرقة تلمع من العرق. وخلال الحركات التي يقوم بها وهو ينقل الحمولة على كتفه من العربة إلى داخل المستودع، كان إزار القماش الخفيف الملفوف على إليتيه ينفتح ويكشف عن عضوه المتدلي والضارب إلى الحمرة والأكبر مما هو معهود. أحس روجر بموجة حماوة وبرغبة متعجلة في تصوير الحمال الوسيم. لم يحدث له مثل ذلك منذ شهور. وخطرت له فكرة شجعته: «إنني أعود لأكون أنا نفسي». وقد دون في دفتر اليوميات الصغير الذي يحمله معه على الدوام: «إنه وسيم جداً وضخم. لحقت به وأقنعته. تبادلنا القبلات مختبئين بين نباتات السرخس العملاقة في منطقة معزولة. كان لي، كنت له. صحتُ». تنفس بعمق، وبدا محموماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات سلّمه السيد بريسكلي برقية من وزارة الخارجية. كان وزير الخارجية نفسه، اللورد لنسدون، يأمره بالعودة إلى إنكلترا فوراً ليكتب في لندن بالذات ***التقرير حول الكونغو***. كان روجر قد استعاد شهيته، وقد تناول العشاء جيداً في تلك الليلة.

قبل أن يبحر في السفينة ***زائير*** التي انطلقت من لواندا إلى إنكلترا،

مع محطة توقف في لشبونة، كتب رسالة طويلة إلى أدمون د. موريل. وكان يتبادل الرسائل معه سراً منذ حوالي ستة شهور. لم يكن يعرفه شخصياً. وقد علم بوجوده، أولاً، من خلال رسالة أرسلها إليه هربرت وارد الذي يُقدِّر الصحفي، ثم سمع بعد ذلك في بوما من موظفين بلجيكيين وأناس عابرين تعليقات على مقالاته شديدة الصرامة والمشحونة بالنقد لدولة الكونغو المستقلة، والتي ينشرها موريل، وهو يعيش في ليفربول، مشهراً فيها بأعمال التعسف ضحاياها سكان المستعمرة الأفارقة. وقد حصل سراً، من خلال ابنة خالته جيرترود، على كتيبات نشرها موريل. لقد أدهشت روجر جدية اتهاماته، فأرسل إليه، في لفتة جرأة، رسالة من خلال جي. قال له فيها إنه يعيش منذ سنوات طويلة في أفريقيا ويمكنه أن يقدم معلومات طازجة وموثوقة لحملته العادلة التي يتضامن معها. ولا يمكنه أن يفعل ذلك علناً بسبب وضعه كدبلوماسي بريطاني، ولهذا لابد من اتخاذ الاحتياطات في المراسلة لتفادي الكشف عن مخبره في بوما. وفي رسالته التي كتبها لموريل من لواندا، لخص له روجر تجربته الأخيرة وقال له إنه فور وصوله إلى أوروبا سيتصل به. فليس هناك ما يحلم به أكثر من التعرف شخصياً إلى الأوروبي الوحيد الذي يبدو أنه توصل إلى وعي كامل لمسؤولية القارة العجوز في تحويل الكونغو إلى جحيم.

استرد روجر النشاط والحماسة والأمل خلال الرحلة إلى لندن. واستعاد الثقة بأن تقريره سيكون مفيداً جداً لوضع حد لتلك الفظائع. وقد أثبتت ذلك اللهفةُ التي تنتظر بها وزارة الخارجية تقريره. وكان حجم الوقائع يفرض على الحكومة البريطانية أن تتصرف، وتطالب بتغيرات جذرية، وإقناع حلفائها، وإلغاء تلك المنحة الشخصية لليوبولد

الثاني المتمثلة في منحه قارة كالكونغو. وعلى الرغم من العواصف التي زعزعت السفينة *زائير* بين سان تومي ولشبونة، والتي أصابت نصف طاقم السفينة بالدوار والقيء، تدبر روجر كيسمنت الأمر ليواصل كتابة تقريره. وبانضباطه القديم وانكبابه بغيرة رسولية على مهمته، حاول الكتابة بأكبر قدر من الدقة والاعتدال، دون الانزلاق إلى العاطفية أو الاعتبارات والمشاعر الشخصية، وتقديم وصف موضوعي فقط لما تمكنَّ من معاينته. فكلما كان التقرير أكثر دقة واقتضاباً سيكون أشد إقناعاً وفاعلية.

وصل إلى لندن في يوم أول جليدي من كانون الثاني. ولم يكد يلقي نظرة على هذه المدينة الماطرة، الباردة والشبحية، لأنه ما كاد يترك أمتعته في شقته بفيليبيش جاردنز، في إيرلز كورت، ويلقى نظرة سريعة على الرسائل المتراكمة، حتى اضطر إلى الذهاب مسرعاً إلى وزارة الخارجية. وعلى امتداد ثلاثة أيام تتالت الاجتماعات والمقابلات. اندهش دهشة عظيمة. فليس ثمة مجال للشك. لقد صارت الكونغو مركز الاهتمام الآني منذ تلك المناظرة في البرلمان. لقد كان لاحتجاجات الكنيسة المعمدانية وحملة ادموند د. موريل أثرها. الجميع يطالبون الحكومة بموقف، وهذه تنتظر، قبل النطق بموقفها، الاستناد إلى تقريره. واكتشف روجر كيسمنت أن الظروف، دون أن يدري أو يرغب، قد جعلت منه رجلاً مهماً. في جلستي عرض الوقائع، لمدة ساعة كل جلسة منهما، أمام موظفي الوزارة ـ وقد حضر إحداهما مدير الشؤون الأفريقية ومعاون الوزير ـ أدرك تأثير كلماته على مستمعيه. فالنظرات غير المصدقة في البدء تحولت بعد ذلك، حين راح

يردّ على الأسئلة بأمور محددة ودقيقة أخرى، إلى ملامح اشمئزاز ورعب.

قدموا إليه مكتباً في مكان هادئ في كنسينغتون، بعيداً عن وزارة الخارجية، وضارب آلة كاتبة شاباً وفعالاً هو مستر جو باردو. بدأ يملي عليه تقريره يوم الجمعة الرابع من كانون الأول. كان قد انتشر خبر أن القنصل البريطاني في الكونغو قد وصل إلى لندن، ومعه وثيقة ضافية حول المستعمرة، فسعت وكالة رويتر وجريدتا السبكتادور والتايمز وعدد من مراسلي صحف الولايات المتحدة إلى إجراء مقابلة معه. ولكنه، بالاتفاق مع رؤسائه، أعلن أنه لن يتحدث إلى الصحافة إلا بعد أن تصدر الحكومة موقفها حول الموضوع.

ولم يفعل خلال الأيام التالية شيئاً آخر سوى العمل في تقريره صباحاً ومساء، مضيفاً إلى النص، ومقتطعاً منه، ومعدلاً فيه، يقرأ ويعيد قراءة دفاتر ملاحظاته خلال الرحلة التي صار يعرفها عن ظهر قلب. وعند انتصاف النهار يكاد لا يأكل سوى ساندويتش، ويتناول العشاء كل ليلة في ناديه، نادي ويلينغتون. ينضم إليه أحياناً صديقه هربرت وارد. كان يشعر بالتحسن وهو يتحدث إلى صديقه القديم. وذات ليلة استدرجه هذا الصديق إلى مشغلة، في ٥٣، ميدان تشستر سكوير، حيث ألهاه بعرضه عليه منحوتاته الجديدة المستوحاة من أجواء أفريقية. وفي يوم آخر، ومن أجل جعله ينسى لساعات اهتماماته المتسلطة على ذهنه، أجبره هربرت على الخروج لشراء سترة من النوع الرائج، من قماش ذي مربعات صغيرة، وقبعة على الطراز الفرنسي، وحذاء ذي وجه مزركش وأبيض اللون. ثم اقتاده بعد ذلك لتناول الغداء

في مكان المثقفين والفنانين اللندنيين المفضل، مطعم برج إيفل. وكانت هذه هي لحظات متعته الوحيدة خلال تلك الأيام.

ومنذ وصوله، كان قد طلب الإذن من وزارة الخارجية للسماح له بلقاء موريل. وقدم عذراً لذلك بأنه يريد أن يقارن مع الصحفي بعض المعلومات التي جاء بها. في التاسع من كانون الثاني حصل على ذلك الإذن. وفي اليوم التالي رأى روجر كيسمنت وادموند د. موريل وجه كل منهما الآخر أول مرة. وبدلاً من المصافحة بالأيدي تعانقا. تبادلا الحديث، وتناولا العشاء معاً في الكوميدي، وذهبا إلى شقة روجر في فيلبيش جاردنز حيث أمضيا بقية الليل وهما يتناولان الكونياك، ويتبادلان الحديث، ويدخنان ويتناقشان إلى أن اكتشفا، من خلال ستائر النوافذ، أن اليوم التالي قد حلّ. لقد امضيا اثنتي عشرة ساعة من الحوار المتواصل. وسيقول كلاهما، في ما بعد، إن ذلك اللقاء هو الأهم في حياتيهما.

ما كان لهما أن يكونا أكثر اختلافاً أحدهما عن الآخر. فروجر طويل القامة ونحيل جداً بينما موريل أقرب إلى قصر القامة، متين البنية، مع ميل إلى البدانة. ففي كل مرة يراه فيها كان روجر يشعر أن بدلات صديقة تضيق عليه أكثر فأكثر. كان روجر قد أتم التاسعة والثلاثين من عمره، ولكنه بالرغم من تأثير المناخ الأفريقي على بنيته البدنية، ومن إصاباته المتعددة بحمى المستنقعات، كان يبدو، ربما بسبب اهتمامه بأناقته، أصغر سناً من موريل الذي لم يكن عمره يزيد على اثنين وثلاثين عاماً وكان وسيماً في فتوته ولكنه يبدو هرِماً الآن، بشعره المفروق الشائب، مثلما هو شاربه الذي كشارب فقمة، وله عينان

متأججتان ومتقافزتان بعض الشيء. كان يكفي أن يرى كل منهما الآخر ليتفاهما ويتحابا، دون أن يريا مبالغة في هذه الكلمة الأخيرة.

ما الذي تحدثا عنه في تلك الساعات الاثنتي عشرة المتواصلة؟ الكثير عن أفريقيا طبعاً، ولكنهما تحدثا كذلك عن أسرتيهما، وعن أحلامهما، وعن مُثل مراهقتهما وتطلعاتها، وكيف استقرت الكونغو، دون قصد منهما، في قلب حياتيهما وغيَّرتهما من أخمص أقدامهما حتى رأسيهما. وقد سيطرت الدهشة على روجر من شخص لم يكن هناك قطّ ويعرف تلك البلاد على ذلك النحو الجيد. يعرف جغرافيتها، تاريخها، أناسها، مشاكلها. استمع بافتتان كيف أن هذا الموظف الغامض، قبل سنوات طويلة، في شركة «إلدر ديمبستر لاين»، (الشركة نفسها التي عمل فيها روجر وهو شاب في ليفربول) المدعو موريل، والمكلف في ميناء امبيرس بتسجيل السفن ومراقبة الشحنات، قد داخلته الشكوك حين انتبه إلى أن التجارة الحرة المزعومة التي فتحها جلالة ليوبولد الثاني بين أوروبا ودولة الكونغو المستقلة، لم تكن غير متكافئة وحسب، وإنما هي مجرد مهزلة. فأي نوع من التجارة الحرة هو ذاك الذي تأتي به السفن من الكونغو لتفرغ في الميناء البلجيكي الضخم أطناناً من المطاط وكميات من العاج وزيت النخيل والمعادن والجلود، وتحمل إلى هناك بنادق وسياطاً وصناديق من الخرز الملون؟

هكذا بدأ اهتمام موريل بالكونغو، وبدأ يتقصى، ويستجوب من يذهبون إلى هناك أو من يرجعون منهم إلى أوروبا، من تجار وموظفين ورحالة وقسس وكهنة ومغامرين وجنود وشرطيين، وصار يقرأ كل ما يقع بين يديه حول تلك البلاد الشاسعة التي أصبح يعرف تفاصيل بؤسها

كما لو أنه ذهب إليها في عشرات رحلات التفتيش مثل رحلات روجر كيسمنت إلى وسط وأعالي نهر الكونغو. عندئذ، وقبل أن يستقيل من وظيفته في الشركة، بدأ بكتابة رسائل ومقالات لمجلات وصحف في بلجيكا وإنكلترا، باسم مستعار في البدء، ثم باسمه الصريح بعد ذلك، يستنكر فيها ما يكتشفه ويكذِّب بالمعطيات والشهادات صورة الكونغو المثالية التي يقدمها أصحاب الأقلام المأجورة في خدمة ليوبولد الثاني إلى العالم. وكان قد أمضى سنوات في مشروعه هذا، ينشر مقالات وكتيبات وكتب، ويتكلم في كنائس ومراكز ثقافية ومنظمات سياسية. لقد انطلقت حملته. وصار أناس كثيرون يستمعون إليه الآن. «هذه هي أوروبا»، هكذا فكر روجر كيسمنت مرات عديدة في ليلة العاشر من كانون الأول تلك، «وهي ليست فقط المستعمرين والشرطيين والمجرمين الذين يتحكمون بأفريقيا. أوروبا هي أيضاً هذه الروح المسيحية والمثالية: إنها ادموند د. موريل».

ومنذ ذلك اليوم صارا يلتقيان بكثرة، وواصلا ذلك الحوار الذي يبعث فيهما الحماسة. وصار كل منهما يسمي الآخر باسم تحبب مستعار: كان لقب روجر ***تيغر*** ولقب ادموند ***بولدوغ***. وفي إحدى جلسات الحديث تلك برزت فكرة إنشاء مؤسسة إصلاح الكونغو. وقد فوجئ كلاهما بالدعم الواسع الذي توصلا إليه في مساعيهما للبحث عن شخصيات راعية وأنصار لمشروعهما. الحقيقة أن قلة قليلة جداً من السياسيين والصحفيين والكتّاب ورجال الدين والشخصيات المعروفة التي طلبوا منها المساعدة لمؤسسة إصلاح الكونغو رفضت تقديمها إليهما. وهكذا تعرف روجر كيسمنت إلى إليس ستوبفورد غرين. قدمها إليه هربرت وارد. وكانت إليس من الشخصيات الأولى التي قدمت

أموالاً، واسمها ووقتها لمؤسسة إصلاح الكونغو. وقد فعل ذلك جوزيف كونراد أيضاً وحاكاه عدد كبير من المثقفين والفنانين. لقد جمعا أرصدة، وأسماء محترمة، وسرعان ما بدأا النشاطات العامة في الكنائس والمراكز الثقافية والإنسانية، بتقديم شهادات، وتنشيط مناظرات ومنشورات لفتح عيون الرأي العام حول حقيقة وضع الكونغو. وبالرغم من أنه لم يكن بإمكان روجر كيسمنت، بسبب وضعه الدبلوماسي، أن يظهر رسمياً في هيئة إدارة المؤسسة، إلا أنه كرس لها وقت فراغه كله بعد أن انتهى من تسليم تقريره لوزارة الخارجية. وتبرع بجزء من مدخراته وراتبه للمؤسسة، وكتب رسائل، وزار شخصيات كثيرة وتوصل إلى جعل عدد كبير من الدبلوماسيين والسياسيين دعاة للقضية التي يدافع عنها هو وموريل.

بعد مرور السنوات، عندما كان روجر يتذكر تلك الأسابيع المحمومة في أواخر العام ١٩٠٣ وبداية العام ١٩٠٤، سيقول إن ما هو أكثر أهمية في نظره ليست الشعبية التي حصل عليها حتى قبل أن تنشر حكومة جلالته تقريره، والتي تعاظمت أكثر كثيراً بعد نشره، حين بدأ العملاء العاملون في خدمة ليوبولد الثاني مهاجمته في الصحافة على أنه عدو لبلجيكا ومفتر عليها، وإنما المؤسسة، والفضل في ذلك يعود إلى موريل، وتعرفه بفضل هربرت على إليس ستوبفورد غرين التي سيصبح منذ ذلك الحين صديقها الحميم، وتلميذها مثلما كان يفاخر. فمنذ اللحظة الأولى تحقق بينهما تفاهم وتعاطف لم يزده الزمن إلا تعمقاً.

في المرة الثانية أو الثالثة التي التقيا بها على انفراد، فتح روجر قلبه لصديقته الجديدة، مثلما يمكن لمؤمن أن يفتح قلبه لكاهن اعترافه. وقد

تجرأ على القول لها، وهي الأيرلندية المتحدرة من أسرة بروتستانتية مثله، ما لم يكن قد قاله لأحد بعد: هناك، في الكونغو، خلال معايشته الجور والعنف، اكتشف الأكذوبة الكبيرة المدعوة «الاستعمار» وبدأ يشعر بأنه «أيرلندي»، أي أنه مواطن بلاد تحتلها وتستغلها الإمبراطورية البريطانية التي جردت أيرلندا من روحها. وأنه كان يشعر بالعار من أشياء كثيرة قالها وآمن بها مكرراً تعاليم أبيه. وأنه نوى تصويب ذلك. وقد اكتشف أيرلندا بفضل الكونغو، ويريد أن يكون أيرلندياً حقاً، يعرف بلاده، ويتمثل تقاليدها وتاريخها وثقافتها.

وبحنان، وشيء من الأمومية ـ فقد كانت إليس تكبره بسبعة عشر عاماً ـ كانت تحاول أن تنأى به أحياناً عن تلك الاندفاعات الحماسية الطفولية التي تنتابه رغم كونه أربعينياً، ولكنها كانت تساعده بالنصائح والكتب، وبأحاديث هي بالنسبة إليه دروس بارعة، بينما هما يتناولان البسكويت أو الكعك مع الكريم والمربى. في تلك الشهور الأولى من عام ١٩٠٤، كانت إليس ستوبفورد غرين صديقته ومعلمته ومدخله إلى ماض مغرق في القدم يختلط فيه التاريخ والخرافة والأسطورة ـ الواقع والدين والخيال ـ لتكوين تقاليد شعب مازال يحافظ، بالرغم من جهود الإمبراطورية لتجريده من هويته الوطنية، على لغته، وأسلوبه في الحياة، وعاداته، وهي أمور يجب على كل أيرلندي أن يدافع عنها، سواء أكان ليبرالياً أم محافظاً، بروتستانتياً أم كاثوليكياً، مؤمناً أم ملحداً. ولم يساعد شيءٌ في تهدئة روح روجر، وفي شفاء تلك الجراح الأخلاقية التي سببتها له الرحلة إلى أعالي الكونغو، مثلما ساعدت صداقته لموريل وإليس. وذات يوم، بينما هي تودع روجر الذي طلب إجازة لثلاثة

شهور من وزارة الخارجية، وكان على وشك السفر إلى دبلن، قالت له المؤرخة:

ـ أتدرك أنك قد تحولت إلى رجل مشهور يا روجر؟ الجميع يتكلمون عنك هنا، في لندن.

لم يكن في ذلك ما يمكنه أن يتملقه لأنه لم يكن مغروراً قط. ولكن إليس كانت تقول الحقيقة. فنشر الحكومة البريطانية لتقريره أحدث أصداء هائلة في الصحافة، وفي البرلمان، وفي الطبقة السياسية والرأي العام. والهجمات التي تلقاها من المطبوعات الرسمية في بلجيكا ومن الصحفيين الإنكليز المروجين لليوبولد الثاني، لم تفد في شيء سوى ترسيخ صورته كمناضل إنساني ومنصف عظيم. أُجريت معه مقابلات في الصحف، ودعي للتكلم في مهرجانات عامة تقام في المنتديات الخاصة، وهطل عليه وابل من الدعوات إلى الصالونات الليبرالية والمناهضة للاستعمار، وكانت تظهر أخبارٌ صحفية ومقالات ترفع إلى السماء تقريره والتزامه بقضية العدالة والحرية. لقد تلقت حملة الكونغو دفعاً جديداً. فالصحافة والكنائس وأكثر الجمعيات تقدماً في المجتمع الإنكليزي شعرت بهول ما كشف عنه التقرير، وراحت تطالب بريطانيا العظمى بأن تطلب من حلفائها التراجع عن قرار البلدان الغربية بتسليم الكونغو لملك البلجيكيين.

ولاشتداد وطأة تلك الشهرة المفاجئة عليه ـ كان الناس يتعرفون عليه في المسارح والمطاعم ويشيرون إليه في الشارع بتعاطف ـ سافر روجر كيسمنت إلى أيرلندا. بقي بضعة أيام في دبلن، ولكنه ما لبث أن واصل رحلته إلى ألتستر، وشمالي انتريم، وماغرنتمبل هاوس، وبيت طفولته

وصباه العائلي. وكان قد ورثه عمه وسميه روجر، ابن الجد جون الذي توفي عام ١٩٠٢. وكانت العمة شارلوت لا تزال على قيد الحياة. وقد استقبلته بحنان كبير مثلها مثل أقربائه الآخرين، أبناء العمومة وأبناء الإخوة. ولكنه كان يشعر بأن مسافة تباعد غير مرئية قد انبثقت بينه وبين أقربائه من جهة أبيه الذين مازالوا موالين للإنكليز بثبات. ومع ذلك فإن بيت ماغرنتمبل الكبير ذا الأحجار الرمادية، والمحاط بأشجار جميز مقاومة للملوحة والرياح، كثير منها غارق وسط اللبلاب، وأشجار حور ودردار ودراق تهيمن على المروج التي تتكاسل الأغنام فيها، وفي ما وراءها البحر، هزته حتى النخاع رؤية جزيرة راثلن ومدينة باليمنيا الصغيرة وبيوتها البيضاء كالثلج. وبينما هو يجول في الإسطبلات، أو البستان الذي وراء البيت، أو الحجرات الفسيحة المعلقة على جدرانها قرون غزلان، أو على قريتي كاشيندون وكاشيندال، حيث دُفنت أجيال عديدة من أسلافه، كانت تنبعث في ذهنه ذكريات طفولته وتملؤه بالحنين. ولكن أفكاره الجديدة ومشاعره حول البلاد حوّلت إقامته هناك، وقد امتدت عدة شهور، إلى مغامرة أخرى في نظره. وهي مغامرة لطيفة ومنشّطة، على خلاف رحلته إلى أعالي الكونغو، منحته وهو يعيشها الإحساس بتبديل جلده.

حمل معه كومة من الكتب، كتبِ نحوٍ ودراسات، نصحته بها إليس، وكرس ساعات طويلة للقراءة حول التقاليد والأساطير الأيرلندية. حاول تعلم اللغة الغيلية، في البدء بمفرده، وحين تأكد من أنه لن يتمكن من ذلك أبداً، استعان بأستاذ مختص، فكان يأخذ معه درسين أسبوعياً.

ولكنه بدأ، قبل كل شيء، بمرافقة أناس من كونتية أنتريم، لم يكونوا مؤيدين للاتحاد بحكم كونهم من ألستر وبروتستانت مثله، بل كانوا يرغبون، على العكس من ذلك، في الحفاظ على الشخصية الأيرلندية القديمة، ويناضلون ضد «أنكلزة» البلاد، ويدافعون عن العودة إلى اللغة الأيرلندية القديمة، والأغنيات والعادات والتقاليد، ويعارضون تجنيد أيرلنديين في الجيش البريطاني، ويحلمون بأيرلندا منفصلة، بعيدة عن التصنيع الحديث المدمِّر، وعيش حياة ريفية ورعوية حالمة، منعتقة من الإمبراطورية البريطانية. وكان أن اتصل روجر كيسمنت بالـ ***غليك ليغ*** (الرابطة الغيلية) التي تنشط اللغة الأيرلندية والثقافة الأيرلندية. وكانت الشين فين («نحن وحدنا») هي محرك تلك الرابطة. فعند تأسيسها في دبلن، عام ١٨٩٣، ذكّر رئيسها دوغلاس هايد، في خطابه، المستمعين بأنه حتى ذلك الحين «لم تُنشر سوى ستة كتب باللغة الغيليّة». كان روجر كيسمنت يعرف خلفية هايد، أيون ماكنيل، أستاذ التاريخ الايرلندي في العصر القديم والعصر الوسيط في اليُنفرستي كوليج، وقد ارتبط بصداقة معه. بدأ يواظب على حضور جلسات القراءة، والمحاضرات، والأمسيات الشعرية والغنائية، والمسيرات، والمسابقات المدرسية، وإقامة النصب التذكارية للأبطال الوطنيين التي تنشطها الشين فين. وبدأ يكتب في مطبوعاتها مقالات سياسية يدافع فيها عن الثقافة الأيرلندية بالاسم المستعار *Shan van Vocht* (العجوز الفقيرة)، وهو اسم مأخوذ من أغنية شعبية أيرلندية قديمة اعتاد الترنم بها. وقد تقرب كثيراً في الوقت نفسه من جماعة سيدات، بينهنّ القشتالية من غالغورم روز مود يونغ، وآدا ماكنيل ومرغريت دوبس، اللاتي كنّ يذرعن قرى أنتريم في مسعى لجمع أساطير الفولكلور الأيرلندي

القديمة. وبفضلهن استمع إلى *seanchai*، أو حكواتي متجول، في أحد الأسواق الشعبية، مع أنه لم يستطع أن يفهم سوى كلمات متفرقة مما كان يقوله.

وفي أثناء نقاش ذات ليلة في ماغرنتمبل هاوس مع عمه روجر، أكد كيسمنت: «إنني، باعتباري أيرلندياً، أكره الإمبراطورية البريطانية».

في اليوم التالي تلقى رسالة من دوق أرغيل يخبره فيها بأن حكومة جلالته قررت منحه وسام القديس مايكل والقديس جورج تقديراً لخدمته الممتازة في الكونغو. فاعتذر روجر عن حضور احتفال تقلد الوسام متذرعاً بالتهاب في ركبته يحول دون ركوعه أمام الملك.

VII

ـ أنت تكرهني ولا يمكنك مداراة ذلك ـ قال روجر كيسمنت. ففوجئ *الشريف* للوهلة الأولى، ثم وافق على ذلك بتصعيرة شوهت للحظة وجهه المنتفخ.

ـ لا وجود لما يدعوني إلى مداراة الأمر ـ دمدم ـ ولكنك مخطئ. فأنا لا أكرهك، وإنما احتقرك. هذا هو فقط ما يستحقه الخونة.

كانا يمضيان في ممر السجن ذي الآجر الملطخ ببقع من السواد في طريقهما إلى قاعة الزيارات، حيث كاهن السجن الكاثوليكي، الأب كاري، ينتظر السجين. ومن خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية كان كيسمنت يلمح لطخات غيوم منتفخة وقاتمة. أتراها تمطر هناك في الخارج، على شارع كاليدونيان رود وعلى ذلك الطريق الروماني الذي

كانت تمر منه، قبل قرون، أولى الجيوش الرومانية؟ تخيل دكاكين وأكشاك السوق المجاور، وسط حديقة ايسلنغتون، مبتلة ومزعزعة بفعل العاصفة. أحس بوخزة حسد مفاجئة وهو يفكر في الناس الذين يشترون ويبيعون محتمين بمعاطف مطرية ومظلات.

ـ لقد حصلتَ على كل شيء ـ دمدم ***الشريف*** متأففاً وراء ظهره ـ حصلتَ على مناصب دبلوماسية، وأوسمة. وجعلك الملك نبيلاً. وذهبتَ مع ذلك لتبيع نفسك للألمان. يا للخسة. يا للجحود.

توقف هنيهة، وبدا لروجر أن ***الشريف*** يتنهد.

ـ كلما فكرتُ في ابني المسكين الذي قُتل هناك، في الخنادق، أقول لنفسي إنك أحد قتلته يا سيد كيسمنت.

ـ يؤسفني أشد الأسف فقدانك ابنك ـ ردّ روجر دون أن يلتفت ـ أعرف أنك لن تصدقني، ولكنني لم أقتل أحداً بعد.

ـ والشكر لله أنه لن يكون لديك متسع من الوقت لفعل ذلك ـ أصدر ***الشريف*** حكمه.

كانا قد وصلا إلى باب قاعة الزيارات. ظل ***الشريف*** في الخارج إلى جانب سجان الحراسة. فزيارة الكاهن وحدها هي التي تجري على انفراد، أما في كافة الزيارات الأخرى فيظل ***الشريف*** أو الحارس، أو كلاهما في بعض الأحيان، داخل قاعة الزيارات. ابتهج روجر لرؤية شبح رجل الدين. تقدم الأب كاري للقائه وشدّ على يده.

ـ لقد قمتُ بالتقصي وصار لدي الجواب ـ بادره الأب مبتسماً ـ كانت ذاكرتك دقيقة، فأنت قد عُمِّدتَ بالفعل في طفولتك في أبرشية ريل، هناك في الغال. الواقعة مثبتة في السجلات. وجرى التعميد

بحضور أمك وخالتيك. لستَ بحاجة لأن تُعمَّد ثانية في الكنيسة الكاثوليكية. فقد كنتَ فيها على الدوام.

أكد كيسمنت الأمر. فذلك الانطباع البعيد الذي رافقه طيلة حياته كان صحيحاً إذاً. لقد عمَّدته أمه خفية عن أبيه، في إحدى رحلاتها إلى الغال. أحس بالسعادة للتواطؤ الذي يقره هذا السر بينه وبين آن جيفسون. ولأنه يشعر في هذه اللحظة بأنه في حالة انسجام أكبر مع نفسه، ومع أمه، ومع أيرلندا. كما لو أن تقربه من الكاثوليكية هو نتيجة طبيعية لكل ما فعله وحاوله في هذه السنوات الأخيرة، بما في ذلك أخطاؤه وإخفاقاته.

ـ كنت أقرأ توماس دي كيمبس أيها الأب كاري ـ قال ـ لم أكن أستطيع من قبل التركيز في القراءة. ولكنني توصلت إلى ذلك في هذه الأيام الأخيرة. عدة ساعات في اليوم. ***محاكاة يسوع*** كتاب بديع جداً.

ـ عندما كنتُ في المدرسة الدينية، كنا نقرأ توماس دي كيمبس كثيراً ـ وافقه الكاهن ـ وبخاصة كتابه ***محاكاة يسوع***.

ـ أشعر بأنني أكثر طمأنينة عندما أتمكن من الاستغراق في تلك الصفحات ـ قال روجر ـ أشعر كما لو أنني أنفصل عن هذا العالم وأدخل عالماً آخر، بلا مخاوف أو قلق... عالم واقع روحي خالص. لقد كان الأب كروتي على حق عندما شدد على نصيحتي بقراءته هناك في ألمانيا. ولم يكن له أن يتخيل في أية ظروف سوف أقرأ كاتبه المفضل لويس دي كيمبس.

كان قد وُضع مقعدٌ خشبي صغير في قاعة الزيارات. جلسا عليه. تلامست ركبتاهما. كان الأب كاري قد أمضى أكثر من عشرين عاماً

ككاهن سجون في لندن، ورافق حتى النهاية كثيرين من المحكوم عليهم بالإعدام. هذه العلاقة الدائمة بسكان السجون لم تصلّب طباعه. لقد كان محترماً ولطيفاً، وقد تعاطف روجر معه منذ لقائهما الأول. وهو لا يتذكر أنه سمع منه شيئاً يمكن أن يجرح شعوره، بل على العكس، فعندما يسأله أو يتحدث إليه يفعل ذلك بأقصى ما يمكن من العذوبة. ويشعر وهو معه بأنه على ما يرام. لقد كان الأب كاري طويل القامة، نحيلاً، أشبه بهيكل عظمي، ببشرة شديدة البياض له لحية شهباء مدببة النهاية تغطي جزءاً من ذقنه. وكانت عيناه مبتلتين على الدوام كمن انتهى لتوه من البكاء، حتى لو كان يضحك.

ـ كيف حال الأب كروتي ـ سأله ـ لاسيما أن صداقة جيدة جمعت بينكما هناك في ألمانيا؟

ـ لولا وجود الأب كروتي لأُصبت بالجنون خلال تلك الشهور، في معسكر ليمبورغ ـ أكد روجر ـ. لقد كان مختلفاً جداً عن حضرتك، بدنياً. فهو قصير القامة ومربوع، وبدلاً من شحوب لونك، له بشرة متوردة وتتأجج أكثر مع تناوله أول كأس من البيرة. ولكنه يشبهك كثيراً من وجهة أخرى. أعني من وجهة الطيبة والكرم.

الأب كروتي هو الكاهن الدومينيكاني الأيرلندي الذي أرسله الفاتيكان من روما إلى معسكر أسرى الحرب الذي أقامه الألمان في ليمبورغ. وقد كانت صداقتهما خشبة خلاص روجر خلال تلك الشهور من عامي ١٩١٥ و١٩١٦ حين حاول أن يجند، من بين الأسرى، متطوعين للواء الأيرلندي.

ـ إنه رجل ملقح بلقاح مضاد لليأس ـ قال روجر ـ لقد رافقته لزيارة

مرضى، ولتقديم طقوس المسحة الأخيرة، ولجعل أسرى معسكر ليمبورغ يصلون صلاة المسبحة. إنه وطني أيضاً. وإن يكن أقل حماسة مني أيها الأب كاري.

ـ لا تظن أن الأب كاري قد حاول تقريبي من العقيدة الكاثوليكية ـ أضاف روجر ـ لقد كان شديد الحذر في محادثاتنا كيلا أشعر أنه يريد تحويلي إلى عقيدته. بل بدأ الأمر يراودني أنا نفسي، هنا في داخلي ـ ولمس صدره ـ فأنا لم أكن شديد التدين قطّ، وقد أخبرتك بذلك. فمنذ موت أمي، صار الدين بالنسبة إليّ أمراً آلياً وثانوياً. وبعد العام ١٩٠٣، عدت إلى الصلاة على إثر تلك الرحلة إلى أعماق الكونغو طوال ثلاثة شهور وعشرة أيام التي حدثتك عنها. عندما ظننت أنني سأفقد عقلي حيال كل ذلك العذاب. وهكذا اكتشفت أنه لا يمكن لكائن بشري أن يعيش دون إيمان.

أحس أن صوته سينكسر، فسكت.

ـ أهو من حدثك عن توماس دي كيمبس؟

ـ لقد كان يتحدث عنه بورع شديد ـ أكد روجر ـ وأهدى إليّ نسخته من ***محاكاة يسوع***. لكنني لم أتمكن من قراءتها آنذاك. لم يكن لدي رأس لذلك بسبب قلق ومخاوف تلك الأيام. تركت النسخة في ألمانيا، في حقيبة تضم ملابسي. لأنهم لم يسمحوا لنا بحمل أمتعة في الغواصة. ولحسن الحظ أن حضرتك حصلت لي على نسخة أخرى من الكتاب. أخشى ألا يتسع لي الوقت للانتهاء من قراءته.

ـ لم تتخذ الحكومة الإنكليزية أي قرار بعد ـ نبهه رجل الدين ـ

ويجب ألا تفقد الأمل. فهناك في الخارج أناس كثيرون يحبونك وهم يبذلون جهوداً هائلة كي يستجاب طلب الاسترحام.

ـ أعرف ذلك أيها الأب كاري. ولكنني أرغب على أي حال في أن تهيئني. أريد أن أُقبل في الكنيسة الكاثوليكية بصورة رسمية. أن أتلقى أسرار الكنيسة. وأن أعترف. وأن أتناول القربان.

ـ ولهذا أنا هنا الآن يا روجر. وأؤكد لك أنك مهيأ لكل ما قلته.

ـ هنالك شك يضايقني كثيراً ـ قال روجر خافضاً صوته كما لو أن أحداً آخر يمكن أن يسمعه ـ ألن يبدو تحولي إلى الكاثوليكية أمام المسيح عملاً مدفوعاً بالخوف؟ والحقيقة أيها الأب كاري أنني أشعر بالخوف. أشعر بخوف شديد.

ـ المسيح أشد حكمة منك ومني ـ أكد رجل الدين ـ ولا أظن أن المسيح يرى أي سوء في رجل خائف. فهو نفسه أحس بالخوف، إنني متأكد من ذلك، بينما هو في طريق الجلجلة. إنه الشعور الأكثر إنسانية، أليس كذلك؟ جميعنا نشعر بالخوف، وهذا جزء من شرطنا الإنساني. يكفي القليل من الحساسية كي نشعر أحياناً بالعجز والرعب. إن اقترابك من الكنيسة نقي وطاهر يا روجر. أنا أعرف ذلك.

ـ لم أشعر بالخوف من الموت قطّ، حتى الآن. لقد رأيته قريباً مني مرات كثيرة. في الكونغو، في حملات إلى أمكنة موحشة، ممتلئة بالضواري. وفي الأمازون، في أنهار تغص بالدوامات ومحاطة بقطاع الطرق. ومنذ وقت قريب، عند مغادرة الغواصة في تريلي، في بانا ستراند، عندما تزعزع الزورق وبدا لي أننا نغرق. مرات كثيرة شعرت بالموت قريباً جداً مني. ولم أشعر بالخوف. أما الآن فإنني أشعر به.

قاطعه الصوت، وأغمض عينيه. منذ عدة أيام ولحظات الرعب الخاطفة هذه تبدو كأنها تجمد الدم في عروقه، وتوقف قلبه عن النبض. راح جسده كله يرتعش. بذل جهداً كبيراً لاستعادة الهدوء، دون أن يتوصل إلى ذلك. كان يشعر باصطكاك أسنانه وقد أضيف الرعب الآن إلى الخجل. وعندما فتح عينيه رأى الأب كاري يضم راحتي يديه ويغمض عينيه. كان يصلي بصمت، وبحركة خفيفة من شفتيه.

ـ لقد انقضى الأمر ـ همس متلعثماً ـ أرجوك أن تعذرني.

ـ عليك ألا تشعر بالقلق معي. فالخوف والبكاء إنسانيان.

لقد هدأ الآن من جديد. هنالك صمت عظيم في سجن بينتونفيل، كما لو أن السجناء والسجانين في أجنحته الثلاثة الضخمة، تلك المكعبات بسقوفها ذات الانحدارين، قد ماتوا أو ناموا جميعهم.

ـ أشكر لك أنك لم تسألني عن أي شيء بشأن تلك الأمور القذرة التي تقال عني كما يبدو أيها الأب كاري.

ـ لم أقرأها يا روجر. وعندما حاول أحدهم أن يحدثني عنها، أسكته. لم أعرف ولا أريد أن أعرف مضمونها.

ـ وأنا أيضاً لا أعرف مضمونها ـ ابتسم روجر ـ فهنا لا يمكنني قراءة الصحف. أحد مساعدي المحامي قال لي إنها أمور مستنكرة جداً تُعَرِّض للخطر طلب الاسترحام. إنها أمور منحطة، وخسة فظيعة كما يبدو.

كان الأب كاري يستمع إليه بملامح الاطمئنان المعهودة. في أول محادثة لهما في سجن بينتونفيل، قال لروجر إن جديه لأبيه كانا يتبادلان الحديث بينهما بالغيليّة، ولكنهما يتحولان إلى التحدث بالإنكليزية حين

يريان اقتراب أبنائهما. ولم يكن الكاهن قد تعلم أيضاً الأيرلندية القديمة.

ـ أظن أنه من الأفضل ألا أعرف ما الذي يتهمونني به. إليس ستوبفورد غرين تعتقد أنها عملية مدبرة من الحكومة لمواجهة التعاطف السائد في قطاعات واسعة تأييداً لطلب الاسترحام.

ـ لا يمكن استبعاد أي شيء في عالم السياسة ـ قال رجل الدين ـ فالسياسة ليست أنظف النشاطات البشرية.

سُمعت طرقات خفيفة على الباب، ثم فُتح وظهر وجه ***الشريف*** الممتلئ:

ـ خمس دقائق أخرى أيها الأب كاري.

ـ لقد منحني مدير السجن نصف ساعة. ألم يخبرك بذلك؟

أبدى ***الشريف*** مفاجأته.

ـ إذا كنت حضرتك من تقول ذلك فإنني أصدقك ـ قال معتذراً ـ اعذرني على المقاطعة إذاً. مازالت لديك خمس وعشرون دقيقة.

اختفى وعاد الباب للانغلاق.

ـ هل هناك مزيد من الأخبار عن أيرلندا؟ ـ سأل روجر بصورة فظة، كمن رغب فجأة في تغيير الموضوع.

ـ لقد توقفت عمليات الإعدام على ما يبدو. الرأي العام، ليس هناك فقط، وإنما كذلك هنا في إنكلترا، انتقد بشدة عمليات الإعدام الفورية. وقد أعلنت الحكومة الآن أن جميع المعتقلين في انتفاضة أسبوع الفصح سيُحولون إلى المحاكم.

سها روجر كيسمنت. كان ينظر إلى كوة الجدار، وهي مزودة بقضبان حديدية أيضاً. لم يكن يرى سوى مربع صغير من السماء الرمادية وهو يفكر في التناقض الظاهري العظيم: لقد حُوكم وأُدين بتهمة إحضار أسلحة لمحاولة انفصال عنفية بأيرلندا، بينما الواقع أنه قام بتلك الرحلة المجازفة، وربما العبثية، من ألمانيا إلى شواطئ تريلي، في محاولة لتجنب وقوع تلك الانتفاضة التي تأكد من أنها ستمنى بالإخفاق مذ علم بأمر التحضير لها. أيكون التاريخ كله على هذا النحو؟ التاريخ الذي يُدرس في المدارس؟ الذي يكتبه المؤرخون؟ أيكون مجرد فبركة مثالية إلى هذه الحد أو ذاك، فبركة عقلانية ومتماسكة لما كان، في الواقع الفج والقاسي، خليطاً فوضوياً واعتباطياً لخطط وأقدار ومكائد وأحداث عرضية، ومصادفات، ومصالح متعددة، راحت تُحدث تبدلات، وتقلبات، وتقدماً وتراجعاً، وتحولات غير متوقعة ومفاجئة بالمقارنة مع ما تصوره أبطالها مسبقاً أو ما عاشوه.

ـ من المحتمل أن أدخل التاريخ كأحد المسؤولين عن وقوع انتفاضة الفصح ـ قال بسخرية ـ أنت وأنا نعرف أنني جئت إلى هنا مقامراً بحياتي في محاولة لوقف هذا التمرد.

ـ حسن، أنت وأنا وأحدٌ آخر ـ ضحك الأب كاري وهو يشير بإصبعه إلى أعلى.

ـ الآن أشعر بأنني أفضل حالاً ـ وضحك روجر أيضاً ـ لقد تجاوزتُ نوبة الرعب أخيراً. كثيراً ما كنتُ أرى في أفريقيا زنوجاً أو بيضاً، على السواء، يصابون فجأة بنوبة يأس. وسط الأدغال، حين نضل الطريق. حين نتوغل في أراضٍ يعتبرها الحمالون الأفارقة معادية. أو وسط

النهر، عندما ينقلب أحد الزوارق. أو في القرى، أحياناً، خلال طقوس الغناء والرقص التي يديرها الساحر. إنني أعرف الآن ما هي حالات الهلوسة تلك التي يستثيرها الخوف. أتكون هكذا هي نشوة الصوفيين؟ حالة انتشاء المرء وذهوله عن كل الانعكاسات البدنية، وما ينتج عن ذلك من اندماج بالرب؟

ـ ليس الأمر مستحيلاً ـ قال الأب كاري ـ ربما هو الطريق نفسه الذي يقطعه الصوفيون وجميع أولئك الذين يعيشون حالات الانتشاء. الشعراء، الموسيقيون، المشعوذون.

ظلا صامتين لبعض الوقت. وكان روجر، بين لحظة وأخرى، يرصد رجل الدين بطرف عينه ويراه جامداً بلا حراك وبعينين مغمضتين. ففكر: «يصلي من أجلي. إنه رجل شفوق. أمر رهيب أن يقضي المرء حياته في مساعدة أناس سيموتون على المشنقة.» ودون أن يكون قد ذهب إلى الكونغو، كان الأب كاري مطّلعاً بكل تأكيد، بما لا يقل عن اطلاعه هو نفسه، على الحدود الدوارية القصوى التي يمكن أن تبلغها القسوة واليأس بين بني البشر.

ـ لم أكن أبالي بالدين لسنوات طويلة ـ قال ببطء شديد، كما لو أنه يكلم نفسه ـ ولكنني لم أتخلَ قطّ عن الإيمان بالرب. بمبدأ عام للحياة. ولكن الصحيح أيها الأب كاري أنني كثيراً ما كنتُ أتساءل برعب: «كيف يمكن للرب أن يسمح بحدوث مثل تلك الأمور؟». و«أي نوع من الأرباب هو هذا الذي يتسامح مع معاناة آلاف مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال كل تلك الفظائع؟» من الصعب فهم ذلك، أليس

صحيحاً؟ وأنت الذي لا بد أن تكون قد رأيت أشياء كثيرة في السجون، ألا تطرح على نفسك هذه الأسئلة أحياناً؟

كان الأب كاري قد فتح عينيه وراح ينظر إليه بملامح مختلفة عن المعهود، دون تأكيد ودون نفي.

ـ أولئك الناس المساكين المجلودون والمبتورون، أولئك الأطفال مقطوعو الأيدي والأقدام الذين يموتون من الجوع والمرض ـ قال روجر ـ تلك الكائنات المعتصرة حتى الاستنفاد ثم تُقتل فوق ذلك. ألوف، عشرات، مئات الآلاف. يضطهدهم رجال تلقوا تربية مسيحية. أنا رأيتهم يذهبون إلى القداس، ويُصَلّون، ويشاركون في تناول القربان، قبل وبعد ارتكابهم تلك الجرائم. كنتُ أشعر في أيام كثيرة أنني سأُصاب بالجنون أيها الأب كاري. وربما أنني في تلك السنوات، في أفريقيا وفي بوتومايو، فقدت عقلي. وكل ما جرى لي بعد ذلك هو من عمل شخص كان مجنوناً، وإن كان غير مدرك لذلك.

لم يقل الكاهن شيئاً في هذه المرة أيضاً. كان يستمع إليه بالملامح اللطيفة نفسها وبذلك الصبر الذي كان روجر ممتناً له على الدوام.

ـ المثير للفضول أنني، هناك في الكونغو، بدأت الاهتمام مجدداً بالدين، حين كنت أمر بفترات خمود المعنويات العظيمة تلك وأتساءل كيف يمكن للرب أن يسمح بكل تلك الجرائم ـ واصل الكلام ـ لأن الكائنات الوحيدة التي بدا لي أنها حافظت على هدوئها تقتصر على بعض القسس المعمدانيين وبعض المبشرين الكاثوليك. ليس جميعهم بكل تأكيد. فكثيرون منهم ما كانوا راغبين في رؤية ما يحدث هناك

تحت أنوفهم. ولكن عدداً منهم كانوا يفعلون ما يستطيعونه لوقف الظلم. إنهم أبطال في الحقيقة.

صمت. فتذكّره الكونغو أو بوتومايو يسبب له الأذى: يكشف وحل روحه، يستحضر صوراً تُغرقه في الكآبة.

ـ مظالم، عذابات، جرائم ـ دمدم الأب كاري ـ ألم يعانِ يسوع كل ذلك بلحمه الحي؟ وهو قادر على فهم حالته أكثر من أي كان يا روجر. وأنا يحدث لي أحياناً مثل ما يحدث لك. وهو ما يحدث لجميع المؤمنين، إنني واثق من ذلك. من الصعب فهم بعض الأمور بكل تأكيد. قدرتنا على الفهم محدودة. فنحن خاطئون ونفتقر إلى الكمال. ولكنني أستطيع أن أقول لك شيئاً. لقد أخطأتَ في أحيان كثيرة، مثل جميع بني البشر. أما في ما يتعلق بالكونغو والأمازون فلا يمكن لومكَ على أي شيء. ما قمتَ به هناك كان كريماً وشجاعاً. لقد جعلتَ أناساً كثيرين يفتحون عيونهم، وساعدت في تصويب الكثير من الظلم.

«كل ما يمكن أن أكون قد فعلته تدمره الآن هذه الحملة التي أُطلقت لتقويض سمعتي»، فكر روجر. إنه موضوع يفضل عدم التطرق إليه، يبعده عن ذهنه كلما عاد إليه. والجيد في زيارات الأب كاري هو أن الكاهن لا يتكلم إلا في ما يشاءه هو. لقد كان حذر رجل الدين كاملاً ويبدو أنه يحدس ما يمكن لروجر أن يعارضه فيه فيتجنبه. فهو يظل في بعض الأحيان لوقت طويل دون قول أي كلمة. ومع ذلك كان حضور الكاهن يهدئه. وحين يغادر، يظل روجر هادئاً ومستسلماً لساعات.

ـ إذا ما رُفض طلب الاسترحام، هل ستبقى إلى جانبي حتى النهاية؟
ـ سأله دون النظر إليه.

ـ أجل بالطبع ـ قال الأب كاري ـ يجب ألا تفكر في هذا. فحتى الآن لم يُحسم أي شيء.

ـ أعرف ذلك أيها الأب كاري. أنا لم أفقد الأمل. ولكنني سأكون أحسن حالاً إذا عرفتُ أن حضرتك ستكون موجوداً هناك، وأنك ترافقني. مرافقتك لي ستمنحني الشجاعة. ولن أتصرف بصورة مثيرة للرثاء، أعدك بذلك.

ـ أترغب في أن نصلي معاً؟

ـ فلنتحدث أكثر قليلاً إذا كان هذا لا يضايقك. وسيكون هذا سؤالي الأخير لك حول الموضوع. هل يمكن، إذا ما أُعدمت، أن ينقل جسدي إلى أيرلندا ويُدفن هناك؟

أحس بأن الكاهن يتردد، فنظر إليه. كان وجه الأب كاري قد شحب قليلاً. ورآه ينفي برأسه متضايقاً.

ـ لا يا روجر. إذا ما حدث ذلك، فسوف تُدفن في مقبرة السجن.

ـ في أرض معادية ـ همس كيسمنت محاولاً مزاحاً لم يفلح به ـ في بلاد صرت أكرهها بقدر ما أحببتها وقدرتها في شبابي.

ـ الكراهية لا تفيد في شيء ـ تنهد الأب كاري ـ يمكن لسياسة إنكلترا أن تكون سيئة. ولكن هناك الكثير من الإنكليز المحترمين والشرفاء.

ـ أعرف ذلك جيداً يا أبتاه. وهذا ما أقوله لنفسي في كل مرة يملؤني فيها الحقد على هذه البلاد. إنها أقوى مني. ربما يخطر لي ذلك لأنني في صباي كنت أؤمن دون تبصر بالإمبراطورية، وبأن إنكلترا

تقوم بتحضير العالم. كان يمكن لحضرتك أن تضحك مني لو أنك عرفتني آنذاك.

هز الكاهن رأسه موافقاً، وظهرت ابتسامة صغيرة على محيا روجر.

ـ يقال إننا نحن المتحولين عن ديانتهم أسوأ الناس ـ أضاف ـ لقد لامني أصدقائي دوماً على كوني عاطفياً جداً.

ـ إنها شخصية الأيرلندي العنيد في الأساطير ـ قال الأب كاري مبتسماً ـ هذا ما كانت تقوله لي أمي كلما أسأتُ التصرف في طفولتي. «لقد خرج فيك الأيرلندي العنيد».

ـ يمكننا الآن أن نصلي إذا أردت يا أبتِ.

وافق الأب كاري. ضم كفيه، وبدأ يتمتم بصوت خافت جداً «أبانا الذي في السماء»، وبعد ذلك «يا قديسة مريم». أغمض روجر عينيه وصلى أيضاً، دون أن يتوقف عن سماع صوته. وقد فعل ذلك لبعض الوقت بصورة آلية، دون تركيز، بينما صور متنوعة تجول في رأسه، إلى أن راح يستسلم شيئاً فشيئاً للاستغراق في الصلاة. وعندما طرق ***الشريف*** الباب ودخل إلى قاعة الزيارات لينبههما إلى أنه بقي لهما خمس دقائق، كان روجر في حالة تركيز على الصلاة.

في كل مرة يصلي فيها كان يتذكر أمه، تلك الهيئة رشيقة القامة ترتدي الأبيض، مع قبعة قش عريضة الحواف وشريط أزرق يتراقص مع الريح، تمشي تحت الأشجار في الريف. أكانا في الغال، أم في أيرلندا، أم في أنتريم، أم في جرسي؟ لا يدري أين، ولكن المنظر كان باهر الجمال مثل الابتسامة المتألقة في وجه آن جيفسون. كم كان روجر الصغير يشعر بالفخر وهو يمسك بيده تلك اليد الناعمة والرقيقة التي

تمنحه الأمان والسعادة! والصلاة على هذا النحو كانت بلسماً عجيباً يعيده إلى تلك الطفولة، حيث كل شيء في الحياة جميل وسعيد بفضل وجود أمه.

سأله الأب كاري إن كان يرغب في إرسال رسالة ما إلى أحدهم، وإذا كان بإمكانه أن يأتيه بشيء ما في زيارته القادمة، بعد يومين.

ـ كل ما أرغب فيه هو العودة لرؤيتك يا أبتاه. أنت لا تدري الفضل الذي تقدمه إليّ بالتحدث إليك وسماع حديثك.

افترقا بعد مصافحة بالأيدي. وفي الممر الطويل والرطب، خطر لكيسمنت، دون أن يكون قد خطط لذلك، أن يقول ***للشريف***:

ـ يؤسفني جداً موت ابنك. أنا لم أنجب أبناء. ويخيل إليّ أنه لا وجود لألم أشد رهبة في الحياة من فقدان ابن.

أصدر ***الشريف*** صوتاً ضئيلاً من حنجرته ولكنه لم يُجب. وفي الزنزانة، استلقى روجر على سريره الضيق وتناول كتاب ***محاكاة يسوع*** بين يديه. لكنه لم يستطع التركيز على القراءة. كانت الحروف تتراقص أمام عينيه وتتقافز في رأسه صور في دوامة تبعث على الجنون. وكانت صورة آن جيفسون تظهر مرة بعد أخرى.

ما الذي كانت ستصير إليه حياته لو أن أمه، بدل موتها وهي شابة، قد عاشت إلى أن صار مراهقاً، ورجلاً؟ ربما ما كان لينطلق في مغامرته الأفريقية. كان سيبقى في أيرلندا، أو في ليفربول، ولكان عمل في وظيفة بيروقراطية وعاش حياة وقورة، مغمورة ومريحة، مع زوجة وأبناء. ابتسم: لا، هذا النوع من الحياة لا يتوافق معه. فحياته التي عاشها، مع كل مشقاتها، هي المفضلة. لقد رأى عالماً، وتوسعت آفاقه

بصورة هائلة، وفهم بصورة أفضل الحياة، والواقع الإنساني، وحقيقة الاستعمار، ومأساة شعوب كثيرة بسبب ذلك الانحراف.

لو أن آن جيفسون الأثيرية قد عاشت، لما قيض له أن يكتشف تاريخ أيرلندا الحزين والبديع، ذلك التاريخ الذي لم يعلموه إياه قط في باليمينا هاي سكول، هذا التاريخ الذي مازال يُخفى عن أطفال ومراهقي شمالي أنتريم. فمازالوا يجعلونهم يعتقدون أن أيرلندا كانت بلاداً همجية بلا ماض جدير بالذكر، وأنها ارتقت إلى الحضارة بفضل الاحتلال، وأنها تعلمت وتحدثت بفضل الإمبراطورية التي جردتها من تراثها، من لغتها، ومن سيادتها. لقد تعلم هذا كله هناك في أفريقيا، حيث ما كان له، لو أن أمه ظلت على قيد الحياة، أن يقضي أفضل سنوات شبابه وبداية نضجه، وما كان له أن يتوصل إلى الشعور بكل هذا الفخر بالبلاد التي ولد فيها وبكل هذا الغضب مما فعلته بريطانيا العظمى.

أهنالك مسوغ لتلك السنوات الأفريقية العشرين، ولسبع سنوات في أميركا الجنوبية، والسنة وبضعة شهور في قلب الأدغال، وللسنة ونصف السنة من الوحدة والمرض والإحباط في ألمانيا؟ لم يكن يهتم بالنقود قطّ، ولكن، أليس من السخف، بعد أن عمل كثيراً خلال حياته في الخارج، أن يكون الآن فقيراً معدماً؟ فرصيد حسابه المصرفي الأخير كان عشرة جنيهات إسترلينية. لم يعرف الادخار قطّ. لقد أنفق مداخيله كلها على الآخرين ـ على إخوته الثلاثة، وعلى المؤسسات الإنسانية، مثل مؤسسة إصلاح الكونغو، والمؤسسات الوطنية الأيرلندية، مثل مدرسة سانت إنداز سكول وجمعية لغة الغيلية، وغيرها من الجمعيات التي قدم لها لوقت لا بأس به راتبه كله. ومن أجل التمكن من الإنفاق

على تلك القضايا عاش حياة تقشف شديد، فكان يأوي، مثلاً، لفترات طويلة في بانسيونات رخيصة جداً، ليست بمستوى مكانته (هذا ما كان يلمح إليه زملاؤه في وزارة الخارجية). ليس هنالك من يتذكر تلك التبرعات والهبات والمساعدات بعد أن أخفق الآن. ولن يتذكروا سوى هزيمته الأخيرة.

ولكن هذا ليس الأسوأ. يا للعنه، فها هي ذي الفكرة اللعينة تداهمه مرة أخرى. انحطاط وفساد أخلاقي، رذائل، حثالة بشرية. هذا ما تريد الحكومة البريطانية أن يبقى منه. ليس الأمراض التي ألحقتها به قسوة أفريقيا، اليرقان، وحمى المستنقعات التي أنهكت بدنه، والتهاب المفاصل وعمليات البواسير، ومشكلات المستقيم التي سببت له الكثير من المعاناة والخجل منذ المرة الأولى التي اضطر فيها لإجراء عملية جراحية لناسور في الشرج عام ١٨٩٣. «كان عليك أن تأتي قبل الآن، فقد كان يمكن لهذه العملية أن تكون أسهل لو أنها أجريت قبل ثلاثة أو أربعة شهور. أما الآن، فهي خطيرة». «إنني أعيش في أفريقيا يا دكتور، في بوما، وطبيبي في ذلك المكان كحولي مدمن ترتعش يديه بفظاعة. هل سأسمح بأن يجري لي عملية جراحية الدكتور سالبرت الذي لا تصل معارفه الطبية إلى مستوى مشعوذ باكونغي؟» لقد عانى من ذلك الوضع طوال حياته تقريباً. فمنذ شهور قليلة، في معسكر ليمبورغ الألماني، أصيب بنزيف خاطه له طبيب عسكري جلف وفظ. وعندما قرر الموافقة على تحمل مسؤولية التحري عن الفظائع التي يرتكبها تجار المطاط في الأمازون كان رجلاً معتل الصحة جداً. كان يعرف أن ذلك الجهد سيستغرق شهوراً، وأنه لن يجلب له سوى المشاكل، ومع ذلك

تقبل توليه مفكراً في أنه يقدم خدمة للعدالة. حتى هذا الأمر لن تحفظ ذكراه عنه إذا ما نفذوا به حكم الإعدام.

أيكون صحيحاً أن الأب كاري قد رفض قراءة الأمور المشينة التي تنسبها الصحافة إليه؟ إنه رجل طيب ومتضامن ذلك الكاهن. وإذا كان عليه أن يموت، فإن وجود ذلك الرجل إلى جانبه سيساعده في الحفاظ على وقاره حتى اللحظة الأخيرة.

كان اليأس يغمره من رأسه حتى أخمص قدميه. يحوله إلى كائن خامد مثل أولئك الكونغوليين الذين تهاجمهم ذبابة التسي تسي ويجعلهم داء النوم عاجزين عن تحريك أذرعهم، وأقدامهم، وشفاههم، وحتى عن إبقاء أعينهم مفتوحة. هل تَحُول كذلك دون قدرتهم على التفكير؟ أما هو، لسوء الحظ، فتزيد هبة هذه الأفكار من حدة ذهنه، تحول عقله إلى وكر نمل يعج بالضجيج. وتلك الصفحات من يومياته التي سلمها الناطق باسم قوات البحرية للصحافة، والتي استثارت حفيظة مساعد المحامي غافن دوفي أحمر الوجه، أهي حقيقية أم مزيفة؟ فكر في البلاهة التي تشكل جزءاً مركزياً من الطبيعة البشرية، ومن طبيعة روجر كيسمنت أيضاً بالطبع. لقد كان دقيقاً جداً كدبلوماسي، وله شهرة بذلك، بألا يتخذ أي مبادرة ولا يقدم على أدنى خطوة دون أن يحسب حساب كافة نتائجها المحتملة. والآن، توقف هنا، واقعاً في شرك سخيف نصبه بنفسه على امتداد حياته كلها، من أجل أن يقدم لأعدائه سلاحاً يلقي به إلى التجاهل والنسيان.

وانتبه، مذعوراً، إلى أنه يضحك مقهقهاً.

الأمـازون



VIII

إل ، ١٩١٠ عندما وصل روجر، في اليوم الأخير من آب
توس، بعد رحلة منهكة، استمرت ستة أسابيع، نقلته وأعضاء اللج
إنكلترا حتى قلب منطقة الأمازون البيروية، كان الالتهاب القد
ب يهيج عينيه قد تفاقم، وكذلك نوبات ألم المفاصل وحالته الصح
مة. ولكنه، بوفاء لطبعه الرواقي (أو «السينيكيّ» كما يدعوه هربر
د)، لم يُبدِ في أي لحظة خلال الرحلة ما يشير إلى توعكاته،
على العكس من ذلك، كان يبذل الجهد لرفع معنويات زملا
ساعديه في تحمل المشقات التي تثقل عليهم. فالكولونيل ر.
ر، ضحية الزحار، اضطر إلى أن يقفل راجعاً إلى انكلترا عن التوق
ماديرا. وكان أفضلهم صموداً لويس بارنس الخبير بالزراعة
ريقية الذي عاش من قبل في موزامبيق. أما عالم النبات والتر فول
بير بالمطاط، فكان يعاني من الحر وآلام عصبية. وأصيب سيم
بالتجفاف، وكان يمضي طوال الوقت حاملاً بيده زجاجة ماء يشر
ا رشفات بين لحظة وأخرى. وكان هنري فيلجالد قد أقام من ق
في منطقة الأمازون، مبعوثاً من شركة خوليو س. أرانا، وكان يق
صائح حول كيفية الحماية من البعوض ومن «الإغواءات الخبيثة»
توس.

والحقيقة أن هذه الأخيرة كانت وفيرة جداً. كان يبدو أمراً لا يُصدق أن تزدهر بتلك الطريقة البارات والحانات والمواخير وبيوت القمار، وبغايا من كافة الأعراق والألوان يعرضن أنفسهن بوقاحة شديدة في الشوارع العالية منذ أولى ساعات النهار، في مدينة صغيرة وقليلة الجاذبية، مجرد ضاحية فسيحة موحلة ذات أبنية فظة من الخشب والطين، مسقوفة بسعف نخيل، وبضعة أبنية من مواد بناء فخمة ذات سقوف من التوتياء، ومنازل فسيحة ذات واجهات من خزف مستورد من البرتغال. كانت إيكيتوس تقوم على ضفة نهر ناناي، أحد روافد الأمازون، تحيط بها خضرة وفيرة، وأشجار شاهقة، وضجة الأدغال المتواصلة والمياه المتدفقة التي تبدل لونها مع حركة انتقال الشمس. ولكن دروباً قليلة كانت مرصوفة أو مغطاة بالإسفلت، تتدفق فيها قنوات تجرف برازاً وقمامة، وتفوح هناك نتانة تشتد كثافة مع الغروب إلى حد الغثيان. وموسيقى البارات والمواخير ومراكز اللهو لا تتوقف طوال ساعات اليوم الأربع والعشرين. أشار مستر ستيرز، القنصل البريطاني، الذي استقبلهم في المرسى، إلى أن روجر سوف يقيم في بيته. وكانت الشركة قد هيأت مقر إقامة لأعضاء اللجنة. وفي تلك الليلة بالذات، أقام محافظ إيكيتوس، السيد ريّ لاما، مأدبة عشاء على شرفهم.

كان الوقت عند وصولهم قد تجاوز قليلاً منتصف النهار، فقال روجر إنه يفضل نيل قسط من الراحة بدل تناول الغداء، وانسحب إلى حجرته. كانوا قد أعدوا له غرفة بسيطة عُلقت على جدرانها أقمشة من صنع السكان الأصليين مزركشة برسوم هندسية متناظرة، ولها شرفة صغيرة تُرى منها مقاطع من النهر. ضجة الشارع تتضاءل هناك. استلقى دون أن يخلع حتى سترته أو جزمته، واستغرق في النوم فوراً. سيطر

عليه إحساس بالأمان لم يشعر به طوال الشهر ونصف الشهر اللذين دامتهما الرحلة.

لم يحلم بسنوات الخدمة القنصلية الأربع التي انتهى من قضائها في البرازيل - في سانتوس، وبارا، وريو دي جانيرو - وإنما بتلك السنة ونصف السنة التي قضاها في أيرلندا بين عامي ١٩٠٤ و١٩٠٥، بعد شهور مترعة بالانفعالات والمشاغل الجنونية، بينما كانت الحكومة تعدّ العدة لنشر تقريره ***حول الكونغو*** والضجة التي ستصنع منه بطلاً وموبوءاً، ستنهال عليه في آن واحد مدائح الصحافة الليبرالية والمنظمات الإنسانية وخطابات النقد اللاذعة من جانب كتبة ليوبولد الثاني. ولكي يهرب من تلك الدعاية، ريثما تقرر وزارة الخارجية وجهة عمله الجديدة - فبعد التقرير لم يعد ممكناً التفكير في أن يعود «أشد الرجال المكروهين من الإمبراطورية البلجيكية» إلى الكونغو -، ذهب روجر كيسمنت إلى أيرلندا، سعياً إلى الابتعاد عن الأضواء. لم يكن وجوده هناك بلا أصداء، ولكنه تحرر من غزو ذلك الفضول الذي يحرمه في لندن من الخصوصية في حياته. وقد عنت له تلك الشهور إعادة اكتشاف بلاده، والاستغراق في أيرلندا التي لم يكن يعرفها إلا من خلال أحاديث وتخيلات وقراءات، وهي مختلفة جداً عن تلك التي عاش فيها طفلاً مع أبيه، أو مراهقاً مع أعمامه وأقربائه الآخرين من جهة أبيه، إنها أيرلندا ليست ذيلاً وظلاً للإمبراطورية البريطانية، تناضل من أجل استعادة لغتها وتقاليدها وعاداتها. «عزيزي روجر، لقد تحولتَ إلى وطني أيرلندي»، هذا ما مازحته به ابنة خالته جي في إحدى الرسائل. وقد ردّ عليها: «إنني أستعيد الزمن الضائع».

لقد قام في تلك الشهور بمسيرة طويلة إلى دونيغل وغالوي، جس خلالها نبض جغرافية وطنه الأسير، وكان يراقب كعاشق متجهم حقولها المقفرة، وشواطئها الهائجة. ويتحدث إلى صياديها، تلك الكائنات اللازمانية التي لا تنحني، وفلاحيها بسيطي المآكل وقليلي الكلام. كان قد تعرف على أيرلنديين كثيرين «من الجانب الآخر»، كاثوليكيين وبعضهم أيرلندي أسسوا، مثل دوغلاس هايد، الجمعية الأدبية الوطنية، وعكفوا على بعث الثقافة الأيرلندية، يريدون إعادة التسميات الوطنية للأمكنة والقرى، وأن يعيدوا إلى الحياة الأغنيات الأيرلندية القديمة، والرقصات القديمة، والغزل والتطريز التقليديين للتويد والكتان. وعندما صدر تعيينه للعمل في القنصلية في لشبونه، أخَّر سفره حتى اللانهاية مختلقاً الأعذار الصحية، كي يتمكن من حضور Gleann Feis na n (المهرجان الغيليّ) الأول، في أنتريم، والذي حضره حوالي ثلاثة ملايين شخص. في تلك الأيام أحس روجر بعينيه تترقرقان بالدموع عدة مرات وهو يسمع المعزوفات المرحة يعزفها موسيقيو المدينة ويغنيها الجميع في كورال، أو عند سماعه - دون أن يفهم ما يقال - رواة الحكايات وهم يروون باللغة الغيليّة أناشيد وأساطير مستحضرة من أعماق ليل العصور الوسطى. بل إن مباراة «هرلنج»، هذه اللعبة المغرقة في القدم، جرت في ذلك المهرجان الذي تعرف فيه روجر إلى سياسيين وكتّاب وطنيين مثل السير هوراس بلانكيت، وبلمر هوبسن، وستيفان غوين، وعاد للقاء مع أولئك الصديقات اللاتي، مثل إليس ستوبفورد غرين، ربطته بهن الصداقة في المعركة لمصلحة الثقافة الأيرلندية: آدا ماكنييل، مرغريت دوبس، إليس ميلغن، أغنيس أوفارلي، وروز مايد يونغ.

ومنذ ذلك الحين صار يخصص جزءاً من مدخراته ودخله لجمعيات ومدارس الإخوة بيرز التي تُعَلِّم اللغة الغيليّة، ولمجلات قومية يساهم فيها باسم مستعار. وفي العام ١٩٠٤، عندما أسس أرثر غريفث منظمة الشين فين، اتصل به روجر كيسمنت، وعرض عليه التعاون معه واشترك في مطبوعاته كلها. وكانت أفكار هذا الصحفي تتوافق مع أفكار بولمر هُبسون الذي صادقه روجر. فإلى جانب المؤسسات الاستعمارية، كان لا بد من المضي في خلق بنية تحتية أيرلندية (مدارس، شركات، مصارف، صناعات) تحلّ شيئاً فشيئاً محل مثيلاتها المفروضة من إنكلترا. وبهذه الطريقة يأخذ الأيرلنديون بوعي مصيرهم. كان لا بد من مقاطعة المنتجات البريطانية، ورفض دفع الضرائب، واستبدال الرياضات الإنكليزية، مثل الكريكت وكرة القدم، برياضات وطنية، وكذلك الأدب والمسرح. بهذه الطريقة، وبصورة سلمية، تأخذ أيرلندا بالانفكاك من الخضوع للهيمنة الاستعمارية.

وفضلاً عن قراءته الكثير عن الماضي الأيرلندي، تحت إشراف أليس، حاول روجر من جديد أن يتعلم اللغة الغيلية واتخذ معلمةً تعلمه اللغة، ولكن تقدمه فيها كان ضئيلاً. وفي العام ١٩٠٦، عرض عليه وزير العلاقات الخارجية الجديد، السير إدوارد غري، من حزب العمال، إرساله كقنصل إلى سانتوس، في البرازيل. وافق روجر على العرض، وإن يكن دون سعادة، ذلك أن رعايته للنشاطات المؤيدة لأيرلندا قضت على مدخراته القليلة، وكان يعيش على قروض يستلفها، ويحتاج إلى عمل يكسب منه نفقات حياته.

ربما ضآلة الحماسة التي تقبل بها الوظيفة الدبلوماسية أسهمت

خلال تلك السنوات الأربع في البرازيل - ١٩٠٦ - ١٩١٠ - في تجربته المحبطة. فهو لم يستطع أن يعتاد قطّ على تلك البلاد الشاسعة، على الرغم من جمالياتها الطبيعية والأصدقاء الجيدين الذين تعرف إليهم في سانتوس، وبارا، وريو دي جانيرو. وكان أشد ما يضايقه ويُثقل عليه، خلافاً لما هي عليه الحال في الكونغو، حيث كان يشعر على الدوام، بالرغم من المصاعب، بأنه يعمل في سبيل أمر سامٍ ومهم يتجاوز الإطار القنصلي، بينما نشاطه الأساسي في سانتوس يقتصر على البحارة البريطانيين السكارى الذين يدخلون في مشاجرات، ويكون عليه أن يُخرجهم من السجن، وأن يدفع ما عليهم من غرامات ويعيدهم إلى إنكلترا. وفي بارا سمع أول مرة حديثاً عن أعمال عنف في مناطق جمع المطاط. غير أن الوزارة أمرته بالتركيز على نشاطات المرافئ والعمليات التجارية. كان عمله يتلخص في تسجيل حركة السفن وتسهيل إجراءات الإنكليز القادمين بنية الشراء والبيع. وكان أسوأ وضع مرّ به في ريو دي جانيرو عام ١٩٠٩. فقد فاقم المناخ من حدة أمراضه كلها، وأضاف إليها أصنافاً من التحسس كانت تحول دون تمكنه من النوم. فاضطر إلى الذهاب للعيش على بُعد ثمانين كيلومتراً عن العاصمة، في بيتروبوليس، القائمة على مرتفعات يخفّ فيها الحر والرطوبة، وحيث هنالك برودة في الليل. ولكن الذهاب والمجيء يومياً في القطار تحوّل إلى كابوس.

تذكر بإلحاح في حلمه أنه، في أيلول ١٩٠٦، قبل انطلاقه إلى سانتوس، كتب قصيدة ملحمية، «حلم السلتي»، حول الماضي الأسطوري الأيرلندي، ومنشوراً سياسياً، بالتعاون مع إليس ستوبفورد غرين وبولمير هُبسون، ***الأيرلنديون والجيش الإنكليزي***، يرفضون فيه تجنيد أيرلنديين في الجيش البريطاني.

أيقظته لسعات البعوض مخرجة إياه من تلك القيلولة البهيجة لتغرقه في الغسق الأمازوني. كانت السماء قد تحولت إلى قوس قزح. وكان يحس بأنه أحسن حالاً: خفَّت الحرقة في عينه وسكنت آلام التهاب المفاصل. تبين أن الاستحمام في منزل مستر ستيرز عملية معقدة: فأنبوب مرشة الدوش يخرج من وعاء يقوم خادم بسكب دلاء من الماء فيه بينما روجر يصوبن بدنه ويغسله. حرارة الماء الفاترة جعلته يفكر في الكونغو. وعند نزوله إلى الطابق الأول، وجد القنصل بانتظاره عند الباب مستعداً لمرافقته إلى بيت المحافظ ريّ لاما.

كان عليهما أن يسيرا بضع كوادرات، وسط ريح رملية اضطرت روجر إلى إبقاء عينيه مغمضتين. وكانا يتعثران وسط الظلمة بحفر وأحجار وزبالة في الشارع. كان الضجيج قد تزايد. وكلما مرا أمام باب أحد البارات تتعاظم ضجة الموسيقى ويُسمع تبادل أنخاب ومشاجرات السكارى وصراخهم. كان مستر ستيرس، وهو رجل متقدم في السن، أرمل وبلا أبناء، قد أمضى نحو ست سنوات في إيكيتوس، ويبدو أنه رجل متعب وبلا أوهام.

ـ كيف هي الأجواء في المدينة بشأن هذه اللجنة؟ ـ سأله روجر كيسمنت.

ـ إنها أجواء عدائية بصراحة ـ أجاب القنصل فوراً ـ وأفترض أنك تعلم أن نصف أهالي إيكيتوس يعيشون بفضل السيد آرانا. الناس يتوجسون بأن اللجنة آتية بنوايا سيئة ضد من يوفر لهم العمل والطعام.

ـ وهل يمكننا الأمل ببعض المساعدة من السلطات؟

ـ بل ستواجهون كل أشكال العراقيل في العالم يا سيد كيسمنت.

فالسلطات في إيكيتوس أيضاً مرتبطة بالسيد آرانا. فلا المحافظ، ولا القضاة، ولا العسكريون يتلقون رواتبهم من الحكومة منذ شهور طويلة. ولولا السيد آرانا لماتوا جوعاً. وخذ بالاعتبار أن إيكيتوس أبعد عن ليما مما هي نيويورك ولندن، بسبب انعدام المواصلات. فالرحلة تحتاج إلى شهرين في أفضل الحالات.

ـ الأمر سيكون أكثر تعقيداً مما تصورته ـ علق روجر.

ـ على حضرتك والسادة أعضاء اللجنة أن تكونوا حذرين جداً ـ أضاف القنصل، بتردد الآن ويخفض صوته ـ ليس هنا في إيكيتوس، وإنما هناك في بوتومايو. ففي تلك المناطق النائية يمكن أن يحدث لكم أي شيء. هذا عالم همجي، بلا قانون ولا نظام. مثلما هو الكونغو، على ما أتصور.

كان مقر محافظة إيكيتوس في ساحة السلاح، وهذه عبارة عن ميدان ترابي فسيح لا أشجار فيه ولا أزهار، حيث ـ أشار له القنصل إلى بناء من الحديد يبدو كآلية ميكانيكية غير مكتملة ـ يجري تركيب بيت إيفل («أجل، إيفل نفسه، صاحب برج باريس»). فقد اشتراه أحد مستثمري المطاط المزدهرين من أوروبا، وأحضره مفككاً إلى إيكيتوس، وهم الآن يعيدون تركيبه ليكون أفضل نادٍ اجتماعي في المدينة.

يشغل مقر المحافظة نصف كواردا تقريباً. إنه دارة شاحبة، من طابق واحد، بلا طرافة ولا هوية، حجراته فسيحة، ونوافذه مزودة بقضبان حديدية، وينقسم إلى جناحين، أحدهما مخصص للمكاتب والقسم الآخر مقر إقامة المحافظ. كان السيد ريّ لاما، وهو رجل

طويل القامة، شائب الشعر، وله شارب كبير مصمغ الطرفين، ينتعل جزمة، ويرتدي بنطالاً لركوب الخيل وقميصاً مغلق الياقة وسترة غريبة مزينة بزراكش مطرزة. يتكلم شيئاً من الإنكليزية، وقد رحب بروجر كيسمنت ترحيباً مفرطاً في المودة، وبخطابية مفخمة. كان جميع أعضاء اللجنة قد وصلوا من قبل، وكانوا يتعرقون وهم محشورون في بدلاتهم الليلية. تولى المحافظ تقديم بقية المدعوين إلى روجر: قضاة من المحكمة العليا، والكولونيل آرنايث، قائد الحامية، والأب أوروتيا، الكاهن الأعلى للرهبان الأغوسطونيين، والسيد بابلو ثومايتا، المدير العام لشركة الأمازون البيروية، وأربعة أو خمسة أشخاص آخرين، تجار، ورئيس الجمارك، ومدير جريدة *الأورينتال*. لم تكن هناك امرأة واحدة بين الجماعة. سمع فتح قناني شمبانيا. قدموا إليهم كؤوس نبيذ أبيض زبدي، وقد بدا له جيداً على الرغم من أنه دافئ، إنه نبيذ فرنسي دون شك.

كانوا قد أعدوا العشاء في فناء فسيح، تضيئه مصابيح زيت. عدد من الخدم لا حصر له من السكان الأصليين، حفاة ويضعون مآزر، يقدمون شطائر صغيرة ويأتون بصواني مأكولات. كانت الليلة فاترة، وكانت بعض النجوم تتلألأ في السماء. فوجئ روجر بالسهولة التي يفهم بها لهجة اللوريتانيين، إسبانية على شيء من النبر المتأخر والموسيقي، تعرف فيه على تعابير برازيلية. أحس بالراحة: سيتمكن من فهم الكثير مما سيسمعه في الرحلة وهذا سيسهل عليه تحرياته، على الرغم من أن مترجماً سيرافقه. في ما حوله، على المائدة، حيث قدموا إليهم للتو حساء سلحفاة شديد الدسم، وابتلعه بصعوبة، كانت تدور عدة أحاديث في آن واحد، بالإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، ومع مترجمين

يقطعون تلك الأحاديث خالقين بذلك لحظات صمت اعتراضية. وفجأة، نهض المحافظ الذي يجلس قبالة روجر وكانت عيناه قد احمرتا من كؤوس النبيذ والبيرة، صفق بيديه. فصمت الجميع. رفع نخباً بصحة القادمين الجدد. وتمنى لهم إقامة سعيدة، ومهمة ناجحة، وأن يستمتعوا بكرم الضيافة الأمازونية. وأضاف: «كرم الضيافة اللوريتاني، والإيكيتوسي بصورة خاصة».

وما كاد يجلس حتى توجه إلى روجر بصوت عالٍ بما يكفي لتتوقف الأحاديث الجانبية ويبدأ حديث آخر يشارك فيه قرابة العشرين شخصاً الحاضرين.

ـ أتسمح لي بسؤال يا عزيزي السيد القنصل؟ ما هو بالضبط الهدف من رحلتكم ومن هذه اللجنة؟ ما الذي جئتم تتحرون عنه هنا؟ ولا تأخذ كلامي هذا على أنه تدخل وقح. بل على العكس تماماً. فرغبتي، ورغبة جميع السلطات، هي مساعدتكم. ولكن علينا أن نعرف السبب الذي بعثكم من أجله التاج البريطاني. وهذا شرف كبير لمنطقة الأمازون، بكل تأكيد، ونرغب في أن نُبدي جدارتنا به.

فهم روجر كيسمنت كل ما قاله ريّ لاما، ولكنه انتظر بصبر أن ينتهي المترجم من ترجمة كلماته إلى الإنكليزية.

ـ لا شك في أنكم تعلمون أنه قد جرت هناك في إنكلترا، وفي أوروبا، احتجاجات حول فظاعات قد اقتُرفت ضد السكان الأصليين ـ أوضح بهدوء ـ. عمليات تعذيب، قتل، واتهامات خطيرة جداً. شركة المطاط الرئيسية في المنطقة، شركة السيد خوليو س. آرانا، أي شركة الأمازون البيروية، ويخيل إلي أنك تعرف ذلك، هي شركة إنكليزية،

مسجلة في بورصة لندن. ولا يمكن للحكومة ولا للرأي العام في بريطانيا العظمى التسامح مع خرق شركة بريطانية للقوانين الإنسانية والإلهية. والهدف من رحلتنا هو التحري عن صحة تلك الاتهامات. اللجنة أرسلتها شركة السيد خوليو س. آرانا نفسها. أما أنا فأرسلتني حكومة جلالته.

صمتٌ جليدي خيم على الفناء مذ فتح روجر كيسمنت فمه. بدا كما لو أن ضجة الشارع قد تضاءلت. بدأ يُلمح سكون مثير للفضول، كما لو أن جميع أولئك السادة الذين كانوا، قبل لحظات، يشربون ويأكلون ويتحدثون ويومئون، قد وقعوا ضحية شلل مباغت. كانت النظرات كلها مصوبة إلى روجر. وكان جو من الاستياء وعدم الرضا قد حلّ محل أجواء المودة الحميمة.

ـ شركة خوليو س. آرانا مستعدة للتعاون في الدفاع عن سمعتها الطيبة ـ قال السيد بابلو ثومايرا بصوت أقرب إلى الصراخ ـ. ليس لدينا ما نخفيه. السفينة التي ستتوجهون بها إلى بوتومايو هي الأفضل في شركتنا. وهناك ستُوفر لكم كافة التسهيلات كي تتأكدوا بأم العين من شناعة تلك الافتراءات.

ـ نشكرك على ما تقدمه أيها السيد ـ أكد روجر كيسمنت.

وفي تلك اللحظة بالذات، في خطفة مفاجئة غير معهودة لديه، قرر إخضاع مضيفيه لاختبار سيؤدي، بكل تأكيد، إلى ردود فعل بناءة له ولأعضاء اللجنة. فسأل بصوت طبيعي كما لو أنه يتحدث عن لعبة تنس أو عن المطر:

ـ وبالمناسبة أيها السادة. هل تعلمون إذا كان الصحفي بنجامين

سالدانيا روكا ـ وآمل أن يكون لفظي للاسم صحيحاً ـ موجوداً في إيكيتوس؟ وهل يمكننا التحدث إليه؟

كان لسؤاله وقع قنبلة. تبادل الحاضرون نظرات المفاجأة والاستياء. وتلا كلماته صمت طويل، وكأنه ليس هناك من يتجرأ على التطرق إلى موضوع شائك إلى ذلك الحدّ.

ـ ولكن، كيف! ـ هتف أخيراً المحافظ بمبالغة مسرحية في التصنع ـ هل وصل اسم هذا الابتزازي إلى لندن؟

ـ أجل أيها السيد ـ أكد روجر كيسمنت ـ. شكاوى السيد سالدانيا روكا والمهندس والتر هاردنبرغ فجرت في لندن فضيحة شركات المطاط في بوتومايو. لم يجب أحد على سؤالي: هل السيد سالدانيا روكا موجود في إيكيتوس؟ هل يمكنني اللقاء به؟

ساد صمت آخر. كان حرج الحضور بادياً. أخيراً تكلم كبير الأغوسطونيين:

ـ لا أحد يعرف مكان وجوده يا سيد كيسمنت ـ قال الأب أوروتيا بإسبانية أصيلة تختلف بوضوح عن لهجة اللوريتانيين. ووجد روجر صعوبة أكبر في فهمه ـ. لقد اختفى من إيكيتوس منذ بعض الوقت. يقال إنه الآن في ليما.

ـ لو لم يهرب لكنا نحن أهالي إيكيتوس قد علّقناه ـ أكد رجل مُسن وهو يهز قبضة غاضبة.

ـ إيكيتوس أرض أناس وطنيين ـ هتف بابلو ثومايتا ـ ولا يمكن لأحد أن يسامح ذلك الشخص على اختلاقه الافتراءات لتشويه سمعة البيرو وإغراق الشركة التي جاءت بالازدهار إلى منطقة الأمازون.

ـ لقد فعل ذلك لأنه لم يحصل على نتيجة من النذالة التي دبرها ـ أضاف المحافظ ـ. هل أخبرتموهم أن سالدانيا روكا قد حاول، قبل نشر افتراءاته، أن يبتز أموالاً من شركة السيد آرانا؟

ـ ولأننا رفضنا أن نعطيه مالاً، نشر كل تلك الحكاية الملفقة حول بوتومايو ـ أكد بابلو ثومايتا ـ لقد حُوكم بالقدح والافتراء والإكراه، والسجن بانتظاره. لهذا هرب من هنا.

ـ ليس مثل التواجد على أرض الواقع من أجل معرفة الأمور ـ علق روجر كيسمنت.

أطاحت الأحاديث الجانبية بالمحادثة العامة. وتواصل تقديم العشاء بطبق أسماك أمازونية، أحد تلك الأسماك يدعى غاميتانا، وقد بدا لحمه لكيسمنت فاخراً ولذيذ الطعم. غير أن التوابل خلفت في فمه حرقة قوية.

عند انتهاء العشاء، وبعد أن ودّع المحافظ، تبادل الحديث لوقت قصير مع أصدقائه في اللجنة. وكان رأي سايمور بيل أن فتح موضوع الصحفي سالدانيا روكا بتلك الطريقة الفجة التي أزعجت وجهاء إيكيتوس، كان تصرفاً متهوراً. ولكن لويس بارنس بارك التصرف لأنه، حسب قوله، أتاح لهم دراسة ردّ الفعل الغاضب الذي أبداه أولئك الناس ضد الصحفي.

ـ من المؤسف أننا لا نستطيع التحدث إليه ـ قال كيسمنت ـ كنتُ راغباً في التعرف إليه.

تبادلوا الوداع ورجع روجر مع القنصل مشياً على الأقدام إلى بيت الأخير، عبر الطريق نفسه الذي جاءا منه. كان الصخب، والعربدة،

والأغاني، والرقص، والأنخاب، والمشاجرات قد ارتفعت وتيرتها، وفوجئ روجر بكثرة الصبيان ـ مهلهلين، شبه عراة، حفاة ـ المرابطين أمام أبواب الحانات والمواخير، يختلسون النظر بوجوه ماكرة إلى ما يحدث في الداخل. وكانت هناك كلاب كثيرة أيضاً تنبش في أكوام القمامة.

ـ لا تضيع وقتك في البحث عنه، لأنك لن تجده ـ قال السيد ستيرز ـ الاحتمال الأكبر أن يكون سالدانيا روكا قد مات.

لم يُفاجأ روجر. فقد خامره الشك هو نفسه أيضاً في أن يكون اختفاؤه نهائياً، بعد أن رأى العنف اللفظي الذي استثاره مجرد ذكر اسم الصحفي.

ـ هل تعرفت إليه حضرتك؟

كان للقنصل صلعة مدورة، وجمجمته تلمع كما لو أنها مملوءة بقطرات ماء. وكان يمشي ببطء متلمساً الأرضية الموحلة بعكازه، ربما خشية أن يدوس على حيّة أو فأر.

ـ تبادلت الحديث معه مرتين أو ثلاث مرات ـ قال مستر ستيرز ـ. كان رجلاً قصير القامة به قليل من التشوه. هذا ما يدعونه هنا تشولو، أو تشوليتو. وهو ما يعني هجين. وهؤلاء التشولو يكونون عادة رقيقين واحتفاليين. لكن سالدانيا روكا لم يكن كذلك. بل كان فظاً، وشديد الثقة بنفسه. وله تلك النظرة الثابتة التي للمؤمنين والمتعصبين ممن يجعلونني، في الحقيقة، عصبياً جداً. فمزاجي لا يتناسب مع ذلك التوجه. أنا لا أُعجب بالشهداء يا سيد كيسمنت. ولا بالأبطال. فأولئك

الناس الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الحقيقة أو العدالة كثيراً ما يتسببون بضرر أكبر من الضرر الذي يريدون إصلاحه.

لم يقل روجر كيسمنت شيئاً. كان يحاول أن يتخيل ذلك الرجل الضئيل الذي فيه تشوهات بدنية، وقلب وإرادة شبيهان بقلب وإرادة إدموند د. موريل. شهيد وبطل، أجل. إنه يتخيله يضبط بيديه الألواح المعدنية لجريدتيه الأسبوعيتين *التوبيخ والقصاص*. يطبعهما في مطبعة يدوية صغيرة تعمل، دون شك، في ركن من أركان بيته. ولا بد أن ذلك المنزل المتواضع هو مقر تحرير وإدارة جريدتيه البائستين.

ـ آمل ألا تأخذ كلماتي على محمل السوء ـ اعتذر القنصل البريطاني وقد ندم فجأة على ما قاله للتو ـ لقد كان السيد سالدانيا روكا شجاعاً جداً بالطبع حين أعلن تلك الشكاوى. كان جريئاً، وهذا أقل قليلاً من انتحاري، بتقديمه شكوى قضائية ضد شركة آرانا بتهمة التعذيب والاختطاف والجَلْد وارتكاب الجرائم في شركات جمع المطاط في بوتومايو. وهو لم يكن ساذجاً بأي حال. لقد كان يعرف جيداً ما الذي سيحدث له.

ـ ماذا حدث له؟

ـ ما هو متوقع ـ قال السيد ستيرز دون ذرة واحدة من التأثر ـ أحرقوا له المطبعة في شارع مورونا. مازال بإمكان حضرتك أن تراها الآن، إنها محروقة بالكامل. وأطلقوا النار على بيته أيضاً. وآثار الرصاص مازالت مرئية، في شارع بروسبير. واضطر إلى إخراج ابنه من مدرسة الآباء الأغوسطينيين، لأن زملاءه جعلوا حياته هناك مستحيلة. ووجد نفسه مضطراً إلى نقل أسرته إلى مكان سري، من يدري أين، لأن حياتهم في

خطر. واضطر كذلك إلى إغلاق جريدتيه الصغيرتين لأن أحداً لم يعد يقدم له إعلاناً ولم تعد هناك مطبعة في إيكيتوس تقبل طباعتهما. لقد أطلقوا عليه النار مرتين في الشارع، كتحذير. ونجا في المرتين بأعجوبة. وقد خلّفته إحداهما أعرج، برصاصة مستقرة في ربلة ساقه. وآخر مرة رآه فيها كانت في شهر شباط ١٩٠٩، على الرصيف النهري، وكانوا يقتادونه دفعاً بالقوة نحو النهر. كان وجهه متورماً من الضرب الذي تلقاه من عصبة. وقد أصعدوه بالقوة إلى مركب متوجه إلى يوريماغواس. ولم يُعرف عنه أي شيء منذ ذلك الحين. يمكن أن يكون قد تمكن من الهرب إلى ليما. أرجو أن يكون ذلك ما حدث. ويمكن أن يكونوا أيضاً قد قيّدوا يديه وقدميه وسببوا له جراحاً نازفة، وألقوا به إلى النهر كي تقضي عليه أسماك البيرانيا. إذا كان هذا ما جرى، فإن عظامه وحدها هي التي لا تأكلها تلك الأسماك، ولا بد أن تكون قد وصلت إلى الأطلسي. أفترضُ أنني لا أقول لك شيئاً لا تعرفه، فأنت قد رأيتَ في الكونغو قصصاً مماثلة أو أسوأ.

في أثناء ذلك وصلا إلى منزل القنصل. أشعل هذا الأخير مصباح صالة المدخل الصغيرة وقدّم إلى كيسمنت كأس نبيذ أُبورتو. جلسا إلى جانب الشرفة وأشعلا سيجارتين. كان القمر قد اختفى وراء بعض الغيوم ولكن نجوماً ظلت ظاهرة في السماء. واختلط بصخب الشوارع النائي أزيز الحشرات المتزامن مع فرقعة المياه وهي ترتطم بأغصان وقصب الضفاف.

ـ ماذا أفادت كل تلك الشجاعة بنجامين سالدانيا روكا المسكين؟ ـ قال القنصل متأملاً وهو يرفع ذراعيه ـ لا شيء. نكب أسرته وربما فقد

حياته. ونحن هنا فقدنا تينك الجريدتين، ***التوبيخ و القصاص***، اللتين كانت قراءتهما كل أسبوع مسلية، لما فيهما من النميمة والإشاعات.

ـ لا أظن أن تضحيته كانت غير مجدية بالكامل ـ صحح له روجر كيسمنت بنعومة ـ لولا سالدانيا روكا ما كنا جئنا إلى هنا. ما لم تكن حضرتك تعتقد أن مجيئنا لن يفيد في أي شيء.

ـ لا سمح الله ـ هتف القنصل ـ معك حق. فكل تلك الضجة هناك في الولايات المتحدة، وفي أوروبا. أجل، سالدانيا روكا هو من بدأ ذلك كله بشكاواه. وبعد ذلك شكاوى والتر هاردينبرغ. لقد تلفظتُ بحماقة. وآمل أن يفيد مجيئك في شيء وأن تتبدل الأمور. اعذرني يا سيد كيسمنت. العيش سنوات طويلة في الأمازون جعل مني ارتيابياً إلى حدّ ما في مسألة التقدم. ففي إيكيتوس ينتهي الأمر بالمرء إلى عدم الإيمان بشيء من هذا. ولاسيما الإيمان بأن العدالة ستدفع الجور إلى التراجع ذات يوم. ربما حان الوقت لأعود إلى إنكلترا كي آخذ حمّام تفاؤل إنكليزي. إنني أرى أن خدمة حضرتك للتاج كل هذه السنوات في البرازيل لم تحوّلك إلى متشائم. من مثلك. إنني أحسدك.

حين تمنى كل منهما ليلة سعيدة للآخر وانسحبا إلى حجرتيهما، ظل روجر مؤرقاً لوقت طويل. هل أحسن صنعاً بقبوله القيام بهذه المهمة؟ عندما استدعاه، قبل بضعة شهور، السير إدوارد غراي، وزير العلاقات الخارجية، إلى مكتبه وقال له: «لقد بلغت الضجة حول الجرائم في بوتومايو حدوداً لا يمكن التسامح معها. الرأي العام يطالب الحكومة بأن تفعل شيئاً. ولا وجود لأحد مثلك من أجل السفر إلى هناك. ستذهب كذلك لجنة تحقيق، مؤلفة من أشخاص مستقلين قررت

شركة الأمازون البيروية نفسها أن ترسلهم. ولكنني أريد من حضرتك، مع أنك ستسافر معهم، أن تُعدّ تقريراً شخصياً للحكومة. أنت تتمتع بشهرة كبيرة بعد ما فعلته في الكونغو. إنك اختصاصي في الفظائع. لا يمكنك رفض المهمة». كان ردّ فعله الأول محاولة البحث عن ذريعة للاعتذار والرفض. ولكنه فكر بعد ذلك، وتوصل إلى أن الواجب الأخلاقي، بسبب عمله في الكونغو تحديداً، يفرض عليه القبول. أتراه أحسن صنعاً؟ ارتيابية مستر ستيرز تبدو له نذير شؤم. وبين حين وآخر تلسعه في رأسه عبارة السير إدوارد غراي، «اختصاصي في الفظائع».

إنه يعتقد، خلافاً لرأي القنصل، أن بنجامين سالدانيا روكا قد قدّم خدمة كبيرة لمنطقة الأمازون، ولبلاده، وللبشرية. فاتهامات صحفي جريدة ***القصاص. جريدة تجارية، سياسية وأدبية، تصدر مرة كل أسبوعين***، كانت أول ما قرأه عن شركات جمع المطاط في بوتومايو، بعد حديثه مع السير إدوارد الذي منحه أربعة أيام لاتخاذ قرار السفر مع لجنة التحقيق. وعلى الفور وضعت وزارة الخارجية بين يديه حزمة وثائق، أهمها شهادتان مباشرتان لشخصين كانا في تلك المنطقة: مقالات المهندس الأميركي والتر هاردنبرغ في الأسبوعية اللندنية ***الحقيقة*** ومقالات بنجامين سالدانيا روكا، وكان بعض تلك المقالات قد تُرجم إلى الإنكليزية من قبل جمعية مناهضة العبودية وحماية السكان الأصليين، وهي مؤسسة إنسانية.

كان رد فعله للوهلة الأولى عدم تصديق ما قرأ. فهذا الصحفي الذي ينطلق من وقائع حقيقية، قد ضخم أعمال التعسف بطريقة جعلت مقالاته تنضح بعدم الواقعية، بل وبمخيلة سادية بعض الشيء. ولكن

روجر تذكر على الفور أن ردّ الفعل هذا نفسه هو الذي أبداه الكثير من الإنكليز والأوروبيين والأمريكيين عندما نشر هو وموريل المظالم الشائعة في دولة الكونغو المستقلة: عدم التصديق. هكذا يحمي الكائن البشري نفسه من كل من يُظهر القسوة الفائقة الوصف التي يمكن أن يستثيرها الجشع والغرائز الخبيثة في عالم بلا قانون. وإذا كانت هذه الفظائع قد حدثت في الكونغو فلماذا لا يمكن لها أن تكون قد حدثت في الأمازون؟

نهض من الفراش مغموماً ومضى ليجلس على الشرفة. بدت السماء قاتمة وكانت النجوم قد اختفت أيضاً. وكانت الأضواء من جهة المدينة أقل، ولكن الصخب لا يزال متواصلاً. إذا كانت شكاوى سالدانيا روكا صحيحة، فمن المحتمل، مثلما يظن القنصل، أن يكون الصحفي قد أُلقي إلى النهر مقيد القدمين واليدين ونازفاً من أجل استثارة شهية أسماك البيرانيا. لقد استفزته طريقة كلام مستر ستيرز القَدَريّة والمتهكمة. كما لو أن ذلك لا يحدث لأن هناك أناساً قساة، وإنما بصورة قَدَرية، مثلما تتحرك الكواكب ويرتفع المد البحري. لقد وصف الصحفي بـ «المتعصب». أيكون متعصباً للعدالة؟ أجل، لا شك في ذلك. رجل متواضع، بلا أموال ولا نفوذ. إنه موريل أمازوني. ربما يكون مؤمناً؟ وقد فعل ما فعله لأنه يؤمن بأنه لا يمكن للعالم والمجتمع والحياة أن تظل عاراً. فكر روجر في شبابه، عندما ملأته تجربة الخبث والمعاناة، في أفريقيا، بذلك الشعور النضالي، بتلك الإرادة الواخزة التي تدفعه لعمل أي شيء كي يتحسن العالم. أحس بشعور أخوي تجاه سالدانيا روكا. تمنى لو أنه يستطيع مصافحته، وأن يكون صديقه، وأن يقول له: «لقد قمت بشيء رائع ونبيل في حياتك أيها السيد».

أيكون قد ذهب إلى هناك، إلى بوتومايو، إلى المنطقة الشاسعة التي تعمل فيها شركة خوليو س. آرانا؟ أيكون قد ذهب ليدس نفسه في فم الأسد؟ مقالاته لا تقول ذلك، ولكن دقة الأسماء والأمكنة والتواريخ تشير إلى أن سالدانيا روكا كان شاهد عيان لما يرويه. لقد قرأ روجر عدة مرات شهادات سالدانيا روكا ووالتر هاردتبرغ إلى حد صار يبدو له إلى أنه هو نفسه كان هناك شخصياً.

أغمض عينيه ورأى المنطقة الشاسعة، مقسمة إلى محطات، أهم تلك المحطات هي تشوريرا والإنكانتو، وكل محطة منها لها رئيسها. «أو مسخها بعبارة أدق». فهذا وليس سوى هذا ما يمكن أن يكونه أشخاص مثل فيكتور ماثيدو وميغيل لوايّاسا على سبيل المثال. فكلاهما قاد، في أواسط العام ١٩٠٣، مأثرتهما الأوسع شهرة. ففي تلك المناسبة وصل إلى محطة تشوريرا قرابة ثمانمئة من أبناء قبيلة أوكايما ليسلِّموا سلالاً مملوءة بكرات مطاط جمعوها من الغابات. وبعد وزنها وتخزينها، جاء معاون مدير محطة تشوريرا، المدعو فيدل بيلاردي، إلى رئيسة فيكتور ماثيدو، وكان هناك مع ميغيل لوايّاسا، رئيس محطة الإنكانتو، وأشار له إلى خمسة وعشرين شخصاً من الأوكايما منفصلين عن البقية لأنهم لم يأتوا بالحصة الدنيا من «**الخيبي**» ـ المطاط أو الكاوتشوك ـ المفروضة عليهم. فقرر ماثيدو ولوايّاسا أن يلقنا المتوحشين درساً جيداً. فأشارا إلى رؤساء عمالهم ـ وهم زنوج من باربادوس ـ أن يكبحوا برشاشات الموزر التي يحملونها أي حركة يقوم بها أبناء قبيلة أوكايما الآخرون، وأمروا «الشباب» بأن يحشروا الخمسة والعشرين شخصاً في أكياس مضمخة بالبترول. ثم أشعلوا بهم النار. تعالت صرخات من تحولوا إلى مشاعل بشرية، وتمكن بعضهم من

إطفاء اللهب بالتقلب على التراب لكنهم أصيبوا بحروق رهيبة. من ألقي بهم إلى النهر كنيازك ملتهبة، غرقوا. وقام ماثيدو ولوايّاسا وبيلاردي بالإجهاز على الجرحى برصاص مسدساتهم. كلما تذكر روجر ذلك المشهد يصاب بالدوار.

لقد كان رؤساء المحطات، على حد قول سالدانيا روكا، يقومون بتلك الأعمال كعقوبة، ولكنهم يفعلونها أيضاً للتسلية. لأنها تروق لهم. فالتسبب بالمعاناة والتنافس بالقسوة، إدمان أصابهم من كثرة ممارستهم الجلد بالسياط والضرب والتعذيب. وكثيراً ما كانوا يبحثون، وهم سكارى، عن ذريعة لممارسة تلك الألعاب الدموية. يذكر سالدانيا روكا رسالة من مدير الشركة إلى ميغيل فلوريس، وهذا رئيس محطة، يؤنبه فيها لأنه «يقتل هنوداً لمجرد اللعب» وهو يعلم أن هناك نقصاً في الأيدي العاملة ويُذكّره بأنه عليه ألا يلجأ إلى ذلك الشطط «إلا في الحالات الضرورية». فكان ردّ ميغيل فلوريس أسوأ من الاتهام: «إنني أعترض لأنه خلال هذه الشهور الأخيرة لم يمت إلا حوالي أربعين هندياً في محطتي».

يعدد سالدانيا روكا مختلف أصناف العقاب للسكان الأصليين على ما يرتكبونه من أخطاء: جلد بالسوط، حبس في «الثيبو» أو قفص التعذيب، صلم الآذن، جذع الأنوف، بتر الأيدي والأقدام، حتى القتل. بالشنق أو الرجم أو الحرق أو الإغراق في النهر. ويؤكد أنه كان هنالك في ماتانثاس بقايا وطنيين أكثر مما في أي محطة أخرى. وليس بالإمكان حساب عددهم، لكن العظام تشير إلى أن الضحايا بالمئات، وربما بالآلاف. المسؤول عن محطة ماتانثاس يدعى آرماندو نورماند،

وهو شاب بوليفي ـ إنكليزي، يكاد لا يتجاوز الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر. يؤكد أنه درس في لندن. وقد تحولت قسوته إلى «أسطورة جهنمية» بين هنود الهويتوتو الذين أباد معظمهم. وفي إبيسينيا غرّمت الشركة المدير أبيلاردو أغويرو ومعاونه أغسطو خيمينث لأنهما كانا يستخدمان الهنود أهدافاً للرماية وهما يعلمان أنهما يضحيان بتلك الطريقة غير المسؤولة بأيد عاملة مفيدة للشركة.

وعلى الرغم من كونه بعيداً جداً، فقد فكر روجر كيسمنت مرة أخرى بأن الكونغو والأمازون مرتبطان بحبل سري. فالفظائع تتكرر، مع تنويعات دنيا، مدفوعة بالربح: هذه الخطيئة الأصلية التي ترافق الكائن البشري منذ ولادته، والسر الموحي بشروره اللامتناهية. أم أن هناك شيئاً آخر؟ أيكون الشيطان قد كسب الحرب الأبدية؟

في الغد ينتظره يوم بالغ الزخم. فقد توصل القنصل إلى تحديد مكان ثلاثة من زنوج باربادوس المقيمين في إيكيتوس ويحملون الجنسية البريطانية. كانوا قد عملوا في شركة آرانيا للمطاط، ووافقوا على أن تستجوبهم اللجنة إذا ما وفرت لهم بعد ذلك العودة إلى موطنهم.

ومع أنه لم ينم إلا قليلاً، فقد استيقظ مع أول أضواء الفجر. لم يكن يشعر بالتوعك. اغتسل، وارتدى ثيابه، واعتمر قبعة بنمية، والتقط آلة تصويره، وخرج من بيت القنصل دون رؤية هذا الأخير أو خدمه. وفي الشارع كانت قد بدأت تطل شمسٌ في سماء خالية من الغيوم وبدأ الحر ينتشر في الجو. فإيكيتوس تتحول عند الظهيرة إلى فرن. كان هناك أناس في الشوارع، وكان الترام الصغير الصاخب يجول مطلياً باللونين الأحمر والأزرق. بين الفينة والفينة يقترب منه باعة متجولون

هنود، لهم ملامح صينية، وبشرة مائلة إلى الصفرة، ووجوه وأذرع مزركشة برسوم هندسية، ويعرضون عليه فواكه أو مشروبات أو حيوانات حية ـ قردة، ببغاوات، عظاءات صغيرة ـ أو سهاماً، ومطارق خشبية وثرباتانات لإطلاق السهام. وكانت حانات ومطاعم كثيرة لا تزال مفتوحة ولكن بعدد قليل من الزبائن. وهناك سكارى يستلقون بسيقان متباعدة تحت سقوف من سعف النخيل، وكلاب تنبش أكوام القمامة. فكر: «هذه المدينة جحر خسيس ونتن». قام بجولة طويلة في الشوارع الترابية، مروراً بساحة السلاح حيث تعرّف فيها على مبنى المحافظة. ووصل إلى رصيفٍ نهري له حاجز حجري، وطريق جميل يُرى منه النهر الهائل بجزره العائمة. وبعيداً، يلمع تحت الشمس، صف أشجار عالية على الضفة الأخرى. وعند نهاية الرصيف النهري، حيث يتلاشى الرصيف في أجمة ومنحدر فيه أشجار وفي أسفله مرسى نهري، رأى فِتية حفاة ولا يرتدون سوى سراويل قصيرة، يقومون بغرس أوتاد. وكانوا يضعون قبعات من الورق للحماية من الشمس.

لا يبدو أنهم هنود، وإنما هم أقرب إلى التشولو[1]. كان لأحدهم، وعمره لا يتجاوز العشرين عاماً، صدر متناسق، وعضلات تبرز مع كل ضربة مطرقة. وبعد أن تردد روجر للحظات، اقترب منه وأراه آلة التصوير.

ـ أتسمح أن ألتقط لك بعض الصور؟ ـ سأله بالبرتغالية ـ وسوف أدفع لك.

(١) تشولو: (cholo) خلاسي هجين من أم هندية وأب أبيض.

نظر إليه الفتى دون أن يفهم.

كرر السؤال مرتين بإسبانيته الرديئة، إلى أن ابتسم الفتى. تبادل مع الفتية الآخرين بعض الكلام الذي لم يفهمه روجر. وأخيراً رجع إليه ليسأله بفرقعة من أصابعه: «كم ستدفع؟». بحث روجر في جيوبه وأخرج حفنة من القطع النقدية. تفحصتها عينا الفتى لتُحصيها.

التقط له عدة بلاكات وسط ضحك وسخريات أصدقاء الفتى، طالباً منه أن يخلع القبعة الورقية، وأن يرفع ذراعية، ويُظهر عضلاته، وأن يتخذ وقفة رامي القرص. ومن أجل هذه اللقطة الأخيرة كان عليه أن يلمس ذراعي الفتى برهة. أحس أن يديه مبللتان بفعل العصبية والحر. وتوقف عن التقاط الصور حين انتبه إلى أنه قد أُحيط بصبية بثياب رثة يتأملونه كما لو أنه حيوان غريب. قدم قطع النقود المعدنية للفتى ورجع مسرعاً إلى القنصلية.

كان أصدقاؤه في اللجنة يجلسون إلى المائدة، ويتناولون الفطور مع القنصل. انضم إليهم موضحاً أنه يبدأ يومه كل صباح بالمشي لمسافة لا بأس بها. وبينما هو يتناول فنجان قهوة خفيفة وحلوة جداً، مع قطعة يوكا مقلية، أوضح له مستر ستيرز من هم الباربادوسيون. وبدأ بتنبيهه إلى أن الثلاثة قد عملوا في بوتومايو، ولكنهم انتهوا نهاية سيئة مع شركة آرانا. يشعرون بأنهم تعرضوا لخداع وغش شركة الأمازون البيروية، وبالتالي ستكون شهاداتهم ممتلئة بالضغينة. نصحهم بألا يمثل الباربادوسيون أمام أعضاء اللجنة كلهم دفعة واحدة، لأنهم سيشعرون بالرهبة ولن يتكلموا. فقرروا أن يتوزعوا في جماعات من شخصين أو ثلاثة أشخاص من أجل المقابلات.

شكّل روجر ثنائياً مع سيمور بيل الذي تذرع، مثلما توقع روجر، بعد قليل من بدء المقابلة مع الباربادوسي الأول بمشكلة التجفاف التي يعاني منها، وغادر قائلاً إنه يشعر بأنه ليس على ما يرام، وترك روجر وحده مع رئيس فريق العمال السابق في شركة آرانا.

كان يدعى إبونيم توماس كامبل، ولم يكن متأكداً من عمره، وإن كان يعتقد أنه لا يزيد على خمسة وثلاثين عاماً. إنه زنجي له شعر طويل مجعد يلمع فيه بعض الشيب. يرتدي قميصاً حائل اللون ومفتوحاً على الصدر حتى السُرَّة، وبنطالاً يصل إلى كاحليه ومثبتاً بقطعة حبل. كان حافياً، وبدت قدماه الضخمتان كأنهما من الصخر بأظفارهما الطويلة وحراشفهما الكثيرة. لغته الإنكليزية تغص بمصطلحات محلية يجد روجر مشقة في فهمها. وهو يخلطها أحياناً بكلمات برتغالية وإسبانية.

أكد له روجر، بلغة بسيطة، أن شهادته ستكون سرية وأنه لن يكون ملتزماً بأي حال بما سيصرح به. وكل ما يطلبه منه هو معلومات حقيقية وصادقة حول ما يحدث في بوتومايو.

كانا يجلسان على الشرفة الضيقة المؤدية إلى حجرة نوم كيسمنت، وعلى المنضدة الصغيرة، قبالة المقعد الخشبي الذي يجلسان عليه، كان هناك إبريق عصير بابايا وكأسان. لقد جرى التعاقد مع إبونيم توماس كامبل قبل سبع سنوات في بريدجتاون، عاصمة باربادوس، مع ثمانية عشر شخصاً آخر من باربادوس، وكان التعاقد مع السيد ليثاردو آرانا، شقيق دون خوليو سيسر، من أجل العمل كرئيس فريق عمال في إحدى محطات بوتومايو. وهناك بالذات بدأ الخداع، لأنهم عند التعاقد معهم لم يخبروهم بأنهم سيكرسون شطراً كبيراً من وقتهم لـ «الغارات».

ـ اشرح لي ما هي الـ «الغارات» ـ قال كيسمنت.

الخروج لاصطياد هنود من قراهم كي يأتوا لجمع المطاط في أراضي الشركة. أي نوع من الهنود. سواء من أبناء الهويتوتو، أو الأوكايما، أو المويمنان، أو النونويا، أو الأندوكي، أو الريزيغارو، أو البورا. أي هنود يتواجدون في المنطقة. لأنهم جميعهم كانوا يمانعون في جمع «**الخيبي**». ولا بد من إجبارهم. وكانت «الغارات» تتطلب القيام بحملات طويلة جداً، دون الحصول على أي نتيجة أحياناً. يصلون ويجدون القرى مقفرة. يكون ساكنوها قد هربوا. وفي أحيان أخرى لا يكون الأمر كذلك لحسن الحظ. ينقضّون على الهنود بإطلاق الرصاص من أجل إخافتهم ومنعهم من الدفاع عن أنفسهم، ولكن بعضهم يدافع عن نفسه بسهام ثرباتاناتهم وهراواتهم. ينشب صراع. وبعد ذلك يتوجب اقتياد القادرين منهم على المسير مقيدين من أعناقهم، رجالاً ونساء، أما المسنون وحديثو الولادة فيُتركون كيلا يعرقلوا المسير. لم يقترف إبونيم قط أعمال القسوة المجانية التي يقترفها آرماندو نورماند، على الرغم من أنه عمل تحت إمرته سنتين في محطة ماتاناس التي كان السيد نورماند رئيسها.

ـ أعمال قسوة مجانية؟ ـ قاطعه روجر ـ أخبرني ببعض الأمثلة.

تململ إبونيم على المقعد الخشبي بقلق. وتراقصت عيناه الكبيرتان في محجريهما الأبيضين.

ـ لقد كانت للسيد نورماند تصرفاته المفرطة في الشذوذ ـ تلعثم مخفضاً بصره ـ فعندما يتصرف أحد الهنود بصورة سيئة، أو بكلمات

أصح، عندما لا يتصرف مثلما يأمل هو منه. يقوم بإغراق أبنائه في النهر مثلاً. يقوم بذلك بنفسه. أعني بيديه بالذات.

توقف قليلاً، ثم أوضح أن تصرفات السيد نورماند الشاذة كانت تستثير أعصابه. وأنه يمكن انتظار أي شيء من مثل ذلك الشخص غريب الأطوار، بما في ذلك أن تأتيه نزوة إفراغ مسدسه في أقرب شخص إليه. ولهذا طلب أن ينقلوه إلى محطة أخرى. وحين نقلوه إلى محطة أولتيمو ريتيرو، وكان رئيسها السيد ألفريدو مونت، صار إبونيم ينام بطمأنينة أكبر.

ـ هل كان عليك أن تقتل هنوداً ذات مرة أثناء ممارستك وظيفتك؟

رأى روجر أن عيني الباربادوسي تنظران إليه، وتتهربان ثم تعاودان النظر.

ـ يشكل جزءاً من العمل ـ أكد وهو يهز كتفيه ـ من عمل رؤساء العمال و«الشباب»، ممن يسمونهم كذلك «العقلاء». الدم يسيل بغزارة في بوتومايو. وينتهي الأمر بالناس إلى أن يعتادوا عليه. الحياة هناك قتل وموت.

ـ أيمكن لك أن تخبرني كم من الأشخاص قتلت يا سيد توماس؟

ـ لم أحفظ الحساب قطّ ـ رد إبونيم بتسرع ـ كنت أقوم بالعمل الذي عليّ القيام به وأحاول طي الصفحة. لقد قمت بواجبي. ولهذا أؤكد أن الشركة أساءت التصرف معي.

استغرق في مونولوج طويل ومضطرب ضد مشغليه السابقين. لقد اتهموه بالتورط في بيع خمسين من هنود الهويتوتو إلى شركة جمع مطاط كولومبية، شركة السادة إيريارتي الذين تخوض شركة السيد آرانا

صراعاً دائماً معهم على الأيدي العاملة. وكان اتهاماً كاذباً. وإبونيم يقسم ويعيد القسم إنه لا علاقة له باختفاء أولئك الهنود من محطة أولتيمو ريتيرو، والذين عُرف بعد ذلك أنهم ظهروا وهم يعملون لمصلحة الكولومبيين. من باعهم هو رئيس المحطة نفسه، ألفريدو مونت. إنه شخص جشع وبخيل. ومن أجل إخفاء ذنبه وجه التهمة إليه وإلى دايتون كرانتون وسيمباد دوغلاس. محض افتراءات. وقد صدقته الشركة واضطر رؤساء العمال الثلاثة إلى الهرب. لقد مروا بمصاعب رهيبة من أجل الوصول إلى إيكيتوس. فقد أصدر مديرو الشركة، هنا في بوتومايو، الأمر إلى «العقلاء» بقتل الباربادوسيين الثلاثة حيث يجدونهم. والآن يعيش إبونيم ورفيقاه على التسول وبعض الأعمال الطارئة. والشركة ترفض أن تدفع لهم ثمن تذاكر العودة إلى باربادوس. ورفعت ضدهم شكوى بهجر العمل وقاضي إيكيتوس أعطى الحق لشركة آرانا طبعاً.

وعده روجر بأن تتولى حكومته إعادته ورفيقيه إلى موطنهم، باعتبارهم مواطنين بريطانيين.

ذهب للاستلقاء على سريره مستنفداً فور وداعه إبونيم توماس كامبل. كان يتعرق، يؤلمه جسده، ويشعر بضيق متواتر راح يعذبه شيئاً فشيئاً، عضواً فعضواً، من الرأس حتى القدمين. الكونغو. الأمازون. ألا توجد حدود لمعاناة البشر؟ العالم موبوء بمحابس وحشية كتلك التي تنتظره في بوتومايو. كم يوجد منها؟ مئات، آلاف، ملايين؟ أيمكن هزيمة هذه «الهيدرا»؟ يُقطع رأسها في مكان فيعود للظهور في مكان آخر، أشد دموية وفظاعة. وغلبه النعاس.

حلم بأمه، في مكان ما من الغال. كانت تلمع شمس خفيفة ومتهربة بين أوراق أشجار السنديان العالية، ومهتاجاً، مع خفقان، رأى الفتى ذا العضلات الذي صوَّره في ذلك الصباح على رصيف إيكيتوس النهري. ما الذي يفعله الفتى في تلك البحيرة الغيليّة؟ أم تراها بحيرة أيرلندية في ألستر؟ اختفت قامة آن جيفسون الممشوقة. لم يكن هياجه بسبب الحزن والشفقة اللذين تشتثيرهما فيه تلك البشرية المستعبدة في بوتومايو، وإنما بسبب الإحساس بأن آن جيفسون، وإن كان لا يراها، تمضي هناك وترصده من خلال ذلك الدغل الدائري. ومع ذلك لم يخفف الخوف من حدة التهيج المتعاظم الذي يرى به فتى إيكيتوس يقترب. كان صدر الفتى مبللاً بماء البحيرة التي انبثق منها للتو مثل إله بحري. ومع كل خطوة كانت عضلاته تزداد بروزاً، وعلى وجهه ابتسامة وقحة جعلته يرتعش ويئن في الحلم. وعندما استيقظ، تبين له بقرف أنه قد قذف منيه. اغتسل واستبدل البنطال والسروال الداخلي. كان يشعر بالخجل وعدم الثقة.

وجد أعضاء اللجنة مضطربين من الشهادات التي تلقوها للتو من الباربادوسيين دايتون غرانتون وسيمباد دوغلاس. فقد كان رئيسا العمال فجّين في أقوالهما مثلما كان إبونيم مع روجر كيسمنت. وأشد ما أرعب أعضاء اللجنة هو أن دايتون وسيمباد يبدوان مهوسيين، أولاً وقبل أي شيء، بتكذيب تهمة إنهم هم من «باعوا» أولئك الخمسين من هنود الهويتوتو إلى تجار المطاط الكولومبيين.

- إنهما لا يبديان أدنى اهتمام بأعمال الجلد بالسياط وبتر الأطراف والقتل - يكرر عالم النبات والتر فوك الذي بدا أنه لا يشك في الشر

الذي يستثيره الجشع ـ فكل تلك الفظائع تبدو لهما من أكثر الأمور طبيعية في العالم.

ـ أنا لم أستطع تحمل أقوال سيمباد كلها ـ اعترف هنري فيلجارلد ـ اضطررتُ إلى الخروج للتقيؤ.

ـ لقد قرأتم الوثائق التي جمعتها وزارة الخارجية ـ ذكّرهم روجر كيسمنت ـ أكنتم تظنون أن اتهامات سالدانيا روكا وهاردنبرغ ليست إلا تخيلات؟

ـ ليس تخيلات ـ ردّ والتر فوك ـ ولكننا ظننا أنها مبالغات.

ـ إنني أتساءل، بعد هذه المقبلات الأولية، ما الذي سنجده في بوتومايو ـ قال لويس بارنس.

ـ لا بد أن يكونوا قد اتخذوا احتياطات ـ قال عالم النبات ـ سيعرضون علينا واقعاً مُجَمَّلاً وممكيجاً.

قاطعهم القنصل ليخبرهم أن الغداء جاهز. وباستثنائه هو الذي أكل بشيهة سمكة سابالو مع سلطة ملفوفة برقائق الرز، لم يكد أعضاء اللجنة أن يتذوقوا لقمة واحدة. كانوا صامتين ومستغرقين في المقابلات التي أجروها قبل قليل.

ـ هذه الرحلة ستكون نوعاً من النزول إلى الجحيم ـ تنبأ سيمور بيل الذي انضم للتو إلى الجماعة. ثم التفت إلى روجر كيسمنت ـ لقد مررت حضرتك بتجربة مماثلة. يمكن للمرء البقاء حياً إذاً.

ـ التئام الجراح يتأخر طويلاً ـ حدّد روجر.

ـ ليس إلى هذا الحدّ أيها السادة ـ حاول مستر ستيرز رفع

معنوياتهم، وكان قد أكل بمزاج طيب ـ فلتناموا قيلولة لوريتانية جيدة، وستشعرون بالتحسن. التعامل مع السلطات ومع رؤساء شركة الأمازون البيروية سيكون أفضل من التعامل مع هؤلاء الزنوج، ولسوف ترون.

وبدلاً من أن ينام قيلولة، ظل روجر جالساً على المنضدة الصغيرة التي إلى جانب السرير في حجرته، ودَوَّن في دفتر ملاحظاته كل ما يتذكره من محادثته مع إبونيم توماس كامبل وقام باختصار الشهادات التي جمعها أعضاء اللجنة من الباربادوسيين الآخرين. وبعد ذلك، وعلى ورقة منفصلة، سجل الأسئلة التي سيوجهها في المساء إلى المحافظ ريّ لاما ومدير الشركة بابلو ثومايتي الذي هو صهر خوليو س. آرانا.

استقبل المحافظ اللجنة في مكتبه وقدم لأعضائها كؤوس بيرة، وعصير فاكهة، وفناجين قهوة. وكان قد أمر بإحضار كراسٍ ووزع عليهم مراوح يدوية من القش كي يهووا بها. كان لا يزال ببنطال ركوب الخيل والجزمة التي ينتعلها في اليوم السابق، ولكنه لا يرتدي السترة المطرزة، وإنما جاكيت كتان بيضاء وقميصاً مغلقاً حتى العنق، مثل الصدارات الروسية. بدا متأنق المظهر ولبق الأساليب. أخبرهم أنه دبلوماسي في المهنة. وأنه خدم عدة سنوات في أوروبا وتولى وظيفة المحافظ هذه بطلب مُلح من رئيس الجمهورية بالذات ـ وأشار إلى صورة على الجدار لرجل ضئيل وأنيق، يرتدي فراك وبرنيطة كبيرة، مع وشاح ثلاثي الألوان على صدره ـ، الرئيس أغسطو ب. ليغيا.

ـ والذي يرسل إليكم من خلالي تحياته القلبية ـ أضاف.

ـ يا لروعة أنك تتكلم الإنكليزية ويمكننا التخلي عن المترجم أيها السيد المحافظ ـ أجابه كيسمنت.

ـ إنكليزيتي سيئة جداً ـ قاطعه ريّ لاما بتغنج ـ ولا بد أن حضرتك متسامح جداً.

ـ تأسف الحكومة البريطانية لأن طلباتها إلى حكومة الرئيس ليغيا ببدء تحقيق حول الشكاوى في بوتومايو لم تلقَ استجابة.

ـ هنالك عمل قضائي قد انطلق يا سيد كيسمنت ـ قاطعه المحافظ ـ وحكومتي ليست بحاجة إلى جلالته من أجل البدء. لقد عينت الحكومة قاضياً خاصاً للمهمة وهو آت في الطريق إلى إيكيتوس. إنه حقوقي متميز: القاضي كارلوس آ. بالكارثل. حضرتك تعرف أن المسافة بين ليما وإيكيتوس هائلة جداً.

ـ لماذا إرسال قاض من ليما في هذه الحالة ـ تدخل لويس بارنس ـ ألا يوجد قضاة في إيكيتوس؟ يوم أمس، في العشاء الذي أقمته لنا، عرفتنا على بعض القضاة.

انتبه روجر كيسمنت إلى أن ريّ لاما يوجه نظرة مشفقة إلى بارنس، نظرة يستحقها طفل لم يبلغ سن الرشد أو بالغ أبله.

ـ هذه المحادثة سرّية، أليس كذلك أيها السادة؟ ـ سأل أخيراً.

هز الجميع رؤوسهم بالإيجاب. ولكن المحافظ تردد مع ذلك قبل أن يجيب.

ـ إرسال حكومتي قاضياً من ليما للتحقيق هو دليل على حسن نواياها ـ أوضح ـ فقد كان من الأسهل الطلب من قاضي تحقيق محلي أن يتولى القضية. ولكن، عندئذ. . .

صمتَ قلقاً. ثم أضاف:

- واللبيب يفهم بقليل الكلام.

- أتعني أنه لا وجود لقاضٍ واحد في إيكيتوس يتجرأ على مواجهة شركة السيد آرانا؟ - سأله روجر كيسمنت بنعومة.

- هنا ليس إنكلترا المثقفة والمزدهرة أيها السادة - دمدم المحافظ بضيق. كان يحمل كأس ماء في يده وشربها دفعة واحدة -. إذا كان الشخص العادي يحتاج شهوراً كي يصل من ليما إلى هنا، فإن رواتب القضاة، والسلطات، والعسكريين، والموظفين، تتأخر أكثر من ذلك. أو أنها لا تصل أبداً بكل بساطة. وكيف يمكن لهؤلاء الناس أن يعيشوا وهم ينتظرون رواتبهم؟

- أيعيشون على كرم شركة الأماون البيروية؟ - سأل عالم النبات والتر فولك.

- لا تضع على لساني كلمات لم أقلها - ردّ عليه ريّ لاما وهو يرفع يده -. شركة السيد آرانا تقدم الرواتب للموظفين كقروض. وهذه المبالغ يجب أن تعاد، مبدئياً، مع فائدة متواضعة. إنها ليست هدية. لا وجود لرشوة. إنه اتفاق نزيه مع الدولة. ولكن، ومع ذلك، من الطبيعي أن قضاة يعيشون بفضل تلك القروض لن يكونوا محايدين تماماً في التعامل مع شركة السيد آرانا. أنتم تتفهمون الأمر، أليس كذلك؟ والحكومة أرسلت قاضياً من ليما بهدف إجراء تحقيق مستقل بصورة مطلقة. أليس هذا أفضل دليل على أنها تسعى إلى تحري الحقيقة؟

شرب أعضاء اللجنة من كؤوسهم ماءً أو بيرة، وقد أصابهم التشوش وفقدان الهمة. «كم منهم بدأ البحث عن ذرائع للعودة إلى أوروبا؟»،

فكر روجر. لا شك في أنهم ما كانوا يتوقعون شيئاً من ذلك. ربما لم يتصور أحد منهم، باستثناء لويس بارنس الذي عاش في أفريقيا، أن الأمور في بقية أنحاء العالم لا تدور بالطريقة نفسها التي تدور بها في الإمبراطورية البريطانية.

ـ هل هنالك سلطات في المنطقة سنزورها؟ ـ سأله روجر.

ـ لا أحد، باستثناء مفتشين يمرون من هنا بسبب موت مطران ـ قال ريّ لاما ـ. إنها منطقة نائية جداً. وقد كانت غابات عذراء إلى ما قبل سنوات قليلة، تسكنها قبائل متوحشة وحسب. فأي سلطات يمكن للحكومة أن ترسلها؟ ولماذا؟ ألكي يأكلهم آكلة لحوم البشر؟ وإذا صارت توجد هنا حياة تجارية، وعمل، وبداية حداثة، فإن الفضل يعود إلى خوليو س. آرانا وإخوته. يجب أن تأخذوا هذا كله بعين الاعتبار أيضاً. إنهم أول من فتح هذه الأراضي للبيرو. ولولا الشركة لكانت كولومبيا احتلت مناطق بوتومايو كلها، وكانت لديها رغبة كبيرة بهذه المنطقة. لا يمكنكم تجاهل هذا الجانب أيها السادة. بوتومايو ليست إنكلترا. إنها عالم معزول، ناءٍ، عالم أناس وثنيين إذا ما ولد لهم توءم، أو وليد مشوه جسدياً، يُغرقونه في النهر. لقد كان خوليو س. آريا رائداً، جلب إلى هنا بالسفن، والأدوية، والديانة الكاثوليكية، والملابس، واللغة الإسبانية. أعمال التعسف يجب أن تُعاقب بكل تأكيد. ولكن لا تنسوا أن الأمر يتعلق بأراضٍ توقظ الجشع. ألا يبدو لكم غريباً أن جميع البيروبين العاملين بجمع المطاط، في اتهامات السيد هاردنبرغ، هم مسوخ، وأن الكولومبيين ملائكة تملؤهم الشفقة نحو السكان الأصليين؟ أنا قرأت مقالات مجلة *الحقيقة*. ألا يبدو لكم

ذلك غريباً؟ يا لمصادفة أن الكولومبيين الساعين للاستيلاء على هذه الأراضي قد وجدوا مدافعاً عنهم مثل السيد هاردنبرغ الذي لم يرَ عنفاً وتعسفاً إلا عند البيرويين، دون أي حالة مشابهة لدى الكولومبيين. لقد عمل قبل مجيئه إلى البيرو في مدّ سكك حديد كاوكا، تذكروا ذلك. ألا يمكن التعامل معه كعميل؟

لهث منهوكاً، ثم اختار أن يرشف جرعة من البيرة. نظر إليهم، واحداً واحداً، نظرة بدت كأنها تقول: «نقطة لصالحي، أليس كذلك؟».

ـ جلد بالسياط، بتر أطراف، عمليات اغتصاب، أعمال قتل ـ دمدم هنري فيلجارد ـ هل تسمي هذا كله نقل الحداثة إلى بوتومايو أيها السيد المحافظ؟ ليس هاردنبرغ وحده من قدم شهادة. بل مواطنك سالدانيا روكا أيضاً. وثلاثة باربادوسيين استجوبناهم صباح اليوم وأكدوا تلك الفظائع. وقد اعترفوا بأنهم هم أنفسهم قد اقترفوها.

ـ يجب أن يعاقبوا إذاً ـ أكد المحافظ ـ. وكان يمكن أن يعاقبوا لو أن في بوتومايو قضاة وشرطة وسلطات. وحتى الآن لا وجود لشيء اللهم سوى الهمجية. أنا لا أدافع عن أحد. لا أعذر أحداً. اذهبوا. شاهدوا بأعينكم. احكموا بأنفسكم. كان بإمكان حكومتي أن تمنعكم من دخول البيرو، فنحن بلد ذو سيادة ولا يحق لبريطانيا التدخل في شؤوننا. ولكن الحكومة لم تمنعكم. بل على العكس، وجهت إليّ التعليمات بتوفير كافة التسهيلات لكم. الرئيس ليغيا من أشد المعجبين بإنكلترا أيها السادة. ولهذا أنتم هنا، لديكم الحرية بالذهاب إلى أي مكان والتحري عن كل شيء.

هطل المطر فجأة بغزارة. خفت الضوء وكان قرع الماء على صفيح

السطح قوياً إلى حدّ بدا معه أن السقف سينهار وأن مضخات ماء ستنسكب عليهم. وكان ريّ لاما قد اتخذ ملامح سوداوية.

ـ لدي زوجة وأربعة أبناء أعبدهم ـ قال بابتسامة حزينة ـ. منذ عام لم أرهم والله وحده يعلم إن كنت سأراهم من جديد. ولكن عندما طلب مني الرئيس ليغيا أن أجيء لخدمة بلادي، في هذا الركن القصي من العالم، لم أتردد. لستُ هنا للدفاع عن مجرمين أيها السادة. بل على العكس تماماً. أطلب منكم فقط أن تتفهموا أن العمل والتجارة وإقامة صناعة في قلب الأمازون ليس مماثلاً لعمل ذلك في إنكلترا. وإذا ما وصلت هذه الأدغال ذات يوم إلى مستوى حياة أوروبا الغربية فإن الفضل سيكون لرجال من أمثال خوليو س آرانا.

ظلوا لفترة لا بأس بها في مكتب المحافظ. وجهوا إليه كثيراً من الأسئلة، وأجاب عليها كلها، بطريقة متهربة أحياناً وبجفاء في أحيان أخرى. لم يتوصل روجر كيسمنت إلى تكوين فكرة واضحة عن تلك الشخصية. ففي بعض اللحظات يبدو له وقحاً يمثل عليهم، وفي أحيان أخرى يبدو رجلاً طيباً، يتحمل مسؤولية مرهقة يحاول الخروج منها بأفضل طريقة ممكنة. ولكن هناك أمراً مؤكداً: رويّ لاما يعرف أن الفظائع موجودة وهي لا تروقه، لكن عمله يتطلب منه التقليل من شأنها قدر ما يستطيع.

عندما ودعوا المحافظ كان المطر قد توقف. أما في الشارع فمازالت أسطح البيوت تقطر ماء، وكانت هناك برك في كل مكان تتقافز فيها الضفادع، بينما امتلأ الهواء بالزنابير والبعوض التي لاحقتهم بلسعاتها. توجهوا مطأطئي الرؤوس وصامتين نحو شركة الأمازون

البيروية، وهي دار فسيحة سقفها من القرميد وأمام واجهتها التي من الخزف كان ينتظرهم المدير العام بابلو ثومايتا من أجل اللقاء الأخير هذا اليوم. تبقت لديهم بضع دقائق، فقاموا بجولة في ساحة السلاح. تأملوا بفضول البيت المعدني الذي صممه غوستاف إيفل بأجزائه الحديدية الموزعة على الأرض في العراء، مثل هيكل حيوان من حيوانات ما قبل الطوفان. كانت البارات والمطاعم المحيطة قد فتحت أبوابها وبدأ الغناء والصخب يدويان في غروب إيكيتوس.

شركة الأمازون البيروية، في شارع البيرو، على بعد أمتار قليلة من ساحة السلاح، هي أكبر الأبنية وأشدها متانة في إيكيتوس. مؤلفة من طابقين، ومشيدة بالاسمنت والصفائح المعدنية، جدرانها مطلية بالأخضر الفاتح، وفي القاعة المجاورة لمكتبه حيث استقبلهم بابلو ثومايتا، توجد مروحة ذات أذرع خشبية عريضة تتدلى من السقف دون حراك، بانتظار الكهرباء. وعلى الرغم من شدة الحر، كان السيد ثومايتا، وهو يقارب الخمسين من العمر، يرتدي بدلة قاتمة مع صديري مزركش، وربطة عنق وحذاء لامع. مدّ يده باحتفالية مصافحاً كل واحد منهم، وكان يسألهم جميعاً، بإسبانية موسومة بلكنة الأمازون الغنائية التي تعلم روجر كيسمنت التعرف إليها، عما إذا كانوا ينعمون بإقامة مريحة، وإذا كانت مدينة إيكيتوس مضيافة معهم، وإذا كانوا بحاجة لأي شيء. وكرر للجميع بأن لديه أوامر وصلته بالبرق من لندن، أرسلها السيد خوليو س. آرانا شخصياً، لتقديم كافة التسهيلات لهم من أجل إنجاح مهمتهم. وعند ذكر اسم آرانا، كان مدير شركة الأمازون البيروية ينحني باحترام للصورة الكبيرة المعلقة على أحد الجدران.

وبينما كان خدم هنود حفاة وبجلابيب بيضاء يدورون بصواني مشروبات، تأمل كيسمنت للحظات صورة صاحب شركة الأمازون البيروية: الوجه الجدّي، المربع، الأسمر، بعينيه النفاذتين. رأس آرانا مغطى بقبعة فرنسية (*le béret*) وتبدو بدلته مفصلة على يد أحد الخياطين الباريسيين الجيدين، أو ربما عند سافيل روو اللندني. أيكون ممكناً أن ملك الكاتشوك هذا، وصاحب دور اللهو في بياريتس، وجنيف وكينغستون رود اللندنية، قد بدأ حياته في بيع قبعات القش في شوارع ريوخا، الضيعة المنسية في الأدغال الأمازونية، حيث ولد؟ نظرته تكشف وعياً جيداً ورضى كبيراً عن النفس.

أخبرهم بابلو ثومايتا، من خلال المترجم، أن السفينة ***ليبرال***، وهي الأفضل لدى الشركة، جاهزة ليبحروا بها. وقد وضع تحت تصرفهم أمهر القباطنة وأوسعهم خبرة بأنهار منطقة الأمازون ومعه أفضل طاقم من البحارة. ومع ذلك، فإن الإبحار حتى بوتومايو يتطلب منهم تضحيات. سيحتاجون من ثمانية حتى عشرة أيام، حسب المناخ. وقبل أن يُتاح الوقت لأي من أعضاء اللجنة لتوجيه سؤال، سارع إلى تقديم كومة أوراق في محفظة إلى روجر كيسمنت:

ـ لقد أعددتُ لكم هذه الوثائق مستبقاً بعض مخاوفكم ـ أوضح ـ. إنها تعليمات الشركة للمديرين، ورؤساء الأقسام، ومعاونيهم، ورؤساء فرق العمل في المحطات في ما يتعلق بالتعامل مع العاملين.

كان ثومايتا يداري عصبيته برفع الصوت والإيماء بيديه. وبينما هو يعرض الأوراق الممتلئة بكتابات وطوابع وتواقيع، كان يعدد ما تتضمنه بنبرة وإيماءات خطيب في ميدان صغير:

ـ منع خطي لتطبيق عقوبات جسدية على السكان الأصليين وزوجاتهم وأبنائهم وأتباعهم، أو الإساءة إليهم بكلام أو فعل؛ بل توبيخهم ونصحهم بطريقة صارمة عندما يقترفون خطأ مُثبتاً. ووفق خطورة الخطأ، يمكن أن يُغرموا، أو أن يُفصلوا من العمل في حالة الخطأ الخطير جداً. وإذا كان للخطأ دلالة جرمية، يجري تسليمهم إلى أقرب سلطة مختصة.

تأخر في تلخيص التعليمات الموجهة لتجنب اقتراف «أعمال تعسف ضد الوطنيين» ـ مثلما كان يكرر ـ. ويتوقف كي يشرح «بما أن الكائنات البشرية هي كائنات بشرية»، فإن الموظفين يخرقون هذه التوجيهات أحياناً. وحين يحدث ذلك، تعاقب الشركة المسؤول عن الخرق.

ـ المهم أننا نفعل كل ما هو ممكن ومستحيل للحيلولة دون اقتراف التعسف في مواقع جمع المطاط. وإذا ما اقتُرفت، وهو أمر استثنائي، إنما تكون من فعل شخص ضال لم يحترم سياستنا بشأن السكان الأصليين.

جلس في مقعده. لقد تكلم كثيراً وبحماسة شديدة جعلته يبدو مستنفداً. مسح العرق عن وجهه بمنديل مبتل مسبقاً.

ـ هل سنجد في بوتومايو رؤساء المحطات الذين جرّمهم سالدانيا روكا والمهندس هاردنبرغ أم أنهم هربوا؟

ـ لم يهرب أي من موظفينا ـ غضب مدير شركة الأمازون البيروية ـ ولماذا سيهربون؟ بسبب افتراءات شخصين ابتزازيين لم يتمكنا من الحصول على أموال منا فاختلقا تلك الأكاذيب المشينة؟

ـ بتر أطراف، قتل، جلد بالسياط ـ عدد روجر كيسمنت ـ.

لعشرات، وربما مئات الأشخاص. إنها اتهامات هزت مشاعر العالم المتحضر بأسره.

ـ إنها ستهز مشاعري أيضاً لو أنها حدثت ـ اعترض بابلو ثومايتا ساخطاً ـ. وما يهز مشاعري الآن هو أن أناساً مثقفين وأذكياء مثل حضراتكم يصدقون مثل هذه التلفيقات دون تحقيق مسبق.

ـ سنقوم بالتحقيق على أرض الواقع ـ ذكّره روجر كيسمنت ـ. وكن على ثقة من أنه سيكون تحقيقاً جدياً جداً.

ـ هل تظن حضرتك أن آرانا، وأنا، وإداريي شركة الأمازون البيروية أناسٌ انتحاريون كي نقتل وطنيين محليين؟ ألا تعلم أن مشكلة تجار الكاوتشوك الأولى هي نقص جامعي المطاط؟ كل عامل هو شيء ثمين بالنسبة إلينا. ولو كانت هذه المذابح حقيقية لما بقي هندي واحد في بوتومايو. كانوا سيبتعدون كلهم، أليس هذا صحيحاً؟ فلا أحد يرغب في العيش حيث يجلدونه ويبترون أطرافه ويقتلونه يا سيد كيسمنت. وإذا هرب السكان الأصليون فسوف يحل بنا الإفلاس وستغرق صناعة المطاط. هذا أمر يعرفه موظفونا هناك. ولهذا يبذلون جهدهم لإبقاء المتوحشين سعداء.

نظر إلى أعضاء اللجنة، فرداً فرداً. كان ساخطاً طيلة الوقت، ولكنه الآن يبدو حزيناً أيضاً. يقوم بتكشيرات تبدو زعلاً.

ـ ليس من السهل معاملتهم بالحسنى وإرضاءهم ـ اعترف خافضاً صوته ـ إنهم بدائيون. أتعرفون ما يعنيه هذا؟ بعض القبائل هي من آكله لحوم البشر. لا يمكننا السماح بذلك، أليس كذلك؟ فهذا ليس تصرفاً مسيحياً، وليس إنسانياً. نمنع ذلك فيغضبون أحياناً ويتصرفون مثلما

هم: متوحشون. هل علينا أن نتركهم يُغرقون الأطفال الذين يولدون مشوهين؟ الشفة الأرنبية مثلاً. لا، لأن قتل الأطفال ليس أمراً مسيحياً، أليس كذلك؟ وباختصار، سترون ذلك بعيونكم. عندئذ ستدركون الجور الذي تقترفه إنكلترا بحق السيد خوليو س. آرانا وبحق شركة قامت بتضحيات هائلة من أجل تغيير هذه البلاد.

ظن روجر كيسمنت أن بابلو ثومايتا سيذرف بعض الدموع. ولكنه أخطأ في ظنه. فقد وجه إليه المدير العام ابتسامة ودودة.

ـ لقد تكلمتُ كثيراً والآن جاء دوركم ـ قال معتذراً ـ. اسألوني ما تشاؤون وسأردّ على أسئلتكم بصراحة. ليس لدينا ما نخفيه.

خلال قرابة الساعة استجوب أعضاء اللجنة مدير عام شركة الأمازون البيروية. وكان يرد عليهم بسحبات طويلة تبلبل المترجم أحياناً فيطلب منه إعادة كلمات أو جمل. لم يتدخل روجر في الاستجواب بل إنه سها في لحظات كثيرة. كان واضحاً أن ثومايتا لن يقول الحقيقة قطّ، وسينكر كل شيء، ويكرر الحجج التي ردت بها شركة آرانا في لندن على انتقادات الصحف. ربما هنالك تجاوزات ما ارتكبها أفراد متمادون، لكن التعذيب ليس سياسة متبعة في شركة الأمازون البيروية، ولا الاستعباد، وأقل من ذلك بكثير قتل السكان الأصليين. فالقانون يحظر ذلك، وممارسة هذه الأمور عمل مجانين يُرهبون الأيدي العاملة التي تتناقص كثيراً في بوتومايو. أحس روجر بأنه ينتقل في الزمان والمكان إلى الكونغو. الفظائع نفسها، وازدراء الحقيقة نفسه. والفرق هو أن ثومايتا يتكلم الإسبانية بينما الموظفون البلجيكيون يتكلمون الفرنسية. وفي الحالتين ينكرون بوقاحة ما هو جلي لأن كليهما يؤمن

بأن جمع المطاط وكسب المال هو مثل أعلى للمسيحيين يسوغ الإساءات ضد أولئك الوثنيين الذين هم على الدوام، طبعاً، أكلة لحوم بشر وقتلة لأبنائهم بالذات.

عندما خرجوا من مقر شركة الأمازون البيروية رافق روجر زملاءه حتى البيت الذي استضافوهم فيه. وبدل أن يعود فوراً إلى بيت القنصل البريطاني، قام بجولة في إيكيتوس دون وجهة محددة. فقد كان يحب المشي دوماً، وحيداً أو برفقة صديق، عند بدء النهار أو انتهائه. يمكنه عمل ذلك لساعات، ولكنه في شوارع إيكيتوس غير المرصوفة يتعثر بكثرة في حفر أو برك مملوءة بالماء، تنق فيها الضفادع. كان الصخب هائلاً. بارات، مطاعم، مواخير، صالات رقص، وأوكار قمار ورهان تغص بأناس يشربون أو يأكلون أو يرقصون أو يتجادلون. وأمام كل الأبواب جماعات صبية شبه العراة يتلصصون. رأى اختفاء حُمرة الغسق الأخيرة في الأفق وأكمل المشي في الظلام، عبر شوارع مضاءة بصورة متقطعة بمصابيح البارات. وانتبه إلى أنه وصل إلى تلك الحلبة المربعة التي تحمل اسم ساحة السلاح الفضفاض. قام بجولة حولها وانتبه فجأة إلى أن شخصاً، يجلس على مقعد قد حيَّاه بالبرتغالية: «*Boa noite* سيد كيسمنت». إنه الأب ريكاردو أوويتا، كبير رهبان طائفة الأغوسطونيين في إيكيتوس الذي تعرف إليه في عشاء بيت المحافظ. جلس إلى جانبه على المقعد الخشبي.

ـ عندما لا يهطل المطر، يكون الخروج مبهجاً لرؤية النجوم واستنشاق قليل من الهواء البارد ـ قال الأغسطوني بالبرتغالية ـ. على أن يغلق أحدنا أذنيه كيلا يسمع هذا الصخب الجهنمي. لا بد أنهم حدّثوكَ

عن هذا البيت الحديدي الذي اشتراه تاجر مطاط نصف مجنون من أوروبا، وهم يعيدون تركيبه في هذا الركن. يبدو أنه عُرض في باريس، في المعرض الكبير عام ١٨٨٩. يقولون إنه سيصير نادياً اجتماعياً. أتتصور هذا الفرن، بيتاً من المعدن في مناخ إيكيتوس؟ إنه مازال حتى الآن مجرد مغارة للخفافيش. فهناك تنام عشرات الخفافيش معلقة من قوائمها.

طلب منه كيسمنت أن يتكلم بالإسبانية، وسيفهمه. ولكن الأب أوروتيا الذي أمضى أكثر من عشر سنوات بين الرهبان الأغسطونيين في سيارا بالبرازيل، فضل مواصلة التحدث بالبرتغالية. إنه في منطقة الأمازون البيروية منذ أقل من سنة.

ـ أعرف أنك لم تذهب قط إلى محطات السيد آرانا لجمع المطاط. ولكنك تعرف الكثير دون شك عما يحدث هناك. هل يمكنني أن أطلب رأيك؟ أيمكن أن تكون صحيحة تلك الاتهامات التي وجهها سالدانيا روكا ووالتر هاردنبرغ؟

تنهد الكاهن.

ـ يمكن أن تكون كذلك لسوء الحظ يا سيد كيسمنت ـ دمدم ـ. إننا هنا بعيدون جداً عن بوتومايو. ألف أو ألف ومئتا كيلومتر على الأقل. أجل، فعلى الرغم من أننا في مدينة فيها سلطات، ومحافظ، وقضاة، وعسكريون، وشرطة، إلا أننا نعرف الأمور التي تحدث هنا، فما الذي لا يمكن أن يحدث هناك حيث لا يوجد سوى موظفي الشركة؟

عاد يتنهد، وفعل ذلك بغمّ الآن.

ـ المشكلة الكبرى هنا هي شراء وبيع بنات السكان الأصليين

الصغيرات ـ قال بصوت متأثر ـ. وعلى الرغم من مساعينا لمحاولة لإيجاد حلّ، إلا أننا لا نتوصل إليه.

«الكونغو مرة أخرى. الكونغو في كل مكان».

ـ هل سمعت حضرتك شيئاً عن «الغارات» الشهيرة ـ أضاف الكاهن ـ. تلك الهجمات على قرى السكان الأصليين من أجل اصطياد عمال لجني المطاط. المهاجمون لا يختطفون الرجال فقط. بل الأطفال والطفلات أيضاً. من أجل بيعهم هنا. في بعض الأحيان يأخذونهم إلى ماناو، حيث يحصلون على سعر أفضل كما يبدو. يمكن للأسرة في إيكيتوس أن تشتري خادمة بعشرين أو ثلاثين سولاً على الأكثر. ولدى جميع العائلات خادمة أو اثنتين وحتى خمس خادمات. إنهن عبيد في الواقع. يعملن نهاراً وليلاً، وينمن مع البهائم، ويُضربن لأي سبب، كما أنهن يستخدمن بالطبع في بدء أبناء الأسر ممارستهم الجنسية.

عاد إلى التنهد وظل يلهث.

ـ ألا يمكن عمل شيء مع السلطات؟

ـ بل يمكن، من حيث المبدأ ـ قال الأب أوروتيا ـ. فالعبودية ملغاة في البيرو منذ أكثر من نصف قرن. بالإمكان اللجوء إلى الشرطة أو القضاة. ولكن هؤلاء جميعهم لديهم كذلك خادماتهم المشتريات. ثم ما الذي ستفعله السلطات بالطفلات اللاتي تنقذهن. أن تُبقي عليهن أو تبيعهن بالطبع. وليس للعائلات دوماً. بل للمواخير في بعض الأحيان، من أجل ما يمكن أن تتصوره حضرتك.

ـ ألا توجد طريقة لإعادتهن إلى قبائلهن؟

ـ القبائل في هذه الأنحاء لم تعد موجودة تقريباً. فالآباء جرى

اختطافهم واقتيادهم إلى مواقع جمع المطاط. لا مكان لأخذهن تذهب إليه. ولماذا إنقاذ أولئك الصغيرات المسكينات؟ ففي هذه الظروف ربما يكون أهون الشرور تركهن عند العائلات. فبعضها يعاملهن معاملة حسنة، يتعاطفون معهن. أيبدو لك ذلك فظيعاً؟

ـ فظيعاً ـ كرر روجر كيسمنت.

ـ إنه يبدو لي، ولنا، فظيعاً أيضاً ـ قال الأب أوروتيا ـ إننا نقضي ساعات في مقر بعثتنا ونحن نفكر في الأمر. أي حلّ نقدم للمسالة؟ ولا نجد الحل. لقد قمنا ببعض المساعي، في روما، لعل بعض الراهبات يتمكن من المجيء وفتح مدرسة هنا لهؤلاء الصغيرات. ليتلقين بعض التعليم على الأقل. ولكن هل ستوافق العائلات على إرسالهن إلى المدرسة؟ قله منها قد توافق. فهم يتعبرونهن بهائم صغيرة.

عاد إلى التنهد. فقد تكلم بكثير من المرارة حتى إن روجر، وقد انتقلت إليه عدوى غمّ رجل الدين، أحس برغبة في العودة إلى بيت القنصل البريطاني. نهض واقفاً.

ـ أنت تستطيع فعل شيء يا سيد كيسمنت ـ قال له الأب أوروتيا، على سبيل الوداع، وهو يشد على يده ـ إن ما حدث أشبه بنوع من المعجزة. أعني تلك الشكاوى المنددة، والضجة في أوروبا. ومجيء هذه اللجنة إلى لوريتو. إذا كان هناك من قادرٍ على مساعدة هؤلاء الناس البائسين، فهو أنتم. سأصلي من أجل عودتكم سالمين ومعافين من بوتومايو.

رجع روجر ماشياً ببطء شديد، دون أن ينظر إلى ما يحدث في البارات والمواخير التي تخرج منها الأصوات والأغاني وعزف جيتارات

ناشز. كان يفكر في أولئك الأطفال المنتزعين من قبائلهم والمفصولين عن أسرهم، ويُشحنون في قاع مركب، ويؤتى بهم إلى إيكيتوس ليباعوا بعشرين أو ثلاثين سولاً لإحدى العائلات، حيث يقضون حياتهم في الكنس والجلي والطبخ وتنظيف المراحيض، وغسل الملابس، وتلقي الشتائم والضرب، وتمارس معهم أفعال تهتك على يد السيد أو أبناء السيد. إنها القصة الدائمة. القصة التي لا تنتهي.

IX

عندما انفتح باب الزنزانة رأى عند العتبة شبح *الشريف* السمين، فظن روجر كيسمنت أن لديه زيارة ـ ربما هي جي أو أليس ـ، ولكن بدل أن يطلب منه السجان أن ينهض ويتبعه إلى قاعة الزيارات، ظل ينظر إليه بطريقة غريبة، دون أن يقول شيئاً. ففكر «لقد رفضوا الالتماس». وظل منبطحاً، إذا ما نهض فسيجعله ارتجاف ساقيه ينهار على الأرض بكل تأكيد.

ـ أمازلتَ راغباً في دوش؟ ـ سأله صوت *الشريف* البارد والبطيء.

ففكر: «إنها رغبتي الأخيرة. وبعد الحمام إلى الجلاد».

ـ هذا مخالف للأنظمة ـ دمدم *الشريف* بشيء من التأثر ـ ولكن اليوم هو الذكرى السنوية الأولى لموت ابني في فرنسا. أريد أن أقدم عمل إحسان لذكراه.

ـ أشكرك ـ قال روجر وهو ينهض. أي ذبابة لسعت *الشريف*؟ منذ متى هذا اللطف في تعامله معه.

بدا له أن دماء أوردته التي تجمدت عند رؤية إطلالة السجان من باب الزنزانة، قد عادت للدوران في جسده. خرج إلى الممر الطويل الملطخ بالسواد وتبع السجان البدين إلى الحمام. إنه حيز مسوّر مظلم، فيه صف من المراحيض المثلمة بمحاذاة جدار، وصف من دوشات الاستحمام بمحاذاة الجدار المقابل، وأحواض صغيرة من الاسمنت غير المجصص مع مواسير صدئة تسكب الماء. ظل *الشريف* واقفاً عند مدخل المكان، بينما راح روجر يتعرى، ويعلق زي السجين الأزرق على مسمار في الجدار ويدخل تحت الدوش. أصابه دفق الماء بقشعريرة من رأسه حتى قدميه، وبعث فيه في الوقت نفسه إحساساً بالسعادة والامتنان. أغمض عينيه، وقبل أن يدعك نفسه بقطعة صابون التقطها من علبة مطاط معلقة بالجدار، بينما هو يفرك ذراعيه وساقيه، أحس بانزلاق الماء البارد على جسده. كان سعيداً ومهتاجاً. فبدفق الماء هذا لا تختفي الوساخة المتراكمة على بدنه لأيام عديدة، وإنما كذلك القلق والغمّ والندم. دعك جسمه بالصابون ونظفه لوقت طويل بالماء إلى أن أشار له *الشريف* من بعيد، بالتصفيق بيديه، أن يسرع. نشف روجر الماء بالملابس نفسها التي راح يرتديها. لم يكن لديه مشط، فسوى شعره بيديه.

ـ أنت لا تدري كم أنا ممتن لك من أجل هذا الحمام أيها *الشريف* ـ قال بينما هو يرجع إلى الزنزانة ـ لقد أعاد إليّ الحياة، والصحة.

فرد عليه السجان بهمهمة غير مفهومة.

وحين عاد للاستلقاء على سريره الضيق، حاول روجر العودة إلى

القراءة في *محاكاة يسوع* لتوماس دي كيمبس، ولكنه لم يتمكن من التركيز فأعاد وضع الكتاب على الأرض.

فكر في النقيب روبرت مونتيث، معاونه وصديقه في الشهور الستة الأخيرة في ألمانيا. رجل عظيم! وفيٌّ وعملي وبطولي. فقد كان رفيق سفره وعذابة في الغواصة الألمانية U-19 التي أوصلتهما مع الرقيب دانييل جوليان بيلي، الشهير بجوليان بيفيرلي، حتى ساحل تريلي بأيرلندا، حيث كان الثلاثة على وشك الموت غرقاً لعدم معرفتهم التجديف! هكذا يمكن لتفاهات صغيرة أن تختلط بقضايا عظيمة وتُحبطها. تذكر الفجر الرمادي الماطر، والبحر الهائج والضباب الكثيف في يوم الجمعة العظيمة ٢١ نيسان ١٩١٦، وهم الثلاثة في الزورق المزعزع ذي الثلاثة مجاديف الذي تركتهم فيه الغواصة الألمانية قبل أن تختفي وسط الضباب. «حظاً سعيداً»، صرخ بهم القبطان ريموند ويزباخ على سبيل الوداع. داهمه مجدداً الإحساس الرهيب بالعجز وهو يحاول تثبيت الزورق الجامح وسط الأمواج والارتجاج، وعدم قدرة المجاديف المرتجلة على تقويم اتجاهه نحو الشاطئ الذي لم يكن أي منهم يدري أين هو. كان المركب يدور، يعلو، يهبط، يطفر، يرسم دوائر متفاوتة القطر، ولأن أياً من الثلاثة لم يستطع السيطرة عليه، كانت الأمواج تصفع خاصرة الزورق وتهزه بطريقة يمكن لها أن تقلبه في أي لحظة. وقد قلبته بالفعل. وخلال بضع دقائق أوشك الثلاثة على الغرق. تخبطوا، ابتلعوا ماء مالحاً، إلى أن تمكنوا من إعادة تسوية وضع الزورق، وساعدوا بعضهم بعضاً على الركوب فيه من جديد. تذكر روجر رفيقه مونتيث الشجاع، بيده الملتهبة بعد الحادث الذي وقع له في ألمانيا، في مرفأ هليغولاند، وهو يحاول تعلم قيادة زورق ذي محرك.

لقد توقفوا هناك لتبديل الغواصة، لأن U-2 التي أبحروا بها من فيلهلمسافن أصيبت بعطل. عذبه ذلك الجرح طيلة أسبوع الرحلة بين هليغولاند وتريلي باي. وروجر الذي قام بالرحلة معانياً من دوار بحري وتقيؤ فظيعين، دون أن يتذوق لقمة أو يتحرك عن السرير الضيق، كان يتذكر صبر مونتيث الرواقي بجرحه المتورم. فموانع الالتهاب التي عالجه بها بحارة U-19 الألمان لم تفده في شيء. فقد واصلت يده التقيح، وتنبأ القبطان ويزباخ، قائد الغواصة U-19 أنه ما لم يُعالج بعد نزولهم إلى البر فوراً فإن ذلك الجرح سيصاب بالغرغرينا.

آخر مرة رأى فيها النقيب روبرت مونتيث كانت في أطلال ماكينز فورت، في فجر ذلك اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان، عندما قرر رفيقاه إبقاء روجر مختبئاً هناك، بينما يمضيان هما للبحث عن مساعدة لدى متطوعي تريلي. قررا ذلك لأنه هو من كان معرضاً أكثر منهما لخطر أن يتعرف عليه الجنود ـ فهو الطريدة المرغوبة أكثر من سواها لكلاب حراسة الإمبراطورية ـ ولأن روجر لم يكن قادراً على تحمل المزيد. فقد انهار، وهو مريض وضعيف، مرتين على الأرض مستنفداً، وظل في المرة الثانية فاقداً الوعي عدة دقائق. لقد تركه رفيقاه بين أطلال ماكينز فورت ومعه مسدس وحقيبة ملابس صغيرة، ثم صافحاه. تذكر روجر كيف فكر في أنه قد وصل إلى أيرلندا أخيراً، حين رأى القبرات تتطاير حوله وسمع غناءها واكتشف أنه محاط بالبنفسج البري الذي ينبثق على رمال شاطئ تريلي باي. امتلأت عيناه بالدموع. حياه النقيب مونتيث، عند انصرافه، تحية عسكرية. إنه ضئيل، متين البنية، رشيق، لا يكل، وطني أيرلندي حتى نقيّ العظام، وخلال الشهور الستة التي عاشاها معاً في ألمانيا لم يسمع روجر منه

شكوى واحدة ولم يلمح أدنى عارض وهن في معاونه، على الرغم من الإخفاقات ـ كيلا نقول العداء السافر ـ التي واجهها في معسكر ليمبورغ للمقاومة من جانب السجناء المدعوين للانضمام إلى اللواء الأيرلندي الذي أراد روجر تشكيله للقتال إلى جانب ألمانيا («ولكن ليس تحت أوامرها») من أجل استقلال أيرلندا.

كان مبللاً من رأسه حتى قدميه، ويده المتورمة والدامية مضمدة بصورة سيئة بخرقة فكها بملامح إنهاك شديد. وبخطوات نشطة، ابتعد مونتيث والرقيب دانييل بيلي، وكان هذا الأخير يعرج، واختفيا في الضباب باتجاه تريلي. هل وصل إليها روبرت مونتيث دون أن تعتقله رجال الشرطة الملكية الأيرلندية؟ أتراه تمكن من التواصل مع أناس من الأخوية الجمهورية الأيرلندية أو من المتطوعين؟ لم يدر قطّ متى وأين تم اعتقال الرقيب دانييل بيلي. فاسمه لم يُذكر في جلسات الاستجواب الطويلة التي أُخضع لها روجر في قيادة البحرية أولاً، على يد قادة المخابرات البريطانية، ثم سكوتلانديارد بعد ذلك. وظهور دانييل بيلي المفاجئ في المحاكمة خائناً، كشاهد إثبات للمدعي العام، خلّف روجر مذهولاً. وفي أقواله المفعمة بالأكاذيب، لم يُذكر اسم مونتيث ولو مرة واحدة. أيكون لا يزال طليقاً، أم أنهم قتلوه؟ طلب روجر من الرب أن يكون النقيب حياً وسليماً الآن، مختبئاً في أحد أركان أيرلندا. أم تراه شارك في انتفاضة الفصح وقضى نحبه هناك مثل كثير من الأيرلنديين المجهولين وهو يقاتل في تلك المغامرة البطولية بقدر ما هي عبثية؟ هذا هو الاحتمال الأكبر. أن يكون قد واصل إطلاق النار في مكتب بريد دبلن، إلى جانب المعجب به توم كلارك، إلى أن وضعت رصاصة معادية حداً لحياته المثالية.

وقد كانت مغامرته هو نفسه أيضاً عبثية. فاعتقاده أنه بمجيئه إلى أيرلندا من ألمانيا سيتمكن، هو وحده، بحجج براغماتية وعقلانية، من وقف انتفاضة الفصح التي خطط لها بسرية تامة المجلسُ العسكري للمتطوعين الأيرلنديين - توم كلارك، وشين ماكديرموت، وباتريك بيرز، وجوزيف بلانكيت وآخرون - حتى إن رئيس الأيرلنديين المتطوعين نفسه، البروفيسور أيون ماكنيل، لم يُبلّغ بأمر الانتفاضة، ألم تكن الانتفاضة وهماً هذيانياً آخر؟ وفكر: «العقل لا يُقنع المتصوفين ولا الشهداء». لقد كان روجر مشاركاً وشاهداً على نقاشات طويلة وزخمة ضمن المتطوعين الأيرلنديين حول نظريته بأن الطريقة الوحيدة لنجاح عمل مسلح يقوم به القوميون الأيرلنديون ضد الإمبراطورية البريطانية هي في تزامن العمل المسلح مع هجوم عسكري ألماني يشل القوة الرئيسية من قدرات بريانيا العسكرية. وحول هذا الأمر تناقش هو والشاب بلانكيت لساعات طويلة في برلين، دون أن يتوصلا إلى اتفاق. أيكون السبب في أن مسؤولي المجلس العسكري لم يشاطروه قناعته هذه وأن الأخوية الجمهورية الأيرلندية والمتطوعين الذين أعدوا العدة للانتفاضة قد أخفوا عنه خططهم حتى اللحظة الأخيرة؟ روجر يعرف أن القيادة البحرية الألمانية استبعدت فكرة الهجوم البحري ضد إنكلترا. وعندما وافق الألمان على إرسال أسلحة إلى المنتفضين، ألح هو على الذهاب شخصياً إلى أيرلندا برفقة الأسلحة، ونيته المضمرة هي إقناع القادة بأنه دون هجوم عسكري ألماني متزامن ستكون الانتفاضة مجرد تضحية بلا جدوى. وهو لم يخطئ في هذا الشأن. فحسب كل الأخبار التي استطاع جمعها هنا وهناك منذ أيام محاكمته، تبين أن الانتفاضة كانت مأثرة بطولية ولكنها أسفرت عن مذبحة لأشجع قادة الأخوية الجمهورية

الأيرلندية والمتطوعين وسجن مئات الثوريين. وسيكون القمع الآن بلا نهاية. فاستقلال أيرلندا قد تراجع مرة أخرى. تاريخ حزين حزين!

أحس بطعم مرارة في فمه. أخطاء خطيرة أخرى: لقد بنى الكثير من الأوهام على ألمانيا. تذكر النقاش مع هربرت وارد بباريس، في آخر مرة التقى به. صديقه الأفضل في أفريقيا مذ تعارفا، وكلاهما شاب ومتعطش للمغامرات، لم يكن يثق بأي حال بالنزعة القومية. لقد كان أحد الأوروبيين القليلين المثقفين والحساسين في الأراضي الأفريقية، وقد تعلَّم روجر الكثير منه. كانا يتبادلان الكتب، يقومان بقراءات مع التعليق عليها، يتكلمان ويتناقشان حول الموسيقى، والرسم، والشعر، والسياسة. وكان هربرت يحلم منذ ذلك الحين بأن يصير ذات يوم فناناً وحسب. كان يختلس وقتاً من عمله، كلما استطاع، ويكرسه لصنع نماذج بشرية أفريقية من الخشب أو الطين. كلاهما كان ناقداً صارماً لتعسف الاستعمار وجرائمه، وعندما تحوّل روجر إلى شخصية عامة وصار هدفاً للهجمات بسبب ***تقريره حول الكونغو***، أظهر هربرت وزوجته سارا، المستقران في باريس، أشد حماسة في الدفاع عنه، وكان قد صار نحاتاً مشهوراً يصب من البرونز، بصورة خاصة، منحوتاته المستوحاة من أفريقيا. كما تحمسا في الدفاع عنه عندما أثار ***تقرير حول بوتومايو*** ضجة أخرى حول شخصية كيسمنت، وهو التقرير الذي ندد فيه بما تقترفه شركات جمع المطاط من جرائم ضد السكان المحليين. بل إن هربرت أبدى في البدء تعاطفه تجاه تحول روجر القومي، وإن كان يكثر في رسائله من ممازحته حول مخاطر «التعصب الوطني» ويُذكّره بعبارة الدكتور جونسون القائلة «الوطنية هي الملاذ الأخير للأوغاد». لكن توافقاتهما وجدت حداً لها في موضوع ألمانيا. فقد

رفض هربرت بقوة على الدوام رؤية روجر الإيجابية، التجميلية، للمستشار بسمارك، موحد الولايات الألمانية، و«الروح البروسية» التي تبدو له متيبسة، متسلطة، فظة، ومخالفة للمخيلة والحساسية، وأكثر توافقاً مع الثكنة والتراتبية العسكرية منها مع الديمقراطية والفنون. وعندما علم، في أوج الحرب، أن روجر كيسمنت قد ذهب إلى برلين للتآمر مع العدو، أوصل إليه رسالة، عبر أخته نينا، يضع فيها حداً لسنوات طويلة من الصداقة. ويخبره فيها أن ابنه وابن ساريتا البكر، وهو شاب في التاسعة عشرة، قد مات للتو على الجبهة.

كم من الأصدقاء الآخرين فقدهم، وهم أناس، مثل هربرت وساريتا وارد، كانوا يحبونه ويقدرونه، وصاروا يعتبرونه الآن خائناً؟ حتى إليس ستوبفورد غرين، معلمته وصديقته، انتقدت ذهابه إلى برلين، على الرغم من أنها، منذ اعتقاله، لم تعد إلى ذكر ذلك الخلاف. وكم من الأشخاص الآخرين صاروا يشمئزون منه بسبب السفالات التي تنسبها الصحافة الإنكليزية إليه؟ اضطره تشنج في المعدة إلى التكور على نفسه في سريره الضيق. ظل على تلك الحال لبعض الوقت إلى أن تجاوز الإحساس بوجود حجر في بطنه يطحن أحشاءه.

خلال تلك الشهور الثمانية عشرة في ألمانيا تساءل مرات كثيرة عما إذا لم يكن قد أخطأ. لا، بل على العكس، فالوقائع أكدت طروحاته كلها، عندما أعلنت الحكومة الألمانية ذلك التصريح ـ وقد حرر هو نفسه معظمه ـ الذي تعرب فيه عن تضامنها عن فكرة السيادة الأيرلندية وإرادتها في مساعدة الأيرلنديين في استعادة استقلالهم الذي انتزعته الإمبراطورية البريطانية. ولكنه في ما بعد، خلال انتظاره الطويل في

«أونتر دِن ليندين» من أجل أن تستقبله السلطات في برلين، والوعود غير المتحققة، وأمراضه، وإخفاقه بشأن اللواء الأيرلندي، بدأت الشكوك تراوده.

أحس بقلبه يخفق بشدة، مثلما يحدث له كلما تذكر تلك الأيام الجليدية، مع ما تخللها من عواصف وزوابع ثلجية، حين تمكن أخيراً، بعد إجراءات كثيرة، من التوجه إلى ٢٢٠٠ أسير أيرلندي في معسكر ليمبورغ. شرح لهم بدقة ـ مكرراً خطبة تدرب عليها في ذهنه على امتداد شهور ـ أن المسألة لا تعني «الانتقال إلى الجانب المعادي» ولا بأي حال. فاللواء الأيرلندي لن يكون جزءاً من الجيش الألماني. بل سيكون وحدةً عسكرية مستقلة، له ضباطه الخاصون، وسيقاتل من أجل استقلال أيرلندا ضد المستعمر والمضطهِد، «إلى جانب، وليس ضمن» القوات المسلحة الألمانية. أكثر ما آلمه، الاستياء الذي جوبه به، ليس لأن بضعة وخمسين فقط من الألفي ومئتي أسير وافقوا على الانضمام إلى اللواء، بل الروح العدائية التي لقيها اقتراحه، والصرخات والهمهمات التي التقط منها بوضوح كلمات «خائن»، «أصفر»، «مُشترى»، «صرصار» التي عبر بها أسرى كثيرون عن ازدرائهم، وتلا ذلك البصاق، ومحاولات الاعتداء التي كان ضحية لها عندما حاول التحدث إليهم للمرة الثالثة. (حاولَ، لأنه لم يتمكن من النطق إلا بالعبارات الأولى قبل أن يُسكتوه بالصفير والشتائم.) والمذلة التي شعر بها عندما أنقذه من اعتداء محتمل، وربما من الشنق، جنودُ الحراسة الألمان الذين سحبوه وأخرجوه من المكان راكضين.

لقد كان حالماً وساذجاً حين ظن أن الأسرى الأيرلنديين سينضمون

إلى ذلك اللواء المجهز بالعتاد، واللباس - بالرغم من أن روجر كيسمنت نفسه هو من كان سيصمم الزي العسكري الخاص باللواء - والغذاء والمعونة الفنية من الجيش الألماني الذي كانوا يقاتلون ضده، والذي ضربهم بالغازات السامة في خنادق بلجيكا، وقتل، وجرح، وقطّع أطراف الكثيرين من رفاقهم، والذي يحتجزهم الآن بين الأسلاك الشائكة. كان لا بد من تفهم الظروف، ومن المرونة، وتذكّر ما عاناه وما فقده أولئك الأسرى الأيرلنديون، وعدم الشعور بالضغينة نحوهم. غير أن تلك الصدمة الفظة بالواقع التي لم يكن ينتظرها بدت قاسية جداً على روجر كيسمنت. وقد انعكست في آن واحد، وعلى الفور، في جسمه وروحه، وبدأت نوبات الحمى التي أبقته لوقت طويل طريح الفراش، وفي حالة شبه ميئوس منها.

في تلك الشهور، شكّل وفاء النقيب روبرت مونتيث ومحبته البلسم الذي ربما ما كان له لولاه أن يبقى على قيد الحياة. ودون أن تُلحق المصاعب والإحباطات التي واجهها في كل مكان ضرراً - مرئياً على الأقل - في قناعاته بأن اللواء الأيرلندي الذي تخيله روجر كيسمنت سينتهي بالتحول إلى واقع وسيضم في صفوفه معظم الأسرى الأيرلنديين، انهمك النقيب مونتيث في الإشراف على تدريب الخمسين متطوعاً الذين قدمت إليهم الحكومة الألمانية معسكراً صغيراً في زوسن، بالقرب من برلين. بل إنه تمكن من تجنيد المزيد. وجميعهم، بمن فيهم مونتيث نفسه، كانوا يرتدون الزيّ الخاص باللواء وفق التصور الذي وضعه روجر. كانوا يعيشون في خيام، ويتدربون على المشية العسكرية، والمناورات والرماية بالبنادق والمسدسات، ولكن برصاص خلبي. كان الانضباط صارماً، وفضلاً عن التمرينات العسكرية

والرياضية، ألحّ مونتيث على أن يقدم روجر باستمرار أحاديث لعناصر اللواء حول تاريخ أيرلندا، وثقافتها، وطباعها، والآمال التي تتفتح من أجل نيل أيرلندا استقلالها.

ما الذي كان سيقوله النقيب روبرت مونتيث لو أنه رأى كيف توالى، في المحكمة، ظهور تلك الحفنة من الأسرى الأيرلنديين السابقين في معسكر ليمبورغ، كشهود إثبات الاتهام ـ بعد تحريرهم بفضل تبادل للأسرى ـ وبينهم الرقيب دانييل بايلي نفسه لا أقل ولا أكثر؟. وجميعهم كانوا يردّون على سؤال النائب العام، ويُقسمون على أن روجر كيسمنت، وهو محاط بضباط من الجيش الألماني، حرضهم على الانتقال إلى صفوف العدو، مزيناً لهم ذلك بطُعْم خديعة الحرية، والحصول على راتب ثابت، ومزارع مستقبلية. وجميعهم رددوا تلك الأكذوبة الواضحة: إن الأسرى الأيرلنديين الذين رضخوا لإلحاحه وانضموا إلى اللواء تلقوا على الفور وجبات أفضل، ومزيداً من البطانيات ونظام أُذونات أكثر مرونة. ما كان يمكن للنقيب روبرت مونتيث أن يغضب منهم. وكان يمكن له أن يقول، مرة أخرى، إن مواطنيه أولئك عميان، أو إنهم بكلمة أدق مضللون بالتربية الخبيثة، وبالجهل والتشوش الذي تُبقي فيه الإمبراطورية الأيرلنديين، بوضع حجاب على عيونهم حول حقيقة وضع الشعب المحتل والمضطهَد منذ ثلاثة قرون. يجب عدم اليأس، فذلك كله آخذ في التبدل. وربما سيفعلَ ما فعله مرات عديدة في ليمبورغ وبرلين، بأن يحدث روجر كيسمنت، من أجل رفع معنوياته، عن الأريحية والحماسة اللتين انضم بها الشباب الأيرلنديون ـ فلاحون وعمال وصيادون وحرفيون، وطلاب ـ إلى صفوف المتطوعين الأيرلنديين منذ تأسيس هذه المنظمة، في

مهرجان مستديرة دبلن، يوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩١٣، كردّ على عسكرة دعاة الاتحاد في ألستر، بقيادة السير إدوارد كارسون، وتهديدهم السافر بعدم احترام القانون إذا وافق البرلمان البريطاني على منح الحكم الذاتي لأيرلندا. وكان النقيب روبرت مونتيث أحد أول المنضمين إلى المتطوعين، وهو الضابط السابق في الجيش البريطاني، ومن حارب في صفوفه في حرب البوير بأفريقيا الجنوبية، حيث أصيب بجراح في معركتين. وقد كُلف بمهمة إعداد المتطوعين عسكرياً. كما أن روجر الذي حضر ذلك المهرجان المؤثر في مستديرة دبلن كان أحد أمناء صندوق الأرصدة لشراء الأسلحة، وقد اختاره قادة المتطوعين الأيرلنديين لهذه المهمة التي تتطلب ثقة قصوى. لا يتذكر روجر أنه تعرف آنذاك على مونتيث. ولكن هذا الأخير يؤكد أنه صافحه وقال له إنه فخور بأن يكون أيرلندياً فضح أمام العالم الجرائم التي تُقترف ضد السكان الأصليين في الكونغو والأمازون.

تذكر المسيرات الطويلة التي كان يقوم بها مع مونتيث حول معسكر ليمبورغ أو في شوارع برلين، أحياناً في الفجر الشاحب والبارد، وأحياناً في ساعات الغسق ومع أول ظلال الليل، يتحدثان بهوس عن أيرلندا. وعلى الرغم من الصداقة التي ولدت بينهما، لم يتوصل قطّ إلى جعل مونتيث يعامله من دون الرسميات مثلما يُعامل صديق. فالنقيب يتوجه إليه دوماً على أنه رئيسه السياسي والعسكري، يتخلى له عن الجهة اليمنى في الطريق، ويفتح له الأبواب، ويُقرّب له الكرسي ويحيِّه، قبل أو بعد مصافحته، بخبط كعبيه أحدهما بالآخر ورفع يده إلى حافة قبعته في تحية عسكرية.

سمع النقيب مونتيث أول مرة باللواء الأيرلندي الذي يحاول روجر كيسمنت تشكيله من خلال توم كلارك، قائد الأخوية الجمهورية الأيرلندية والمتطوعين الأيرلنديين المفوه، فعرض نفسه فوراً للذهاب والعمل معه. كان مونتيث آنذاك مُبعداً من الجيش البريطاني إلى ليمرِك، عقاباً له على إثر اكتشاف أنه يقدم تدريباً عسكرياً سرياً للمتطوعين. تشاور توم كلارك مع القادة الآخرين وقد قُبل اقتراحه. وفي أثناء رحلته التي روى مونتيث وقائعها لروجر بفيض من التفاصيل فور لقائهما في ألمانيا، تعرض لكثير من المصاعب، كما في رواية مغامرات. فبرفقة زوجته، من أجل التغطية على مضمون رحلته السياسي، انطلق مونتيث من ليفربول إلى نيويورك في أيلول ١٩١٥. وهناك وضعه الزعماء القوميون الأيرلنديون بين يدي النرويجي إفيند أدلِر كريستنسن (حين تذكر روجر اسمه أحس بمعدته تتلوى)، الذي أدخله خفية، في ميناء هبكين، إلى سفينة ستنطلق قريباً باتجاه كريستيانيا، عاصمة النرويج. وظلت زوجة مونتيث في نيويورك. لقد جعله كريستنسن يسافر كمتخفٍ مندس في السفينة، يتنقل من قمرة إلى أخرى ويقضي ساعات طويلة مختبئاً في قاع السفينة حيث كان النرويجي يأتيه بالماء والطعام. وقد أوقفت البحرية الملكية البريطانية السفينة في عرض المحيط. واجتاحتها كتيبة من البحارة الإنكليز لتفحص وثائق ملاحيها وركباها بحثاً عن جواسيس. وخلال الأيام الخمسة التي أمضاها بحارة الأسطول الإنكليز في تفتيش السفينة، كان مونتيث يقفز من مخبأ إلى آخر - وهي مخابئ غير مريحة أحياناً، مثل بقائه مقرفصاً في خزانة تحت أكوام من الثياب، أو غاطساً في برميل قطران في أحيان أخرى - دون أن يُكتشف. وأخيراً نزل بصورة سرية في كريستيانيا. ولم يكن اجتيازه حدود السويد

والدنمرك من أجل الدخول إلى ألمانيا أقل إثارة، حيث اضطر إلى التنكر بهيئات مختلفة، وكامرأة في إحداها. وعندما وصل أخيراً إلى برلين، اكتشف أن القائد الذي جاء للعمل في خدمته، روجر كيسمنت، مريض. ودون أي تأجيل، أخذ القطار فوراً، وعند وصوله إلى الفندق حيث يقضي روجر نقاهته، خبط كعبيه ولامس رأسه بيده، وقدَّم نفسه بهذه العبارة: «أيها السير روجر، هذه هي أسعد لحظة في حياتي».

المرة الوحيدة التي يتذكر كيسمنت أنه اختلف مع النقيب روبرت مونتيث جاءت في ما بعد، في معسكر زوسن العسكري وبعد حديث سياسي أمام اللواء الأيرلندي. كانا يتناولان فنجان شاي في البوفيه عندما جاء روجر، لسبب لا يتذكره، على ذكر إفيند إدلِر كريستينسن. فامتقع وجه النقيب في تكشيرة استياء.

ـ أرى أنك لا تحتفظ بذكرى طيبة عن كريستينسن ـ قال له روجر مازحاً ـ هل تحقد عليه لأنه جعلك تسافر كمتسلل إلى السفينة من نيويورك إلى النرويج؟

لم يبتسم مونتيث. بل بدا جدياً جداً.

ـ لا يا سيدي ـ غمغم من بين أسنانه ـ. ليس هذا هو السبب.

ـ لماذا إذاً؟

تردد مونتيث بانزعاج.

ـ لأنني ظننتُ على الدوام أن هذا النرويجي جاسوس للمخابرات البريطانية.

تذكّر روجر أنه كان لتلك الجملة أثر ضربة خنجر في معدته.

ـ هل لديك دليل على مثل هذا الأمر.

ـ لا دليل لدي يا سيدي. بل هاجس قلبي محض.

أنبه كيسمنت وأمره ألا يعود إلى إطلاق مثل تلك الظنون دون امتلاك أدلة عليها. وتلعثم النقيب باعتذار. أما الآن، فيمكن لروجر أن يقدم أي شيء مقابل رؤية مونتيث، ولو للحظات، ليعتذر منه على تأنيبه له في ذلك اليوم: «لقد كان معك كل ما في الدنيا من حق يا صديقي الطيب. كان حدسك دقيقاً. فإفيند أسوأ من جاسوس: إنه شيطان حقيقي. وأنا مجرد أبله وساذج لأني كنت أصدقه».

لقد كان إفيند خطأً آخر من أخطائه الكبرى في هذه المرحلة الأخيرة من حياته. فأي شخص غير «الطفل الكبير» الذي كانه هو، مثلما قالت له ذات يوم إليس ستوبفورد غرين وهربرت وارد، بإمكانه أن يلحظ شيئاً مريباً في الطريقة التي دخل بها حياته ذلك التجسيد للشيطان. أما روجر فلم ينتبه. وصدَّق ان ذلك اللقاء كان صدفة من تدبير القدر.

حدث ذلك في شهر تموز ١٩١٤، في اليوم نفسه الذي وصل فيه إلى نيويورك من أجل التعبئة للمتطوعين الأيرلنديين بين الجالية الأيرلندية في الولايات المتحدة، والحصول على دعم وأسلحة، ومقابلة قائدي «كلان نا غيل»، فرع الأخوية الجمهورية الأيرلندية في أميركا، المدعوة كلان نا غال، المناضلان القديمان جون ديفوي وجوزيف ماكغريتي. كان قد خرج للقيام بجولة في منهاتن، هرباً من رطوبة وحرارة الحجرة الضيقة في فندق متأجج بالصيف النيويوركي، فاقترب منه شاب أشقر ومهيب مثل إلهِ فايكنغي، أغواه فوراً بلطفه وسحره وطلاقة لسانه. كان إفيند طويل القامة، رياضياً، له مشية هريّة على نحوٍ ما، ونظرة زرقاء

عميقة، وابتسامة بين الملائكية والوغدة. لم يكن يملك سنتاً واحداً، أخبره بذلك بتكشيرة مضحكة وهو يعرض عليه بطانة جيبيه الخاويين. دعاه روجر لتناول بيرة وشيء من الطعام. وصدَّق كل ما قاله النرويجي له: إنه في الرابعة والعشرين، وقد هرب من بيته في النرويج مذ كان في الثانية عشرة. وسافر بالاندساس في سفينة متدبراً أمره للوصول إلى غلاسكو. وعمل منذ ذلك الحين كوقاد في سفن اسكندنافية وإنكليزية في كافة بحار العالم. وهو الآن متعطل في نيويورك، يعيش بأسوأ حال كيفما استطاع.

وقد صدَّقه روجر! انطوى على نفسه، في سريره الضيق، متألماً بتشنج آخر من تلك التشنجات في المعدة التي تقطع أنفاسه. إنها تداهمه في لحظات التوتر العصبي العظيم. كبحَ رغبَتَهُ في البكاء. في كل مرة يخطر له الإشفاق على نفسه أو الخجل منها إلى حدّ تغرورق معه عيناه بالدموع، يشعر بعدها بالانقباض والقرف. لم يكن قطّ عاطفياً ميالاً إلى عرض انفعالاته، بل عرف على الدوام كيف يخفي يهيج مشاعره وراء قناع من الهدوء المتقن. لكن مزاجه صار مختلفاً منذ وصوله إلى برلين يرافقه إفيند أدلِر كريستينسن في اليوم الأخير من تشرين الأول ١٩١٤. أيكون قد أسهم في تبدل مزاجه كونه مريضاً، مكسوراً وأعصابه محطمة؟ في الشهور الأخيرة في ألمانيا بصورة خاصة، عندما أدرك، بالرغم من حقن الحماسة التي يحاول النقيب روبرت مونتيث أن يبثه إياها، أن مشروعه في اللواء الأيرلندي قد أخفق، بدأ يشعر أن الحكومة الألمانية ترتاب فيه (ربما لاعتقادها بأنه جاسوس بريطاني)، بعد أن عرف أن شكواه من مؤامرة القنصل البريطاني فيندلي في النرويج المزعومة لقتله لم تجد الصدى الدولي الذي أمل به. وكانت الضربة

القاضية في اكتشافه أن رفاقه في الأخوية الجمهورية الأيرلندية والمتطوعين في أيرلندا قد أخفوا عنه حتى اللحظة الأخيرة خططهم للقيام بانتفاضة في أسبوع الفصح. («كان عليهم أن يتخذوا احتياطات، لأسباب أمنية»، طمأنه روبرت مونتيث.) أضف إلى ذلك أنهم سعوا إلى أن يبقى في ألمانيا ومنعه من الذهاب للانضمام إليهم. («إنهم يفكرون في وضعك الصحي يا سيدي»، أوضح له مونتيث.) لا، لا يفكرون في وضعي الصحي. فهم أيضاً يرتابون فيه لأنهم يعرفون أنه ضد القيام بعمل مسلح ما لم يتزامن مع هجوم عسكري ألماني. وقد انطلق مع مونتيث في غواصة ألمانية، في مخالفة لأوامر القادة القوميين.

ولكن بين إخفاقاته كلها، كان أعظمها ثقته العمياء والبلهاء بإفيند/ إبليس. فقد رافقه هذا إلى فيلادلفيا لزيارة جوزيف ماكغارتي. وكان إلى جانبه بنيويورك، في المهرجان الذي نظمه جون كوين وتحدث فيه روجر أمام حشد كبير من أعضاء مذهب الهبرنيانيين القديم، وكذلك في استعراض لأكثر من ألف متطوع أيرلندي في فيلادلفيا يوم الثاني من آب، حيث ألقى فيهم روجر خطبة حماسية وسط تصفيق مدوٍ.

لقد انتبه منذ اللحظة الأولى إلى الريبة التي يبعثها وجود كريستينسن في القادة القوميين في الولايات المتحدة. أما هو فكان يؤكد لهم بحماسة أنه عليهم أن يثقوا بتكتم إفيند وإخلاصه كثقتهم به هو نفسه، وانتهى الأمر بقادة الـ «كلان نا غيل» إلى تقبل حضور النرويجي في كافة أنشطة روجر العامة (ولكن ليس في الاجتماعات السياسية الخاصة) في الولايات المتحدة. ووافقوا على أن يسافر معه، كمعاون له، إلى برلين.

ما هو استثنائي وخارج عن المألوف أن الشكوك لم تخامر روجر حتى مع الواقعة الغريبة في كريستيانيا. كانا قد وصلا للتو إلى العاصمة النرويجية، في طريقهما إلى ألمانيا، عندما خرج إفيند في يوم وصولهما بالذات للقيام بجولة بمفرده، وما حدث له ـ كما روى له هو نفسه ـ أنه أحيط بأشخاص مجهولين، واختُطف واقتيد بالقوة إلى القنصلية البريطانية في شارع درمنسفين ٧٩. وقد استجوبه هناك القنصل نفسه، مستر مانسفيلد كاردونيل فيندلي. وعرض عليه القنصل نقوداً كي يكشف عن هوية ونوايا الشخص الذي جاء برفقته إلى النرويج. وأقسم إفيند لروجر بأنه لم يكشف شيئاً، وأنهم قد أفلتوه بعد أن وعد القنصل بالتحري عما يريدون معرفته حول هذا الشخص الذي يجهل عنه كل شيء، ويرافقه كدليل في مدينة ـ وفي بلاد ـ يجهلها ذلك الرجل.

ابتلع روجر الكذبة الخيالية دون أن يفكر ثانية واحدة في أنه ضحية كمين! وأنه وقع فيه مثل طفل أبله!

أكان إفيند كريستينسن يعمل آنذاك لمصلحة المخابرات البريطانية؟ الكابتن البحري ريجنالد هول، رئيس المخابرات البحرية البريطانية، وباسيل تومسون، رئيس إدارة البحث الجنائي في سكوتلانديارد، اللذان توليا استجوابه مذ جيء به إلى لندن ـ وكانت له معهما محادثات طويلة وحميمة ـ، قدما إليه إشارات متناقضة حول ذلك الاسكندينافي. ولكن الأوهام لا تخامر روجر في هذا الشأن. إنه متأكد الآن من الزيف المطلق لقصة اختطاف إفيند في شوارع كريستيانيا واقتياده بالقوة إلى حيث القنصل ذو الاسم المهيب: مانسفيلد كاردونيل فيندلي. لقد عرض عليه المحققان، من أجل إضعاف معنوياته دون شك ـ لأنه كان

قد تبين كم هما خبيران نفسيان ـ تقرير القنصل البريطاني في العاصمة النرويجية إلى رئيسه في وزارة الخارجية، بشأن مجيء إفيند أدلِر كريستينسن العاصف إلى القنصلية في شارع درمنسفين ٧٩، وطلبه التكلم إلى القنصل مباشرة. وكيف كشف للقنصل، حين وافق الدبلوماسي على استقباله، أنه يرافق قائداً قومياً أيرلندياً يريد السفر إلى ألمانيا بجواز سفر مزور وباسم جيمس لاندي. طلب نقوداً مقابل هذه المعلومة فأعطاه القنصل خمسة وعشرين كرونا. وعرض عليه إفيند مواصلة تزويده بمعلومات خاصة وسرية حول الشخص المجهول إذا ما ظلت الحكومة الإنكليزية تقدم له مقابل ذلك مكافآت سخية.

ومن جهة أخرى، أوصل ريجنالد هول وباسيل تومسون إلى روجر ما يشير إلى أن كل تحركاته في ألمانيا ـ اللقاءات مع موظفين كبار، عسكريين ووزراء دولة في وزارة العلاقات الخارجية في شارع فيلهيم، وكذلك لقاءاته مع أسرى ايرلنديين في ليمبورغ ـ مسجلة كلها بدقه لدى المخابرات البريطانية. هذا يعني أن إفيند، في الوقت الذي كان يتظاهر بأنه يتواطأ مع روجر لتهيئة مكيدة للقنصل مانسفيلد كاردونيل فيندلي، واصل إبلاغ الحكومة الإنكليزية بكل ما يقوله ويفعله ويكتبه، وحول من يلتقي بهم ومن يزورهم في فترة وجوده في ألمانيا. «لقد كنتُ أبله، وأستحقُ هذا المصير»، كرر القول مرة أخرى ضمن ما لا يحصى من المرات.

في تلك اللحظة فُتح باب الزنزانة. لقد جاؤوه بوجبة الغداء. هل انتصف النهار؟ لقد انقضت فترة الصباح دون أن يشعر بها وهو غارق في ذكرياته. يا للروعة لو أن الأيام كلها تمضي هكذا. تذوق بضع

لقيمات من الحساء عديم الطعم وأوراق الملفوف المطبوخة مع قطع سمك. وعندما جاء الحارس لأخذ الأطباق، طلب منه روجر أن يأذن له بالخروج لتنظيف دلو البراز والبول. إنهم يسمحون له مرة واحدة في اليوم بالخروج إلى المرحاض لإفراغ الدلو وغسله. وعندما رجع إلى الزنزانة، انبطح مجدداً على سريره الضيق. عاد الوجه الحالم والجميل للطفل الخبيث إفيند/إبليس إلى ذاكرته، وعاد معه الإحباط ووخز المرارة. سمعه يهمس «أحبك» في أذنه وبدا له أنه يتشابك معه ويعتصره. وسمع نفسه يتأوه.

لقد سافر كثيراً، وعاش تجارب زخمة، وعرف كافة أصناف الناس، وتحرى عن جرائم فظيعة ضد شعوب بدائية وتجمعات سكان أصليين في قارتين. فهل مازال يمكن لشخصية شديدة النفاق ومعدومة الضمير وخسيسة مثل الإبليس الاسكنديناڤي أن تُدهشه؟ لقد كذب عليه، وخدعه بصورة منهجية في الوقت الذي كان يبدو فيه بشوشاً، خدوماً، ودوداً، يرافقه مثل كلب وفيّ، يخدمه، يهتم بصحته، يذهب لشراء الأدوية له، يستدعي الطبيب، يضع له ميزان الحرارة. ولكنه يسحب منه كل ما يستطيعه من المال. ويختلق بعد ذلك أسباباً لتلك الرحلات إلى النرويج بحجة الذهاب لزيارة أمه، أو أخته، كي يهرع إلى القنصلية البريطانية لتقديم معلومات حول النشاطات التآمرية السياسية والعسكرية لرئيسه وعشيقه. وليتقاضى أجراً هناك أيضاً مقابل تلك المعلومات. بينما هو، روجر، يظن أنه من يحرك خيوط الحبكة! وبما أن البريطانيين يريدون قتله ـ فالقنصل مانسفيلد كاردونيل فيندلي، حسب أقوال النرويجي، أكد ذلك حرفياً ـ، قام روجر بتدريب إفيند كي يجاري القنصل في الأمر إلى أن يحصل على أدلة عن النوايا الإجرامية

للموظفين البريطانيين ضده. مقابل كم من الكرونات أو الجنيهات الاسترلينية؟ ولهذا، ما ظن روجر أنها ستكون عملية دعائية ساحقة ضد الحكومة البريطانية ـ اتهامها علناً بتنظيم عمليات قتل لخصومها وخرقها سيادة بلدان ثالثة ـ لم تنل أدنى قدر من الصدى الإعلامي. فرسالته إلى السير إدورد غراي التي أرسل نسخاً منها إلى جميع الحكومات التي لها تمثيل في برلين، لم تستحق الإشعار بوصولها ولو إلى سفارة واحدة.

ولكن ما هو أسوأ ـ وعاد روجر إلى الشعور بذلك الوخز في المعدة ـ جاء في ما بعد، في نهاية الاستجوابات المطولة في سكوتلانديارد، حين ظن أن إفيند/إبليس لن يعود إلى التسرب إلى تلك الحوارات. الضربة النهائية! اسم روجر كيسمنت ظهر في صحف أوروبا والعالم كلها ـ دبلوماسي بريطاني منحه التاج لقب نبالة ووساماً سيُحاكم بتهمة خيانة الوطن ـ وأُعلن عن خبر محاكمته الوشيكة في كل مكان. عندئذ، حضر إفيند أدلِر كريستينسن إلى القنصلية البريطانية بفيلادلفيا عارضاً، من خلال القنصل، أن يسافر إلى إنكلترا ليشهد ضد كيسمنت، إذا وافقت الحكومة الإنكليزية على تحمل كافة نفقات السفر والإقامة «وتلقيه مكافأة مجزية». لم يخامر روجر الشك في صحة ذلك التقرير من القنصل البريطاني في فيلادلفيا الذي أراه إياه ريجنالد هول وباسيل تومسون. لحسن الحظ أن وجه ذلك الإبليس الاسكنديناڤي الضارب إلى الحمرة لم يظهر في مقعد الشهود خلال أيام المحاكمة الأربعة في أولد بايلي. لأنه لو رآه روجر، فربما ما كان بمقدوره كبح غضبه والرغبة في الشد على خناقه.

أكان ذاك هو وجه الخطيئة وعقلها وتلوّيها الثعباني؟ في إحدى

محاوراته مع إدموند د. موريل، عندما كان كلاهما يتساءل عن كيف أمكن لأناس تلقوا تربية مسيحية، أناس مثقفين ومتحضرين، أن يقترفوا، أو أن يكونوا شركاء في اقتراف تلك الجرائم المريعة التي وثّقها كلاهما في الكونغو، قال روجر: «عندما تُستنفد التفسيرات التاريخية والسوسيولوجية والبسيكولوجية والثقافية، يظل هنالك ميدان فسيح في الظلام من أجل الوصول إلى جذر الشر في الكائنات البشرية، يا *بولدوغ*. وإن أردت فهمه، يوجد طريق وحيد: التخلي عن العقلانية واللجوء إلى الدين: تلك هي الخطيئة الأصلية». «هذا التفسير لا يفسر شيئاً يا نمر». تناقشا لوقت طويل دون التوصل إلى نتيجة. كان موريل يؤكد: «إذا كان السبب الأخير للشر هو الخطيئة الأصلية، فلا وجود لحل إذاً. وإذا كنا نحن البشر مخلوقين للشر ونحمله في روحنا فلماذا النضال إذاً من أجل علاج ما لا علاج له؟».

ما كان يجب الوقوع في التشاؤم، *البولدوغ* كان محقاً. فليس جميع البشر هم إفيند أدلِر كريستينسن. هنالك آخرون، شرفاء، مثاليون، طيبون وكرماء، مثل النقيب روبرت مونتيث وموريل نفسه. أحس روجر بالحزن. *فالبولدوغ* لم يوقع على أي من الالتماسات المقدمة من أجله. لا شك في أنه يرفض إقدام صديقه (أصار صديقه السابق الآن، مثل هربرت وارد؟) على الانحياز إلى ألمانيا. فعلى الرغم من أنه مناهض للحرب ويشن حملة سلمية، وقد حوكم لهذا السبب، إلا أن موريل لن يسامحه، دون شك، على انضمامه إلى القيصر الألماني. وربما يعتبره خائناً كذلك. مثل كونراد.

تنهد روجر. لقد فقد الكثير من الأصدقاء الرائعين والمحبوبين،

مثل هذين الصديقين. كم من الآخرين أدار له ظهره! ولكن، على الرغم من ذلك كله، لم يبدل طريقته في التفكير. لا، لم يخطئ. فمازال يعتقد بأنه إذا كسبت ألمانيا ذلك النزاع، فسوف تكون أيرلندا أقرب إلى الاستقلال. وسوف تكون أبعد عنه إذا كان النصر من نصيب إنكلترا. ولم يُقدم على فعل ما فعله من أجل إنكلترا، وإنما من أجل أيرلندا. ألا يتفهمه رجال لامعون وأذكياء مثل وارد وكونراد وموريل؟

الوطنية تعمي البصيرة. هذا ما أكدته إليس في مناظرة صاخبة، خلال واحدة من تلك السهرات في بيتها بشارع غروسفنور رود الذي يتذكره روجر على الدوام بكثير من الحنين. ما الذي قالته المؤرخة بالضبط؟ «يجب ألا نسمح للنزعة الوطنية أن تنتزع منا البصيرة والعقل والذكاء». شيء من هذا القبيل. ولكنه تذكر عندئذ اللسعة الساخرة التي وجهها جورج برنارد شو إلى جميع الوطنيين الأيرلنديين الحاضرين: «إنها أمور لا يمكن المصالحة بينها يا إليس. فلا تخدعي نفسك: النزعة الوطنية هي ديانة، في حالة نزاع مع البصيرة. إنها ظلامية بحتة، فعل إيمان». قالها بتلك السخرية المازحة التي تُحرج مستمعيه على الدوام، لأنهم جميعهم يحدسون أن هنالك نوايا ساحقة دائماً وراء ما يقوله الكاتب المسرحي بطريقة تبدو طيبة النية. فعبارة «فعل إيمان»، حين تخرج من فم ذلك الارتيابي عديم الإيمان، إنما تعني «غشاً، وخداعاً» أو أموراً أسوأ. ومع ذلك فإن هذا الرجل الذي لا يؤمن بأي شيء ويلقي الكلام جزافاً ضد كل شيء هو كاتب عظيم وقد أشاع شهرة الآداب الأيرلندية أكثر من أي كاتب آخر من أبناء جيله. كيف يمكن بناء أعمال عظيمة دون أن يكون المرء وطنياً، ودون أن يشعر شعوراً عميقاً بصلة الدم مع أرض الأجداد، ودون أن يحب ويتأثر بالسلالة القديمة

التي خلفه؟ ولهذا، إذا ما خُير بين عظيمين مشهورين، فإن روجر سيُفضل في سره يتس على شو. فذاك كان وطنياً فعلاً، ملأ أشعاره ومسرحه بالأساطير الأيرلندية والسلتية القديمة، أعاد تأسيسها، جددها، أثبت أنها حية ويمكن لها أن تُخصب الأدب الحالي. بعد لحظة أحس بالندم لأنه فكر على ذلك النحو. كيف يمكن له أن يكون ناكراً للجميل تجاه جورج برنارد شو: فبين الشخصيات الثقافية الكبرى في لندن، لم يعلن أحد بطريقة صريحة وجريئة عن دفاعه عن روجر كيسمنت مثلما فعل الكاتب المسرحي، على الرغم من ارتيابيته وتعليقاته الصحفية ضد النزعة القومية. فهو من نصح محاميه بخطة للدفاع، ولسوء الحظ أن البائس سرجنت أ. م. سولفين، ذلك التفاهة الجشعة، قد رفض الخطة، وبعد صدور الحكم، كتب جورج برنارد شو مقالات ووقع بيانات تأييد لإلغاء العقوبة. فليس ضرورياً أن تكون وطنياً وقومياً لتكون شهماً وشجاعاً.

تذكُره سيرجنت أ. م. سولفين للحظات أخمد همته، جعله يسترجع محاكمته بتهمة الخيانة العظمى في أولد بايلي، تلك الأيام الأربعة المشؤومة في أواخر شهر حزيران ١٩١٦. لم يكن سهلاً العثور على محام مترافع يقبل الدفاع عنه أمام المحكمة العليا. فجميع المحامين الذين اتصل بهم الأستاذ جورج غافن دوفي وأسرته وأصدقاؤه في دبلن وفي لندن رفضوا ذلك بحجج مختلفة. فلا أحد يريد الدفاع عن خائن للوطن في زمن الحرب. وأخيراً وافق الأيرلندي سرجنت أ. م. سولفين الذي لم يكن قد دافع عن أحد من قبل أمام محكمة في لندن. وقد طالب، أجل، بمبلغ مالي مرتفع، اضطرت أخته نينا مع إليس ستوبفورد إلى جمعه بتبرعات من المتعاطفين مع القضية

الأيرلندية. وخلافاً لرغبات روجر الذي أراد أن يتحمل، بصورة سافرة، مسؤوليته كمتمرد ومناضل استقلالي وأن يستخدم المحاكمة منبراً للدعوة إلى حق أيرلندا بالسيادة، فرض المحامي سولفين دفاعاً قانونياً شكلياً، متجنباً السياسة، ومؤكداً أن قانون إدوارد الثالث الذي يُحاكم كيسمنت بمقتضاه لا يطال سوى نشاطات خيانية مرتكبة في أراضي التاج البريطاني وليس في الخارج. والاتهامات الموجهة إلى المتهم هي عن أعمال حدثت في ألمانيا، وبالتالي لا يمكن اعتبار كيسمنت خائناً للإمبراطورية. لم يؤمن روجر قطّ بإمكانية نجاح تلك الإستراتيجية الدفاعية. والأدهى من ذلك أن سرجنت سولفين قام عند تقديم مرافعته بمشهد استعراضي مثير للرثاء. فبعد قليل من بدء طرحة، راح ينفعل ويتشنج، إلى أن هتف وقد تحول لونه إلى شحوب جثة: «أيها السادة القضاة: لم أعد قادراً على المزيد!» وانهار في قاعة المحكمة مغمياً عليه. فكان على أحد مساعديه أن ينهي المرافعة. لحسن الحظ أن روجر تمكن، في عرضه النهائي، من تولي الدفاع عن نفسه، معلناً أنه متمرد، يدافع عن انتفاضة عيد الفصح، وطالب باستقلال وطنه، وقال إنه يشعر بالفخر لأنه خدمه. هذا النص يستثير كبرياءه ويشكل مبرراً له ـ فكّر ـ أمام الأجيال الآتية.

كم الساعة؟ لم يستطع أن يعتاد على عدم معرفة في أي ساعة هو. كم هي سميكة جدران سجن بينتونفيل، فهو لا يتوصل أبداً، مهما اجتهدت أذناه، إلى سماع ضجة الشارع: نواقيس، محركات، صراخ، أصوات، صفير. صخب سوق إسلنغتون. أيسمعه حقاً أم أنه يختلقه؟ لم يعد يدري. لا شيء. صمت غريب، قبوري، هو صمت هذه اللحظة حيث يبدو الزمن معلقاً، وكذلك الحياة. الصوت الوحيد الذي

يتسرب إلى زنزانته يأتي من داخل السجن: خطوات منطفئة في الممر المجاور، بوابات حديدية تُفتح وتغلق، صوت *الشريف* الأخن يُصدر أمراً لأحد السجانين. أما الآن، فحتى من داخل سجن بينتونفيل لا تصله أدنى همسة. الصمت يسبب له الغم، يمنعه من التفكير. حاول العودة إلى القراءة في *محاكاة يسوع* لتوماس دي كيمبس، لكنه لم يستطع التركيز وأعاد وضع الكتاب على الأرض. حاول الصلاة ولكن الصلاة صدرت عنه بصورة آلية فقطعها. ظل لوقت طويل ساكناً، متوتراً، قلقاً، بذهن خاو ونظرة مركّزة على نقطة من السقف تبدو رطبة، كما لو أنها تتلقى تسرب ماء، إلى أن نام.

رأى حلماً هادئاً حمله إلى أدغال الأمازون، في صباح يوم مضيء ومشمس. النسيم الذي يهب على جسر السفينة يخفف من شدة الحر. لم يكن هناك بعوض وكان يشعر بأنه على ما يرام، ودون الحرقة في عينيه التي عذبته كثيراً في الأوقات الأخيرة، بسبب التهاب يبدو عصياً على القَطرة ومحاليل غسول أطباء العيون، ودون آلام العضلات بسبب التهاب المفاصل، ولا نار البواسير الذي يبدو أحياناً كأنه حديد متوقد في أعماقه، ولا تورم القدمين. لم يكن يعاني أياً من تلك العلل والأمراض والتوعكات، حصيلة عشرين عاماً من حياته الأفريقية. كان شاباً مرة أخرى ويشعر برغبة في أن يكرر هنا، في نهر الأمازون الفسيح الذي تكاد ضفافه لا تُرى، أحد أعماله الجنونية التي أقدم عليها مرات كثيرة في أفريقيا: أن يتعرى ويلقي بنفسه من شرفة السفينة ليغطس في تلك المياه الضاربة إلى الخضرة وتتخللها بقع عشب ولطخات من الزبد. سيشعر بصدمة الماء الدافئ والكثيف في جسده كله، إحساس رحيم، مُطَّهر، بينما هو يندفع صاعداً نحو سطح الماء، ينبثق، يبدأ

بضرب الماء بذراعيه، ينساب بيسر وأناقةِ دلفين إلى جانب السفينة. ومن فوق سطح السفينة يومئ إليه الربان وبعض المسافرين بحركات نشطة كي يعود للصعود إلى المركب، وألا يعرض نفسه للموت غرقاً، أو تلتهمه ياكوماما ضخمة، واحدة من تلك الحيّات النهرية التي يصل طولها أحياناً إلى عشرة أمتار، ويمكن لها أن تبتلع رجلاً بكامله.

أكان قريباً من ماناوس؟ من تاباتينغا؟ من بوتومايو؟ من إيكيتوس؟ أكان يمضي في النهر صعوداً أم نزولاً؟ ما أهمية ذلك كله. المهم هو شعوره بأنه أحسن حالاً مما يتذكر أنه كان عليه منذ زمن طويل، وبينما السفينة تنزلق ببطء فوق سطح الماء الضارب إلى الخضرة، كان هدير المحرك يهدهد أفكاره، فروجر يراجع مرة أخرى ما سيكون عليه مستقبله أخيراً بعد أن تخلى عن عمله الدبلوماسي واستعاد حريته الكاملة. سيعيد شقته في إيبوري ستريت ويذهب إلى أيرلندا. يقسم وقته ما بين دبلن وألستر. لن يكرس حياته كلها للسياسة. سيحتفظ بساعة كل يوم، بيوم كل أسبوع، بأسبوع كل شهر للدراسة. سيعود إلى تعلم اللغة الأيرلندية وسيُفاجئ ذات يوم إليس بالتحدث إليها بغيليّة متدفقة. أما الساعات والأيام والأسابيع والشهور المكرسة للسياسة فستتركز على السياسة الكبرى، المرتبطة بالهدف الأول والمركزي - استقلال أيرلندا والنضال ضد الاستعمار -، وتجنب تبديد وقته في مكايد وخصومات ومنافسات السياسيين المدعين الطامعين في كسب قطعة صغيرة من السلطة، في الحزب، في الخلية، في الفرقة، حتى لو اضطره ذلك إلى تجاهل المهمة الأساسية أو حتى تخريبها. سيسافر كثيراً عبر أيرلندا، نزهات طويلة عبر غيل أنتريم، دونيغال، عبر ألستر، عبر غالوي، عبر أمكنة نائية ومعزولة مثل ناحية كونيمرا وتوري إيسلاند

حيث لا يعرف الصيادون اللغة الإنكليزية، ويتكلمون الغيليّة فقط، وسيتفاهم مع أولئك الفلاحين والحرفيين والصيادين الذين صمدوا برباطة جأشهم وعملهم وصبرهم أمام حضور المستعمر الطاغي، فحافظوا على لغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم. سيستمع إليهم، ويتعلم منهم، وسيكتب مقالات وأشعاراً حول مأثرة قرون من الصمت والبطولة لأولئك الناس البسطاء الذين بفضلهم لم تختفِ أيرلندا وظلت ومازالت أمة.

أخرجته ضجة من ذلك الحلم الممتع. فتح عينيه. كان السجان قد دخل ومدّ إليه قصعة حساء السميد وقطعة الخبز اللذين يشكلان عشاءه كل ليلة. أوشك أن يسأله كم الساعة، لكنه كبح نفسه لأنه يعرف أنه لن يردّ عليه. فتت الخبز إلى فتات، ألقى به في الحساء وأكله بملاعق متباعدة. لقد انقضى يوم آخر وربما يكون يوم غدٍ هو الحاسم.

X

عشية انطلاق السفينة *ليبرال* باتجاه بوتومايو، قرر روجر كيسمنت أن يتكلم صراحة إلى مستر ستيرز. ففي الثلاثة عشر يوماً التي أمضاها في إيكيتوس أجرى محادثات كثيرة مع القنصل الإنكليزي، لكنه لم يتجرأ على ملامسة الموضوع. كان يعرف أن مهمته قد أكسبته الكثير من الأعداء، ليس في إيكيتوس وحدها، وإنما في منطقة الأمازون بأسرها؛ ومن السخف فوق ذلك أن يُفسد علاقته مع زميل يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة له خلال الأيام والأسابيع التالية إذا ما وجد نفسه في مأزق

جدي مع شركات المطاط. من الأفضل عدم الإتيان على ذكر هذه المسألة العويصة معه.

مع ذلك، في تلك الليلة، وبينما هو والقنصل يتناولان كأس نبيذ أوبورتو المعهود في صالة بيت مستر ستيرز، ويستمعان إلى قرقعة وابل المطر على سطح الصفيح وارتطام دفقات ماء المطر الغزير بزجاج وحاجز الشرفة، تخلى روجر عن حذره.

ـ ما رأيك بالأب ريكاردو أوروتيا يا مستر ستيرز؟

ـ كبير الكهنة الأغوسطينين؟ قلما تعاملتُ معه. وهو جيد على العموم. أنت التقيتَ به كثيراً في هذه الأيام، أليس كذلك؟

هل حدس القنصل أنه يدخل أرض رمال متحركة؟ ففي عينيه المتقافزتين تظهر ومضة قلق. صلعته تلمع تحت انعكاسات مصباح الزيت الذي يفرقع على المنضدة الصغيرة في وسط الحجرة.

ـ حسن، لم يكد يمضي عام على وجود الأب أوروتيا هنا، وهو لم يخرج من إيكيتوس ـ قال كيسمنت ـ. أي أنه لا يعرف شيئاً مهماً عما يحدث في محطات جمع المطاط في بوتومايو. ولكنه تحدث كثيراً بالمقابل عن مأساة إنسانية أخرى في المدينة.

تذوق القنصل رشفة من النبيذ. وعاد للتهوية بمروحة يدوية. خيل لروجر أن وجهه المدور قد اصطبغ بشيء من الحمرة. وفي الخارج، كانت العاصفة تزمجر مع رعود طويلة، صماء، ويضيء برق بين حين وآخر ظلمة الغابة لثانية أو اثنتين.

ـ مأساة الطفلات والأطفال المخطوفين من القبائل ـ واصل روجر ـ يجيئون بهم إلى هنا ويُباعون بعشرين أو ثلاثين سولاً للعائلات.

ظل السيد ستيرز يراقبه صامتاً. صار يُهوّي بغضب الآن.

ـ جميع الخدم في إيكيتوس تقريباً، على حد قول الأب أوروتيا، هم من المخطوفين والمباعين ـ أضاف كيسمنت. ثم نظر بثبات إلى عيني القنصل ـ: هل الأمر كذلك؟

أطلق مستر ستيرز زفرة طويلة وتحرك في كرسيه الهزاز، دون أن يخفي ملامح الاستياء. بدا وجهه كما لو أنه يقول: «أنت لا تدري مدى سعادتي بمغادرتك غداً إلى بوتومايو. وعسى ألا أعود لرؤية وجهك يا سيد كيسمنت».

ـ ألم تكن تحدث هذه الأمور في الكونغو؟ ـ أجاب متهرباً.

ـ كانت تحدث، أجل، ولكن ليس بالطريقة الشاملة التي تحدث بها هنا. اسمح لي بسؤال وقح. بشأن الخدم الأربعة لديك، هل تعاقدتَ معهم أم اشتريتهم؟

ـ لقد ورثتهم ـ قال القنصل البريطاني بجفاء ـ كانوا يشكلون جزءاً من البيت، عندما غادر سلفي، القنصل كازيس، عائداً إلى إنكلترا. لا يمكن القول إنه جرى التعاقد معهم لأن هذا ليس هو الأسلوب هنا في إيكيتوس. الأربعة أميون ولا يعرفون قراءة عقد اتفاق أو التوقيع عليه. وهم ينامون في بيتي، ويأكلون، أُوفر لهم الكسوة، وأعطيهم فوق ذلك إكراميات. وأؤكد لك أن هذا شيئاً ليس كثير الحدوث في هذه البلاد. والأربعة أحرار في الذهاب عندما يرغبون في ذلك. تحدث إليهم واسألهم إن كانوا يرغبون في البحث عن عمل في مكان آخر. وسترى ردّ فعلهم يا سيد كيسمنت.

هز هذا الأخير رأسه موافقاً وتناول رشفة من كأس نبيذه.

ـ لم أشأ إغضابك ـ قال معتذراً ـ. إنني أحاول أن أفهم في أي بلاد أنا، أن أفهم قيم إيكيتوس وعاداتها. ولا نية لدي في أن تنظر إليّ كأني قاضي تفتيش.

كانت نظرة القنصل، الآن، عدائية. كان يهوّي ببطء وفي نظرته توجس إضافة إلى الضغينة.

ـ ليس كقاضي تفتيش، وإنما كعادل ـ صحح له وهو يبدي تكشيرة استياء ـ أو كبطل، إذا كنت تفضل. لقد قلتُ لك من قبل إنني لا أحب الأبطال. لا تأخذ صراحتي على محمل السوء. وفي ما عدا ذلك، لا تبنِ أوهاماً. فأنت لن تغير ما يجري هنا يا سيد كيسمنت. وكذلك الأب أوروتيا. وما يحدث لهؤلاء الأطفال هو حسن طالع بطريقة ما. أعني كونهم خدماً. سيكون أسوأ ألف مرة لهم أن يكبروا في القبائل، وهم يأكلون القمل، ويموتون بأنواع الحمى أو أي وباء قبل أن يبلغوا العاشرة، أو يعملوا كحيوانات في محطات المطاط. هنا يعيشون حياة أفضل. أعرف أن برغماتيتي هذه تصدمك.

لم يقل روجر كيسمنت شيئاً. فقد عرف ما كان يريد معرفته. كما عرف أيضاً، أن القنصل البريطاني في إيكيتوس قد يتحول إلى عدو آخر يكون عليه توخي الحذر منه.

ـ لقد جئتُ إلى هنا كي أخدم بلادي في مهمة دبلوماسية ـ أضاف مستر ستيرز وهو ينظر إلى حصيرة الألياف على الأرض ـ. وأؤكد لك أنني أنجز مهمتي على أحسن وجه. فأنا أعرف المواطنين البريطانيين هنا، وهم ليسوا كثيرين، وأدافع عنهم وأخدمهم في كل ما يحتاجون إليه. وأفعل كل ما بوسعي من أجل تنشيط التجارة بين منطقة الأمازون

والإمبراطورية البريطانية. وأُبقي حكومتي على اطلاع على حركة التجارة، والسفن التي تجيء وتذهب، والحوادث الحدودية. ولا وجود بين واجباتي لمكافحة العبودية أو أعمال التعسف التي يرتكبها الخلاسيون أو البيض في البيرو ضد هنود الأمازون.

- يؤسفني أن أكون قد أغضبتك يا سيد ستيرز. فلنتوقف عن الحديث في هذه المسألة.

نهض روجر واقفاً، تمنى ليلة سعيدة لصاحب البيت وانسحب إلى حجرته. كانت العاصفة قد هدأت، لكن هطول المطر تواصل. كانت الشرفة المجاورة للحجرة مبللة. وفي الجو رائحة زخمة لنباتات وتراب رطب. وكان الليل قاتماً وضجة الحشرات شديدة، كما لو أنها ليست في الغابة فقط وإنما داخل الغرفة أيضاً. فمع العاصفة هطل نوع آخر من المطر: سيل جنس من الخنافس يسمونه فينتشوكا. وفي الغد ستُرصِّع جثثها الشرفة، وإذا ما داس عليها ستفرقع مثل الجوز وتلطخ الأرض بدمها الأسود. خلع ملابسه، وارتدى البيجاما واندس في الفراش تحت الكلّة.

لقد تصرف بتهور دون شك. فإغضاب القنصل، وهو رجل طيب، لا ينتظر سوى مجيء تقاعده دون التورط في مشاكل، والعودة إلى إنكلترا ودفن نفسه هناك للعناية بحديقة بيته الريفي في سوريّ الذي دفع ثمنه شيئاً فشيئاً من مدخراته. وهذا ما كان عليه أن يفعله هو نفسه، لأن عيش تلك الحياة سيخفف من معاناته من أمراض الجسد وغمّ الروح.

تذكر جداله العنيف في السفينة ***هويانا*** التي سافر فيها من تاباتينغا، نقطة الحدود بين البيرو والبرازيل، للمجيء إلى إيكيتوس، برفقة تاجر

المطاط فيكتور إزائيل، وهو يهودي من مالطا، يقيم منذ سنوات طويلة في الأمازون، وقد دار بينهما حوار طويل ومسلٍ على شرفة السفينة. كان فيكتور إزرائيل يلبس بصورة غريبة، يبدو معها كأنه متنكر دوماً، يتكلم إنكليزية لا تشوبها شائبة ويروي بظُرف حياته المغامرة التي تبدو خارجة من إحدى روايات الصعلكة، بينما هما يلعبان البوكر، ويتناولان كؤوساً من الكونياك الذي يفتن تاجر المطاط. وكانت يمارس عادة رهيبة بإطلاقه النار على طيور البجع الوردي التي تحلق فوق السفينة من مسدس قديم يرجع إلى أزمنة أخرى، ولكنه نادراً ما يصيب هدفه لحسن الحظ. إلى أن حدث ذات يوم، ولا يتذكر روجر المناسبة، قام فيه فيكتور إزرائيل بتقديم دفاع حماسي عن خوليو س. آرانا. فالرجل يعمل على إخراج منطقة الأمازون من وحشيتها وينقلها إلى العالم المتحضر. ودافع عن «الغارات» التي بفضلها، حسب قوله، مازالت هناك أيدٍ عاملة لجمع المطاط. لأن مشكلة الأدغال الكبرى هي نقص العمال الذين يجمعون المادة الثمينة التي شاء الخالق أن يهبها لتلك المنطقة ويبارك بها البيرويين. ف «مَنّ السماء» ذاك كان يتبدد بسبب كسل وغباء المتوحشين الذين يرفضون العمل كجامعي مطاط ويضطرون تجار الكاتشوك إلى الذهاب إلى القبائل لإحضارهم بالقوة. مما يعني خسارة الشركات الكثير من الوقت والمال.

- لا بأس، هذه طريقة في النظر إلى الأمور - قاطعه روجر كيسمنت باعتدال -. وهنالك طريقة أخرى.

كان فيكتور إزرائيل رجلاً طويلاً، شديد النحول، مع لطخات بيضاء في شعره الطويل السبط الذي يصل حتى كتفيه. له لحية لم تُحلق منذ

عدة أيام في وجهه الكبير بارز العظام، وعينان صغيرتان سوداوان مثلثيتان، فيهما شيء ميفيستوفيلسيّ، نظرتا إلى روجر كيسمنت بحيرة. كان يلبس صديرياً أحمر، وفوقه حمالات السروال، ويعقد منديلاً مبهرجاً حول كتفيه.

ـ ما الذي تعنيه حضرتك؟

ـ أعني وجهة نظر من تسميهم المتوحشين ـ أوضح كيسمنت بنبرة سوقية، كما لو أنه يتكلم عن الوقت إلى البعوض ـ. ضع نفسك مكانهم للحظة. إنهم هناك، في قراهم، حيث عاشوا لسنوات أو قرون. وذات يوم يأتي سادة بيض أو خلاسيون يحملون البنادق والمسدسات ويطلبون منهم ترك عائلاتهم، وزراعتهم، وبيوتهم، من أجل جمع المطاط على بعد عشرات أو مئات الكيلومترات، لمنفعة بعض الغرباء، دون أي حق سوى القوة التي يمتلكونها. هل كنت ستذهب برغبة طيبة لجني المطاط الشهير يا سيد فيكتور؟

ـ أنا لست متوحشاً يعيش عارياً، يعبد الياكوماما ويُغرق أبناءه إذا ولدوا بشفة أرنبية ـ أجابه تاجر المطاط بضحكة صفراء مزدرية تزيد من إظهار حدة استيائه ـ. أتضع حضرتك أكلة لحوم البشر الأمازونيين في المستوى نفسه الذي نقف فيه نحن الرواد، ورجال الأعمال والتجار ممن نعمل في ظروف بطولية ونقامر بحياتنا لتحويل هذه الغابات إلى أراضٍ متحضرة؟

ـ ربما لدينا أنا وأنت مفهوم مختلف عما هي الحضارة يا صديقي ـ قال روجر كيسمنت، ودائماً بتلك النبرة الساذجة التي يبدو أنها كانت تُغضب فيكتور إزرائيل كثيراً.

كان يجلس معهما إلى مائدة البوكر عالم النبات والتر فوك وهنري فيلجاد، بينما أعضاء لجنة كيسمنت الآخرون يستلقون في أراجيح نومهم ليستريحوا. كانت ليلة هادئة، دافئة، وكان القمر مكتملاً ينير مياه نهر الأمازون ببريق فضي.

ـ أرغب في أن أعرف ما هي فكرتك عن الحضارة ـ قال فيكتور إزرائيل. وكان الشرر يتطاير من عينيه وصوته. وبدا غضبه كبيراً إلى حد تساءل معه روجر عما إذا كان تاجر الكاوتشوك سيسحب فجأة مسدسه الأثري الذي يحمله في قراب على خصره، ويطلق عليه النار.

ـ يمكن تلخيصها بالقول إنه مجتمع تُحترم فيه الملكية الخاصة والحرية الشخصية ـ أوضح بهدوء كبير، وكل حواسه متيقظة تحسباً لمحاولة فيكتور إزرائيل الاعتداء عليه ـ. فالقوانين البريطانية على سبيل المثال تحظر على المستوطنين احتلال أراضي السكان الأصليين في المستعمرات. وتحظر كذلك، تحت طائلة السجن، استخدام القوة ضد الوطنيين الذين يرفضون العمل في المناجم أو في الحقول. وحضرتك لا تفكر في أن هذه هي الحضارة. أم أنني مخطئ؟

كان صدر فيكتور إزرائيل الضامر يعلو وينخفض محركاً القميص الغريب ذا الكمين الفضفاضين الذي يرتديه مزرراً حتى العنق وكذلك الصدار الأحمر. وكان إبهاماه مدسوسين تحت حمالتي السروال وعيناه المثلثتان محتقنتين كما لو أنهما تنزفان. بينما يكشف فمه المفتوح عن صف أسنان غير منتظمة وملطخة بالنيكوتين.

ـ وفق وجهة النظر هذه ـ أكد بنبرة ساخرة وجارحة ـ، يجب على البيرويين أن يتركوا منطقة الأمازون غارقة في العصر الحجري إلى أبد

الآبدين. من أجل عدم إغضاب الوثنيين وعدم احتلال هذه الأراضي التي لا يعرفون ما يفعلون بها لأنهم كسالى ولا يريدون العمل. تبديد ثروة يمكن لها رفع مستوى حياة البيرويين وجعل البيرو بلداً حديثاً. أهذا هو ما يقترحه التاج البريطاني لهذه البلاد يا سيد كيسمنت؟

ـ مما لا شك فيه أن الأمازون مركز ثروات عظيمة ـ وافق كيسمنت دون أن ينفعل ـ. وليس هنالك عدل أكبر من عمل البيرو على استغلالها. ولكن دون التعسف مع الوطنيين، ودون اصطيادهم كالحيوانات، ودون عمل عبودي. بل ضمهم إلى الحضارة من خلال المدارس والمستشفيات والكنائس.

انفجر فيكتور إزرائيل في الضحك مهتزاً مثل دمية بنوابض.

ـ في أي عالم تعيش أيها السيد القنصل! ـ هتف وهو يرفع يديه ذات الأصابع العظمية بطريقة مسرحية ـ. يبدو واضحاً أنك لم ترَ في حياتك آكل لحم بشري واحد. أتدري كم من المسيحيين أكلهم هؤلاء هنا؟ وكم من البيض والتشولو قتلوا بسهامهم المسمومة؟ وكم شخصاً هشموا رأسه مثلما يفعل هنود شابيرا؟ سنتحدث في هذا الأمر عندما يصبح لديك قليل من الخبرة بالهمجية.

ـ لقد عشتُ عشرين عاماً في أفريقيا وأعرف شيئاً عن هذه الأمور يا سيد إزرائيل ـ أكد له كيسمنت ـ. وأقول لك، بهذه المناسبة، أنني تعرفت هناك على بيض كثيرين يفكرون مثلك.

ومن أجل تفادي أن يتحول الجدال إلى مزيد من الشراسة، حوّل والتر فوك وهنري فيلجالد الحديث إلى موضوعات أخرى أقل وعورة. وفي تلك الليلة، وهو مؤرق، بعد عشرة أيام في إيكيتوس ومقابلته أناساً

من كافة المستويات، وتدوينه عشرات الآراء التي جمعها هنا وهناك من سلطات وقضاة وعسكريين وأصحاب مطاعم وصيادين وقوادين وكسالى وعاهرات وعاملين في المواخير والبارات، قال كيسمنت لنفسه إن الغالبية العظمى من بيض وخلاسيي إيكيتوس، بيرويين وأجانب، يفكرون مثل فيكتور إزرائيل. فالسكان الأصليون الأمازونيين في نظرهم، بكل ما في الكلمة من معنى، ليسوا بشراً، وإنما هم شكل أدنى ومزدرى من الحياة، أقرب إلى الحيوانات منهم إلى المتحضرين. ولهذا من المشروع استغلالهم، وجلدهم، واختطافهم، واقتيادهم إلى محطات جمع المطاط، أو قتلهم إذا قاوموا مثلما تُقتل الكلاب التي تنقل عدوى داء الكَلَب. وهي رؤية عامة عن الوطني بحيث ليس هنالك، كما قال الأب ريكاردو أووتيا، من يستغرب كون الخدم المنزليين في إيكيتوس طفلات وأطفال مسروقين ومباعين للعائلات اللوريتية بما يعادل جنيهاً استرلينياً واحداً أو جنيهين اثنين. اضطره الكرب إلى فتح فمه والتنفس بعمق كي يصل الهواء إلى رئتيه. فإذا كان قد رأى وعرف هذه الأمور كلها، فما الذي لن يراه في بوتومايو.

غادر أعضاء اللجنة إيكيتوس يوم الرابع عشر من أيلول ١٩١٠، عند الضحى. وكان روجر قد تعاقد مع فريديك بيشوب كمترجم، وهو أحد البابادوسيين الذين قابلهم. بيشوب يتكلم الإسبانية ويؤكد أنه يستطيع أن يَفهم ويُفهِم باللغتين الأكثر شيوعاً من لغات السكان الأصليين في مناطق المطاط: لغة البورا ولغة الهيتوتو. كانت السفينة *ليبرال* في حالة جيدة، وهي الأكبر ضمن أسطول الخمس عشرة سفينة لدى شركة الأمازون النهرية. تتوافر فيها قمرات صغيرة يمكن للمسافرين، اثنين في كل منها، السفر براحة. كما تتوافر أراجيح نوم

معلقة في المقدمة وفي المؤخرة لمن يفضلون النوم في العراء. كان بيشوب خائفاً من العودة إلى بوتومايو، وطلب من روجر كيسمنت تأكيداً خطياً بأن اللجنة ستوفر له الحماية خلال الرحلة، وأن الحكومة البريطانية ستُعيده بعد ذلك إلى باربادوس.

الرحلة من إيكيتوس إلى لاتشوريرا، عاصمة أراضي ما بين نهري نابو وكاكيتا، حيث ميدان عمل شركة الأمازون البيروية التي يملكها خوليو س. آرانا، استمرت ثمانية أيام من الحر وسُحب البعوض، والضجر، ورتابة المشهد، والضجيج. نزلت السفينة عبر نهر الأمازون الذي يتسع عرضه ابتداء من إيكيتوس حتى تصبح ضفتاه غير مرئيتين، واجتازت حدود البرازيل في تاباتينغا، وواصلت طريقها نزولاً عبر يافاري لتعاود الدخول إلى البيرو عبر نقطة إغارابارانا. وفي هذا المقطع من النهر تتقارب الضفتان إلى حدّ أن عرائش وأغصان الأشجار الشامخة تظلل سطح السفينة. كانت تُسمع وتُرى أسراب ببغاوات تتنقل بصورة متعرجة وتصرخ بين الأشجار، أو أعداد قليلة جداً من البجع الوردي تتشمس في جُزيرة وتتوازن واقفة على قائمة واحدة، ودروع سلاحف يبرز لونها الأشهب وسط مياه أكثر شحوباً بقليل، وأحياناً يُرى الظل القنفذي لتمساح ينام في وحل الضفة فيطلقون عليه نيران البنادق أو المسدسات من السفينة.

أمضى روجر كيسمنت شطراً لا بأس به من الرحلة في ترتيب ملاحظاته ودفاتر إيكيتوس، ووضع خطة عمل للشهور التي سيقضيها في ممتلكات خوليو س. آرانا. فوفقاً لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية عليه ألا يقابل سوى الباربادوسيين الذين يعملون في المحطات لأنهم

مواطنون بريطانيون، وأن يترك بسلام الموظفين البيرويين وحاملي الجنسيات الأخرى، كيلا يجرح حساسية الحكومة البيروية. ولكنه لا يفكر في احترام تلك الحدود. فتحقيقه سيظل أعور، أبتر، أعرج ما لم يحصل أيضاً على معلومات من رؤساء المحطات، ومن «شبابهم» أو «عقلائهم» ـ وهؤلاء هنود يتكلمون الإسبانية يتولون مراقبة العمال وتطبيق العقوبات ـ وكذلك من الوطنيين أنفسهم. بهذه الطريقة فقط ستكون لديه رؤية متكاملة للطريقة التي يخرق بها خوليو س. آرانا القوانين والأخلاق في علاقته مع الوطنيين.

في إيكيتوس، نبه بابلو ثومايتا أعضاء اللجنة إلى أن الشركة، بتعليمات من آرانا، أرسلت مقدماً إلى بوتومايو أحد مسؤوليها الرئيسيين، السيد خوان تيثون، كي يستقبلهم ويُسهّل تنقلاتهم وعملهم. وافترض أعضاء اللجنة أن السبب الحقيقي لسفر تيثون إلى بوتومايو هو إخفاء آثار التعسف وتقديم صورة مُمكيجة للواقع.

وصلوا إلى لاتشوريرا عند ظهر يوم ٢٢ أيلول ١٩١٠. وتسمية المكان آتية من سيول جارفة وشلالات يسببها تضيّق مفاجئ في مسار النهر، مشهد صاخب وعظيم من الزبد والدوي والصخور المبللة، والدوامات المائية، يكسر الرتابة التي كان ينساب بها نهر إغارابارانا، الرافد الذي يقوم على ضفافه المقر العام لشركة الأمازون البيروية. ومن أجل الوصول من المرسى إلى مكاتب ومساكن لاتشوريرا لا بد من تسلق سفح وعر يغطيه الوحل والآجام. كانت أحذية المسافرين تغطس أحياناً في الوحل فيكون على هؤلاء، كيلا يسقطوا أرضاً، أن يستندوا أحياناً إلى الحمالين الهنود الذين يحملون الأمتعة. وبينما هم يصافحون

من جاؤوا لاستقبلاهم، تبين روجر، وهو يشعر بشيء من القشعريرة، أن واحداً من كل ثلاثة أو أربعة من السكان الأصليين شبه العراة الذين يحملون حزم الأمتعة أو ممن ينظرون إليهم بفضول من الضفة، ويضربون أذرعهم بأكفهم المفتوحة لإبعاد البعوض، يحمل على ظهره أو إليتيه وفخذية قروحاً لا يمكن لها أن تكون سوى ضربات سياط. إنها الكونغو، أجل، الكونغو في كل مكان.

كان خوان تيثون رجلاً طويل القامة، يرتدي ملابس بيضاء، على الطريقة الأرستقراطية، مهذباً جداً، يتكلم ما يكفي من الإنكليزية للتفاهم معه. لا بد أنه يقارب الخمسين من العمر ويُرى عن بُعد فرسخ، بسبب وجهه جيد الحلاقة وشاربه المشذب ويديه الناعمتين وزينته، أنه هنا، وسط الأدغال، ليس في بيئته، لأنه رجل مكتب وصالونات ومدينة. رحب بهم بالإنكليزية والإسبانية وقدم إليهم مرافقه الذي أحس روجر باشمئزاز بمجرد ذكر اسمه: فيكتور ماثيدو، رئيس منطقة لاتشوريرا. هذا الشخص، على الأقل، لم يهرب. فمقالات سالدانيا روكا، ومقالات هاردنبرغ في مجلة *الحقيقة* اللندنية تشير إليه باعتباره أحد أشد معاوني آرانا دموية في بوتومايو.

تأمله بينما هم يتسلقون السفح. إنه رجل في سن يصعب تحديدها، متين البنية، أقرب إلى قصر القامة منها إلى الطول، تشولو أبيض ولكن بملامح وطني فيها شيء شرقي، أنف أفطس، فم بشفتين كبيرتين ومفتوحتين على الدوام تكشفان عن سنّين أو ثلاث أسنان ذهبية، وتعبير قاس لشخص تمرس على العيش في العراء. وخلافاً للقادمين الجدد، كان يصعد السفح بسهولة. له نظرة زائغة تميل جانباً، كما لو أنه ينظر

جانبياً لتفادي وميض الشمس أو لأنه يخشى النظر مواجهة إلى الناس. كان تيثون يمضي بلا سلاح، أما فيكتور ماثيدو فيتباهى بمسدس مثبت إلى حزام بنطاله.

في الفسحة الواسعة جداً في الغابة، يوجد بناء من خشب فوق أوتاد ـ جذوع أشجار ثخينة أو أعمدة اسمنتية ـ مع شرفات في الطابق الثاني، الكبيرة منها مسقوفة بألواح صفيح والصغيرة بسعف نخيل مجدول. كان تيثون يشرح لهم وهو يشير بيديه ـ «هناك المكاتب»، «وهذه هي مستودعات المطاط»، «وفي هذا البيت ستقيمون حضراتكم» ـ ولكن روجر لم يكن يكاد يسمعه. فقد كان يتأمل جماعات السكان الأصليين شبه العراة أو العراة تماماً الذين ينظرون إليه بلا مبالاة، أو يتحاشون النظر إليه: رجال ونساء وأطفال هزيلون، مع خطوط ملونة على وجوه وصدور بعضهم، سيقانهم نحيلة كالقصب، وجلودهم شاحبة، ضاربة إلى الصفرة، مع شقوق أحيانا وأقراط تتدلى من الشفاه والآذان تُذكّره بالوطنيين الأفارقة. لا وجود لزنوج هنا. والخلاسيون والسمر القليلون الذين لمحهم يرتدون بناطيل وينتعلون جزمات هم دون شك جزء من القوة المجلوبة من باربادوس. أحصى أربعة منهم، أما «الشباب» و«العقلاء» فتعرف إليهم فوراً، على الرغم من أنهم هنود وحفاة، إلا أنهم يقصون شعورهم، ويسرحونها مثل «المسيحيين» ويرتدون بناطيل وبلوزات، ويعلقون بأحزمتهم عصياً وسياطاً.

بينما كان على كل اثنين من أعضاء اللجنة الآخرين أن يتقاسموا الحجرة نفسها، تمتع روجر بامتياز أن تكون له غرفة وحده. كانت حجرة ضيقة، فيها أرجوحة نوم بدلاً من السرير وقطعة أثاث يمكن

استخدامها كصندوق ومنضدة كتابة في آن واحد. وفوق كوميدينو صغير يوجد طست غسل، وإبريق ماء ومرآة. أوضحوا له أن هنالك في الطابق الأول حفرة مرحاض ودوشاً. وما كاد يستقر ويترك أمتعته، وقبل أن يجلس لتناول الغداء، قال روجر لخوان تيثون إنه يريد البدء في مساء ذلك اليوم بالذات بمقابلة جميع الباربادوسيين الموجودين في لاتشوريرا.

في أثناء ذلك كانت قد تغلغلت في أنفه تلك الرائحة الزنخة النفاذة، الزيتية، الشبيهة برائحة نباتات وأوراق متعفنة. إنها تملأ أنحاء لاتشوريرا وسترافقه صباحاً ومساء وليلاً خلال الشهور الثلاثة التي دامتها رحلته إلى بوتومايو، رائحة لم يعتد عليها قطّ، جعلته يتقيأ ويصاب بنوبات غثيان، نتانة تبدو كأنها تأتي من الهواء، من الأرض، من الأشياء، من الكائنات البشرية، وستتحول في نظر روجر كيسمنت، منذ ذلك الحين، إلى رمز للشر والمعاناة التي سبّبها ذلك المطاط الذي تفرزه أشجار الأمازون، وأوصلها إلى حدود دوارية قصوى. وقد قال لخوان تيثون يوم وصوله: «أمر غريب. لقد ذهبت مرات كثيرة إلى مناطق المطاط ومستودعاته في أفريقيا. ولكنني لا أتذكر أن المطاط الكونغولي يطلق رائحة بهذه القوة والإزعاج»، فأوضح له تيثون: «إنها نوعية مختلفة. إن رائحته هنا أقوى، ولكنه أشد مقاومة ومتانة من المطاط الأفريقي أيضاً. والبالات التي يشحن بها إلى أوروبا تُرش بمسحوق التالك من أجل تخفيف رائحة النتانة».

مع أن عدد الباربادوسيين في منطقة بوتومايو كلها يبلغ ١٩٦ شخصاً، إلا أن ستة منهم فقط كانوا في لاتشوريرا. رفض اثنان منهم مسبقاً التحدث إلى روجر، على الرغم من أنه أكّد لهما، من خلال

بيشوب، أن شهادتيهما ستُقدمان على انفراد، وأنهما لن يُحاكما بأي حال على ما سيقولانه، وأنه سيتولى هو نفسه نقلهما إلى باربادوس إذا كانا لا يريدان مواصلة العمل في شركة آرانا.

الأربعة الذين وافقوا على تقديم شهاداتهم أمضوا في بوتومايو قرابة سبع سنوات، وخدموا شركة الأمازون البيروية في محطات كرؤساء فرق عمل، وهي وظيفة وسيطة بين رؤساء المحطات و«الشباب» أو «العقلاء». أول من تحدث إليه كان دانييل فرانثيا، وهو زنجي طويل القامة قوي البنية، يعرج قليلاً، وفي عينه بقعة بيضاء. وقد كان عصبياً جداً وأبدى انعدام ثقة كبير توقّع روجر معه، على الفور، أنه لن يحصل منه على الكثير. كان يردّ بكلمات قليلة وأنكر كافة الاتهامات. فالمسؤولون في لاتشوريرا، حسب رأيه، والموظفون و«حتى المتوحشون» يعيشون على أحسن حال. لم تحدث مشاكل قط ناهيك عن وقوع أعمال عنف. لقد لُقن جيداً ما يجب عليه أن يقوله ويفعله أمام كيسمنت.

كان روجر يتعرق بغزارة. ويشرب رشفات ماء. أتكون غير مجدية، مثل هذه، مقابلاته الأخرى مع باربادوسيي بوتومايو؟ لكنها لم تكن كذلك. ففيليب بيرتي لورنس، وسيفورد غرينوتش، وستانلي سيلي، وبصورة خاصة هذا الأخير، بعد تغلبهم على حذرهم الأولي وتلقيهم وعد روجر، باسم الحكومة البريطانية، بإعادتهم إلى باربادوس، اندفعوا في الكلام، وإخباره بكل شيء، وتجريم أنفسهم باحتداد جامح أحياناً، كأنهم يتلهفون لإراحة ضمائرهم. وقد وضح ستانلي سيلي شهادته بدقة وبأمثلة، على الرغم من تجربته الطويلة مع الفظاعات البشرية، حتى إن

كيسمنت أحس بالدوار في بعض اللحظات وبغمّ يكاد لا يسمح له بالتنفس. وعندما انتهى الارباوسي من الكلام كان الليل قد حلّ. وصار أزيز الحشرات الليلة يبدو مدوياً كما لو أن ملايين منها تحوم حوله. كانا يجلسان على مقعد خشبي، على الشرفة المؤدية إلى حجرة نوم روجر. وقد دخنا، كلاهما، علبة سجائر. وفي الظلمة المتزايدة، لم يعد بإمكان روجر رؤية ملامح الخلاسي ستانلي سيلي، وإنما محيط رأسه وذراعيه العضليين فقط. قال إنه في لاتشوريرا منذ وقت قصير. وكان قد عمل سنتين في محطة إبيسينيا، كذراع أيمن للمسؤولين أبيلاردو أغويرو وأغوسطو خيمينث، وعمل قبلها في ماتانثاس، مع أرماندو نوماند. بقيا صامتين. كان روجر يشعر بلسع البعوض في وجهه، ورقبته، وذراعيه، ولكنه لا يجد الحماسة لهش الحشرات.

انتبه فجأة إلى أن ستانلي يبكي. فقد رفع يديه إلى وجهه وأخذ ينتحب ببطء، مع بعض الزفرات التي توسع الصدر. ورأى روجر بريق الدموع في عينيه.

ـ هل تؤمن بالرب؟ ـ سأله ـ هل أنت متدين؟

ـ كنت كذلك في طفولتي على ما أظن ـ أنَّ الخلاسي بصوت ممزق ـ. كانت عرابتي تأخذني إلى الكنيسة في أيام الآحاد، هناك في سانت باتريك، القرية التي ولدتُ فيها. أما الآن فلا أدري.

ـ أسألك لأن التكلم إلى الرب قد ينفعك. لا أطلب منك أن تصلي له، وإنما أن تتكلم إليه. حاول ذلك. تكلم إليه بالصراحة نفسها التي تكلمت بها معي. أخبره بما تشعر به، ولماذا أنت تبكي. فهو قادر على

مساعدتك أكثر مني. أنا لا أعرف كيف أساعدك. فأنا أشعر بالتشوش مثلك يا ستانلي.

ومثل كل من فيليب بيرتي لورنس وسيفورد غرينوتش، كان ستانلي مستعداً لتكرار شهادته أمام أعضاء اللجنة، بل وأمام السيد خوان تيثون كذلك. على أن يكون دائماً إلى جانب كيسمنت وأن يسافر معه إلى إيكيتوس ومن هناك إلى باربادوس.

دخل روجر إلى حجرته وأشعل مصابيح الزيت، خلع قميصه وغسل صدره وإبطيه ووجهه بماء الطست. كان يرغب في الاستحمام تحت دوش، ولكن ذلك يتطلب منه النزول إلى تحت والاستحمام في العراء، ويعرف أن بدنه سيكون عرضة للبعوض الذي يتكاثر في الليل أعداداً وشراسة.

نزل لتناول العشاء في الطابق السفلي. كان خوان تيثون ورفاقه في السفر يتناولون كؤوساً من الويسكي الفاتر والمخلوط بماء. ويتبادلون الحديث واقفين، بينما ثلاثة أو أربعة خدم من السكان الأصليين، شبه عراة، يأتون بأسماك مقلية ومشوية بالفرن، ويوكا مسلوقة، وبطاطا مسلوقة ودقيق ذرة يرشونه على المأكولات مثلما يفعل البرازيليون بال *farinha*. وآخرون يهشون الذباب بمراوح من القش.

ـ كيف كانت الحال مع الباربادوسيين؟ ـ سأله خوان تيثون وهو يقدم إليه كأس ويسكي.

ـ أفضل مما كنت أتوقعه يا سيد تيثون. كنت أخشى أن يمتنعوا عن الكلام. ولكن على العكس. ثلاثة منهم تكلموا إلي بصراحة كاملة.

ـ آمل أن تشاطرني الشكاوى التي تلقيتها ـ قال تيثون بنبرة نصف

مازحة ونصف جدية ـ. فالشركة تريد إصلاح ما يجب إصلاحة وتحسين الأمور. هذه هي سياسة السيد آرانا على الدوام. حسن، أظن أنك جائع. إلى المائدة إذاً أيها السادة!

جلسوا وبدؤوا سكب المأكولات من مختلف الصواني. كان أعضاء اللجنة قد أمضوا المساء في التجوال على منشآت لاتشوريرا، وبمساعدة بيشوب تبادلوا الحديث مع إداريي المستودعات. جميعهم بدوا متعبين وليس لديهم رغبة في الكلام. هل كانت تجاربهم في هذا اليوم الأول مُثبِّطة للعزيمة مثل تجربته؟

عرض عليهم خوان تيثون نبيذاً. ولكنه نبههم إلى أن النبيذ الفرنسي، بسبب ظروف الشحن والمناخ، يصل إلى هناك معطوباً وبمذاق حامض في بعض الأحيان، ففضل الجميع أن يواصلوا شرب الويسكي.

وفي أثناء تناول الطعام، علق روجر، وهو يلقي نظرة على الهنود القائمين بالخدمة:

ـ رأيت أن هنالك قروحاً على ظهور وإليات وأفخاذ كثير من هنود وهنديات لاتشوريرا. مثل تلك الفتاة. كم جلدة سوط يتلقون عادة عندما يُجلدون؟

ساد صمت عام، تعاظمت خلاله فرقعة مصابيح الزيت وأزيز الحشرات. ونظر الجميع إلى خوان تيثون بملامح جدية.

ـ هذه الجروح يُحدثونها هم أنفسهم في معظم الحالات ـ أكد تيثون بضيق ـ لديهم في قبائلهم تلك الطقوس الهمجية التي يعتبرونها طقوس تمرس، وأنتم تعلمون كيف يُحدثون ثقوباً في الوجوه، وفي الشفاه

والآذان والأنوف، من أجل إدخال خواتم وأسنان وكل أشكال التعاليق. لا أنكر أن بعض تلك الجراح تسبب بها بعض رؤساء فرق العمال الذين لم يحترموا تعليمات الشركة. فأنظمتنا تحظر العقوبات البدنية بصورة حاسمة.

ـ ليس هذا هوسؤالي يا سيد تيثون ـ اعتذر كيسمنت ـ. فمع أن جروحاً كثيرة تُرى، إلا أنني لم أرَ أي هندي يحمل وسم الشركة على جسده.

ـ لا أدري ما الذي تعنيه ـ ردّ عليه تيثون وهو يُنزل الشوكة.

ـ أخبرني الباربادوسيون أن هنوداً كثيرين موسومون بالحرفين الأولين من اسم الشركة CA، شركة آرانا. مثل الأبقار والخيول والخنازير. كيلا يهربوا ولا تسرقهم شركات جمع المطاط الكولومبية. قالوا إنهم هم أنفسهم قد وسموا كثيرين. بالنار أحياناً وفي أحيان أخرى بالسكين. ولكنني لم أرَ واحداً منهم حتى الآن يحمل ذلك الوسم. ما الذي جرى لهم يا سيد؟

فقد خوان تيثون رصانته وأساليبه المهذبة فجأة. فقد احتقن وجهه وصار يرتجف من السخط.

ـ لا أسمح لك بأن تكلمني بهذه النبرة ـ صاح بخليط من الإنكليزية والإسبانية ـ. أنا هنا كي أسهّل عملكم وليس للسخرية مني.

هز روجركيسمنت رأسه موافقاً دون تأثر.

ـ أطلب منك المعذرة، لم أشأ إغضابك ـ قال بهدوء ـ. ما يحدث، بالرغم من أنني كنت شاهد عيان في الكونغو على فظاعات لا يمكن

وصفها، هو أنني لم أرَ وسم البشر بالنار أو السكين بعد. أنا واثق من أن حضرتك غير مسؤول عن هذه الفظاعات.

ـ لست مسؤولاً بالطبع عن أية فظاعات! ـ عاد تيثون إلى رفع صوته وهو يشير بيديه. وكانت عيناه تدوران في محجريهما، وقد خرج عن طوره ـ. وإذا كانت الفظاعات تُقترف فليست الشركة هي المذنبة. ألا ترى حضرتك أي مكان هو هذا يا سيد كيسمنت؟ فلا وجود هنا لأية سلطات، أو شرطة، أو قضاة، أو أي شيء. فمن يعملون هنا، من مسؤولين ورؤساء عمال ومعاونين ليسوا أشخاصاً متعلمين، بل هم في حالات كثيرة أميون، مغامرون، رجال أفظاظ، تصلبوا في الأدغال. وهم يقترفون في بعض الأحيان أعمال تعسف تثير الرعب في نفوس المتحضرين. أعرف ذلك جيداً. ونحن نفعل ما يمكننا فعله، صدقني. السيد آرانا يتفق معكم. جميع من اقترفوا مخالفات سيُفصلون من العمل. أنا لست متواطئاً في أي جور يا سيد كيسمنت. لدي اسم محترم، وأسرة تعني الكثير في هذه البلاد، إنني كاثوليكي يقوم بواجباته الدينية.

فكر روجر في أنه يمكن أن يكون خوان تيثون مؤمناً بما يقوله. وأنه رجل طيب، لا يريد أن يعرف شيئاً مما يحدث هنا حين يكون في إيكيتوس أو ماناوس أو ليما أو لندن. ولا بد أنه يلعن الساعة التي خطر فيها لخوليو س. آرانا إرساله إلى هذا الركن خارج العالم ليقوم بهذه المهمة المزعجة ومعاناة ألف مضايقة وازعاج.

ـ علينا أن نعمل معاً، أن نتعاون ـ كرر تيثون، وقد هدأ بعض الشيء، وهو يكثر من تحريك يديه ـ. فما يسير بصورة سيئة، سيتم

إصلاحه. والموظفون الذين اقترفوا فظاعات سيعاقبون. كلمة شرف! الشيء الوحيد الذي أطلبه منكم هو أن تروا فيّ صديقاً لكم، وشخصاً يقف إلى جانبكم.

بعد قليل قال خوان تيثون إنه يشعر بشيء من التوعك ويفضل الانسحاب. تمنى لهم ليلة سعيدة وغادر.

بقي حول المائدة أعضاء اللجنة وحدهم.

- موسومون كالبهائم؟ - دمدم عالم النبات والتر فوك بتشكك -. أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟

- ثلاثة من الباربادوسيين الأربعة الذين استجوبتهم اليوم أكّدوا لي ذلك - قال كيسمنت -. ستانلي سيلي يقول إنه هو نفسه فعل ذلك في محطة أبيسينيا، بأمر من رئيسه أبيلاردو أغويرو. ولكن الوسم ليس هو ما يبدو لي أسوأ الممارسات هنا. فقد سمعت أشياء أشد رهبة هذا المساء.

واصلوا تبادل الحديث، ولكن دون أكل لقمة أخرى إضافية، إلى أن فرغت زجاجتا الويسكي اللتان كانتا على المائدة. كان أعضاء اللجنة مذهولين من القروح على ظهور السكان الأصليين ومن جذع وقفص للتعذيب اكتشفوا وجوده في أحد مستودعات لاتشوريرا حيث يخزنون المطاط. وأمام السيد تيثون الذي مر بلحظات عصيبة، شرح لهم بيشوب كيف يعمل ذلك الهيكل المصنوع من خشب وحبال الذي يُدخل إليه الوطني ويحشر مقرفصاً. لا يمكنه تحريك ذراعيه أو ساقيه. ويُعذب بإحكام القضبان الخشبية أو بتعليقة في الهواء. وأوضح بيشوب أن قفص التعذيب يظل دوماً وسط الأرض الخلاء في كافة المحطات. وسألوا

أحد «العقلاء» في المستودع متى جيء بجهاز التعذيب إلى ذلك المكان. فقال لهم «الشاب» إنهم جاؤوا به إلى المستودع عشية وصولهم.

قرروا أن تستمع اللجنة في اليوم التالي لفيليب بيرتي لورنس، وسيفورد غرينوتش، وستانلي سيلي. واقترح سيمور بيل أن يكون خوان تيثون حاضراً. كانت هنالك آراء متعارضة، وخاصة رأي والتر فوك الذي خشي أن يتراجع الباربادوسيون، أمام المسؤول، عن أقوالهم السابقة.

لم يغمض روجر عينيه في تلك الليلة. ظل يدون ملاحظات حول حواره مع الباربادوسيين إلى أن انطفأ المصباح بنفاد الزيت فيه. انبطح في أرجوحة نومه وظل مؤرقاً، يغفو هنيهات ويستيقظ كل لحظة بألم في عضلاته وعظامه، دون أن يتمكن من إزاحة الغمّ الذي يغمره.

هذا كله وشركة الأمازون البيروية هي شركة بريطانية! في إدارتها توجد شخصيات محترمة في عالم الأعمال والستي مثل السير جون ليستر كاي، بارون سوزا - ديرو، وجون رسل غبينز، وهنري م. ريد. ما الذي سيقوله شركاء خوليو س. آرانا هؤلاء عندما يقرؤون، في التقرير الذي سيقدمه إلى الحكومة، أن الشركة التي أضفوا عليها الشرعية بأسمائهم وأموالهم تمارس العبودية، وأنها تحصل على جامعي المطاط والخدم عن طريق «غزوات» المسلحين الذين يقبضون على رجال ونساء وأطفال وطنيين ويقتادونهم إلى مزارع المطاط حيث يستغلونهم بطريقة جائرة، بتعليقهم في قفص التعذيب، ووسمهم بالنار والسكين، وجلدهم حتى النزف إذا لم يأتوا بالحد الأدنى المقدر بثلاثين

كيلوغراماً من المطاط كل ثلاثة شهور. لقد ذهب روجر إلى مكاتب شركة الأمازون البيروية في ساليزبوري هاوس ي.س.، في مركز لندن المالي. مكان مهيب، مع منظر من غانسبرغ على الجدران، وسكرتيرات بزي موحد، ومكاتب مفروشة بالسجاد، وآرائك من الجلد للزائرين، وحشد من الكتبة، ببناطيلهم المخططة، وستراتهم الطويلة السوداء، وقمصانهم ذات الياقات القاسية البيضاء وربطات العنق القصيرة، يُجرون حسابات، يرسلون ويتلقون برقيات، يبيعون ويشترون في كل المدن الصناعية الأوروبية إرساليات المطاط ذي الرائحة والمضافة إليه بودرة التالك. بينما في الجهة الأخرى من العالم، في بوتومايو، ينقرض شيئاً فشيئاً هنود الهيتوتو والأوكايما والموينانـي والنونويا والأندوكي والريسيغارو والبورا دون أن يحرك أحد إصبعاً لتغيير تلك الحال.

«لماذا لم يحاول هؤلاء السكان الأصليون التمرد؟»، هذا ما سأل عنه خلال العشاء عالم النبات والتر فوك. ثم أضاف: «صحيح أنهم لا يملكون أسلحة نارية. ولكنهم كثيرون، يمكنهم أن ينتفضوا ويسيطروا بكثرة عددهم على جلاديهم، حتى لو مات بعضهم». فرد عليه روجر بأن الأمر ليس بهذه البساطة. وهم لم يتمردوا للأسباب نفسها التي جعلت الكونغوليين لا يتمردون أيضاً في أفريقيا. فقد يحدث في حالات استثنائية فقط، وفي أمكنة محددة وبصورة فردية، عمليات انتحار أفراد أو جماعات صغيرة. لأن نظام الاستغلال عندما يصل إلى مثل هذه الحدود القصوى، يدمر الأرواح حتى قبل أن يدمر الأبدان. العنف الذي وقعوا ضحية له يقضي على إرادة المقاومة، وغريزة البقاء تحول السكان الأصليين إلى بشر آليين يشلهم التشوش والرعب. كثيرون لا يدركون ما

يحدث باعتباره نتيجة خبث بشر محددين بعينهم، وإنما على أنه كارثة خرافية، لعنة من الآلهة، وعقاب إلهي لا مهرب لهم منه.

ومع ذلك، فقد اكتشف روجر، في الوثائق التي راجعها حول الأمازون، أنه حدثت هنا، في بوتومايو، قبل سنوات، محاولة تمرد، في محطة أبيسينيا، حيث يقيم هنود البورا. وهو موضوع لا يريد أحد التكلم عنه. الباربادوسيون جميعهم تجنبوه. فزعيم قبيلة بوردا الشاب، ويدعى كاتينير، قام ذات ليلة، بمساعدة جماعة من قبيلته، بسرقة بنادق رؤساء فرق العمل و«العقلاء»، وقتل بارتولومي ثومايتا (قريب بابلو ثومايتا) الذي اغتصب امرأته وهو مخمور، واختفى الزعيم الهندي في الغابة. وضعت الشركة ثمناً لرأسه. وخرجت عدة حملات للبحث عنه. لم يتمكنوا خلال سنتين من القبض عليه. وأخيراً، حاصرت فصيلة صيادين، مع دليل هندي واشٍ، الكوخ الذي يختبئ فيه كاتينيري ومعه امرأته. تمكن الزعيم الهندي من الهرب، أما المرأة فقُبض عليها. قام الرئيس باسكيث باغتصابها بنفسه، أمام الملأ، ووضعها في قفص التعذيب الخشبي دون ماء أو طعام. أبقاها على تلك الحال عدة أيام. وكان يأمر بجلدها بين حين وآخر. وأخيراً، في إحدى الليالي، ظهر زعيم القبيلة. لا شك أنه قد راقب تعذيب امرأته من الدغل الكثيف. اجتاز الأرض الخلاء، رمى جانباً البندقية التي كان يحملها وذهب ليركع برضوخ إلى جانب قفص التعذيب حيث تحتضر زوجته، أو أنها كانت قد ماتت. أمر باسكيث «العقلاء» بعدم اطلاق النار عليه. وقام هو نفسه بقلع عيني كاتينيري بسلك. ثم أمر بإحراقه حياً مع زوجته أمام السكان الأصليين المصطفين في دائرة. هل جرت الأمور على هذا النحو؟ لقد كان للقصة نهاية رومانسية، هكذا فكر روجر، ومن المحتمل أنها قد

استُبدلت لتقريبها من شهية القسوة شديدة الانتشار في تلك الأراضي الحارة. ولكن ظلّ هناك، على الأقل، الرمز والمثل: وطني تمرد، وعوقب بالتعذيب ومات كبطل.

ما كاد ضوء الفجر يبزغ حتى غادر البيت الذي يبيت فيه، ونزل المنحدر باتجاه النهر. استحم عارياً، بعد أن وجد مخاضة ملاصقة للضفة يستطيع فيها مقاومة التيار. كان للماء عليه تأثير المساج. وعندما ارتدى ثيابه أحس بالانتعاش والنشاط. ولدى رجوعه إلى لاتشوريرا انحرف عن الطريق ليجول على القسم الذي تقوم فيه أكواخ هنود الهيتوتو. الأكواخ المبعثرة بين أراض مزروعة باليكة والذرة والموز كانت دائرية الشكل، مع حواجز من أخشاب مربوطة بسوق نباتات معرشة، ومحمية بسقوف من أوراق مجدولة تصل حتى الأرض. رأى نساء بارزات العظام يحملن أطفالاً ـ لم ترد أي منهن على انحناءات تحيته لهن ـ ولكنه لم يرَ رجلاً واحداً. وحين رجع إلى البيت، كانت امرأة من السكان الأصليين تضع في حجرته الملابس التي أعطاها إياها لتغسلها يوم وصوله. سألها بكم هو مدين لها ولكن المرأة ـ وهي شابة على وجهها خطوط خضراء وزرقاء ـ نظرت إليه دون أن تفهم ما يعنيه. فطلب من فريدريك بيشوب أن يسألها بكم يدين لها. فسألها هذا، بلغة الهويتوتو، ولكن المرأة بدت غير مدركة ما يعنيه.

ـ لا تدين لها بشيء ـ قال بيشوب ـ. فهنا لا يجري تداول النقود. كما إن هذه واحدة من نساء فيكتور ماثيدو، رئيس محطة لاتشوريرا.

ـ كم امرأة لديه؟

ـ لديه الآن خمس نساء ـ أوضح الباربادوسي ـ. عندما كنتُ أعمل

هنا، كان لديه سبع نساء على الأقل. لقد استبدلهن. هذا ما يفعلونه جميعهم.

ضحك وقال عبارة مازحة لم ترق لكيسمنت:

ـ النساء هنا يهترئن بسرعة بسبب المناخ. لا بد من تجديدهن طوال الوقت، مثلما تُستبدل الثياب.

الأسبوعان التاليان اللذان ظلّت خلالهما اللجنة في لاتشوريرا، قبل انتقال أعضائها إلى محطة أوكثيدنتي، سيتذكرهما روجر كيسمنت على أنهما أكثر أسابيع الرحلة اشغالاً وزخماً. كانت تسليته تقتصر على الاستحمام في النهر، عند المخاضات والشلالات التي تقل فيها سرعة التيار، والمسيرات الطويلة في الغابة، والتقاط الكثير من الصور، وبعض أدوار البريدج مع رفاقه في ساعات متأخرة من الليل. والحقيقة أنه يقضي معظم ساعات النهار والمساء في البحث والكتابة واستجواب أناس من المكان أو في تبادل الانطباعات مع زملائه.

وخلافاً لما كان يخشاه هؤلاء، لم يخفْ فيليب بيرتي لورنس، وسيفورد غرينويش، وستانلي سيلي أمام اللجنة بكامل أعضائها وبحضور خوان تيثون. بل أكدوا كل ما قالوه لروجر كيسمنت ووسعوا شهاداتهم كاشفين عن وقائع دم وتعسف جديدة. في بعض الأحيان، خلال الاستجوابات، كان روجر يرى شحوباً يصيب بعض أعضاء اللجنة ويبدون كما لو أنه سيُغمى عليهم.

كان خوان تيثون يظل صامتاً، يجلس وراءهم دون أن يفتح فمه. يدون ملاحظات في دفاتر صغيرة. في الأيام الأولى، بعد الاستجوابات، حاول أن يقلل من قيمة الشهادات المتعلقة بالتعذيب

والقتل وبتر الأعضاء وأن يجادل بشأنها. ولكنه منذ اليوم الثالث أو الرابع حدث لديه تحوّل. فقد صار يحتفظ بالصمت خلال تناول الطعام، ويكاد لا يتذوق لقمة، ويرد باقتضاب وغمغمة حين يتوجهون إليه بالكلام. وفي اليوم الخامس، بينما هم يتناولون كأساً قبل العشاء، انفجر: «الأمر يمضي أبعد كثيراً من كل ما كنت أتصوره. أقسم لكم بروح أمي المقدسة، وبزوجتي وأبنائي، وبأكثر ما أحبه في هذا العالم، أن هذا كله يشكل مفاجأة مطلقة لي. أشعر برعب عظيم مثل رعبكم. إنني مريض من الأشياء التي نسمعها. قد تكون هنالك مبالغات في شكاوى هؤلاء الباربادوسيين، وأنهم يريدون إرضاء حضراتكم. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فلا مجال للشك في أنه قد اقتُرفت هنا جرائم لا تغتفر، فظائع مريعة تستوجب التنديد والمحاكمة. أقسم لكم أنني. . .».

انقطع صوته وبحث عن كرسي يجلس عليه. ظل مطرقاً لوقت طويل والكأس في يده. تلعثم بأنه لا يمكن أن يدور في خلد خوليو س. آرانا شيئاً مما يحدث هنا، وكذلك مساعدوه في أيكيتوس أو ماناوس أو لندن. وسيكون هو نفسه أول من سيطالب بوضع علاج لهذا كله. أما روجر الذي تأثر بالجزء الأول مما قاله لهم أثيتون، فكر في أنه الآن أقل عفوية. وأنه، كإنسان في نهاية المطاف، يفكر في وضعه وفي أسرته ومستقبله. منذ ذلك اليوم، على كل حال، لم يعد خوان تيثون يبدو كموظف كبير في شركة الأمازون البيروية، وتحول إلى شبه عضو آخر في اللجنة. يتعاون معها بحرص ودأب، وكثيراً ما صار يأتيهم بمعطيات جديدة. ويطلب منهم في كل وقت أن يتخذوا الاحتياطات. لقد امتلأ بالشكوك، يترصد المحيط الممتلئ بالشبهات. فمعرفة حقيقة

ما يجري هناك ستعرض حياة الجميع للخطر، وبخاصة حياة القنصل العام. لقد كان يعيش في اضطراب دائم. يخشى أن يكشف الباربادوسيون لفيكتور ماثيدو عما اعترفوا به. فهو لا يستبعد، في حال حدوث ذلك، أن يبادر ذلك الشخص، قبل أن يُقتاد إلى المحاكم أو يُسلّم إلى الشرطة، إلى نصب كمين ليقول بعد ذلك إنهم قتلوا على يد المتوحشين.

انقلب الوضع تماماً في فجر ذات يوم حين انتبه روجر كيسمنت إلى أن هناك من يطرق بابه بمفاصل أصابعه. كان الظلام لا يزال مخيماً. ذهب ليفتح ولمح من خلال الفجوة في الباب أن الشبح لم يكن فريدريك بيشوب. بل هو دونال فرانسيس، الباربادوسي الذي أصر على أن الأوضاع الطبيعية هي التي تسود هناك. وكان يتكلم بصوت منخفض جداً ومرتعب. لقد أعاد التفكير وهو يريد الآن إخباره بالحقيقة. أدخله روجر. تبادلا الحديث وهما جالسان على الأرض، لأن دونال يخشى أن يسمعوهما إذا خرجا إلى الشرفة.

أكد له أنه قد كذب عليه خوفاً من فيكتور ماثيد. لأن هذا الأخير كان قد هدده: إذا وشى للإنكليز بما يحدث هنا، لن يعود إلى باربادوس أبداً، وعندما يغادر أولئك الإنكليز، سيقطع خصيتيه، ويربطه عارياً إلى شجرة كي ياكله النمل الأحمر. طمأنه روجر. سوف يعاد إلى بريدج تاون، مثل الباربادوسيين الآخرين. ولكنه لم يشأ الاستماع إلى هذه الاعترافات الجديدة على انفراد. وكان على فرنسيس أن يتكلم أمام أعضاء اللجنة وبحضور تيثون.

قدم شهادته في ذلك اليوم بالذات، في قاعة الطعام، حيث كانوا

يعقدون جلسات العمل. كان يُبدي الكثير من الفزع. عيناه زائغتان، يعض شفتيه الثخينتين، ويفقد التحكم بكلماته أحياناً. تكلم قرابة الثلاث ساعات. وأشد اللحظات دراماتيكية في اعترافاته كانت حين تكلم عما حدث، قبل شهرين، لاثنين من هنود الهيتوتو يتظاهران بالمرض لتبرير كمية المطاط المضحكة التي جمعاها. فقد أمره فيكتور ماثيدو ومعه أحد «الشباب»، يدعى خواكين بيدرا، بتقييد أيدي وأقدام الهنديين، وتغطيسهما في النهر وإبقائهما مثبتين تحت الماء إلى أن يختنقا. وبعد ذلك طلب من «العقلاء» أن تسحب جثتيهما إلى الغابة لتأكلهما الحيوانات. وعرض عليهم دونال أن يأخذهم إلى المكان حيث مازال بإمكانهم العثور على بعض أعضاء وعظام هنديي الهيتوتو.

في يوم ٢٨ أيلول غادر كيسمنت وأعضاء اللجنة محطة لاتشوريرا متوجهين إلى أوكثيدنتي في المركب «**سريع**» التابع لشركة الأمازون البيروية. ابحروا عكس التيار في نهر إغاربارانا لعدة ساعات، وتوقفوا في مركزي تجميع المطاط في فيكتوريا ونايمينز ليأكلوا شيئاً، وناموا في المركب نفسه، وفي اليوم التالي، بعد ثلاث ساعات أخرى من الإبحار، توقفوا في مرسى أوكثيدنتي. وقد استقبلهما رئيس المحطة فيدل بيلاردي مع مساعديه مانويل توريكو، ورودريغيث، وأكوستا. «لجميعهم وجوه وسلوك قتلة مأجورين وقطاع طريق»، هكذا فكر روجر كيسمنت. كانوا مسلحين بمسدسات وبنادق وينشستر. وبتعليمات مسبقة بالتأكيد، أظهروا انصياعاً وتملقاً للقادمين الجدد. أما خوان تيثون فطلب منهم مجدداً أن يكونوا حذرين. وأنه عليهم ألا يكشفوا بأي حال لبيلاردي و«شبابه» ما يكتشفونه من أمور.

محطة أوكثيدنتي هي معسكر أصغر من لاتشوريرا ومسور بسياج من قصب خشبي مدبب الرؤوس كالرماح. ويحرس المداخل «عقلاء» مسلحين ببنادق.

ـ لماذا تبدو المحطة محمية هكذا؟. توجه روجر بالسؤال إلى خوان تيثون ـ أتراهم ينتظرون هجوماً من الهنود؟

ـ ليس من الهنود. مع أن أحداً لا يعلم إن كان سيظهر ذات يوم كاتينيري آخر. ولكنهم يتوقعون هجمات الكولومبيين الذين يطمعون في هذه الأراضي.

لدى فيدل بيلاردي ثلاثمئة وخمسون وطنياً، معظمهم كانوا في ذلك الوقت منتشرين في الغابة لجمع المطاط. وهم يأتون كل خمسة عشر يوماً بما يجمعونه ثم يعودون للتوغل في الأدغال لأسبوعين آخرين. أما نساؤهم وأبناؤهم فيبقون هنا، في ضيعة على ضفاف النهر، خارج المنطقة المسورة. وأضاف بيلاردي أن الهنود سيقدمون مساء اليوم حفلة «للأصدقاء الزائرين».

أخذهم إلى البيت الذي سينزلون فيه، وهو بناء مستطيل يقوم على أوتاد خشبية، مؤلف من طابقين، مع أبواب ونوافذ لها شبك معدني للحيلولة دون دخول البعوض. رائحة المطاط التي تخرج من المستودعات في أوكثيدنتي وتملأ الجو قوية جداً مثلما هي في لاتشوريرا. ابتهج روجر حين اكتشف هنا أنه سينام على سرير وليس في أرجوحة نوم. إنه سرير ضيق بكلمة أدق، وعليه فراش محشو ببذور، يمكنه النوم عليه بوضع مستو على الأقل. لأن أرجوحة النوم فاقمت من آلام عضلاته ومن أرقه.

بدأت الحفلة بعد الظهر، في فسحة مجاورة لضيعة هنود الهيتوتو. وكان جمع من السكان الأصليين قد نقل مناضد وكراسٍ وقدور طعام وشراب للغرباء. وكانوا ينتظرونهم مصطفين في دائرة، بوجوه بالغة الجدية. بدت السماء صافية ولا يلمح أي تهديد بهطول المطر. ولكن صفاء الجو ومشهد نهر الإغاربارانا الذي يشق أرض الغابات الكثيفة ويتعرج حولهم لم يتمكن من بعث البهجة فيه. كان يعرف أن ما سيشهدونه سيكون حزيناً وباعثاً على الاكتئاب. ثلاث أو أربع دزينات من الهنود والهنديات ـ الذكور شيوخ وأطفال، والإناث شابات عموماً ـ، بعضهم عراة وآخرون ملتفو بالـ *cushma* أو الجلباب الذي رأى روجر كثيرين من سكان إيكيتوس الأصليين يرتدونه، رقصوا مشكلين حلقة على إيقاع المانغواريه، وهي طبول مصنوعة من جذوع أشجار مجوفة، يضرب عليها هنود الهيتوتو بعصي خشبية تنتهي بكرات مطاطية، ينتزعون منها نغمات مبحوحة ومتطاولة، يقال إنها تبعث رسائل وتتيح لهم التواصل عن مسافات بعيدة. صفوف الراقصين تضع خشخاشات من بذور في كواحلهم وأذرعهم، ترن مع قفزاتهم الرتيبة مخلفة صدى من المرارة يتجانس مع وجوههم الجدية، أو المتجهمة، أو الخائفة، أو غير المبالية.

سأل كيسمنت زملاءه، في ما بعد، إن كانوا قد انتبهوا إلى عدد الهنود الكبير الذين تظهر قروح على ظهورهم وإلياتهم وأرجلهم. وجرى جدال بينهم حول النسبة المئوية للهيتوتو الراقصين الذين عليهم آثار جلد بالسياط. قال روجر إنهم يشكلون ثمانين بالمئة، ورأى فيلجالد وفوك أن النسبة لا تتجاوز الستين بالمئة. ولكنهم اتفقوا جميعهم أن أكثر من أثر فيهم هو صبي يبدو مجرد جلد وعظم مع

حروق في كامل جسده وجزء من وجهه. طلبوا من فريدريك بيشوب أن يتقصى إن كانت تلك العلامات بسبب حادث أم أنها بسبب عقوبة وتعذيب.

لقد قرروا أن يكتشفوا في هذه المحطة كيفية عمل نظام الاستغلال بكثير من التفصيل. بدؤوا في صباح اليوم التالي، في وقت مبكر، بعد الفطور مباشرة. وما كادوا يبدؤون بزيارة مستودعات المطاط، يقودهم فيدل بيلاردي بالذات، حتى اكتشفوا، مصادفة، أن الموازين المستخدمة في وزن المطاط متلاعب بها. فقد خطر لسيمور بيل أن يصعد إلى أحد تلك الموازين، ولأنه مصاب بوسواس المرض، ظن أن وزنه قد انخفض. أحس بالرعب. كيف يمكن هذا! لقد انخفض وزني قرابة العشرة كيلوغرامات! ولكنه لا يشعر مع ذلك بالانخفاض في بدنه، إذ يجب أن يسحل بنطاله، وأن تتسع عليه قمصانه. وزن كيسمنت نفسه أيضاً وشجع زملاءه وخوان تيثون أن يفعلوا ذلك. وتبين أنهم جميعهم أقل من وزنهم المعهود بعدة كيلوغرامات. وفي أثناء الغداء، توجه كيسمنت إلى تيثون بالسؤال عما إذا كان يعتقد أن جميع موازين شركة الأمازون البيروية متلاعب بها كما في أوكثيدنتي لجعل الهنود يعتقدون أنهم جمعوا مطاطاً أقل. فاكتفى تيثون، وقد فَقَدَ أي قدرة على المداراة، بهز كتفيه والقول: «لست أدري أيها السادة. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن كل شيء ممكن هنا».

وخلافاً لما كانت عليه الحال في لاتشوريرا، حيث خبأوا قفص التعذيب في مستودع، أبقوه هنا في أوكثيدنتي في منتصف الأرض الخلاء، وحوله تتوزع البيوت والمستودعات. طلب روجر من مساعدي

فيدل بيلاردي أن يحشروه بداخل جهاز التعذيب. أراد معرفة ما الذي يشعر به المرء وهو في ذلك القفص الضيق. تردد رودريغيث وأكوستا، ولكن بعد أن سمح خوان تيثون بذلك، أشارا إلى كيسمنت أن ينطوي على نفسه، وحشراه بدفعه بأيديهما داخل القفص. كان من المحال إطباق القطع الخشبية التي تثبت الساقين والذراعين، لأن أطرافه ثخينة أكثر من سعة أخشاب التثبيت، فاكتفوا بوضعها دون تثبيت. ولكنهم تمكنوا من إطباق موقع العنق على رقبته بطريقة تكاد تحول دون قدرته على التنفس، إنما دون أن تخنقه بالكامل. كان يشعر بألم نابض في بدنه، وبدا له أنه من المحال على كائن بشري أن يصمد لساعات في ذلك الوضع وذلك الضغط على الظهر والمعدة والصدر والساقين والرقبة والذراعين. وعندما خرج، وقبل أن يتمكن من استراداد القدرة على الحركة، اضطر إلى الاستناد للحظات طويلة إلى كتف لويس بارنس.

ـ بسبب أي ذنب يُحشر الهنود في قفص التعذيب؟ ـ سألَ رئيسَ محطة أوكثيدينتي في الليل.

كان فيدل بيلاردي خلاسياً على شيء من البدانة، له شارب ضخم كشارب فقمة وعينان كبيرتان متقافزتان. يعتمر قبعة عريضة، وينتعل جزمة طويلة ويحيط خصره حزام ممتلئ بالرصاص.

ـ عندما يقترفون أخطاء بالغة الخطورة ـ أوضح متباطئاً في نطق كل عبارة ـ. عندما يقتلون أبناءهم، أو يشوهون نساءهم وهم سكارى، أو يقترفون أعمال سرقة ولا يعترفون أين خبؤوا ما سرقوه. ونحن لا نستخدم آلة التعذيب باستمرار. بل في أحيان نادرة فقط. هنود هذه المحطة جيدو السلوك عموماً.

قال ذلك بنبرة تجمع بين البشاشة والسخرية، وهو ينظر إلى أعضاء اللجنة واحداً فواحداً نظرة ثابتة ومزدرية، كما لو أنه يقول لهم «أجد نفسي مضطراً لقول هذه الأمور ولكن، أرجوكم، ألا تصدقوها». كان يبدي تكبراً واحتقاراً لبقية الكائنات البشرية، بينما روجر كيسمنت يحاول أن يتخيل الخوف الباعث على الشلل الذي يبعثه هذا الشخص المتبجح في نفوس السكان الأصليين، بمسدسه على خصره، وبندقية على كتفه، وحزامه الممتلئ بالرصاص. بعد قليل من ذلك، شهد أحد الباربادوسيين الخمسة الذين في أوكثيدنتي أمام اللجنة بأنه رأى، في ليلة سُكر، كلاً من فيدل بيلاردي وألفريدو مونت، وكان هذه الأخير حينذاك رئيساً لمحطة أولتيمو ريتيرو، يتراهنان على من منهما قادر على أن يقطع، بسرعة أكبر ودقة أفضل، أذن واحد من هنود الهيتوتو كان محبوساً في قفص التعذيب. وقد تمكن بيلاردي من صلم أذن الهندي بضربة واحدة بالمتشيتي، أما مونت الذي كان مخموراً جداً وكانت يده ترتجف، فبدلاً من أن يقطع الأذن الأخرى انحرف منجل المتشيتي لينغرس في منتصف رأس الهندي. بعد انتهاء جلسة الاستجواب تلك، أصيب سيمور بيل بنوبة هلع. واعترف لزملائه بأنه لم يعد قادراً على سماع المزيد. كان صوته يخونه وعيناه باكيتين ومحتقنتين. فقد سمع ما يكفي ليعرف أن أشد أشكال الهمجية هي السائدة هنا. ولم يعد هنالك معنى لمواصلة التحريات في عالم اللاانسانية وقسوة المرضى النفسانيين هذا. واقترح أن ينهوا الرحلة ويرجعوا إلى إنكلترا فوراً.

ردّ روجر بأنه لا يعارض مغادرة أعضاء اللجنة الآخرين. ولكنه سيبقى في بوتومايو، وفقاً للخطة المقررة، وسيزور بعض المحطات الأخرى. وأنه يريد لتقريره أن يكون مسهباً وموثقاً، ليكون مفعوله

أقوى. وذكّرهم بأن جميع تلك الجرائم تقترفها شركة بريطانية، في إدارتها شخصيات إنكليزية بالغة الاحترام، وأن أصحاب أسهم شركة الأمازون البيروية يملؤون جيوبهم بفضل ما يحدث هنا. ولا بد من وضع حدّ لهذه الفضيحة ومعاقبة المذنبين. وللتوصل إلى ذلك يجب أن يكون تقريره وافياً وحاسماً. أقنعت مسوغاته الآخرين، بمن فيهم فاقد العزيمة سيمور بيل.

ومن أجل أن ينفضوا عن كاهلهم التأثر الذي خلفه فيهم جميعاً ذلك الرهان بين فيدل بيلاردي وألفريدو مونت، قرروا منح أنفسهم يوم راحة. وفي صباح اليوم التالي، بدلاً من مواصلة المقابلات والتحريات، ذهبوا للاستحمام في النهر. وأمضوا ساعات في اصطياد الفراشات بشبكة بينما عالم النبات والتر فوك يستكشف الغابة بحثاً عن أزهار أوركيدا. فالفراش وأصناف الأوركيدا متوافرة بكثرة في المنطقة ككثرة البعوض والخفافيش التي تأتي في الليل، بطيرانها الصامت، لتعض كلاب ودجاج وخيول المحطة ناقلة إليها في بعض الأحيان داء الكَلَب، مما يضطرهم إلى قتل تلك الحيوانات وإحراقها للحيلولة دون انتشار الوباء.

ذُهل كيسمنت ورفاقه من تنوع الفراشات التي تحوم قرب النهر وكبر أحجامها وجمالها. توجد منها أنواع من مختلف الأشكال والألوان، ناعمة الطيران، وتطلق لطخات من ضوء عندما تحط على ورقة أو نبتة فتبدو كأنها تضيء الهواء بلمسات من العذوبة، تعويضاً عن القباحة الأخلاقية التي يكتشفونها في كل خطوة، كما لو أنه لا وجود لقرار للشر والجشع والألم في تلك الأراضي المنكوبة.

فوجئ والتر فوك بالتنوع الكبير لأزهار الأوركيدا التي تتعلق بالأشجار الكبيرة، بألوانها الأنيقة واللطيفة التي تضيء محيطها. لم يقطفها ولم يسمح لرفاقه بقطفها. كان يقضي برهة طويلة في تأملها بعدسة مكبرة، ويدون ملاحظات ويصورها.

توصل روجر كيسمنت في محطة أوكثيدنتي إلى تكوين فكرة شبه كاملة عن النظام الذي يُسَيّر شركة الأمازون البيروية. ربما كان هنالك في بدايات عملها نوع من الاتفاق بين شركة المطاط وقبائل السكان الأصليين. ولكن ذلك صار من التاريخ، لأن الوطنيين الآن لا يريدون الذهاب إلى الأدغال لجمع المطاط. ولهذا فإن كل شيء يبدأ مع «الغارات» التي يشنها رؤساء المحطات و«شبابهم». لا تُدفع أجور ولا يرى السكان الأصليون سنتاً واحداً. وهم يتلقون من المتجر أدوات جمع المطاط ـ سكين من أجل شق لحاء الأشجار، وعلب صفيح لتلقي المطاط فيها، وسلال لتجميع كرات الكاتشوك ـ، إضافة إلى مواد منزلية مثل الحبوب والملابس والمصابيح وبعض المأكولات. والأسعار تحددها الشركة، بحيث يبقى السكان الأصليون مدينين على الدوام، ويعملون طوال ما تبقى من حياتهم لتسديد ما يدينون به. وحيث أن رؤساء المحطات لا يتلقون أجراً، وإنما عمولة من المطاط الذي يجمعونه في كل محطة، فإن مطالبتهم بالحصول على أقصى ما يمكن من المطاط تكون متشددة. ويتوغل كل جامع مطاط في الغابة لخمسة عشر يوماً، تاركاً زوجته وأبناءه كرهائن. يستخدمهم رؤساء المحطات و«العقلاء» على هواهم في الخدمة المنزلية أو في رغباتهم الجنسية. فلدى كل منهم سراي حريم حقيقي ـ بنات صغيرات لم يبلغن سن البلوغ ـ يستبدلونهن وفق نزواتهم، مع أنهم في بعض الأحيان، وبدافع

الغيرة، يصفُّون الحسابات بالرصاص وضرب الخناجر. وكل خمسة عشر يوماً يرجع جامعو المطاط إلى المحطة ومعهم ما جمعوه. ويتم وزن المطاط بالموازين المتلاعب بها. وإذا لم يصل ما يجمعه الشخص كل ثلاثة شهور إلى ثلاثين كيلوغراماً فإنه يتلقى عقوبة تتراوح بين الجلد على مِنصب التعذيب، أو صلم الآذان وجدع الأنوف، أو تصل في الحالات القصوى إلى تعذيب زوجة وأبناء جامع المطاط بالذات وقتلهم. ولا تُدفن جثث هؤلاء وإنما تُسحب إلى الغابة لتأكلها الحيوانات. وكل ثلاثة شهور تأتي مراكب الشركة أو سفنها البخارية لتحميل المطاط الذي يكون، في أثناء ذلك، قد جرى تدخينه وغسله ونثر بودرة التالك عليه. وتنقل السفن في بعض الأحيان الحمولة من بوتومايو إلى إيكيتوس، وتنقلها سفن أخرى مباشرة إلى ماناوس كي تُصدر من هناك إلى أوروبا والولايات المتحدة.

تأكد روجر كيسمنت من أن عدداً كبيراً من «العقلاء» لا يقومون بأي عمل منتج. فهم مجرد سجانين، ومعذِّبين ومستغِلين للسكان الأصليين. يقضون النهار مستلقين على أسرتهم، يدخنون ويشربون، ويستمتعون، أو يتقاذفون كرة في ما بينهم، ويروون النكات أو يُصدرون الأوامر. ويقع العمل كله على كاهل السكان الأصليين: بناء البيوت، وإصلاح السقوف المتضررة من المطر، وإصلاح الطريق النازل إلى المرسى، والغسل، والتنظيف، والتحميل، والطبخ، ونقل الأشياء وإحضارها، وفي الوقت القليل الذي يتبقى لهم، عليهم العمل في مزروعاتهم التي لولاها لما وجدوا ما يأكلونه.

كان روجر مدركاً لحالة زملائه المعنوية. فإذا كان هونفسه، من

أمضى عشرين عاماً في أفريقيا، وظن أنه رأى كل شيء، يشعر بالاضطراب لما يحدث هنا، وبأن أعصابه محطمة، ويعيش لحظات يأس تام، فكيف ستكون الحال بالنسبة لمن عاشوا الشطر الأعظم من حياتهم في عالم متحضر، معتقدين أن تلك هي حال بقية الدنيا: مجتمعات قانون وكنائس وشرطة وعادات وأخلاق تحول دون تصرف البشر كالوحوش.

أراد روجر البقاء في بوتومايو كي يكون تقريره أقرب ما يمكن من الكمال، ولكن لم يكن هذا هو السبب فقط. فلديه سبب آخر يتمثل في الفضول الذي يشعر به لمعرفة تلك الشخصية التي هي، حسب كل الشهادات، مثال القسوة في هذا العالم: آرماندو نورماند، رئيس محطة ماتانثاس.

مذ كان في إيكيتوس سمع حكايات، وتعليقات، وإشارات إلى هذا الاسم المرتبط دوماً بالخبث والممارسات المشينة والذي راح يستحوذ عليه إلى حد رؤية كوابيس يستيقظ بعدها بقلب متسرع وقد غطاه العرق. كان متأكداً من أن أموراً كثيرة مما سمعه من الباربادوسيين عن نورماند هي مبالغات تضخمها المخيلة المحمومة لدى الناس في هذه الأراضي. ومع ذلك فإن تمكن ذلك الشخص من توليد مثل تلك الأسطورة يشير إلى أن الأمر يتعلق بكائن يفوق بوحشيته، وإن بدا ذلك مستحيلاً، مجرمين من أمثال أبيلاردو أغويرو، وألفريدو مونت، وفيدل بيلاردي، وإلياس مارتينييني وآخرين من جنسهم.

ليس هنالك من يعرف جنسيته بصورة مؤكدة ـ يقال إنه بيروي، أو بوليفي أو إنكليزي ـ ولكن الجميع يتفقون على أنه لم يبلغ الثلاثين من

العمر وأنه درس في إنكلترا. وقد سمع خوان تيثون من يقول إنه يحمل شهادة محاسب من معهد في لندن.

يبدو أنه قصير القامة، ونحيل الجسم وشديد القبح. وتشع من شخصة التافه، حسب قول الباربادوسي جوشوا ديال، «قوة شريرة» تُدخل الرعشة في من يقترب منه، وتبدو نظرته النفوذة والجليدية كأنها نظرة أفعى. ويؤكد ديال أنه ليس الهنود وحدهم، بل كذلك «الشباب» وحتى رؤساء فرق العمل يشعرون بعدم الطمأنينة إلى جانبه. لأنه يمكن لآرماندو نورماند في أي لحظة أن يأمر أو يُقدم هو نفسه على شراسة يقشعر لها البدن دون أن يطرأ أي تبدل على عدم مبالاته المزدرية تجاه كل ما يحيط به. وقد اعترف ديال لروجر وللجنة أن نورماند أمره ذات يوم، في محطة ماتاناس، أن يقتل خمسة أندوكيين، عقوبة لهم لأنهم لم ينجزوا جني حصة المطاط المفروضة عليهم. قتل ديال أول اثنين منهم بالرصاص، ولكن رئيس المحطة أمره بشأن الاثنين التاليين، أن يسحق أولاً خصيهما بحجر هرس اليوكا ثم يُجهز عليهما بضربات هراوة. أما الأخير، فطلب منه أن يخنقه بيديه. وخلال العملية كلها ظل جالساً على قطعة من جذع شجرة، يدخن ويراقب، دون أن تتبدل ملامح الخمول على وجهه الضارب إلى الحمرة.

باربادوسي آخر، المدعو سيفورد غرينوتش، وقد عمل بضعة شهور مع آرماندو نورماند في محطة ماتناثاس، روى أن اللعبة المفضلة المنتشرة بين «عقلاء» المحطة هي العادة التي أخذوها من رئيسهم بدس فلفل مطحون أو مقطع في فروج الفتيات الخليلات كي يسمعوهن يصرخن من الحرقة. لأنه، على حدّ قول غرينوتش، لا يُستثار ويتمكن

من مضاجعتهن إلا بهذه الطريقة. وفي إحدى الفترات، يضيف الباربادوسي، بدل حشر المعاقبين في قفص التعذيب، صار نورماند يرفعهم من أقدامهم بسلسلة مربوطة إلى شجرة شاهقة الارتفاع ثم يفلتهم ليرى كيف ستنكسر رؤوسهم وعظامهم لدى ارتطامهم بالأرض أو كيف تنقطع ألسنتهم بين أسنانهم. وأكد للجنة رئيسُ عمال آخر خدم تحت إمرة نورماند أن هنود الأندوكي يخشون كلب نورماند أكثر من خوفهم منه شخصياً، وهو كلب ضخم دربه على غرس أنيابه وتمزيق لحم الهندي الذي يُستحث لمهاجمته.

أيمكن أن تكون تلك الفظائع كلها حقيقية؟ كان روجر يقول ذلك ويراجع ذاكرته. فبين مجموعة الأشرار الواسعة التي عرفها في الكونغو، تلك الكائنات التي حوّلتها السلطة وانعدام العقاب إلى مسوخ، لا وجود لمن يصل إلى الحدود التي بلغها ذلك الشخص. وكان لديه فضول على شيء من الخبث للتعرف إليه، وسماعه يتكلم، ورؤيته يتصرف، والتحري من أين خرج.

من محطة أوكثيدنتي انتقل روجر كيسمنت وأصدقاؤه، في المركب «*سريع*» دوما، إلى محطة ألتيمو ريتيرو. كانت أصغر من المحطتين السابقتين، ولها كذلك مظهر الحصن بأسيجتها وحواجزها وحراسها المسلحين حول حفنة المساكن. بدا الهنود لهم أكثر بدائية ونفوراً من أبناء الهيتوتو. فهم يتجولون شبه عراة، مع وزرة تكاد لا تغطي عورتهم. هنا رأى روجر أول مرة وطنيين اثنين موسومين بعلامة الشركة على إليتيهما: CA. بدوا أكبر سناً من معظم الآخرين. حاول التكلم إليهما ولكنهما لم يفهما الإسبانية ولا البرتغالية، كما أنهما لم يفهما لغة

الهيتوتو التي يتكلمها فريدريك بيشوب. وفي ما بعد، بينما هم يتجولون في محطة أولتيمو ريتيرو، اكتشفوا وجود هنود آخرين موسومين. ومن خلال موظف في المحطة عرفوا أن ثلث السكان الأصليين المقيمين هناك على الأقل يحملون وسم CA على أجسادهم. وأن ممارسة ذلك قد توقفت منذ بضعة أسابيع، حين وافقت شركة الأمازون البيروية على مجيء اللجنة إلى بوتومايو.

من أجل الوصول من النهر إلى أولتيمو ريتيرو كان لا بد تسلق سفح موحل بسبب المطر، حيث تنغرس الأرجل حتى الركبة. وعندما تمكن روجر من خلع حذائه والاستلقاء في سريره كانت عظامه كلها تؤلمه. وكان التهاب الملتحمة قد عاد إلى عينيه. وكانت دموع إحدى العينين وحرقتها شديدة مما جعله يضمدها بعد أن قطَّر فيها قطرات الدواء. وهكذا ظل عدة أيام، كقرصان، بعين معصوبة ومحمية بخرقة رطبة. ولأن تلك الاحتياطات لم تكن كافية لوضع حدّ للالتهاب والدمع، فقد ظل منذ ذلك الحين وحتى نهاية الرحلة، وفي أي وقت من اليوم لا يكون لديه عمل ـ وهذا قليل جداً ـ يهرع للاستلقاء في أرجوحة نومه أو سريره ويُبقي عينيه مضمدتين بخرق قماش مبللة بماء دافئ. هكذا كان يخفف من الإزعاجات. وخلال فترات الراحة تلك وفي الليل ـ لم يكن ينام سوى أربع أو خمس ساعات ـ يحاول أن يرتب ذهنياً التقرير الذي سيكتبه لوزارة الخارجية البريطانية. لقد كانت الخطوط العامة واضحة. فأولاً، لوحة عامة للظروف في بوتامايو عندما وصلها الرواد ليستقروا فيها، وغزوهم أراضي القبائل، قبل نحو عشرين عاماً. وكيف بدؤوا، وقد أصابهم افتقاد الأيدي العاملة باليأس، بشن «غارات»، دون خوف من تعرضهم للعقاب لأنه لا وجود في هذه الأمكنة لقضاة ولا شرطة.

فقد كانوا هم السلطة الوحيدة، والمستندة إلى أسلحتهم النارية التي تبدو المقاليع والرماح وسهام الثرباتانا تافهة في مواجهتها.

وعليه أن يقدم وصفاً واضحاً لنظام استغلال المطاط المستند إلى العمل العبودي وسوء معاملة السكان الأصليين الذي أججه رؤساء المحطات ومعاونوهم، لأنهم يعملون مقابل الحصول على نسبة مئوية من المطاط الذي يجمعونه، فيلجؤون إلى العقوبات البدنية، وبتر الأعضاء والقتل لزيادة المحصول. وقد أسس انعدام العقوبة والسلطة المطلقة التي يتمتع بها أولئك الأشخاص لظهول ميول سادية يمكن التعبير عنها بحرية، هنا، ضد هؤلاء السكان الأصليين المحرومين من كافة الحقوق.

هل سيفيد تقريره؟ سيفيد في معاقبة شركة الأمازون البيروية دون شك. ستطلب الحكومة البريطانية من الحكومة البيروية أن تقتاد المسؤولين عن الجرائم إلى المحاكم. هل سيتجرأ الرئيس البيروي أوغسطو ب. ليغيا على فعل ذلك؟ خوان تيثون يقول نعم، لأنه كما في لندن، ستنفجر ضجة فضيحة في ليما عندما يُعرف ما الذي يحدث هنا. وسيطالب الرأي العام بمعاقبة المذنبين. ولكن روجر يشك في ذلك. ما الذي يمكن لحكومة البيرو أن تفعله في بوتومايو، حيث لا يوجد لها ممثل واحد، وحيث شركة خوليو س. آرانا تتبجح، وبحق، أنها هي، مع عصاباتها من القتلة، من تحفظ سيادة البيرو على هذه الأراضي؟ سيبقى كل شيء ضمن بعض الوقاحات البلاغية. وسيتواصل عذاب مجتمعات السكان الأصليين الأمازونية حتى انقراضها. كانت هذه الرؤيا تحبطه. ولكنها بدلاً من أن تشله، تدفعه إلى بذل المزيد من الجهد،

بالتقصي وإجراء المقابلات والكتابة. لقد صارت لديه كومة من الدفاتر والبطاقات المكتوبة بخطه الواضح والمتسرع.

ومن أولتيمو ريتيرو انتقلوا إلى محطة إنتري ريوس، في رحلة عبر النهر والبر قادتهم إلى الغوص في الأدغال الكثيفة المتشابكة طيلة نهار كامل. فتنت الفكرة روجر كيسمنت: في هذا الاتصال المباشر مع الطبيعة الوحشية البكر سيستعيد حياة فتوته، حملات شبابه الاستكشافية الطويلة في القارة الأفريقية. ولكن، على الرغم من تلك الساعات الاثنتي عشرة من المسير عبر الأدغال، وما يتخللها أحياناً من غوص حتى الخاصرة في الوحل، والانزلاق في أجمة كثيفة تخفي وراءها هاويات عميقة، واجتياز بعض مقاطع الطريق في زوارق صغيرة تدفعها عصي الوطنيين لتنزلق في بعض «الممرات المائية» النحيلة التي تغطيها كثافة الشجر وتحجب عنها ضوء الشمس، كان يشعر أحياناً بالإثارة والسعادة القديمة، وقد أفادته التجربة على الأقل في التأكد من مرور الزمن، ومن تآكل جسده. لم يكن الألم في ذراعيه وظهره وساقيه فقط، وإنما الإنهاك الذي لا يُهزم، والذي اضطر إلى مقاومته ببذل جهد باسل كيلا يلحظه رفاقه في الرحلة. لقد أصاب الإعياء التام لويس بارنس وسيمور بيل واستُنفدت قواهما إلى حدّ أنه، منذ منتصف الرحلة، صار لا بد من أن يحمل كل منهما، في أرجوحة، أربعةٌ من العشرين وطنياً الذين يرافقونهم للحراسة. راقب روجر بدهشة كيف أن أولئك الهنود دوي السيقان النحيلة والأبدان بارزة العظام يتقدمون بطلاقة وهم يحملون على كاهلهم الأمتعة والمؤن، دون أن يشربوا أو يأكلوا شيئاً طوال ساعات. وخلال إحدى الاستراحات، وافق خوان تيثون على طلب كيسمنت وأمر بتوزيع عدة علب سردين على الوطنيين.

لقد رأوا خلال المسيرة أسراباً من الببغاوات ومن تلك القردة الصغيرة اللعوبة ذات العيون المتيقظة المدعوة «المترهبين الصغار»، وأصنافاً كثيرة من الطيور، وعظاءات بعيون غمصاء، جلودها المجعدة تختلط بلون الأغصان والجذوع التي تلتصق بها. ورأوا كذلك نبتة فيكتوريا ملكية، تلك الأوراق الدائرية الضخمة التي تطفو في البحيرات كأنها الأطواف.

وصلوا إلى إنتري ريوس عند الغروب. كانت المحطة مضطربة لأن نمر جغوار قد أكل هندية ابتعدت وحيدة عن المعسكر كي تضع مولودها، مثلما هي عادة الوطنيات، على ضفة النهر. وقد خرجت جماعة صيادين بحثاً عن الجغوار، وعلى رأسها رئيس المحطة، ولكنهم رجعوا عند الغروب، دون أن يعثروا على الوحش الضاري. رئيس محطة إنتري ريوس يدعى أندريس أودونيل. وهو شاب متين البنية يقول إن أباه كان أيرلندياً، ولكن روجر، وبعد أن استجوبه، انتبه إلى أن لديه تشوشاً كبيراً بشأن أسلافه وأيرلندا، وأنه ربما يكون جد أودونيل أو جد أبيه هو أول أيرلندي من العائلة يصل إلى أراضي البيرو. أحزنه أن يكون شخص من نسل أيرلندي واحداً من معاوني خوليو آرانا في بوتومايو، وإن بدا، حسب الشهادات، أنه أقل دموية من رؤساء محطات آخرين: لقد شوهد وهو يجلد هنوداً ويسرق نساءهم وبناتهم ليضمهن إلى حريمه الخاص ـ لديه سبع نساء يعشن معه وسحابة من الأبناء ـ، ولكن لا وجود في سجله لما يشير إلى أنه قتل أحداً بيده أو أمر بأعمال قتل. لكن من الصحيح أيضاً أن قفص التعذيب ينتصب في مكان مرئي من إنتري ريوس، كما أن جميع «الشباب» والباربادوسيين يحملون سياطاً حول خصورهم (بعضهم يستخدمها كحزام لبنطاله). وهنالك عدد كبير

من الهنود والهنديات تظهر على ظهورهم وإلياتهم وأرجلهم آثار جلد بالسياط.

على الرغم من أن مهمته الرسمية تتطلب منه أن يقتصر على استجواب المواطنين البريطانيين العاملين في شركة آرانا فقط، وهذا يعني الباربادوسيين، إلا أن روجر، ومنذ وصوله إلى محطة أوكثيدنتي، بدأ يقابل كذلك «العقلاء» المستعدين للإجابة على أسئلته. وقد امتدت هذه الممارسة عملياً في إنتري ريوس لتشمل اللجنة كلها. فخلال الأيام التي أمضوها هناك قدم الشهادات أمامهم رئيس المحطة نفسه وعدد لا بأس به من «الشباب»، فضلاً عن الباربادوسيين الثلاثة الذين يخدمون عند أندريس أودونيل كرؤساء عمال.

يتكرر حدوث الشيء نفسه تقريباً على الدوام. فالجميع يترددون في البدء، ويتهربون ويكذبون بوقاحة. ولكن تكفي زلة واحدة أو تهور لا إرادي يكشف العالم الحقيقي الذي يخفونه، حتى يندفعوا في الكلام ورواية أكثر مما يُطلب منهم، مورطين أنفسهم ليدللوا على صحة ما يروونه. وبالرغم من المحاولات التي بذلها روجر، إلا أنه لم يستطع أخذ شهادة مباشرة من أي هندي.

في السادس عشر من شهر تشرين الأول ١٩١٠، عندما كان هو وزملاؤه في اللجنة، يرافقهم خوان تيثون، وثلاثة باربادوسيين ونحو عشرين هندياً من قبيلة موينان، يقودهم زعيمهم، ويحملون الأحمال، متوجهين في الغابة، عبر درب ضيق، من محطة إنتري ريوس إلى محطة ماتناثاس، دوَّن روجر كيسمنت في يومياته فكرة راحت تتجسد في ذهنه منذ نزوله من السفينة في إيكيتوس: «لقد توصلتُ إلى قناعة

مطلقة بأن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها لسكان بوتومايو الأصليين أن يخرجوا من الوضع البائس الذي أُخضعوا له هي التمرد المسلح ضد أسيادهم. ويبدو حلماً يخلو من الواقعية الاعتقاد، مثلما يعتقد خوان تيثون، أن هذا الوضع سيتغير عندما تصل إلى هنا الدولة البيروية، وتتواجد السلطات، والقضاة، والشرطة لفرض احترام القوانين التي تحظر العبودية في البيرو منذ العام ١٨٥٤. هل سيجعلونهم يحترمون تلك القوانين كما هي الحال في إيكيتوس، حيث تشتري العائلات بمبلغ عشرين أو ثلاثين سولاً الطفلات والأطفال الذين يختطفهم التجار؟ هل ستفرض احترام القوانين تلك السلطات والقضاة والشرطة الذين يتلقون رواتبهم من شركة آرانا، لأن الدولة لا تملك ما تدفعه لهم أو لأن الأوغاد والبيروقراطيين يسرقون الأموال في الطريق؟ الدولة في هذا المجتمع هي جزء لا يتجزأ من آلة الاستغلال والإبادة. ويجب على السكان الأصليين ألا ينتظروا شيئاً من مثل تلك المؤسسات. إذا أرادوا أن يكونوا أحراراً فعليهم اقتحام حريتهم بأذرعهم وشجاعتم. مثل كاتينير، زعيم قبيلة بورا. ولكن دون التضحية بأنفسهم لأسباب عاطفية كما فعل. عليهم أن يناضلوا حتى النهاية». وبينما هو مستغرق في هذه الكلمات التي خطها في يومياته، كان يمشي بإيقاع جيد، يشق طريقه بمنجل متشيتي بين النباتات المتعرشة والآجام المتشابكة، والجذوع والأغصان التي تسد الدرب، خطر له ذات مساء أن يفكر: «نحن الأيرلنديين مثل هنود الهيتوتو والبورا والأدوكي والموينان في بوتومايو. إننامستعمرون مستغَلون محكومون بأن نظل كذلك إلى الأبد إذا واصلنا الثقة بقوانين ومؤسسات وحكومات إنكلترا من أجل بلوغ الحرية. لن يمنحونا إياها أبداً. ولماذا تمنحنا إياها الإمبراطورية التي تستعمرنا

مادامت لا تشعر بضغط عنيد يجبرها على ذلك؟ وهذا الضغط لا يمكن أن يأتي إلا بالسلاح». هذه الفكرة التي راحت تنصقل وتتعزز في الأيام، والأسابيع، والشهور، والسنوات التالية ـ عن أن أيرلندا مثل هنود بوتومايو، إذا أرادت أن تكون حرة فعليها القتال من أجل نيل حريتها ـ استحوذت عليه بقوة خلال الساعات الثماني التي استغرقها الطريق، حتى إنه نسي التفكير في أنه سيتعرف شخصياً بعد قليل على رئيس محطة ماتاناس: آرماندو نورماند.

تقع محطة ماتاناس على ضفاف نهر كاهويناري، أحد روافد نهر كاكيتا، ومن أجل الوصول إليها لا بد من تسلق منحدر وعر، حولته الأمطار الغزيرة التي انهمرت قبل مجيئهم إلى مخاضة وحل. هنود الموينان وحدهم استطاعوا صعود المنحدر دون وقوع. أما الآخرون فكانوا ينزلقون، يتدحرجون، ينهضون وقد غطاهم الوحل والكدمات. وفي المعسكر المسور أيضاً بسياج من القصب، قام بعض الوطنيين بغسل المسافرين بدلاء من الماء لتخليصهم من الوحل.

لم يكن رئيس المحطة موجوداً. فقد كان يقود «غارة» ضد خمسة هنود هاربين، يبدو أنهم تمكنوا من اجتياز الحدود الكولومبية القريبة جداً. كان هنالك خمسة باربادوسيين في ماتاناس وجميعهم عاملوا «السيد القنصل» بكثير من الاحترام، وكانوا على عِلم كامل بأمر مجيئه ومهمته. أخذوهم إلى البيوت التي سيقيمون فيها. أنزلوا روجر كيسمنت ولويس بارنس وخوان تيثون في منزل كبير من ألواح خشبية، سقفه من الأوراق اليارينا ونوافذه مزودة بقضبان حديدية، وقالوا لهم إنه بيت نورماند ونسائه عندما يكونون في ماتاناس. أما بيته الدائم فموجود في

تشينا، وهو معسكر صغير على بُعد كيلومترين صعوداً مع النهر، حيث يحظر على الهنود الاقتراب. وهناك يعيش رئيس المحطة محاطاً بـ «عقلائه» المسلحين، لأنه يخشى الوقوع ضحية محاولة اغتيال من جانب الكولومبيين الذين يتهمونه بعدم احترام الحدود واجتيازها في «غاراته» لاختطاف حمالين أو القبض على وطنيين منشقين. أوضح لهم الباربادوسيون أن آرماندو نورماند يأخذ نساءه معه دوماً لأنه غيور جداً.

يوجد في ماتانثاس هنود بورا وأندوكي وموينان، ولكن لا يوجد هيتوتو. وعلى أجساد جميع السكان الأصليين تقريباً آثار سياط، وهناك اثنا عشر منهم على الأقل يحملون وسم شركة آرانا CA على إلياتهم. كان قفص التعذيب في وسط المعسكر، تحت تلك الشجرة الممتلئة بالعقد الدملية والنباتات الطفيلية المسماة لوبونا وتبدي لها جميع قبائل المنطقة توقيراً مشوباً بالخوف.

وفي غرفته، وهي دون شك غرفة نورماند نفسه، رأى روجر صوراً ضاربة إلى الصفرة يظهر فيها وجه نورماند الطفولي، ودبلوم من مدرسة لندن لمسك الحسابات تعود للعام ١٩٠٣، وشهادة أخرى من مدرسة عليا. صحيح إذاً: لقد درس في إنكلترا ولديه شهادة محاسب.

دخل آرماندو نورماند إلى ماتانثاس مع الغروب. ومن خلال النافذة ذات القضبان الحديدية رآه روجر يمر، على ضوء المصابيح، قصيراً، ضئيلاً ويكاد يكون بهزال واحد من السكان الأصليين، يتبعه «شباب» لهم وجوه تستحق الشنق، مسلحون ببنادق ونشستر ومسدسات، مع ثماني أو عشر نساء ملتفات بالـ *cushma* أو الجلابيب الأمازونية، ويدخل إلى المنزل المجاور.

استيقظ روجر خلال الليل عدة مرات مغموماً، يفكر في أيرلندا. كان يشعر بالحنين إلى بلاده. لقد عاش قليلاً فيها، ومع ذلك يشعر في كل يوم بمزيد من التضامن مع قدرها ومعاناتها. فمنذ أن رأى عن قرب درب آلام شعوب أخرى مستعمرة، صار وضع أيرلندا يؤلمه كما لم يؤلمه من قبل. إنه يتعجل إنهاء هذا كله، وإنجاز التقرير حول بوتومايو، وتسليمه إلى وزارة الخارجية والعودة إلى أيرلندا ليعمل هناك، دون أي انشغال آخر، مع مواطنيه المثاليين والمخلصين لقضية استقلالها. سيستعيد الوقت الضائع، سيتحول إلى أيرلندي، سيدرس، ويتصرف، ويكتب في وسائل الاتصال التي في متناوله وسيحاول إقناع الأيرلنديين بأنه عليهم إذا أرادوا الحرية أن يقتحموها بشجاعة وتضحية.

في صباح اليوم التالي، عندما نزل لتناول الفطور، وجد هناك آرماندو نورماند جالساً إلى منضدة عليها فاكهة، وقطع من درنات اليوكا المسلوقة التي تستخدم كخبز، وفناجين قهوة. وبالفعل، كان قصيراً ونحيلاً جداً، له وجه طفل هرم، ونظرة زرقاء ثابتة وقاسية، تكاد لا تظهر بسبب رمشه المتواصل. كان ينتعل جزمة، ويرتدي أفرهولاً أزرق، وقميصاً أبيض وفوقه سترة جلدية فيها جيب أقلام ودفتر صغير يطل من الجيب. ويحمل على خصره مسدساً.

كان يتكلم إنكليزية متقنة، مع لكنة غريبة لم يتمكن روجر من تحديد مصدرها. حياه بانحناءة تكاد لا تُلحظ، دون التفوه بأي كلمة. وقد كان قليل الكلام، يجيب باقتضاب على الأسئلة حول حياته في لندن، وكذلك حول تحديد جنسيته ـ «فلنقل إني بيرويّ» ـ، وردّ بشيء من الغطرسة عندما قال له روجر إنه وأعضاء اللجنة قد ذهلوا حين رأوا

أن هنالك، في مراكز شركة بريطانية، إساءة معاملة للسكان الأصليين بصورة لا إنسانية.

ـ لو أنكم تعيشون هنا لفكرتم بطريقة مختلفة ـ علق بجفاء، دون أدنى إحساس بالخوف. ثم أضاف بعد توقف قصير ـ: لا يمكن معاملة الحيوانات مثلما تعامل الكائنات البشرية. فالياكوماما والجغوار والبوما، لا تفهم بالعقل. وكذلك المتوحشون. وباختصار، أنا أعرف أن الغرباء الذين يمرون مروراً عابراً من هنا يصعب إقناعهم.

ـ لقد عشتُ عشرين عاماً في أفريقيا ولم أتحول إلى مسخ مرتكب فظائع ـ قال كيسمنت ـ. وهذا هو ما تحولتَ إليه أنت يا سيد نورماند. لقد رافقَتنا شهرتك على امتداد هذه الرحلة. الفظائع التي يروونها عنك في بتوتومايو تفوق كل ما يمكن تصوره. هل تعرف ذلك؟

لم يتأثر آرماندو نورماند بالمطلق. بل كان ينظر إليه طيلة الوقت بتلك النظرة البيضاء الخالية من أي تعبير، واكتفى بهز كتفيه وبصق على الأرض.

ـ أيمكنني أن أسألك كم من الرجال والنساء قتلت حضرتك؟ ـ أفلت روجر السؤال مباشرة.

ـ كل من كان يجب قتلهم ـ أجاب رئيس محطة ماتانثاس دون أن تتبدل نبرة صوته، ثم نهض قائلاً ـ أعذروني. لدي عمل.

الاستياء الذي شعر به روجر نحو ذلك الرجل الضئيل كان عظيماً دفعه لأن يقرر عدم مقابلته بنفسه وترك المهمة لأعضاء اللجنة. فهذا القاتل لن يقدم له سوى شلال من الأكاذيب. انهمك روجر في الاستماع إلى الباربادوسيين و«العقلاء» الذين وافقوا على تقديم شهاداتهم. عمل

ذلك صباحاً ومساء، مكرساً ما تبقى من اليوم لتطوير أدق للملاحظات التي سجلها خلال المقابلات. وكان ينزل في الصباح ليغطس في النهر، ويلتقط بعض الصور، ولا يتوقف بعد ذلك عن العمل حتى الغروب. فينهار منهوكاً على سريره. كان نومه متقطعاً ومحموماً. وكان يلاحظ كيف أن بدنه ينحل يوماً بعد يوم.

لقد كان متعباً وضجراً. ومثلما حدث له في بعض الأحيان في الكونغو، بدأ يخشى من أنَّ توالي الجرائم الباعثة على الجنون، والعنف والأهوال من كل صنف التي يكتشفها يومياً، ستؤثر على اتزانه الذهني. هل ستتحمل سلامته الروحية كل هذا الرعب اليومي؟ وكان يثبط عزيمته التفكير في أن قله من الناس في إنكلترا المتحضرة تصدق أنه يمكن لل «البيض» و«الخلاسيين» في بوتومايو أن يصلوا إلى تلك الحدود القصوى من الوحشية. سيُتهم مرة أخرى بالمبالغة والأحكام المسبقة، وبتكبير أعمال التعسف لإضفاء مزيد من الدرامية على تقريره. ليس المعاملة الجائرة للسكان الأصليين وحدها هي التي توصله إلى هذه الحال. وإنما معرفته أنه بعد رؤيته وسماعه وكونه شاهداً على ما يحدث هنا، لن تكون لديه قطّ الرؤيا المتفائلة للحياة التي كانت له في شبابه.

عندما علم أن قافلة حمالين ستنطلق من ماتاناس لنقل المطاط المتجمع خلال الشهور الثلاثة الماضية إلى محطة إنتري ريوس ومن هناك إلى ميناء بيروي من أجل شحنها إلى الخارج، أخبر رفاقه أنه سيذهب مع القافلة. يمكن للجنة أن تبقى هنا إلى أن تنتهي من تفتيشها ومقابلاتها. كان أصدقاؤه مستنفدين ويائسين مثله. وقد أخبروه أن أساليب آرماندو نورماند قد تغيرت بصورة مفاجئة عندما أطلعوه على أن

«السيد القنصل» قد تلقى التكليف بالمجيء للتحقيق في فظائع بوتومايو من السير إدوارد غري، وزير خارجية الإمبراطورية البريطانية، وأن القتلة والمسؤولين عن التعذيب، بما أنهم يعملون في شركة إنكليزية، يمكن أن يُقتادوا إلى المحاكم الإنكليزية. ولاسيما إذا كانوا يحملون الجنسية الإنكليزية أو ينوون اكتسابها، مثلما هي حالته. أو يُسلَّمون لحكومتي البيرو وكولومبيا كي يحاكموا هنا. ومنذ سماعه هذا الكلام، صار سلوك نورماند مع اللجنة مذعناً وخدوماً. وصار ينكر جرائمه وأكد لهم أنه، منذ الآن، لن تُرتكب مجدداً أخطاء الماضي: سيتلقى السكان الأصليون أغذية جيدة، وسيُعالجون عندما يمرضون، وتُدفع لهم أجور مقابل عملهم وسيعاملون ككائنات بشرية. وقد أمر بتعليق لوحة إعلان في وسط المعسكر يقول فيه هذه الأمور. لقد كان مضحكاً، لأن السكان الأصليين جميعهم أميون، لا يمكنهم قراءة ما كتبه، وكذلك معظم «العقلاء». لقد علقها ليقرأها أعضاء اللجنة حصرياً.

الرحلة عبر الأدغال من ماتانثاس إلى إنتري ريوس مشياً على الأقدام، وبرفقة ثمانين هندياً ـ من البورا، والأندوكيس، والموينان ـ يحملون على كواهلهم المطاط الذي جمعه أناس آرماندو نورماند، ستكون واحداً من أشد الذكريات رعباً في رحلة روجر كيسمنت الأولى إلى البيرو. لم يذهب نورماند على رأس الحملة، وإنما نيغريتي، أحد معاونيه، وهو خلاسي بملامح صينية، له أسنان ذهبية، يقضي الوقت وهو يكشط فمه بعود صغير. وصوته الجهوري يبعث الرعشة، والقفز، والتسرع بوجوه شوهها الخوف، في نفوس جيش هياكل الحملة العظمية المجرحة، الموسومة والمغطاة بالقروح، بينها كثير من النساء وأطفال، أعمار بعضهم سنوات قليلة. كان نيغريتي يحمل بندقية على كتفه،

ومسدساً في حزام الرصاص، وسوطاً حول خصره. في يوم انطلاق الحملة طلب منه روجر الإذن بأن يلتقط له صورة ووافق نيغريتي ضاحكاً. ولكن ابتسامته انخسفت عندما حذره كيسمنت مشيراً إلى السوط:

ـ إذا رأيتك تستخدمه ضد الهنود فسوف أسلمك بنفسي للشرطة في إيكيتوس.

بدت على وجه نيغريتي ملامح ارتباك كلي. ولكنه تلعثم بعد هنيهة:

ـ هل لحضرتك سلطة ما في الشركة؟

ـ لدي السلطة التي خولتني إياها الحكومة الإنكليزية للتحقيق في أعمال التعسف المقترفة في بوتومايو. وأنت تعلم أن شركة الأمازون البيروية التي تعملُ لديها هي شركة بريطانية، أليس كذلك؟

ابتعد الرجل عنه حائراً. ولم يره كيسمنت قط يجلد الوطنيين، وإنما كان يصرخ بهم فقط كي يسرعوا، أو يلاحقهم بلعنات وشتائم عندما يفلت منهم حبل من «سجق» المطاط الذي يحملونه على أكتافهم ورؤوسهم لاستفادهم قواهم أو تعثرهم.

كان روجر قد أحضر معه ثلاثة باربادوسيين: بيشوب وسيلي ولان. أما التسعة الآخرون الذين رافقوهم فظلوا مع اللجنة. وقد أوصى كيسمنت أصدقاءه بألا يبتعدوا أبداً عن أولئك الشهود لأنهم معرضون لخطر التخويف أو الرشوة من قبل نورماند وزبانيته كي يتراجعوا عن شهاداتهم، بل ويمكن أن يتعرضوا للاغتيال.

أقسى ما في الحملة لم تكن الزنابير الزرقاء الكبيرة والطنانة التي

تلاحقهم بلسعها ليلاً ونهاراً، ولا العواصف الماطرة التي تداهمهم أحياناً وتخلّفهم مبللين، وتحوّل الأرض إلى مسيلات زلقة من الماء والوحل والأوراق والأشجار الميتة، ولا انعدام الراحة في المخيمات التي ينصبونها ليلاً ليناموا في أسوأ حال بعد أن يأكلوا علبة سردين أو حساء ويشربوا من الترمس بضع رشفات من الويسكي أو الشاي. فالرهيب، وعذاب الضمير، هو رؤية أولئك السكان الأصليين العراة، منحنين تحت ثقل حبال «سجق» المطاط، والذين يجبرهم نيغريتي و«شبابه» على مواصلة التقدم بالصراخ، يستعجلونهم دوماً، مع استراحات متباعدة جداً، ودون أن يقدموا إليهم لقمة طعام. وعندما سألَ نيغريتي لماذا لا تُوزع حصص مأكولات على الهنود، نظر إليه رئيس العمال كمن لم يفهم ما يعنيه. وحين شرح له بيشوب السؤال، أكّد نيغريتي بوقاحة تامة:

ـ إنهم لا يرغبون في ما نأكله نحن المسيحيين. لديهم أطعمتهم الخاصة.

غير أنه لم يكن لديهم أي طعام، لأنه لا يمكن أن تُطلق تسمية طعام على حفنات دقيق اليوكا التي يضعونها في أفواههم أحياناً، أو سُوق وأوراق بعض النباتات التي يلفونها بدقة كبيرة قبل أن يبتلعوها. وما لم يستطع روجر فهمه هو كيف يمكن لأطفال في العاشرة أو الثانية عشرة أن يحملوا لساعات حبال «سجق» المطاط تلك التي تزن ـ وقد جرب حملها بنفسه ـ ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين كيلوغراما، وأكثر من ذلك في بعض الأحيان. ففي اليوم الأول من المسير سقط صبي من هنود البورا أرضاً على وجهه فجأة، تحت وطأة الوزن الثقيل. راح يئن

بضعف عندما حاول روجر تنشيطه بجعله يتناول علبة حساء. كانت عينا الصبي تطلقان رعباً حيوانياً. حاول النهوض مرتين أو ثلاث مرات دون أن يتمكن من ذلك. وقد شرح بيشوب الوضع: «إنه خائف جداً، لأن نيغريتي سيجهز عليه برصاصة، لو لم تكن موجوداً، عقاباً له كيلا يفكر أي وثني آخر في الإغماء». لم يكن الصبي في وضع يسمح له بالنهوض على قدميه، ولهذا تركوه في البرية. وقد ترك له روجر علبتي طعام ومظلته. لقد أدرك الآن لماذا تتمكن تلك الكائنات الضعيفة من حمل تلك الأثقال: خوفاً من قتلهم إذا ما تجرؤوا على الإغماء. فالخوف يعاظم قواهم.

في اليوم التالي سقطت امرأة عجوز ميتة فجأة، وهي تحاول ارتقاء سفح مع حمولة ثلاثين كيلوغراماً من المطاط على كاهلها. بعد أن تأكد نيغريتي من أنها فارقت الحياة، سارع إلى توزيع حبلي «سجق» المطاط اللذين تحملهما على هنود آخرين، وهو يكشر تكشيرة استياء وينكش في فمه.

وفي إنتري ريوس، ما إن استحم روجر واستراح قليلاً حتى سارع إلى تدوين أحداث الرحلة وتأملاته حولها. كانت تجول في وعيه مرة بعد أخرى فكرة ستواصل الإلحاح عليه خلال الأيام، والأسابيع، والشهور التالية، وستبدأ بتبديل سلوكه: «يجب ألا نسمح للمستعمرين بالتوصل إلى إخصاء روح الأيرلنديين مثلما أُخصيت روح سكان الأمازون الأصليين. يجب بدء العمل الآن، دفعة واحدة، قبل أن يفوت الأوان ونتحول إلى بشر آليين».

لم يضيع الوقت بينما هو ينتظر وصول اللجنة. فقد أجرى بعض

المقابلات، ولكنه قام بصورة خاصة بمراجعة السجلات، ودفاتر حسابات المتجر وسجلات الإدارة. أراد أن يحدد كم تُضاعف شركة خوليو س. آرانا أسعار الأغذية والأدوية والملابس والأسلحة والأدوات المنزلية التي تقدمها بالدين للسكان الأصليين وكذلك لرؤساء العمال و«الشباب». النسب المئوية تختلف من مادة إلى أخرى ولكن الثابت أن المتجر، في المبيعات كلها، يضاعف الأسعار ضعفين وثلاثة، ويصل أحياناً إلى خمسة أضعاف. وقد اشترى هو نفسه قميصين، وبنطالاً، وقبعة، وجزمة، وهي أشياء يمكنه اقتناؤها في لندن بثلث الثمن الذي دفعه. لم يكن السكان الأصليون وحدهم من يتعرضون للسلب، وإنما كذلك أولئك المساكين التعساء من الكسالى والقتلة الذين هم في بوتومايو لتنفيذ أوامر رؤسائهم. وليس غريباً أن يظل هؤلاء وأولئك مدينين دوماً لشركة الأمازون البيروية، وأن يظلوا مقيدين إليها حتى موتهم أو إلى أن تعتبرهم الشركة غير نافعين لها.

تبين لروجر أن أصعب الأمور عليه هو التوصل إلى تكوين فكرة تقريبية لعدد السكان الأصليين الذين كانوا في بوتومايو حوالي العام ١٨٩٣، عندما استقرت في المنطقة أولى شركات جمع المطاط وبدأت «الغارات»، وكم بقي منهم في عام ١٩١٠ هذا. لا وجود لإحصاءات جدّية، وما كُتب في هذا الشأن غامض، والأرقام تختلف كثيراً بين مصدر وآخر. ومن يبدو أنه قدم أكثر حساب محل ثقة هو المكتشف والاتنولوجي الفرنسي عاثر الحظ أوجين روبتشين (اختفى بطريقة غامضة في منطقة بوتومايو عام ١٩٠٥ حين كان يوثق كافة مناطق سيطرة خوليو س.آرانا)، وحسب تلك الحسابات، فإن عدد قبائل المنطقة السبع ـ هيتوتو، أوكايما، موينان، نونويا، أندوكي، ريزيغارو، وبورا ـ يجب أن

يكون حوالي مئة ألف نسمة قبل أن يجتذب المطاطُ «المتحضرين» إلى بوتومايو. لكن خوان تيثون يرى أن هذا العدد مبالغ فيه. فهو نفسه، ومن خلال تحليلات ومقارنات مختلفة، يؤكد أن حوالي أربعين ألفاً هو الرقم الأقرب إلى الحقيقة. ولم يبق الآن على أي حال سوى نحو عشرة آلاف أحياء. وهكذا فإن النظام الذي فرضه منتجو المطاط قد قضى على ثلاثة أرباع السكان الأصليين. لا شك في أن كثيرين منهم قد قضوا ضحية الجدري والملاريا والبيربري وأوبئة أخرى. ولكن الغالبية العظمى اختفت بفعل الاستغلال والجوع وبتر الأعضاء وأقفاص التعذيب وعمليات القتل. وبهذا المعدل سيصيب جميع القبائل ما جرى لهنود الإكوارا الذين انقرضوا تماماً.

بعد يومين منذ لك وصل زملاؤه في اللجنة إلى إنتري ريوس. وقد فوجئ روجر حين رأى أرماندو نورماند يظهر معهم، يتبعه «حريمه» من الفتيات الصغيرات. نبهه فوك وبرانس إلى أنه على الرغم من السبب الذي قدمه لهم رئيس محطة ماتاناس للمجيء معهم هو واجب حراسته الشخصية لشحنة المطاط في الميناء البيروي، إلا أنه جاء بسبب خوفه على مستقبله. فما إن عرف بأمر اتهامات البابادوسيين ضده، حتى أطلق حملة رشى وتهديدات كي يتراجعوا عن أقوالهم. وقد توصل إلى جعل بعضهم، مثل ليفين، يرسلون رسالة إلى اللجنة (من كتبها دون شك هو نورماند نفسه) يقولون فيها إنهم ينكرون أقوالهم كلها التي استُدرجوا إليها «بالخداع» ويريدون التوضيح خطياً أنه لم تحدث في شركة الأمازون البيروية قطّ إساءة للسكان الأصليين، وأن الموظفين والحمالين يعملون بمودة من أجل عظمة البيرو. ويعتقد فوك وبارنس أن نورماند

سيحاول رشوة أو تخويف بيشوب وسيلي ولان، وربما روجر كيسمنت نفسه أيضاً.

وبالفعل، جاء آرماندو نورماند في صباح اليوم التالي، في وقت مبكر جداً، ليطرق باب روجر ويقترح عليه «محادثة صريحة وودية». كان رئيس محطة ماتانثاس قد فقد ثقته بنفسه وعجرفته التي توجه بها إلى روجر في المرة السابقة. بدا عصبياً. يفرك يديه ويعض شفته السفلى بينما هو يتكلم. مشيا معاً باتجاه مستودع المطاط، في أرض خلاء تتخللها آجام ملأتها عاصفة الليل ببرك ماء وضفادع. كانت نتانة المطاط تخرج من المستودع، وخطر لذهن روجر أن تلك الرائحة ليس آتية من حبال «سجق» المطاط المخزّن في المستودع الكبير، وإنما من الرجل الضئيل ذي الوجه الضارب إلى الحمرة الذي يبدو قزماً إلى جانبه.

كان نورماند قد أعدّ خطابه جيداً. فالسنوات السبع التي عاشها في الأدغال تطلبت حرماناً رهيباً بالنسبة لشخص تلقى تعليمه في لندن. وهو لا يريد لحياته، بسبب سوء تفاهم أو افتراءات حاسدين، أن تنقطع بتعقيدات قضائية، وألا يتمكن من تحقيق حلمه بالعودة إلى إنكلترا. وأقسم له بشرفه أن يديه غير ملوثتين بالدم، وكذلك ضميره. صحيح أنه كان قاسياً ولكن عادلاً وأنه مستعد لتطبيق كافة الإجراءات التي تقترحها اللجنة و«السيد القنصل» من أجل تحسين سير العمل في الشركة.

ـ أن تتوقف «الغارات» واختطاف السكان الأصليين ـ راح روجر يعدد، وهو يحسب على أصابع يديه ـ، وأن يختفي قفص التعذيب والسياط، وألا يعود الهنود إلى العمل دون أجر، وألا يعود رؤساء المحطات، ورؤساء فرق العمل و«الشباب» إلى اغتصاب واختطاف نساء

السكان الأصليين أو بناتهم، وأن تختفي من الوجود العقوبات الجسدية، وأن تُدفع تعويضات لعائلات من قُتلوا أو أحرقوا أحياء ومن قُطعت آذانهم وأنوفهم وأيديهم وأقدامهم. وأن تتوقف سرقة الحمالين من خلال التلاعب بالموازين والأسعار المضاعفة أضعافاً في المتجر من أجل إبقائهم مدينين للشركة إلى الأبد. وهذا كله من أجل البدء فقط. لأن هنالك إصلاحات كثيرة أخرى كي تستحق شركة الأمازون البيروية أن تكون شركة بريطانية.

كان لون آرماندو نورماند قد شحب وهو ينظر إليه دون أن يفهم.

ـ هل تريد بهذا لشركة الأمازون البيروية أن تختفي من الوجود يا سيد كيسمنت؟ ـ تلعثم أخيراً.

ـ بالضبط. وأن يُحاكم جميع قتلتها ومعذِبيها على جرائمهم، ابتداء من السيد خوليو س. آرانا وانتهاء بك أنت، وأن تنهوا أيامكم في السجن.

سرّع خطواته وخلّف وراءه رئيس محطة ماتانثاس محتقن الوجه، ومتوقفاً في المكان دون أن يدري ما يمكنه أن يقوله. وعلى الفور أحس روجر بالندم لتعبيره بتلك الطريقة عن الازدراء الذي يستحقه ذلك الشخص. لقد جلب لنفسه عدواً قاتلاً، يمكن له أن يشعر الآن بإغواء تصفيته. لقد نبهه إلى مصيره، ونورماند سيتصرف بالتالي دون سابق إنذار. لقد اقترف خطأ جسيماً بتحدثه إليه.

بعد أيام قليلة أطلعهم خوان تيثون على أن رئيس محطة ماتانثاس قد طلب من الشركة تصفية حسابات خدمته، وأنه يريد المبلغ نقداً وليس بالسولات البيروية، بل بالجنيهات الاسترلينية. وأنه سيسافر عائداً إلى

إيكيتوس، في السفينة *ليبرال*، مع اللجنة. ما يسعى إليه واضح: الاستعانة بأصدقائه وشركائه المتواطئين للتخفيف من مسؤوليته عن الاتهامات الموجهة إليه وضمان هروبه إلى الخارج ـ إلى البرازيل دون شك ـ، حيث يملك مدخرات جيدة بانتظاره. لقد تقلصت احتمالات اقتياده إلى السجن. وقد أخبرهم خوان تيثون بأن نورماند يتلقى منذ خمس سنوات عشرين بالمئة من المطاط الذي يُجمع في ماتانثاس، إضافة إلى «مكافأة» مئتي جنيه استرليني كل سنة إذا زاد الإنتاج عن السنة السابقة.

كانت الأيام والأسابيع التالية روتيناً خانقاً. المقابلات مع الباربادوسيين و«العقلاء» مازالت تكشف عن قائمة مذهلة من الفظاعات. كان روجر يشعر بأن قواه تفارقه. وبما أنه بدأ يعاني الحمى في المساء، فقد خشي أن يكون أصيب بالملاريا من جديد، فضاعف جرع الكينين التي يأخذها قبل النوم. ولخوفه من أن يتمكن آرماندو نورماند أو أي رئيس محطة آخر من اتلاف الدفاتر التي تتضمن توصيفاً للشهادات، سعى في كافة المحطات ـ إنتري ريوس، أتيناس، سور، ولاتشوريرا ـ إلى أن يحمل معه تلك الأوراق، دون أن يسمح لأحد بلمسها. وكان يدسها في الليل تحت الفراش أو الأرجوحة التي ينام فيها، مع الاحتفاظ دوماً بالمسدس المحشو في متناول يده.

وفي لاتشوريرا، حين كان يُعد حقائبه للعودة إلى إيكيتوس، رأى روجر ذات يوم مجيء حوالي عشرين هندياً إلى المعسكر، قادمين من ضيعة لهنود قبيلة نايمين. ويحملون مطاطاً. كان الحمالون فتياناً أو رجالاً، باستثناء طفل في التاسعة أو العاشرة من العمر، شديد النحول،

يحمل على رأسه حبلاً من «سجق» الكاوتشوك أكبر منه. ذهب روجر معهم إلى الميزان حيث كان فيكتور ماثيدو يتلقى الحمولة. كان وزن حمولة الطفل أربعة وعشرين كيلوغراماً، أما وزن الطفل، ويدعى عمرينو، فكان خمسة وعشرين كيلوغراماً فقط. كيف استطاع المجيء ماشياً عبر الأدغال كل تلك الكيلومترات مع مثل هذا الوزن على رأسه؟ وبالرغم من القروح التي على ظهره، كانت عيناه تشعان حيوية وسعادة ويبتسم بكثرة. أعطاه روجر علبة حساء وعلبة سردين اشتراهما من المتجر. ومنذ ذلك الحين لم يعد عمرينو يبتعد عنه. صار يرافقه إلى كل مكان، متأهباً في كل لحظة لتلبية أي طلب منه. وفي أحد الأيام قال له فيكتور ماثيدو مشيراً إلى الصبي:

ـ أرى أنه قد أحبك يا سيد كيسمنت. لماذا لا تأخذه معك؟ إنه يتيم. سأهديك إياه.

سيفكر روجر في ما بعد بعبارة «سأهديك إياه» التي أراد فيكتور ماثيدو التودد بها إليه، وبأنها تعني أكثر من أي شهادة أخرى: فرئيس المحطة يمكنه أن «يهدي» أي هندي في منطقته، لأن الحمالين وجامعي المطاط من أملاكه مثلما هي الأشجار والمساكن والبنادق وحبال «سجق» الكاوتشوك. سأل خوان تيثون إن كان هنالك مانع يحول دون أن يأخذ عمرينو معه ـ فجمعية مناهضة العبودية ستضعه تحت حمايتها وتتولى توفير تعليم له ـ فلم يُبدِ الآخر أي اعتراض.

وسينضم إلى عمرينو بعد أيام المراهق أريدومي الذي ينتمي إلى قبيلة أندوكي. فقد جاء إلى لاتشوريرا من محطة سور، وفي اليوم التالي، بينما هو يستحم في النهر، رأى روجر الصبي عارياً يلعبط في

الماء مثل غيره من السكان الأصليين. كان فتى بديعاً، له جسد متناسق ورشيق، يتحرك بأناقة طبيعية. وفكر روجر في أنه يمكن لهربرت وارد أن ينجز منحوتة بديعة لهذا الصبي، رمزاً للإنسان الأمازوني المحروم من أرضه ومن جسده وجماله من أجل المطاط. وزع علب طعام على الأندوكيين الذين يسبحون. قبّل أريدومي يده تعبيراً عن الشكر. أحس روجر بالاستياء، لكنه أحس في الوقت نفسه بالتأثر. لحق به الفتى حتى المسكن، وكان يتكلم ويومئ بحماسة، ولكنه لم يفهم ما يقوله. استدعى فريدريك بيشوب الذي ترجم له:

ـ يريدك أن تأخذه، حيثما تذهب. وسيخدمك على أحسن وجه.

ـ قل له إنني لا أستطيع، لأني سآخذ عمرينو معي.

لكن أريدومي لم يقبل بليِّ ذراعه. ظل واقفاً بثبات إلى جانب الكوخ الذي ينام فيه روجر، يتبعه أينما ذهب، على بُعد خطوات قليلة منه، بتوسل أبكم في عينيه. فكان اختياره أن يستشير اللجنة وخوان تيثون. أيبدو لهم مناسباً أن يأخذ معه أريدومي إلى لندن، إضافة إلى عمرينو. وربما سيضفي وجود الصبيين قوة أكبر على تقريره: فكلاهما يحمل على جسده آثار السياط. وهما فتيَّان جداً من جهة أخرى، ويمكن لهما أن يتلقيا تعليماً ويندمجا في أسلوب آخر في الحياة بلا عبودية.

عشية انطلاق السفينة *ليبرال* وصل إلى لاتشوريرا كارلوس ميراندا، رئيس محطة سور. وقد جاء برفقة حوالي مئة هندي ومعهم المطاط الذي جمعوه من تلك المنطقة خلال الشهور الثلاثة الأخيرة. كان رجلاً بديناً، أربعينياً وشديد البياض. ويبدو من طريقته في الكلام والتصرف

أنه تلقى تعليماً أفضل من رؤساء المحطات الآخرين. لا شك أنه يتحدر من أسرة من الطبقة الوسطى. ولكن سيرته لا تقل دموية عن زملائه. فقد تلقى روجر كيسمنت وبقية أفراد اللجنة عدة شهادات حول واقعة المرأة العجوز من قبيلة بورا. إنها امرأة أصيبت، منذ شهور، في محطة سور، بنوبة يأس أو جنون، وراحت تصرخ فجأة وتحث هنود بروا على القتال، وألا يسمحوا بإذلالهم أكثر ومعاملتهم كالعبيد. صرخاتها شلّت الأهالي المحيطين بها من الرعب. وفي سورة غضبه، انقض عليها كارلوس ميراندا بمنجل المتشيتي الذي انتزعه من أحد «الشباب»، وقطع رأسها. وبينما هو يهز رأس المرأة، الذي يغطيه الدم، أوضح للهنود أن هذا ما سيحدث لهم جميعاً إذا هم لم ينجزوا عملهم وأرادوا محاكاة تلك العجوز. كان قاطع الرأس رجلاً بشوشاً وباسماً، ومتحدثاً بارعاً، حاول أن يبدو لطيفاً أمام روجر وزملائه برواية نكات وطرائف عن أشخاص غريبي الأطوار وظرفاء تعرف إليهم في بوتومايو.

عندما صعد، يوم الأربعاء السادس عشر من تشرين الثاني ١٩١٠ إلى السفينة *ليبرال* في مرسى لاتشوريرا للانطلاق في رحلة العودة إلى إيكيتوس، فتح روجر فمه وتنفس بعمق. كان يشعر بإحساس استثنائي بالراحة. بدا له أن تلك المغادرة تنظف بدنه وروحه من كآبة ضاغطة لم يشعر بها من قبل حتى في أصعب لحظات حياته في الكونغو. وفضلاً عن عمرينو وأريدومي، كان يحمل معه في *ليبرال* ثمانية عشر باربادوسياً، وخمس نساء من السكان الأصليين هن زوجات بعض أولئك، وأبناء جون برون، وآلن دافيس، وجيمس ماب، وج. ديال، وفيليب بيرتي لورنس.

وجود الباربادوسيين في السفينة كان حصيلة مفاوضات شاقة ومترعة بالمكايد، والتسهيلات والتسويات مع خوان تيثون وفيكتور ماثيدو وأعضاء اللجنة الآخرين ومع الباربادوسيين أنفسهم. فهؤلاء جميعهم، وقبل الإدلاء بشهاداتهم، طالبوا بضمانات، لأنهم يعرفون جيداً أنهم يُعرّضون أنفسهم لانتقام رؤساء المحطات الذين يمكن لشهاداتهم أن توصلهم إلى السجن. وقد وعد كيسمنت بأن يتولى هو شخصياً إخراجهم أحياء من بوتومايو.

لكن الشركة بدأت، قبل أيام من وصول *ليبرال* إلى لاتشوريرا، هجوم مودة لاستبقاء رؤساء العمال الباربادوسيين، مؤكدة لهم أنهم لن يكونوا ضحية أي انتقام، ووعدتهم بعلاوات في الأجور وبشروط أفضل كي يظلوا في مواقع عملهم. وأعلن فيكتور ماثيدور أنه، أياً يكن قرارهم، سيحسم خمسة وعشرين بالمئة من الديون المترتبة عليهم في المتجر من مشترياتهم للدواء والملابس والأدوات المنزلية والأطعمة. وقد وافقوا جميعهم على العرض. وخلال أقل من أربع وعشرين ساعة، أخبر الباربادوسيون كيسمنت أنهم لن يعودوا معه إلى موطنهم. وسيبقون للعمل في المحطات. كان روجر يعرف ما الذي يعنيه ذلك: ستُمارس ضغوط ورشى، فور مغادرته، وسيتراجعون عن اعترافاتهم ويتهمونه بأنه اختلقها أو أنه فرضها بالتهديد. تكلم مع خوان تيثون. فذكّره هذا بأنه على الرغم من تأثره مثله بما يحدث وتصميمه على تصحيح الأمور، إلا أنه مازال أحد مديري شركة الأمازون البيروية ولا يمكنه، ولا يجب عليه، التأثير على الباربادوسيين كي يغادروا إن كانوا راغبين في البقاء. كما أن أحد أعضاء اللجنة، هنري فيلجاد، أيد تيثون بالحجج نفسها: فهو أيضاً يعمل، في لندن، مع السيد خوليو س. آرانا، ومع أنه يطالب

بإصلاحات عميقة في مناهج العمل في الأمازون، إلا أنه لا يستطيع أن يتحول إلى ساعٍ لتصفية الشركة التي توظفه. فأحس روجر بأن العالم ينهار عليه.

ولكن، في أحد تلك التحولات المفاجئة في المواقف، كما في الروايات الفرنسية المتسلسلة، تحول ذلك المشهد كله بصورة جذرية مع وصول السفينة *ليبرال* إلى لاتشوريرا، عند غروب الثاني عشر من تشرين الثاني. فقد حملت السفينة معها رسائل وصحفاً من إيكيتوس وليما. جريدة ***الكوميرثيو*** الآتية من العاصمة البيروية، وفي مقال منذ شهرين ماضيين، تعلن أن حكومة الرئيس أوغسطو ب. ليغيا، في استجابة لمطالب بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بشأن فظاعات مزعومة تُقترف في محطات المطاط في بوتومايو، أرسلت إلى الأمازون، وبسلطات خاصة، قاضياً نجماً في القضاء البيرويّ هو الدكتور كارلوس آ. بالكارثيل. وستكون مهمته التحقيق والبدء فوراً بالإجراءات القضائية اللازمة، ونقل ما يجده مناسباً من قوات الشرطة والجيش إلى بوتومايو، بهدف الحيلولة دون إفلات المسؤولين عن الجرائم من يد العدالة.

كان لهذه الأخبار فعل القنبلة بين موظفي شركة آرانا. فقد نقل خوان تيثون إلى روجر كيسمنت معلومات عن أن فيكتور ماثيدو، وبذعر شديد، دعا جميع رؤساء المحطات، بما في ذلك النائية منها، إلى الاجتماع في لاتشوريرا. وقدم تيثون الانطباع بأنه رجل ممزق في تناقض لا حل له. فهو سعيد لشرف بلاده ولإحساس فطري لديه بالعدالة، وبأن حكومة البيرو قد قررت التصرف أخيراً. ولكنه لا يخفي، من جهةأخرى، أن تلك الفضيحة قد تعني انهيار شركة الأمازون

البيروية، وبالتالي انهياره هو شخصياً. ففي إحدى الليالي، وبين كؤوس ويسكي فاتر، اعترف تيثون لروجر بأن ثروته كلها، باستثناء بيت يملكه في ليما، موظفة في أسهم للشركة.

الإشاعات، والتقولات، والمخاوف التي ولدتها الأخبار الآتية من ليما جعلت الباربادوسيين يبدلون رأيهم مرة أخرى. فهم يرغبون مجدداً، الآن، في الرحيل. ويخشون أن يحاول رؤساء المحطات البيرويين التخلص من مسؤولية أعمال تعذيب وقتل الوطنيين وإلقاء المسؤولية عليهم هم «الزنوج الأجانب»، وصاروا يريدون مغادرة البيرو بأسرع ما يمكن والعودة إلى باربادوس. فقد كانوا يموتون من الخوف وانعدام الأمان.

ودون أن يخبر روجر كيسمنت أحداً، فكّر في أنه إذا ما وصل الثمانية عشر باربادوسياً معه إلى إيكيتوس، فسيكون حدوث أي شيء ممكناً. إذ يمكن للشركة، على سبيل المثال، أن تحمّلهم مسؤولية كافة الجرائم وترسلهم إلى السجن، أو تحاول رشوتهم ليبدلوا اعترافاتهم ويتهموا كيسمنت بأنه زيّفها. والحل هو في أن ينزل الباربادوسيون من السفينة، قبل وصولهم إلى إيكيتوس، في أحد موانئ الأراضي البرازيلية وأن ينتظروا هناك عودة روجر لأخذهم في السفينة ***أتاوالبا*** التي سيسافر بها من إيكيتوس إلى أوروبا، مع توقف في باربادوس. أطلع فريدريك بيشوب على خطته. وقد وافق هذا الأخير على الخطة ولكنه قال لكيسمنت إنه من الأفضل عدم إخبار الباربادوسيين بالأمر حتى اللحظة الأخيرة.

كانت هناك أجواء غريبة في مرسى لاتشوريرا عند انطلاق السفينة

ليبرال. لم يحضر أي من رؤساء المحطات لوداعه. وقيل إن عدداً منهم قرروا المغادرة، باتجاه البرازيل أوكولومبيا. أما خوان تيثون الذي سيظل شهراً آخر في بوتومايو، فقد عانق روجر وتمنى له التوفيق. كما أن أعضاء اللجنة سيبقون أسابيع أخرى في بوتومايو للقيام بأبحاث تقنية وإدارية، ودَّعوه عند سلم الصعود إلى السفينة. واتفقوا على اللقاء في لندن، لقراءة تقرير روجر قبل أن يقدمه إلى وزارة الخارجية البريطانية.

في تلك الليلة الأولى من الإبحار في النهر، كان قمر مكتمل ينير السماء بضوء ضارب إلى الحمرة، وينعكس على المياه القاتمة بومضات نجوم تبدو أشبه بأسماك مضيئة. كان كل شيء دافئاً، جميلاً وهادئاً، باستثناء رائحة المطاط المتبقية هناك، كما لو أنها قد تغلغلت في الأنوف إلى الأبد. ظل روجر مستنداً إلى حاجز مقدمة السفينة يتأمل المشهد، وانتبه فجأة إلى أن وجهه مبلل بالدموع. رباه، يا للسلام الرائع.

في أيام الإبحار الأولى حال الإنهاك والجزع دون انكبابه على العمل في مراجعة البطاقات والدفاتر ووضع مخطط أولي لتقريره. فهو ينام قليلاً، مع كوابيس. وكثيراً ما يستيقظ في الليل ويخرج إلى جسر السفينة ليتأمل القمر والنجوم حين يكون الجو صحواً. كان يسافر في السفينة مدير من الجمارك البرازيلية. فسأله إن كان بإمكان الباربادوسيين النزول في أحد الموانئ البرازيلية والسفر منه إلى ماناوس لانتظاره فيها، ومتابعة السفر معه بعد ذلك إلى باربادوس. فأكد له الموظف أنه لا وجود لأدنى صعوبة. ومع ذلك ظل روجر قلقاً. كان يخشى حدوث شيء ينقذ شركة الأمازون البيروية من كل العقوبات. وبعد أن رأى قدر

السكان الأصليين الأمازونيين بتلك الصورة المباشرة، صار من الملّح إطلاع العالم بأسره على ذلك وفعل شيء لعلاجه.

سبب آخر لقلقه هو حال أيرلندا. فمنذ وصوله إلى القناعة بأنه لا يمكن إلا لعمل حاسم. . . لتمرد، أن يحرر وطنه من «فقدان روحه» بفعل الاستعمار، مثلما جرى لهنود الهيتوتو والبورا وغيرهم من التعساء في بوتومايو، صار يتحرق لهفة للتفرغ جسداً وروحاً في التحضير لتلك الانتفاضة التي ستضع حداً لقرون من العبودية في بلاده.

في اليوم الذي اجتازت فيه السفينة حدود البيرو ـ وقد صارت تبحر عندئذ في نهر يافاري ـ ودخلت أراضي البرازيل، تلاشت مشاعر الخوف والخطر التي كانت تحاصره. ولكنهم سيعودون بعد ذلك إلى الدخول في نهر الأمازون والإبحار فيه ضمن أراضي البيرو، حيث سيشعر من جديد، وهو متأكد من ذلك، بالقلق من أن كارثة غير متوقعة ستحل لتحبط مهمته وتجعل الشهور التي أمضاها في بتوتومايو غير ذات جدوى.

في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٩١٠، في ميناء إسبرانسا البرتغالي، على نهر يافاري، أنزل روجر أربعة عشر باربادوسياً، ونساء أربعة منهم وأربعة أطفال. وكان قد جمعهم في العشية ليشرح لهم المجازفة التي يتعرضون لها إذا رافقوه إلى إيكيتوس. ابتداء من أن الشركة المتواطئة مع القضاة والشرطة قد تعتقلهم كمسؤولين عن كافة الجرائم، حتى احتمال أن يكونوا عرضة للضغوط والإساءة والابتزاز بهدف حملهم على التراجع عن الاعترافات التي تُجَرّم شركةآرانا.

وافق أربعة عشر باربادوسياً على خطته بالنزول إلى البر في إسبيرانسا والذهاب في أول سفينة إلى ماناوس، حيث ينتظرون، بحماية القنصلية البريطانية، مجيء روجر ليأخذهم في السفينة *أتاوابا* التابعة لشركة الملاحة بوث لاين، والتي تقوم برحلاتها على خط إيكيتوس ـ ماناوس ـ بارا. ومن هذه المدينة الأخيرة ستنقلهم سفينة أخرى إلى موطنهم. ودَّعهم روجر مع فائض من المؤن اشتراها لهم، ومع شهادة ضمان بأن تذكرة سفرهم إلى ماناوس ستكون مكفولة من الحكومة البريطانية، ورسالة تعريف إلى القنصل البريطاني في المدينة.

واصل الرحلة معه إلى إيكيتوس، فضلاً عن أريدومي وعمرينو، كل من فريدريك بيشوب، وجون برون مع زوجتيهما وأبنائهما، ولاري كلارك وفيليب بيرتي لورنس، ومعهما أيضاً ابنان صغيران. وكان لدى هؤلاء الباربادوسيون أمتعة عليهم أخذها وشيكات من الشركة يجب أن يقبضوها في المدينة.

وخلال الأيام الأربعة المتبقية للوصول إلى إيكيتوس، أمضى روجر الوقت في العمل بأوراقه وبتهيئة مذكرة للسلطات البيروية.

في يوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني نزلوا في إيكيتوس. وقد أصر القنصل الإنكليزي، مستر ستيرز، مرة أخرى على استضافة روجر في بيته. ورافقه إلى نزل قريب حيث وجدا مأوى للباربادوسيين وأريدومي وعمرينو. كان مستر ستيرز قلقاً. فهناك أجواء عصبية جداً في كافة أنحاء إيكيتوس بسبب خبر قرب وصول القاضي كارلوس آ. بالكارثيل للتحقيق في اتهامات إنكلترا والولايات المتحدة ضد شركة خوليو س. آرانا. ولم يكن القلق يساور موظفي شركة الأمازون البيروية

وحدهم وإنما جميع أهالي إيكيتوس بصورة عامة، لأن الجميع يعرفون أن حياة المدينة تعتمد على الشركة. كانت هناك أجواء عداء شديدة لروجر كيسمنت فنصحه القنصل بعدم الخروج وحيداً لأنه لا يمكن استبعاد محاولة اعتداء على حياته.

وعنما لخص له روجر، بعد العشاء وكأس نبيذ أوبورتو المعهود، ما رآه وسمعه في بوتومايو، وبعد أن استمع إليه مستر ستيرز بجد وصمت، لم يجد ما يسأله إياه سوى:

ـ هل الوضع رهيب إذاً كما في كونغو ليبولد الثاني؟

ـ أخشى أنه كذلك، وربما أسوأ ـ أجابه روجر ـ وإن كنت أرى من القذارة إقرار مراتب بين جرائم بهذا الحجم.

خلال غيابه كان قد جرى تعيين محافظ جديد لإيكيتوس، وهو سيد آت من العاصمة ليما يدعى إستيبان ثاباتا. وخلافاً للمحافظ السابق، لم يكن موظفاً لدى خوليو س. آرانا. ومنذ مجيئه ظل يحافظ على مسافة معينة في علاقته ببابلو ثومايتا ومديري الشركة الآخرين. كان يعرف أن كيسمنت على وشك المجيء، وكان ينتظر قدومه بفارغ الصبر.

اللقاء مع المحافظ جرى في صباح اليوم التالي واستمر أكثر من ساعتين. كان استيبان ثاباتا رجلاً شاباً، شديد السمرة وذا أساليب مهذبة. وبالرغم من شدة الحر ـ كان يتعرق دون توقف ويمسح وجهه بمنديل بنفسجي كبير ـ لم يخلع عنه سترة الجوخ. استمع إلى روجر باهتمام كبير، مبدياً ذهوله أحياناً، ومقاطعاً إياه في بعض الأحيان ليطلب تحديداً دقيقاً، وكثيراً ما كان يهتف بسخط («رهيب! مرعب!»). ويقدم له بين حين وآخر كأساً صغيرة من الماء البارد. أخبره روجر بكل شيء

وبتفصيل شديد، مع ذكر الأسماء، والأرقام، والأمكنة، مركزاً على الوقائع ومتجنباً التعليقات، اللهم إلا في النهاية، حيث أنهى روايته بهذه الكلمات:

- باختصار، أيها السيد المحافظ، اتهامات الصحفي سالدانيا روكا والسيد هاردينبرغ لم تكن مبالغات. بل على العكس، فكل ما نشرته في صحيفة ***الحقيقة*** في لندن، وإن بدا أشبه بالكذب، إنما هو أقل من الحقيقة.

فقال ثاباتا، وفي صوته بشيء من الاستياء، إنه يشعر بالخجل من البيرو. وهذا كله يحدث لأن الدولة لم تصل إلى تلك المناطق النائية عن القانون والخالية من أية مؤسسات. وإن الحكومة مصممة على التصرف. ولهذا هو موجود هنا. ولهذا سيصل قريباً جداً قاضٍ نزيه هو الدكتور بالكارثل. فالرئيس ليغين شخصياً يريد غسل شرف البيرو بوضع حدّ لتلك التعسفات الشنيعة. هذا ما قاله هو نفسه، وبهذه الكلمات نفسها. وستتأكد حكومة جلالته أن المذنبين سيُعاقبون وأن السكان الأصليين سيحظون بالحماية منذ الآن. سأله إن كان تقرير روجر كيسمنت إلى حكومته سيُنشر. وعندما ردّ عليه هذا الأخير بأن التقرير هو، من حيث المبدأ، للاستخدام الداخلي في الحكومةالبريطانية، وأن نسخة منه ستُرسل، دون شك، إلى الحكومة البيروية كي تقرر إن كانت ستنشره أم لا، تنفس المحافظ الصعداء:

- لحسن الحظ - هتف -. لأنه إذا ما عُرف هذا كله على الملأ، فسوف يُلحق ضرراً كبيراً بصورة بلادنا في العالم.

وكان روجر كيسمنت على وشك أن يقول له إن ما يُلحق الضرر

بالبيرو ليس التقرير وإنما حدوث الأمور التي تسببت بالتقرير على الأراضي البيروية. ومن جهة أخرى، أراد المحافظ أن يعرف إن كان الباربادوسيون الذين جاؤوا إلى إيكيتوس ـ بيشوب، وبروون ولويس ـ يوافقون على تأكيد شهاداتهم بشأن بوتومايو. فأكد له روجر بأنه سيرسلهم في الغد صباحاً إلى دار المحافظة.

السيد ستيرز الذي أدى دور المترجم في ذلك الحوار، خرج من المقابلة مطأطئ الرأس. وكان روجر قد انتبه إلى أن القنصل يضيف عبارات كثيرة ـ هي في بعض الحالات تعليقات حقيقية ـ إلى ما كان يقوله بالإنكليزية، وأن تلك التدخلات ترمي على الدوام إلى التخفيف من قسوة الأفعال المتعلقة باستغلال السكان الأصليين ومعاناتهم. وقد فاقم ذلك كله من ارتيابه بالقنصل الموجود هناك منذ عدة سنوات ويعرف جيداً ما الذي يحدث، ولم يُبلّغ وزارة الخارجية أي شيء عنه قطّ. والسبب بسيط: لقد كشف له خوان تيثون أن مستر ستيرز يقوم بصفقات في إيكيتوس، وهو يعتمد في هذا الشأن أيضاً على شركة السيد خوليو س. آرانا. ولا شك أن قلقه الحالي نابع من أن هذه الفضيحة قد تُلحق به الضرر. إن للسيد القنصل روحاً صغيرة وقائمة القيم لديه محكومة بجشعه.

حاول روجر في الأيام التالية لقاء الأب أوروتيا، لكنهم قالوا له في البعثة التبشرية إن رئيس الكهنة الأغوسطينيين قد ذهب إلى ببباس، حيث يقيم هنود الياغوا ـ لقد رآهم روجر هناك في إحدى توقفات السفينة *ليبرال* وأعجب بعباءات الألياف المغزولة التي يغطي أولئك الوطنيون أبدانهم بها ـ، وقد ذهب لتدشين مدرسة هناك.

وهكذا كرس روجر الأيام المتبقية للعمل في تقريره، ريثما يحين موعد الإبحار في السفينة *أتاوالبا* التي مازالت تفرغ حمولتها في ميناء إيكيتوس. وبعد العمل، كان يخرج في المساء للنزهة، ودخل مرتين إلى سينما الحمراء، في ساحة السلاح بإيكيتوس. وهي موجودة منذ بضعة شهور فقط وتُعرض فيها أفلام صامتة، بمرافقة أوركسترا من ثلاثة موسيقيين عزفهم شديد النشاز. ولكن المشهد الحقيقي بالنسبة لروجر لم يكن في شخوص الأبيض والأسود على الشاشة، وإنما في انبهار جمهور الهنود القادمين من القبائل والجنود الجبليين الذين يخدمون في الحامية المحلية ويتأملون ذلك كله بافتتان وتشوش.

وفي يوم آخر قام بنزهة مشي على الأقدام حتى بونتشانا، عبر درب ترابي تحول وهو عائد إلى مخاضة بسبب الأمطار. ولكن المشهد كان بديعاً. وحاول ذات مساء الوصول مشياً حتى كيستوكوتشا ـ وقد أخذ معه عمرينو وأريدومي ـ ولكن وابلاً من المطر المتواصل فاجأهم واضطروا إلى اللوذ بأجمة كثيفة. وعندما توقفت العاصفة كان الدرب قد امتلأ ببرك الماء والوحل ولم يجدوا بداً من العودة سريعاً إلى إيكيتوس.

أبحرت السفينة *أتاوالبا* باتجاه ماناوس ثم بارا يوم السادس من كانون الأول ١٩١٠. سافر روجر في الدرجة الأولى، وسافر عمرينو وأريدومي والباربادوسيون في الدرجة العادية. وحين كانت السفينة تبتعد عن إيكيتوس، في الصباح الصافي والحار، كانت أحجام الناس والبيوت تتضاءل على الضفاف، وشعر روجر في صدره، مرة أخرى، بإحساس الحرية ذاك الذي يوفره تلاشي خطر عظيم. ليس خطراً مادياً وإنما معنوي. فقد راوده إحساس بأنه لو ظل لمزيد من الوقت في ذلك

المكان الرهيب، حيث كثير من الناس يعانون بطريقة بالغة الجور والقسوة، مثلما عانى هو أيضاً، لمجرد كونه أبيض وأوروبياً، فإنه سيصاب بالعدوى والتحول إلى الخسة. وقال لنفسه بسعادة إنه لن يعود أبداً ليطأ تلك الأمكنة. وقد منحته هذه الفكرة حماسة وأخرجته جزئياً من الكآبة والسبات الذي يمنعه من العمل بالوعي والاندفاع السابقين.

عندما رست *أتاوالبا* في ميناء ماناوس مساء يوم العاشر من كانون الأول، كان روجر قد خلّف وراءه خمود الهمه واستعاد طاقته وقدرته على العمل. كان الباربادوسيون الأربعة عشر قد صاروا في المدينة. وقد قرر معظمهم عدم العودة إلى باربادوس ووافقوا على عقود عمل في سكة حديد ماديرا ـ ماموري التي كانت تعرض العمل بشروط جيدة. أما البقية فواصلوا الرحلة حتى بارا، حيث رست السفينة يوم ١٤ كانون الأول. وهناك بحث روجر عن سفينة ذاهبة إلى باربادوس وسفّر فيها الباربادوسيين وعمرينو وأريدومي. وسلّم مسؤولية هذين الأخيرين إلى فريدريك بيشوب، كي يأخذهما إلى القس فريدريك سميث، مع تعليمات بتسجيلهما في مدرسة الآباء الجزويت، حيث يمكنهما، قبل مواصلة سفرهما إلى لندن، أن يتلقيا حداً أدنى من التعليم يهيئهما لمواجهة الحياة في عاصمةالإمبراطورية البريطانية.

بحث بعد ذلك عن سفينة تنقله إلى أوروبا. فوجد السفينة *س. س. أمبروس* التابعة لشركة بوث لاين. وبما أنها لن تبحر قبل السابع عشر من كانون الأول، انتهز تلك الأيام لزيارة أمكنة تردد عليها بكثرة حين كان قنصلاً بريطانياً في بارا: بارات، ومطاعم، وحديقة النباتات، وسوق الميناء الهائل المزركش ومتعدد الألوان. لم يكن يشعر بأي حنين

إلى بارا، لأن إقامته السابقة هنا لم تكن سعيدة، ولكنه تعرف على السعادة التي تنضح من الناس، ووجاهة النساء والفتيان البطالين الذين يمرون باستعراضية على الكورنيش المطل على النهر. وقال لنفسه مرة أخرى إن للبرازيليين علاقة صحية وسعيدة بأجسادهم، مختلفة جداً عن حال البيرويين، على سبيل المثال، الذين يبدون على الدوام، مثل الإنكليز، متضايقين من أجسادهم. أما هنا فيكشفونها بوقاحة، وخاصة من يشعرون منهم بأنهم شباب وجذابين.

يوم السابع عشر أبحرت *س. س. أمبروس* وخلال الرحلة اتخذ القرار، بما أن هذه السفينة ستصل إلى ميناء شيربورغ الفرنسي في الأيام الأخيرة من شهر كانون الثاني، فسوف ينزل هناك ويسافر في القطار إلى باريس، ليقضي رأس السنة الجديدة مع هربرت وارد وامرأته ساريتا. ثم يرجع إلى لندن في يوم العمل الأول من العام الجديد. ستكون تجربة تطهر بقضاء يومين مع الزوجين الصديقين المثقفين، في استوديهما الممتلئ بمنحوتات وذكريات أفريقية، والتحدث معهما في أمور جميلة وسامية: فن، كتب، مسرح، موسيقى، أفضل ما أنتجه هذا الكائن البشري المتناقض الذي كان قادراً كذلك على اقتراف كثير من الشرور مثل تلك التي تسود محطات مطاط خوليو س. آرانا في بوتومايو.

XI

عندما فتح *الشريف* البدين باب الزنزانة، ودخل دون أن يقول شيئاً وجلس على زاوية السرير الضيق، لم يفاجأ روجر كيسمنت الذي كان

مستلقياً على السرير. فمنذ أن خرق *الشريف* الأنظمة، وسمح له بالاستحمام، أحس، دون أن يكون قد دار كلام بينهما، بتقارب بينه وبين السجان، وأن هذا الأخير، ربما دون أن ينتبه، وربما بالرغم عنه، قد تخلى عن كراهيته واعتباره المسؤول عن موت ابنه في خنادق فرنسا.

حدث ذلك في ساعة الغسق، وكانت الزنزانة الضيقة شبه مظلمة. ومن السرير، كان روجر يرى شبح *الشريف* العريض والاسطواني، هادئاً جداً. أحس به يلهث بعمق، كالمنهوك.

ـ كانت قدماه مسطحتين، وكان بإمكانه التملص من الذهاب إلى صفوف المقاتلين ـ سمعه يرتل بصوت يخترقه التأثر ـ. في مركز التجنيد الأول، في هاستينغس، رفضوه بعد أن فحصوا قدميه. لكنه لم يستسلم وعاد للتقدم في مركز آخر. كان يريد الذهاب إلى الحرب. هل رأيت مثل هذا الجنون؟

ـ كان يحب بلاده، كان وطنياً ـ قال روجر كيسمنت بصوت خفيض ـ. يجب أن تكون فخوراً بابنك أيها *الشريف*.

ـ وماذا يفيدني أن يكون مُشَرِّفاً لي وهو ميت الآن ـ ردّ السجان بصوت كئيب ـ. لقد كان الشيء الوحيد لي في العالم. والآن، كما لو أنني أنا أيضاً لم أعد موجوداً. يخيل إليّ في بعض اللحظات بأنني قد تحولت إلى شبح.

بدا له، في ظلال الزنزانة القاتمة، أن *الشريف* ينتحب. ولكنه ربما كان انطباعاً زائفاً. تذكر روجر الثلاثة والخمسين متطوعاً من اللواء الأيرلندي الذين ظلوا هناك، في ألمانيا، في مخيم زوستن العسكري الصغير، حيث دربهم النقيب روبرت مونتيث على استخدام بنادق

ورشاشات، وتكتيكات ومناورات عسكرية، محاولاً الحفاظ على روحهم المعنوية مرتفعة بالرغم من التباس الظروف. وعادت تعذبه الأسئلة التي وجهها لنفسه ألف مرة. ما الذي فكروا فيه عندما اختفى هو والنقيب مونتيث والرقيب بايلي؟ هل فكروا في أنهم مجرد خونة؟ وأنهم بعد أن ورطوهم في تلك المغامرة المخيفة، ذهبوا إلى أيرلندا للقتال، وتركوهم محاطين بأسلاك شائكة بين أيدي الألمان ومكروهين من الأسرى الأيرلنديين الآخرين في ليمبورغ الذين يعتبرونهم مرتدين وغير أوفياء لمن مات من رفاقهم في خنادق الفلاندر؟

وقال مرة أخرى إن حياته كانت تناقضاً متواصلاً، متوالية من الاضطرابات والتعقيدات الفظة، حيث حقيقة نواياه وتصرفاته تظل دوماً، بفعل القدر أو بسبب خراقته هو نفسه، مظلمة، مشوهة، مقلوبة إلى كذب. فأولئك الثلاثة وخمسين وطنياً الأنقياء والمثاليون الذين امتلكوا الشجاعة لمواجهة أكثر من ألفين من رفاقهم في معسكر ليمبورغ والانضمام إلى اللواء الأيرلندي للقتال «إلى جانب، وليس ضمن» الجيش الألماني من أجل استقلال أيرلندا، لن يعرفوا أبداً بأمر النضال الجبار الذي خاضه روجر كيسمنت مع القيادة العسكرية الألمانية العليا للحيلولة دون إرسالهم إلى أيرلندا في السفينة *اود* مع العشرين ألف بندقية التي أرسلها إلى المتطوعين من أجل انتفاضة عيد الفصح.

ـ أنا من يتحمل مسؤولية هؤلاء الثلاثة والخمسين المنضوين إلى اللواء ـ قال روجر للنقيب ردولف نادولني، المكلف بالشؤون الأيرلندية في القيادة العسكرية ببرلين ـ. أنا من شجعتهم على الانشقاق عن الجيش البريطاني. إنهم خونة في نظر القانون الإنكليزي. وسيُشنقون

فوراً إذا ما ألقت البحرية الملكية البريطانية القبض عليهم. وهو ما سيحدث بلا شك إذا ما وقعت الانتفاضة دون دعم قوات عسكرية ألمانية. لا يمكنني أن أرسل مواطنيّ هؤلاء إلى الموت والعار. لن يذهبوا إلى أيرلندا مع العشرين ألف بندقية.

لم يكن الأمر سهلاً. فالكابتن نادولني وضباط القيادة العسكرية الألمانية العليا حاولوا دفعه إلى التراجع بابتزازه.

ـ لا بأس، سنخبر فوراً قيادة المتطوعين الأيرلنديين في دبلن وفي الولايات المتحدة بأن الحكومة الألمانية، بالنظر لمعارضة السيد روجر كيسمنت للانتفاضة، ستُلغي إرسال العشرين ألف بندقية والخمسة ملايين طلقة ذخائر.

كان لا بد من النقاش، والتفاوض، والتوضيح، مع الحفاظ على الهدوء دوماً. فروجر كيسمنت لا يعارض الانتفاضة المسلحة، وإنما يعارض فقط انتحار متطوعي جيش الشعب، لأن الاندفاع للقتال ضد الإمبراطورية البريطانية دون أن تعمل غواصات قيصر ألمانيا ومناطيده ومغاويره على إشغال القوات المسلحة البريطانية ومنعها من سحق المتمردين بوحشية، مما سيؤخر استقلال أيرلندا، ومن يدري لكم من السنوات. أما العشرون ألف بندقية فضرورية طبعاً، ولا يمكن الاستغناء عنها. سيذهب هو نفسه مع تلك الأسلحة إلى أيرلندا وسيشرح لتوم كلارك، وباتريك بيرز، وجوزيف بلانكيت وغيرهم من قادة المتطوعين الأسباب التي تفرض، حسب رأيه، تأجيل الانتفاضة.

وقد توصل إلى ذلك أخيراً. فالسفينة **أود** المحملة بالأسلحة انطلقت، وسوف يبحر روجر ومونتيث وبايلي أيضاً في غواصة باتجاه

أيرلندا. أما الثلاثة والخمسون جندياً المنضمون إلى اللواء فسيبقون في زوسن، دون أن يفهموا شيئاً، وسيتساءلون دون شك عن السبب الذي جعل أولئك الكاذبين يذهبون للقتال في أيرلندا ويتركونهم هنا، بعد أن دربوهم على عملية يحرمونهم الآن من المشاركة فيها دون تقديم أي تفسير.

ـ عندما ولد الصغير، غادرت أمه وتركتنا وحدنا ـ قال صوت *الشريف* فجأة فطفر روجر في سريره ـ. ولم أعد أعرف شيئاً عنها قطّ. وكان عليّ أن أتحوّل إلى أم وأب للطفل. كان اسمها هورتينسيا وكانت نصف مجنونة.

لقد خيمت الظلمة تماماً على الزنزانة. ولم يعد روجر يرى شبح السجان. كان صوته يرن قريباً ويبدو أقرب إلى أنَّة حيوان بتعبير بشري.

ـ في السنوات الأولى كان راتبي كله تقريباً يذهب في دفع أجور امرأة ترضعه وتعنى به ـ واصل *الشريف* ـ. وكنت أقضي وقت فراغي كله معه. لقد كان على الدوام ولداً وديعاً ولطيفاً. وليس واحداً من أولئك الفتيان الذين يقترفون الخبائث مثل السرقة والسُّكر ويسببون الجنون لآبائهم. دخل لتعلم مهنة في محل خياطة، وكان رب عمله يقدره كثيراً. كان يمكن له تعلم مهنة هناك لو لم تدخل في رأسه فكرة التطوع في الجيش بالرغم من قدميه المسطحتين.

لم يدرِ روجر كيسمنت ما يمكنه قوله له. معاناة *الشريف* أحزنته ورغب في مواساته، ولكن، أي كلمات يمكنها التخفيف من الألم الحيواني لذلك الرجل المسكين؟ كان يود سؤاله عن اسمه واسم ابنه،

فهذا يجعل كليهما يشعران بأنهما أكثر قرباً أحدهما من الآخر، لكنه لم يجرؤ على مقاطعته.

ـ تلقيتُ رسالتين منه ـ واصل *الشريف* ـ. الأولى حين كان يتلقى التدريب. وقال لي فيها إن حياة المعسكر تروقه، وإنه قد يظل في الجيش عند انتهاء الحرب. أما الرسالة الثانية فكانت مختلفة جداً. فقرات كثيرة منها طمستها الرقابة بحبر أسود. لم يكن يشكو، ولكن بدا أن في ما كتبه شيئاً من المرارة، بل وشيء من الخوف. ولم تصلني بعدها أية أخبار عنه. إلى أن جاءتني رسالة تعزية من الجيش، تخبرني بموته. وبأنه لقي نهاية بطولية، في معركة في لوس. لم أسمع قط باسم ذلك المكان. بحثت على الخريطة أين هي لوس. لا بد أنها قرية تافهة.

ومرة أخرى سمع روجر تلك الأنّة الشبيهة بولولة طائر. وأحس بأن شبح السجان يقشعر.

ما الذي جرى الآن لأولئك الثلاثة والخمسين وطنياً؟ هل ستحترم القيادة العسكرية الألمانية الوعود وتسمح لذلك اللواء الصغير بالبقاء متحداً ومعزولاً في معسكر زوسن؟ ليس متأكداً من ذلك. في جداله مع النقيب ردولف نادولني، في برلين، لمح روجر الاحتقار الذي يكنه العسكريون الألمان لتلك الفرقة المضحكة التي تكاد لا تضم أكثر من خمسين رجلاً. كم كان موقفهم مختلفاً في البدء، عندما سمحوا لأنفسهم بالاقتناع بحماسة كيسمنت، ودعموا مبادرته في جمع كل الأسرى الأيرلنديين في معسكر ليمبورغ، متوقعين أنه بمجرد تحدثه إليهم سينضم مئات منهم إلى اللواء الأيرلندي. يا للإخفاق ويا لخيبة

الأمل! إنها الأعظم في حياته. إنه إخفاق يضعه في موقف مضحك ويبدد أحلامه الوطنية. أين يكمن خطؤه؟ النقيب روبرت مونتيث يعتقد أن خطأه كان في التحدث إلى الألفين ومئتي أسير مجتمعين، بدلاً من أن يفعل ذلك مع جماعات صغيرة منهم. فمع عشرين أو ثلاثين أسيراً كان يمكن أن يدور حوار، وردّ على اعتراضات، وتوضيح ما يبدو لهم غامضاً. أما أمام جمهور رجال متألمين بسبب هزيمتهم ومهانين بالشعور بأنهم أسرى، ما الذي يمكنه انتظاره؟ لم يفهموا سوى أن روجر يطلب منهم الانضمام إلى عدو الأمس واليوم، لهذا جاء ردّ فعلهم بكل تلك الحدّة. لقد كانت هنالك، دون شك، طرق عديدة لتفسير عدائيتهم. غير أنه لا يمكن لأية نظرية أن تمحو مرارة رؤيته نفسه يتعرض للشتم، ويُسمى خائناً، وأصفر، وصرصوراً، ومُشترى، من قبل مواطنيه الذين ضحى من أجلهم بوقته وشرفه ومستقبله. تذكر مزاح هربرت وارد عندما كان يحثه، ساخراً من نزعته القومية، أن يعود إلى الواقع ويخرج من «حلم السلتي» ذاك الذي تقوقع فيه.

عشية مغادرته ألمانيا، في الحادي عشر من نيسان ١٩١٦، كتب روجر رسالة إلى وزير الخارجية الإمبراطوري تيوبلد فون بيتمان هولفيغ، مذكراً إياه ببنود الاتفاق الموقع بينه وبين الحكومة الألمانية حول اللواء الأيرلندي. فوفق ما جرى الاتفاق عليه، لن يكون بالإمكان إرسال عناصر اللواء للقتال إلا من أجل أيرلندا وعدم استخدامهم بأي حال كمجرد قوة دعم للجيش الألماني في ميادين أخرى من الحرب. ويشترط كذلك، إذا لم تنته الحرب بانتصار ألمانيا، أن يُرسل جنود اللواء الأيرلندي إلى الولايات المتحدة أو أي بلد محايد يوافق على احتضانهم، وألا يُرسلوا بأي حال إلى بريطانيا العظمى، حيث سيجري

إعدامهم بصورة عاجلة. هل سينفذ الألمان تلك الوعود؟ إن انعدام اليقين يعاوده مرة بعد أخرى مذ ألقي القبض عليه. وماذا لو أن الكابتن ردولف نادولني قد قام، فور مغادرته هو ومونتيث وبايلي متوجهين إلى أيرلندا، بحل اللواء الأيرلندي وإرسال عناصره مجدداً إلى معسكر ليمبورغ؟ حيث سيعيشون وسط شتائم إهانة وتمييز الأسرى الأيرلنديين الآخرين، والتعرض اليومي لخطر قتلهم وشنقهم.

ـ كنت أود أن يعيدوا إليّ رفاته ـ عاد صوت ***الشريف*** المحزون يفاجئه ـ. كي أُجري له دفناً دينياً، في هاستينغس، حيث ولد، مثلي، ومثل أبي وجدي. فردوا علي بالرفض. وبأنه من المحال، بسبب ظروف الحرب، إعادة رفاته. هل تفهم حضرتك ما تعنيه عبارة «ظروف الحرب» تلك؟

لم يجبه روجر لأنه أدرك أن السجان لم يكن يتكلم إليه، وإنما إلى نفسه بالذات من خلاله.

ـ أنا أعرف جيداً ما الذي تعنيه ـ واصل ***الشريف*** ـ. تعني أنه لم يبق أي أثر من ابني المسكين. يعني أن رمانة يدوية أو قذيفة هاون قد فتتته. في ذلك المكان اللعين المسمى لوس. أو أنهم ألقوا به في قبر جماعي، مع جنود آخرين ميتين. لن أعرف قطّ أين هو قبره كي أذهب وأضع عليه بعض الزهور وأتلو له صلاة بين حين وآخر.

ـ ليس القبر هو المهم وإنما الذكرى أيها ***الشريف*** ـ قال روجر ـ. هذا هو ما يحتسب. فما يهم ابنك، حيث هوالآن، أن تتذكره بكثير من المحبة ولا شيئ أكثر.

قام شبح *الشريف* بحركة مفاجئة حين سمع صوت كيسمنت. ربما كان قد نسي أنه موجود في الزنزانة وإلى جانبه.

ـ لو أنني أعرف أين هي أمه، لذهبت إليها، وأطلعتها على الخبر وبكيناه معاً ـ قال *الشريف* ـ لستُ أشعر بأي ضغينة تجاه هورتينسيا لأنها هجرتني. بل لستُ أدري إن كانت لا تزال على قيد الحياة. لم تتنازل قطّ بالسؤال عن الابن الذي هجرته. لم تكن امرأة خبيثة بل نصف مجنونة، لقد قلتُ لكَ هذا من قبل.

ويتساءل روجر الآن، مرة أخرى، مثلما ظل يتساءل ليل نهار، دون توقف، منذ فجر اليوم الذي وصل فيه إلى شاطئ بانا ستراند، في تريلي باي، عندما سمع غناء القبرات ورأى قرب الشاطئ أول أزهار البنفسج البري، لأي سبب لعين لم تكن هناك أي سفينة أو ضوء إرشاد أيرلندي بانتظار سفينة الشحن *أود* التي جاءت بالبنادق والمسدسات الرشاشة والذخائر للمتطوعين، والغواصة التي جاء بها هو ومونتيث وبايلي. ما الذي حدث؟ لقد قرأ بعينيه بالذات الرسالة الملحة التي أرسلها جون ديفوي إلى الكونت جوهان هنريش فون بيرنسورف والتي أعاد هذا الأخير إرسالها إلى وزارة الخارجية الألمانية، ينبه فيها إلى أن الانتفاضة ستندلع بين يوم الجمعة العظيمة وأحد القيامة. وبالتالي يجب أن تصل البنادق، دون تأخير، يوم ٢٠ نيسان إلى فِنت بير، في تريلي باي. وسيكون بالانتظار هناك مرشد سفن خبير بالمنطقة وزوارق ومراكب تحمل متطوعين لإفراغ شحنة الأسلحة. وقد جرى تأكيد تلك التعليمات بالعبارات نفسها وبصورة مستعجلة يوم الخامس من نيسان برسالة من جوزيف بلانكيت إلى القائم بالأعمال الألماني في بيرن الذي أعاد بعث

الرسالة إلى وزارة الخارجية والقيادة العسكرية في برلين: يجب أن تصل الأسلحة إلى تريلي باي عند غروب يوم العشرين من الشهر، لا قبله ولا بعده. وكان هذا هو التاريخ الدقيق الذي وصلت فيه السفينة *أود* كما الغواصة U-19 إلى موقع الموعد المحدد. أية شياطين حدثت كيلا يكون هناك أحد بانتظارهم وتقع الكارثة التي أدت إلى دفنه هو شخصياً في السجن وأسهمت في إخفاق الانتفاضة؟ لأن البحرية الملكية البريطانية، حسب المعلومات التي قدمها إليه المحققان معه، باسيل تومسون وريجنالد هول، قد فاجأت السفينة *أود* في المياه الأيرلندية بعد وقت طويل من الموعد المتفق عليه للإنزال ـ فقد ظلت تنتظر المتطوعين مجازفة بأمنها ـ، مما اضطر قبطان *أود* إلى إغراق سفينته وإرسال العشرين ألف بندقية، والعشرة رشاشات متوسطة، والخمسة ملايين رصاصة من الذخيرة إلى أعماق البحر، وهي الأسلحة التي ربما كانت ستُحدث تحولاً آخر في التمرد الذي سحقه الإنكليز بقسوة يمكن توقعها.

الحقيقة أنه يمكن لروجر كيسمنت توقع ما حدث: لا شيء عظيم أو خارج عن المألوف، واحدة من تلك الصغائر الغبية، إهمال، أوامر متناقضة، اختلافات في الرأي بين قادة المجلس الأعلى للأخوية الجمهورية الأيرلندية، توم كلارك، شين ماكديرموت، باتريك بيرز، جوزيف بلانكيت وقلة آخرين. بعضهم، وربما جميعهم، غيروا رأيهم بشأن الموعد الملائم لوصول السفينة *أود* إلى تريلي باي وأرسلوا تعديلاً دون تفكير في أنه يمكن للأمر المعاكس المرسل إلى برلين أن يضيع أو يصل بعد أن تكون سفينة الشحن والغواصة قد صارت في عرض البحر، وفقدت الاتصال عملياً بألمانيا بسبب الظروف المناخية المرعبة

في تلك الأيام. لا بد أن يكون شيئاً من هذا هو ما حدث. بلبلة صغيرة، خطأ في الحسابات، حماقة ما، جعلت شحنة أسلحة من الطراز الأول تقبع الآن في أعماق البحر بدل أن تصل إلى أيدي المتطوعين الذين كانوا سيقاتلون بها خلال أسبوع المعارك في شوارع دبلن.

لم يكن مخطئاً حين فكر أنه من الخطأ التمرد بالسلاح دون عمل عسكري ألماني متزامن، ولكنه لم يبتهج بذلك. بل تمنى لو كان مخطئاً. وتمنى لو أنه كان هناك، مع أولئك الطائشين، المئة متطوع الذين استولوا في فجر ٢٤ نيسان على مكتب البريد في ساكفيل ستريت، أو مع من حاولوا الاستيلاء على حصن دبلن، أو من أرادوا أن ينسفوا بالمتفجرات المغازين فورت، في فونكس بارك. كان يفضل ألف مرة لو أنه مات مثلهم، والسلاح في يده ـ ميتة بطولية، نبيلة، رومانسية ـ، بدل الميتة المهينة على المشنقة، مثل القتلة والمغتصبين. فمهما كانت مستحيلة وغير واقعية خطة المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية وجيش الشعب، فلا شك أنه من البديع والمثير للحماسة أن جميع من كانوا هناك قد بكوا تأثراً وأحسوا بقلوبهم تخفق بشدة ـ سماع باتريك بيرس يقرأ بيان إعلان الجمهورية. لقد تحقق «حلم السلتي»، حتى لو أن ذلك قد اقتصر على ستة أيام فقط: فأيرلندا المستقلة عن الاحتلال البريطاني، كانت في تلك الأيام أمة مستقلة.

ـ لم تكن تروقه ممارستي لهذه المهنة ـ عاد صوت *الشريف* الحزين إلى مفاجأته ـ. كان يخجل من أن يعرف الناس في الحي، وفي مشغل الخياطة، أن أباه موظف سجون. فالناس يفترضون أننا نحن حراس

السجون، لمرافقتنا المجرمين ليلاً ونهاراً، نصاب بالعدوى ونتحول كذلك إلى أشخاص خارجين على القانون. هل رأيت أمراً أشد ظلماً؟ كما لو أنه ليس على أحد القيام بهذا العمل من أجل خير المجتمع. كنت أضع له مثال مستر جون إيليس، الجلاد. إنه يعمل حلاقاً أيضاً في قريته روشديل، ولا أحد هناك يتحدث بالسوء عنه. بل على العكس، فجميع أهالي القرية يكنون له أكبر التقدير. وهم ينتظرون بالدور كي يخدمهم في محل حلاقته. إنني واثق من أن ابني ما كان ليسمح لأحد بأن يتكلم عني بالسوء أمامه. لم يكن يكِنُّ لي الكثير من الاحترام وحسب. بل أنا أعرف أنه كان يحبني.

وسمع روجر مرة أخرى تلك الأنَّة المنطفئة وأحس بالسرير يتحرك مع ارتعاشة السجان. هل من المفيد *للشريف* أن يفرِّج عن نفسه بهذه الطريقة أم إن ذلك يزيد من ألمه؟ لقد كان مونولوجه أشبه بسكين ينبش في جرح. ولم يدر روجر أي موقف يتخذ: هل يكلمه؟ هل يحاول أن يواسيه؟ أم يستمع إليه بصمت؟

ـ لم يتخلف يوماً عن تقديم هدية ما لي في عيد ميلادي ـ أضاف *الشريف* ـ. وأول أجر تقاضاه في مشغل الخياطة سلّمني إياه كاملاً. وكان عليّ أن أُلح عليه كي يحتفظ بالنقود لنفسه. أي فتى يبدي اليوم كل هذا الاحترام لأبيه؟

عاد *الشريف* إلى الغرق في الصمت والسكون. لم تكن كثيرة الأمور التي توصل روجر إلى معرفتها عن الانتفاضة: الاستيلاء على مركزالبريد، والهجمات الفاشلة على دبلن كاستل والماغزين فورت في فونكس بارك. الإعدامات الصورية رمياً بالرصاص للقادة الرئيسيين،

ومنهم صديقه شين ماكدرموت، أحد أول الأيرلنديين المعاصرين الذين كتبوا نثراً وشعراً باللغة الغيليّة. كم هو عدد الآخرين الذين أعدموهم؟ هل أعدموهم في أقبية سجن كلمينهام غول نفسها؟ أم إنهم اقتادوهم إلى رشموند بارَكس؟ لقد أخبرته إليس أن جيمس وكنلي، المُنظِّم الأكبر للنقابات، كان مصاباً بجراح بالغة وغير قادر على الوقوف على قدميه، فوضعوه أمام فصيلة الإعدام وهو جالس على كرسي. برابرة! المعطيات المجزأة عن الانتفاضة التي عرفها روجر من خلال المحققين اللذين استجوباه: رئيس السكوتلانديارد باسيل تومسون والكابتن البحري ريجنالد هول من مخابرات قيادة البحرية، ومن خلال محاميه جورج غافن دوفي، ومن أخته نينا، ومن إليس ستوبفورد غرين، لم تتوافر له فكرة واضحة عما حدث، وإنما مجرد معلومات عن فوضى عظيمة مع كثير من الدماء، والقنابل، والحرائق، والرصاص. كان المحققان يشيران أثناء استجوابه إلى أخبار تصل إلى لندن بينما المعارك مازالت تدور في شوارع دبلن والجيش البريطاني يخمد آخر بؤر التمرد. حكايات عابرة، جمل مفلتة، نتف يحاول وضعها في سياقها مستخدماً مخيلته وحدسه. ومن خلال أسئلة تومسون وهيل خلال تلك الاستجوابات اكتشف أن لدى الحكومة البريطانية شكوكاً في أنه جاء من ألمانيا ليقود التمرد. هكذا يُكتب التاريخ! فهو الذي جاء في محاولة لوقف الانتفاضة، يتحول بغفلة بريطانية إلى قائد لها. لقد كانت الحكومةالبريطانية تنسب إليه، منذ بعض الوقت، تأثيراً على دعاة الاستقلال الأيرلنديين هو أبعد ما يكون عن الواقع. وربما يفسر ذلك حملات تشويه سمعته في الصحافة الإنكليزية، حين كان في برلين، باتهامه ببيع نفسه لقيصر ألمانيا، وبأنه مرتزق فضلاً عن كونه خائناً، ثم

النذالات التي تنسبها إليه، في هذه الأيام، الصحف اللندنية. حملة تهدف إلى أن تُغرق في الإغفال قائداً أعلى لم يكنه ولم يشأ أن يكونه! هكذا هو التاريخ، إنه فرع من الخرافات الخيالية التي تزعم أنها عِلم.

ـ في أحد الأيام أُصيب بالحمى وقال طبيب المستوصف إنه سيموت ـ عاد *الشريف* إلى مونولوجه ـ. ولكنني بالتعاون مع مسز كابيرت، المرأة التي كانت تُرضعه، اعتنينا به، دثرناه جيداً، وبكثير من الحنان والصبر تمكنا من إنقاذ حياته. لقد أمضيت ليالي كثيرة ساهراً أدلّك بدنه بالكحول الممزوج بالكافور. كان ذلك يُحسن من حاله. وكانت تمزق القلب رؤيته ضئيلاً جداً، ويرجف من البرد. آمل ألا يكون قد تألم. أعني هناك، في الخنادق، في ذلك المكان المسمى لوس. وأن يكون موته قد حدث بسرعة، دون أن ينتبه. وألا يكون الرب قاسياً معه بتكبيده احتضاراً طويلاً، وتركه ينزف قليلاً قليلاً أو يختنق بغاز الخردل. لقد كان مواظباً على حضور قداس أيام الآحاد والقيام بواجباته كمسيحي.

ـ ماذا كان اسم ابنك أيها *الشريف*؟ ـ سأله روجر كيسمنت.

ـ كان اسمه اليكس ستاسي ـ مثل اسم أبي. ومثلي.

ـ تسعدني معرفة الاسم ـ قال روجر كيسمنت ـ. فعندما يعرف أحدنا أسماء الأشخاص يتمكن من تخيلهم بصورة أفضل. يشعر بهم، وإن كان لا يعرفهم. اليكس ستاسي، اسم له وقع طيب. ويعطي فكرة عن شخص طيب.

ـ كان مؤدباً وخدوماً ـ دمدم *الشريف* ـ. وربما كان خجولاً بعض الشيء. ولاسيما مع النساء. لقد راقبته مذ كان طفلاً. كان يشعر بالراحة

مع الذكور، وينفتح دون صعوبة. ولكنه يخجل مع النساء. لا يتجرأ على النظر إلى عيونهن. وإذا ما توجهن إليه بالكلام، يبدأ بالتلعثم. ولهذا أنا متأكد من أن اليكس قد مات محتفظاً بعذريته.

عاد *الشريف* إلى الصمت، إلى الاستغراق في أفكاره وبجمود كامل. يا للفتى المسكين! إذا صح ما يقوله أبوه، فإن الكيس ستارسي قد مات دون أن يعرف دفء امرأة. دفء الأم، دفء الزوجة، دفء الحبيبة. أما روجر فقد عرف على الأقل، ولو لوقت قصير، سعادة أم جميلة، حانية، وحساسة. تنهد. لقد مضى بعض الوقت دون أن يفكر فيها، وهو ما لم يكن يحدث له من قبل. وإذا كان هنالك عالم غيب، وإذا كانت أرواح الموتى تراقب من الأبدية حياةَ الأحياءِ العابرة، فمن المؤكد أن أمه آن جيفسون ستكون متابعة له خلال هذا الوقت كله، تلاحق خطواته، تتألم وتغتم للنكسات التي حلت به في ألمانيا، وتشاطره خيبات أمله، ومضايقاته وتلك المشاعر الفظيعة لكونه أخطأ ـ بمثاليته الساذجة، وبنزعته الرومانسية التي اعتاد هربرتر وارد السخرية منها بكثرة ـ بإضافته هالة من المثالية على القيصر والألمان، واعتقاده بأنهم سيتبنون القضية الأيرلندية ويتحولوا إلى حلفاء مخلصين وأوفياء لأحلامهم بالاستقلال.

أجل، كان واثقاً من أن أمه قد شاطرته، في تلك الأيام الخمسة التي لا توصف، آلامه وقيئه ودواره ومغصه وتلويات معدته في الغواصة U-19 التي نقلته هو ومونتيث وبايلي من مرفأ هيلغولاند الألماني إلى شواطئ كيري في أيرلندا. لم يشعر في حياته قطّ بمثل ذلك الألم، في بدنه وفي معنوياته على السواء. لم تكن معدته تتحمل الإبقاء على أي

غذاء، باستثناء رشفات قهوة ساخنة ولقيمات صغيرة من الخبز. قائد الغواصة U-19، الكابتن رايموند ويلسبباخ، جعله يتناول رشفة من الخمر، وبدلاً من أن تخلصه من الدوار، جعلته يتقأ مرارة. عندما كانت الغواصة تبحر فوق سطح الماء بسرعة حوالي ميلين في الساعة، كانت حركة اهتزازها تزداد ويسبب له الدوار أضراراً أكبر. وعندما تغطس، يكون اهتزازها أقل، ولكن سرعتها تتضاءل. لم تكن البطانيات ولا المعاطف قادرة على التخفيف من البرد الذي يسري في عظامه. ولا ذلك الإحساس الدائم برهاب الأمكنة المغلقة الذي كان أشبه بتمهيد لما سيشعر به في ما بعد في سجن بريكستون أو برج لندن أو سجن بينتونفيل.

ولا شك في أنه بسبب الدوار والتوعك خلال الرحلة في الغواصة U-19، نسي في أحد جيوبه تذكرةَ السفر بالقطار من برلين إلى ميناء فيلهيلمزهافن الألماني. وقد اكتشف وجودها الشرطيون الذين اعتقلوه في ماكينز فورت حين فتشوه في مفوضية شرطة تريلي. وسيعرض المدعي العام تذكرة القطار في المحكمة باعتبارها دليلاً على أنه جاء إلى أيرلندا من ألمانيا، البلد العدو. ولكن حدث ما هو أسوأ، ففي جيب آخر من جيوبه عثر شرطيو مقر قيادة شرطة أيرلندا الملكية على الورقة التي تضم رموز شيفرة سرية أعطته إياها قيادة البحرية الألمانية كي يتصل، في حالة الطوارئ، بقيادة القيصر العسكرية. كيف أمكن له ألا يتلف وثيقة على تلك الدرجة من إثارة الشبهة قبل مغادرته الغواصة U-19 وقفزه إلى الزورق الذي سيحملهم إلى الشاطئ؟ كان سؤالاً يتقيَّح في وعيه مثل جرح ملتهب. ومع ذلك فإن روجر يتذكر بوضوح قبل أن يودع قبطان وطاقم الغواصة U-19، وبإلحاح من النقيب روبرت

مونتيث، قام هو والرقيب دانييل بايلي بإعادة تفتيش جيوبهما مرة أخيرة من أجل إتلاف أي شيء أو وثيقة مثيرة للشبهة حول هويتهم أو الجهة الآتين منها. كيف أمكن له أن يهمل إلى حدّ لا ينتبه معه إلى وجود تذكرة القطار ورموز الشيفرة السرية؟ تذكر ابتسامة الرضا التي عرض بها النائب العام تلك الرموز السرية خلال المحاكمة. ما هي الأضرار التي سببتها لألمانيا تلك المعلومات بين أيدي المخابرات البريطانية؟

ما يفسر ذلك السهو الخطير، دون شك، هو سوء حالته البدنية والنفسية، وقد أنهكه دوار البحر؛ وتردي حالته الصحية خلال الشهور الأخيرة في ألمانيا، وكذلك قلقه وغمّه من الأحداث السياسية ـ منذ إخفاق اللواء الأيرلندي حتى علمه بأن المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية قد قررا الانتفاضة المسلحة في أسبوع الفصح حتى لو لم يتوافر عمل عسكري متزامن ـ مما أثر على بصيرته، وتوازنه الذهني، وردود أفعاله، وقدرته على التركيز والهدوء. أكانت تلك أولى أعراض الجنون؟ لقد حدثت له من قبل، في الكونغو وفي الأدغال الأمازونية، حيال مشهد بتر الأعضاء وغيرها من أساليب التعذيب والفظاعات، فضلاً عن إخضاع السكان الأصليين لشركات جمع المطاط. لقد أحس في ثلاث مناسبات أو أربع بأن قواه تفارقه، وأن إحساساً بالعجز يسيطر عليه حيال صفاقة وتمادي الشر الذي يراه في ما حوله، ذلك الحصار من القسوة والعار واسع الانتشار، وشديد الاستعباد بحيث تبدو مواجهته ومحاولة تقويضه ضرباً من الخيال. من يشعر بانحطاط معنويات بذلك العمق يمكن له أن يقترف سهواً خطيراً كالذي اقترفه. خففت عنه هذه الأعذار للحظات. ولكنه رفضها بعد ذلك وكان ندمه وإحساسه بالذنب أسوأ.

ـ لقد فكرتُ في إنهاء حياتي ـ فاجأه صوت *الشريف* مجدداً ـ. فقد كان اليكس المسوغ الوحيد لبقائي حياً. ليس لي أقارب سواه. ولا أصدقاء أيضاً. وقلة قليلة من المعارف. كان ابني هو حياتي. فلماذا أواصل البقاء في هذا العالم من دونه؟

ـ أعرف هذا الشعور أيها *الشريف* ـ تمتم روجر كيسمنت ـ. ومع ذلك، على الرغم من كل شيء، توجد في الحياة أشياء جميلة أيضاً. ولسوف تجد حضرتك حوافز أخرى. فأنت لا تزال رجلاً شاباً.

ـ عمري سبعة وأربعون عاماً، مع أنني أبدو أكبر بكثير ـ أجاب السجان ـ. وإذا كنتُ لم أنتحر، فإنما السبب هو الدين. لأن الدين يُحَرّم الانتحار. ولكن من غير المستبعد أن أُقدم على ذلك. فإذا لم أتمكن من التغلب على هذا الحزن، وهذا الإحساس بالفراغ، وبأنه لم يعد هنالك ما يهمني الآن، فسوف أفعل. الإنسان يجب أن يعيش مادام يشعر بأن الحياة تستحق أن تعاش. وحين لا يشعر بذلك، لا يعيش.

كان يتكلم دون دراماتيكية، بطمأنينة هادئة. وعاد إلى السكون والصمت. حاول روجر كيسمنت أن يستمع. بدا له أن نغمات أغنية خافتة تصل إليه من مكان بعيد في الخارج، ربما هو كورال. لكن الهمس كان منطفئاً جداً وبعيداً جداً إلى حد لم يتمكن معه فك رموز الكلمات أو اللحن.

لماذا أراد قادة الانتفاضة تجنب مجيئه إلى أيرلندا وطلبوا من السلطات الألمانية إبقاءه في برلين تحت التسمية المضحكة: «سفير» المنظمات القومية الأيرلندية؟ لقد رأى الرسائل، قرأ الجمل التي تعنيه وأعاد قراءتها. السبب حسب رأي النقيب مونتيث هو أن قادة المتطوعين

والأخوية الجمهورية الأيرلندية يعرفون أن روجر يعارض القيام بتمرد من دون شن هجوم تغطيةٍ ألماني يشلّ الجيش والبحرية الملكية البريطانيين. لماذا لم يقولوا له ذلك مباشرة؟ لماذا يوصلون إليه هذا القرار عبر السلطات الألمانية؟ ربما لأنهم لا يثقون به. أكانوا يعتقدون أنه لم يعد محل ثقة؟ وهل تراهم أعاروا اهتماماً لتلك التقولات الغبية التي بلا أساس، والتي أشاعتها الحكومة الإنكليزية باتهامه بأنه جاسوس بريطاني. هو لم يشعر بأدنى قلق من تلك الافتراءات، وكان يفترض على الدوام أن أصدقاءه ورفاقه سيدركون أنها مجرد حملات مسمومة من المخابرات السرية البريطانية لزرع الشكوك والانقسام بين الوطنيين. ربما يكون واحداً، أو بعضاً من رفاقه قد انخدع بمكيدة المستعمر تلك. حسن، لقد اقتنعوا الآن بأن روجر كيسمنت مازال مناضلاً مخلصاً لقضية استقلال أيرلندا. أيكون من ارتابوا بوفائه هم بعض من أُعدموا رمياً بالرصاص في سجن كلمينهام؟ وماذا يهمه تفهم الموتى لموقفه الآن؟

أحس أن السجان قد نهض وبدأ يبتعد باتجاه باب الزنزانة. سمع وقع خطواته الخامدة والمتكاسلة، كما لو أنه يجرجر قدميه. وعند وصوله إلى الباب، سمعه يقول:

ـ هذا الذي فعلتُه سيء. إنه خرق للأنظمة. يجب ألا يتوجه أحد إليك بالكلام، ولاسيما أنا. . . *الشريف*، أكثر من الجميع. لقد جئت لأني لم أعد قادراً على المزيد. وإذا لم أتكلم إلى أحد سينفجر رأسي أو قلبي.

ـ يسعدني أنك جئت أيها *الشريف* ـ همس كيسمنت ـ. فالتكلم مع

أحد في مثل حالتك يشكل راحة. الشيء الوحيد الذي آسف له هو أنني لم أستطع مواساتك بشأن موت ابنك.

زمجر السجان بشيء يمكن أن يكون تحية وداع. ثم فتح باب الزنزانة وخرج. ومن الخارج أعاد إقفال الباب بالمفتاح. كان الظلام شاملاً من جديد. استدار روجر، أغمض عينيه وحاول النوم، لكنه كان يعرف أن النوم لن يأتي تلك الليلة أيضاً وأن الساعات المتبقية لبزوغ الفجر ستكون شديدة البطء، وانتظاراً بلا نهاية.

تذكر قول السجان: «إنني متأكد من أن اليكس قد مات محتفظاً بعذريته». يا للفتى المسكين. أن يبلغ التاسعة عشرة أو العشرين دون أن يكون قد عرف المتعة، تلك الغيبوبة المحمومة، ذلك الذهول عن كل ما يحيط بالمرء، ذلك الإحساس بأبدية آنية تكاد لا تستمر سوى مدة القذف، وهو مع ذلك إحساس بالغ الزخم، وشديد العمق يبعث النشوة في ألياف جسده كلها ويجعل حتى آخر ركن من روحه يشارك ويتحمس. كان يمكن له هو نفسه أيضاً أن يموت محتفظاً بعذريته لو أنه بدل الذهاب إلى أفريقيا وهو في العشرين من عمره، بقي في ليفربول يعمل لدى «إلدر ديمبستر لاين». لقد كان خجله مع النساء مثل ـ وربما أسوأ ـ خجل الشاب ذي القدمين المسطحتين اليكس ستاسي. تذكر مزاح بنات خاله، ولاسيما جيرترود، العزيزة جي، عندما يرغبن في رؤيته يحمر خجلاً. كان يكفي أن يحدثنه عن بنات، أن يقلن له مثلاً: «أرأيت كيف تنظر إليك دوروثي؟». «هل انتبهت إلى أن ميلينا تتدبر الأمر دوماً كي تجلس إلى جانبك في النزهات؟» «إنك تعجبها يا ابن العمة». «هل تعجبك هي أيضاً؟» يا للارتباك الذي كان يسببه له ذلك

المزاح! يفقد طلاقته ويبدأ بالتلعثم، بالتأتأة، لقول حماقات، إلى أن تطمئنه جي وصديقاتها، وهن يمتن من الضحك: «إنه مجرد مزاح، لا ترتبك هكذا».

ومع ذلك، كان يتمتع منذ صغره بحس جمالي حاد، يعرف كيف يقدّر جمال الأجساد والوجوه، يتأمل بتلذذ وسعادة شبح هيئة متناسقة، أو عينين حيويتين ماكرتين، أو خصر نحيل، أو عضلات تُبرز القوة غير الواعية التي تعرضها الحيوانات المنطلقة بحرية. متى بدأ يعي أن الجمال الذي يستثيره، ويضيف تتبيلة من القلق والذعر، وإحساسه بأنه يقترف انتهاكاً، ليس أجساد الفتيات وإنما أجساد الفتيان؟ بدأ ذلك في أفريقيا. فقبل أن تطأ قدماه القارة الأفريقية، كانت تربيته المتزمة، وعادات أقاربه، من جهة أمه وأبيه، المتصلبة والمحافظة، ستقمع في المهد أي بادرة استثارة من هذا النوع، وبوفاء منه لوسط يُعتبر فيه مجرد الارتياب بانجذاب جنسي بين أشخاص من الجنس نفسه انحرافاً لا يغتفر، يدينه القانون والدين بلا تسويغ ولا تخفيف كخطيئة وجريمة. ففي ماغيرنتمبل بأنتريم، وفي بيت عمه جون بليفربول، حيث الأخوال والأعمام وبنات الخال، كانت الصورة الضوئية هي الذريعة التي تتيح له الاستمتاع ـ بالعينين والذهن فقط ـ بتلك الأجساد الذكورية الرشيقة والجميلة التي يشعر بالانجذاب نحوها، مخادعاً نفسه بحجة أن ذلك الانجذاب هو جمالي وحسب.

أفريقيا، تلك القارة الفظيعة، إنما الجميلة جداً، بعذاباتها الهائلة، كانت كذلك أرض حرية، حيث يمكن للبشر أن يتعرضوا لسوء المعاملة بصورة جائرة، لكنهم يستطيعون في الوقت نفسه التعبير عن عواطفهم

وتخيلاتهم ورغباتهم وغرائزهم وأحلامهم من دون الألجمة والأحكام المسبقة التي تخنق المتعة في بريطانيا العظمى. تذكر ذلك الأصيل بحره الخانق وشمسه العمودية، في بوما، حين لم تكن هذه قد صارت ولو مجرد قرية، بل مستوطنة صغيرة جداً. كان يشعر بالاختناق وبأن جسده يطلق لهباً فذهب للاستحمام في ذلك الغدير الذي يُشكل، قبل قليل من أن يصب في نهر الكونغو، بحيرة صغيرة بين الصخور، مع شلالات صاخبة، في ركن أشجار مانجا وجوز هند شديدة الارتفاع، وسراخس عملاقة. وكان هناك شابان من أبناء الباكونغو يستحمان عاريين مثله. ومع أنهما لا يتكلمان الإنكليزية فقد ردا على تحيته بالابتسام. بدوا كأنهما يلعبان، ولكن روجر انتبه بعد قليل إلى أنهما يصطادان سمكاً بأيديهما العارية. وأن سبب هياجهما وضحكهما هو ما يجدانه من صعوبة في تثبيت الأسماك الزلقة التي تفلت من بين أصابعهما. كان أحد الشابين جميلاً جداً. له جسد طويل متناسق وضارب إلى الزرقة، وعينان عميقتان تشعان حيوية، ويتحرك في الماء كسمكة. ومع حركته تتلألأ ـ لامعة بفعل قطرات الماء الملتصقة بجسده ـ عضلات ذراعيه، وظهره وفخذيه. وفي وجهه القاتم، ذي الوشوم الهندسية الأشكال، والنظرة المشعة، تطل أسنانه ناصعة البياض. وعندما أمسكا بسمكة أخيراً، بصخب عظيم، خرج الآخر من الغدير، وعلى الضفة بدأ، كما بدا لروجر، بتقطيع السمكة وتنظيفها وتحضير موقد. أما من ظل في الماء فنظر إلى عيني روجر مباشرة وابتسم. أحس روجر بنوع من الحرقة، سبح باتجاهه وهو يبتسم له أيضاً. وحين وصل إلى جانبه لم يدر ما يفعل. أحس بالخجل، بالارتباك، ولكنه شعر في الوقت نفسه بسعادة بلا حدود.

ـ من المؤسف أنك لا تفهمني ـ سمع نفسه يقول بصوت خافت ـ. لأنني وددت لو ألتقط لك صوراً. وأن نتبادل الحديث. وأن نكون صديقين.

أحس عندئذ بأن الفتى يندفع بحركات قدميه وذراعيه قاطعاً المسافة التي تفصل بينهما. إنه الآن قريب منه بحيث يكادان أن يتلامسا. وفي تلك اللحظة أحس روجر بيدي الآخر تبحثان عن بطنه، تلامسانه، تداعبان عضوه الذي كان قد انتصب منذ بعض الوقت. تنهد في ظلمة زنزانته بشهوة وكآبة. أغمض عينيه في محاولة لبعث ذلك المشهد الذي مضت عليه سنوات طويلة: المفاجأة، التهيج الذي لا يمكن وصفه، والذي لم يخفف مع ذلك من توجسه وخوفه، وجسده، معانقاً جسد الفتى الذي كان عضوه متصلباً أيضاً ويشعر به يفركه بساقيه وبطنه.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يمارس فيها الحب، إن كان يمكن إطلاق تسمية ممارسة الحب على التهيج والقذف في الماء على جسد الفتى الذي يستمني والذي قذف منيه دون شك عليه أيضاً، وإن كان روجر لم يلحظ ذلك. عندما خرج من الماء وارتدى ملابسه، دعاه الشابان الباكونغو إلى تناول لقيمات من السمكةالتي دخناها في موقد صغير على ضفة البئر الذي يشكله الغدير.

يا للخجل الذي أحس به بعد ذلك. ظلّ مشوشاً بقية ذلك اليوم، غارقاً في ندم يختلط بومضات سعادة، وعيه بأنه قد تخطى حدود سجن وبلغ حرية اشتهاها على الدوام، سراً، دون أن يكون قد تجرأ على البحث عنها قطّ. هل شعر بتأنيب الضمير، وقرر تصويب الخطأ؟ أجل، أجل. شعر بذلك. وعاهد نفسه، بشرفه، وبذكرى أمه، وبدينه، على أن ذلك لن يتكرر، وهو يعرف جيداً أنه يكذب، وأنه الآن، بعد

أن تذوق الثمرة المحرمة، وأحس كيف أن كيانه كله يتحول إلى دوار ومشعل، لم يعد قادراً على تجنب تكرار ذلك. وقد كانت تلك هي المرة الوحيدة، أو واحدة على الأقل من المرات النادرة جداً التي لم يكلفه الاستمتاع فيها نقوداً. أيكون واقع الدفع لعشاقه العابرين لدقائق أو ساعات هو ما حرره، سريعاً، من أعباء تأنيب الضمير التي حاصرته في البدء، بعد تلك المغامرة الأولى؟ ربما. كما لو أن تلك اللقاءات العابرة، تتحول إلى صفقة تجارية ـ تعطيني فمك وعضوك وأنا أعطيك لساني وفمي وبضعة جنيهات ـ، لقاءات عابرة، في حدائق، أركان مظلمة، حمامات عامة، محطات، فنادق رخيصة وقذرة أو في الشارع بالذات ـ «مثل الكلاب»، فكر ـ مع رجال لا يتمكن في معظم الأحيان من التفاهم معهم إلا بالإشارات والإيماءات لأنهم لا يتكلمون لغته، مما يجرد تلك الممارسات من أي معنى أخلاقي ويحوّلها إلى مجرد تبدل بالغ الحيادية، مثل شراء قطعة مثلجات أو علبة سجائر. تلك هي المتعة، وليس الحب. لقد تعلم أن يستمتع لا أن يحب ويتلقى الاستجابة في الحب. ربما ذات مرة في أفريقيا، في البرازيل، في إيكيتوس، في لندن، في بلفاست، في دبلن، بعد لقاءٍ فيه شيء خاص من الزخم، وإحساس ما أُضيف إلى المغامرة، ربما يكون قد قال: «إنني عاشق». زيف. لم يكن كذلك قطّ. فتلك العلاقة لم تدم. حتى علاقته مع إفيند أدلِر كريستنسن الذي وصل إلى الإحساس بعاطفة نحوه، ولكن ليس عاطفة العشيق، ربما عاطفة الأخ الأكبر أو الأب. يا له من تعيس. ففي هذا الميدان أيضاً كانت حياته إخفاقاً كاملاً. الكثير من العشاق العابرين ـ عشرات، وربما مئات ـ دون أي علاقة حب. مجرد جنس محض، متعجل وحيواني.

ولهذا، حين يقوم بجردة حساب لحياته الجنسية والعاطفية، يقول روجر إنها كانت متأخرة ومتقشفة، مكونة من مغامرات متباعدة وسريعة على الدوام، عابرة وبلا نتائج مثل تلك المغامرة في الغدير ذي الشلال والبركة خارج مدينة كانت لا تزال آنذاك مجرد معسكر شبه معزول في مكان من الكونغو الأدنى يدعى بوما.

ضايقه ذلك الحزن العميق الذي لاحق، في معظم الحالات، لقاءاته الغرامية في العراء، مثلما هو لقاؤه الأول، مع رجال وفتيان أجانب يجهل أسماءهم في معظم الأحيان أو ينساها فور معرفته لها. لقد كانت لحظات عابرة من المتعة، لا يمكن بأي حال مقارنتها بتلك العلاقة المستقرة والممتدة لشهور وأعوام، والتي يضاف فيها إلى العاطفة تفهمٌ وصداقة، وحوار وتضامن، تلك العلاقة التي طالما شعر بالحسد تجاهها بين هربرت وساريتا وارد. وقد كانت هذه واحدة من الفجوات الكبرى، من حالات الحنين الكبرى، في حياته.

ولمح أنه، هناك حيث لا بد أن تكون مفصلة باب زنزانته، يطل شعاع من النور.

XII

«سأخلّف عظامي في هذه الرحلة اللعينة»، هذا ما فكر فيه روجر عندما قال له وزير الخارجية، السير إدوارد غراي، إنه بالنظر إلى الأخبار المتناقضة الآتية من البيرو، فإن الطريقة الوحيدة أمام الحكومة البريطانية لمعرفة إلى أي شيء تستند بشأن ما يحدث هناك، هي عودة

روجر كيسمنت نفسه إلى إيكيتوس ليرى على الأرض إن كانت الحكومة البيروية قد فعلت شيئاً لوضع حدّ للمظالم في بوتومايو أم إنها تلجأ إلى تكتيكات تسويفية لأنها لا تريد أو لا تستطيع المواجهة مع خويو س. آرانا.

كانت صحة روجر تمضي من سيئ إلى أسوأ. فمنذ عودته من إيكيتوس، حتى خلال الأيام القليلة من نهاية العام التي أمضاها في باريس مع الزوجين وارد، عاد يؤرقه التهاب الملتحمة في عينه وعاودته حمى المستنقعات. كما صار الباسور يزعجه من جديد، وإن يكن من دون النزيف السابق. وما كاد يرجع إلى لندن، في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني ١٩١١، حتى ذهب لمقابلة الأطباء. الاختصاصيان اللذان استشارهما شخصا حالته على أنها إرهاق وتوتر عصبي شديد من تجربته الأمازونية. وأنه يحتاج إلى راحة، وإلى إجازة هادئة جداً.

لكنه لم يستطع أخذ إجازة. فصياغة التقرير الذي تريده الحكومة البريطانية بصورة مستعجلة والاجتماعات المتعددة لمجلس الوزراء حيث عليه أن يطلعهم على ما رآه وسمعه في الأمازون، وكذلك زياراته إلى جمعية مناهضة العبودية، أخذت منه الكثير من الوقت. وكان عليه كذلك أن يجتمع مع المديرين الإنكليز والبيرويين في شركة الأمازون البيروية الذين تجمدوا ذهولاً في المقابلة الأولى، بعد سماعهم خلال ما يقارب الساعتين انطباعاته عن بوتومايو. الوجوه متطاولة، الأفواه فاغرة، النظرات غير مصدقة. كانوا مرتعبين كما لو أن الأرض بدأت تتشقق تحت أقدامهم والسقف ينهار فوق رؤوسهم. ما عادوا يدرون ما يمكنهم أن يقولوا. وودّعوه دون أن يوجهوا سؤالاً واحداً.

الاجتماع الثاني مع مجلس إدارة شركة الأمازون البيروية حضره خوليو س. آرانا. وكانت تلك هي أول وآخر مرة يراع فيها روجر كيسمنت شخصياً. فقد سمع الكثير عنه، سمع أناساً شديدي التنوع يُألِّهونه مثلما يفعلون بالقديسين الدينيين والزعماء السياسيين (وليس كرجل أعمال بأي حال) أو ينسبون إليه أفعال قسوة وجرائم مرعبة ـ وقاحة، سادية، جشع، بخل، غدر، غش، وبلطجة هائلة ـ فظل يراقبه لوقت طويل، مثلما يفعل عالِمُ حشرات في تفحصه لحشرة غريبة لم يجرِ تصنيفها بعد.

يقال إنه يفهم الإنكليزية، ولكن لم يُسمع وهو يتكلمها قطّ، بسبب الخجل أو الاعتداد بالنفس. يجلس إلى جانبه مترجم يترجم له كل شيء أولاً بأول في أذنه، بصوت هامس جداً. إنه رجل أقرب إلى قصر القامة منه إلى الطول، أسمر البشرة، وبملامح خلاسية، مع لمحة آسيوية في عينيه المنحرفتين قليلاً، وبجبهة عريضة وشعر قليل ومتباعد ولكنه مُسرَّحٌ بعناية شديدة، مع فرق في منتصفه. وله شارب رفيع ولحية مشذبان ومُمشطان حديثاً وتفوح منه رائحة كولونيا. لا بد أن تكون حقيقيةٌ الأسطورة الشائعة عن هوسه بالنظافة والهندام. كان يلبس بطريقة لا تشوبها شائبة: بدلة من الجوخ الفاخر ربما هي مفصلة عند أحد خياطي سافيل روو. لم يفتح فمه بكلمة خلال الوقت الذي كان فيه المديرون الآخرون، وقد تكلموا هذه المرة، يستجوبون روجركيسمنت بألف سؤال أعدها لهم، دون شك، محامو آرانا. كانوا يحاولون إيقاعه في تناقضات ويلمحون إلى أخطاء، ومبالغات، وتأثر، ووساوس أوروبي مديني ومتحضر يرتبك ويحتار حيال عالم بدائي.

وبينما هو يردّ عليهم، ويضيف شهادات ووقائع محددة بدقة، لم يتوقف روجر عن توجيه نظرات إلى خوليو س. آرانا. كان ساكناً مثل إله، لا يتحرك في مقعده، بل إنه لم يكن يرمش. وملامحه لا يمكن النفاذ إليها. هنالك في نظرته القاسية والباردة شيء لا يلين. تلك النظرات الخالية من الإنسانية ذكّرت روجر برؤساء محطات جمع المطاط في بوتومايو، نظرات رجال فقدوا (إذا كانت لديهم يوماً) القدرة على التمييز بين الخير والشر، بين الطيبة والخبث، بين ما هو إنساني وما هو غير إنساني.

ذلك الرجل المتأنق، رَبع القامة إلى حد ما، هو مالك تلك الإمبراطورية التي لها حجم بلد أوروبي، وسيّد حيوات وأملاك عشرات آلاف الأشخاص، المكروه والمُتَمَلَّق، ومَنْ جَمَع في عالم الأمازون البائس ثروة تقارن بثروات أكبر قارونات المال في أوروبا. لقد بدأ حياته كطفل فقير، في تلك القرية الصغيرة المنسية التي كانت عليها ريوخا، في أعالي الأدغال البيروية، يبيع من بيت إلى بيت قبعات قش تحوكها أسرته. وشيئاً فشيئاً، عوّض نقص تعليمه - لم يتلق سوى سنوات قليلة من التعليم الابتدائي - بقدرة على العمل تفوق طاقة البشر، وغريزة عبقرية في الأعمال وانعدام مطلق لوساوس الضمير، راح يتسلق الهرم الاجتماعي. فمن بائع متجول للقبعات في منطقة الأمازون الشاسعة، تحوّل إلى ممون لجامعي المطاط البائسين أولئك الذين كانوا يغامرون لحسابهم ويجازفون في التوغل في الأدغال، فيزودهم بمناجل الماتشيتي والبنادق، وبشِباك صيد وسكاكين وعلب صفيح لجمع سائل المطاط، ومأكولات معلبة ودقيق يكة وأدوات منزلية، مقابل جزء من المطاط الذي يجمعونه، يتولى هو نفسه بيعه في إيكيتوس وماناوس لشركات

التصدير. إلى أن تمكن، بما جمعه من أموال، من ممون ومتقاضي عمولات إلى منتجٍ ومصدّر للمطاط. تشارك في أول الأمر مع جامعي مطاط كولومبيين، وهم أقل منه ذكاء أو دأباً أو انعدام أخلاق، وانتهى بهم الأمر جميعاً إلى بيعه، بأبخس الأثمان، أراضيهم ومستودعاتهم، وأيديهم العاملة من السكان الأصليين. ثم تحولوا هم أنفسهم أحياناً إلى العمل في خدمته. ولأنه ارتيابي متشكك، فقد عين إخوته وأنسباءه في المناصب الحساسة في الشركة التي على الرغم من توسعها العظيم، ومن كونها مسجلة منذ العام ١٩٠٨ في بورصة لندن، إلا أنها مازالت تدار عملياً كشركة عائلية. إلى أي قدر ارتفعت ثروته؟ لا شك في أن الأسطورة تبالغ في تضخيم الواقع. ولكن شركة الأمازون البيروية تملك في لندن، في قلب **السيتي**، ذلك المبنى الثمين، ومنزل آرانا في كينسنغتون رود ليس بالأقل جدارة بين قصور الأمراء والمصرفيين المحيطة به. كما كان بيته في جنيف، وقصره الصيفي في بيارتس مؤثثين وفق ديكور حديث وفيهما لوحات وأشياء ثمينة. أما هو فيقال إنه يعيش حياة تقشف، وإنه لا يشرب ولا يقامر وليس له عشيقات وإنه يكرس وقت فراغه كله لزوجته. لقد أحبها منذ طفولته - فهي أيضاً من ريوخا - غير أن إيليونورا ثومايتا لم تعطه موافقتها إلا بعد سنوات طويلة، عندما صار ثرياً وقوياً وكانت هي معلمة في مدرسة القرية الصغيرة التي ولدت فيها.

عند انتهاء الاجتماع الثاني مع مجلس إدارة شركة الأمازون البيروية، أكد خوليو س. آرانا، من خلال المترجم، أن شركته ستفعل كل ما هو ضروري من أجل إصلاح فوري لأي قصور أو سوء تصرف في محطات جمع المطاط في بوتومايو. لأن سياسة شركته هي في العمل على الدوام

ضمن شرعية الإمبراطورية البريطانية وأخلاقها الإيثارية. ودّع آرانا القنصل بانحناءة احترام، دون أن يمد يده لمصافحته.

تحرير *التقرير حول بوتومايو* استغرق منه شهراً ونصف الشهر. بدأ كتابته في مكتبٍ بوزارة الخارجية، يساعده ضارب على الآلة الكاتبة، ولكنه فضّل بعد ذلك العمل في شقته بشارع فيلبتش جاردن، في إيرلز كورت، بجوار كنيسة سانت كثبيري الجميلة وكنيسة ماثياس التي كان روجر يدخلها أحياناً ليستمع إلى عازف الأرغن الرائع. وبما أن سياسيين وأعضاء منظمات إنسانية ومناهضة للعبودية وأناساً من الصحافة كانوا يأتونه هناك ويقطعوا عمله، لأن الإشاعات المتداولة في كافة أنحاء لندن تقول إن *التقرير حول بوتومايو* سيكون كاسحاً مثل تقريره الذي كتبه عن الكونغو، وتفسح المجال لتكهنات وتقولات في صحف أخبار المجتمع ومنتديات النميمة اللندنية، مما دفعه إلى طلب الإذن من ورزارة الخارجية للسفر إلى أيرلندا. وهناك، في غرفة بفندق بسويلز، في شارع مولسورث بدبلن، أنهى عمله في الأيام الأولى من شهر آذار ١٩١١. وعلى الفور انهالت عليه تهاني رؤسائه وزملائه. واستدعاه السير إدوارد غراي نفسه إلى مكتبه ليثني على *تقريره*، ويطلب منه في الوقت نفسه إجراء بعض التصويبات الصغرى. ثم أُرسل النص فوراً إلى حكومة الولايات المتحدة، كي تمارس كلٌ من لندن وواشنطن الضغوط على حكومة الرئيس أغوسطو ب. ليغيا في البيرو وتطالباها، باسم المجتمع المتحضر، أن تضع حداً للعبودية والتعذيب وعمليات الاغتصاب والإبادة لمجتمعات السكان الأصليين، واقتياد الأشخاص المتورطين إلى المحاكم.

لم يستطع روجر حتى ذلك الحين أخذ الراحة التي وصفها له الأطباء، وكان بحاجة ماسة إليها. فقد كان عليه الاجتماع عدة مرات مع لجان من الحكومة، ومن البرلمان، ومن جمعية مناهضة العبودية التي كانت تدرس أكثر الطرق عملية من أجل تمكين المؤسسات العامة والخاصة من العمل على التخفيف من أوضاع الوطنيين في منطقة الأمازون. وباقتراح منه، تمثلت إحدى أولى المبادرات بتمويل إرسال بعثة دينية في بوتومايو، وهو ما كانت شركة آرانا تمنعه دوماً. وتعهدت الآن بتسهيله.

وأخيراً، في شهر حزيران ١٩١١ استطاع الذهاب في إجازة إلى أيرلندا. وكان هناك عندما تلقى رسالة شخصية من السير إدوارد غراي، يبلغه بها وزير الخارجية أنه بناء على توصيته، قرر جلالة جورج الخامس تكريمه لخدماته التي قدمها للمملكة المتحدة في الكونغو والأمازون.

وبينما كان أقرباءٌ وأصدقاء يغمرونه بالتهاني، كان روجر يوشك على الانفجار في الضحك حين سمع في المرات الأولى من يسميه بلقب السير روجر، وملأته الشكوك. فكيف يتقبل ذلك اللقب الممنوح من نظام يشعر في أعماق قلبه أن نظام خصم، وأنه النظام نفسه الذي يستعمر بلاده؟ ولكن من جهة أخرى، ألا يقوم هو نفسه، كدبلوماسي، بخمة ذلك الملك وتلك الحكومة؟ لم يشعر قطّ مثلما شعر في تلك الأيام بالازدواجية المستترة التي يعيش فيها منذ سنوات، فهو يعمل من جهة بانضباط وفعالية في خدمة الإمبراطورية البريطانية، ويعمل بإخلاص من جهة أخرى من أجل استقلال أيرلندا ويرتبط أكثر فأكثر، ليس مع

تلك القطاعات المعتدلة التي تتطلع، تحت زعامة جون ريدموند، إلى الحصول على حكم ذاتي لأيرلندا، وإنما مع أشد الراديكاليين مثل الأخوية الجمهورية الأيرلندية التي يقودها سراً توم كلارك، وهدفها تحقيق الاستقلال بالعمل المسلح. ولأن التردد كان ينهشه اختار أن يشكر السير إدوارد غراي برسالة لطيفة على الشرف الذي يمنحه إياه. نُشر الخبر في الصحافة وأسهم في زيادة شهرته.

المساعي التي بادرت إليها الحكومتان البريطانية والأمريكية لدى الحكومة البيروية بالطلب منها بأن يتم إلقاء القبض على المجرمين الأساسيين المشار إليهم في *التقرير* - فيدل بيلاردي، وألفريدو مونت، وأغوسطو خيمينث، وآرماندو نورماند، وخوسيه إنوثينت فونسيكا، وألبيلاردو أغويرو، وإلياس مارتينيغي، وأوريليو رودريغيث - ومحاكمتهم، بدت أنها أعطت نتيجة في البدء. فالقائم بالأعمال الإنكليزي في ليما، مستر لاسين جيروم، أرسل برقية إلى وزارة خارجية بلاده بأن الموظفين الأحد عشر الأساسيين في شركة الأمازون البيروية قد طُردوا من العمل. وأن القاضي كارلوس آ. بالكارثل، المبعوث من ليما، ما كاد يصل إلى إيكيتوس حتى هيأ حملة من أجل الذهاب للتحقيق في محطات المطاط في بوتومايو. ولكنه لم يستطع الذهاب مع الحملة، لأنه سقط مريضاً واضطر إلى السفر إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية جراحية. وقد وضع على رأس الحملة شخصاً نشيطاً ومحترماً: رومولو باريديس، مدير جريدة *الأورينتي* الذي سافر إلى بوتومايو مع طبيب، ومترجمين اثنين وحراسة من تسعة جنود. وزارت اللجنة كافة محطات المطاط التابعة لشركة الأمازون البيروية وعادت للتو إلى إيكيتوس التي كان قد رجع إليها كذلك القاضي كارلوس آ.

بالكارثيل بعد أن استعاد عافيته. وقد وعدت الحكومة البيروية مستر جيروم بأنها ستتصرف فور تلقيها تقرير باريديس وبالكارثل.

ومع ذلك، وبعد فترة قصيرة، عاد مستر جيروم نفسه إلى الإبلاغ بأن حكومة الرئيس ليغيا قد أطلعته، بكل حزن، أن معظم المجرمين الصادرة بحقهم أوامر اعتقال قد هربوا إلى البرازيل. أما الآخرون فيبدو أنهم قد اختبأوا في الأدغال أو دخلوا خفية إلى الأراضي الكولومبية. حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى دفع حكومة برازيلية إلى إعادة هاربين إلى البيرو ليجري تسليمهم إلى العدالة. لكن وزير خارجية البرازيل، البارون دي ريو برانكو، ردّ على كلتا الحكومتين بأنه لا وجود لاتفاقية تسليم مجرمين بين البيرو والبرازيل وبالتالي ليس بالإمكان إعادة أولئك الأشخاص دون أن يؤدي ذلك إلى إثارة مشكلة قانونية دولية حساسة.

بعد عدة أيام، أخبر القائم بالأعمال البريطاني حكومته بأنه، في أثناء مقابلة مع وزير العلاقات الخارجية في البيرو، اعترف له هذا الأخير، بصورة غير رسمية، أن الرئيس ليغيا في وضع مستحيل. فبفعل وجود شركة خوليو س. آرانا في بوتومايو وقوات الأمن التي تمتلكها لحماية منشآتها، فإنها تشكل الكابح الوحيد الذي يمنع الكولومبيين ـ الذين عززوا حامياتهم الحدودية ـ من اجتياح المنطقة. الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى يطلبان شيئاً غير معقول: إغلاق شركة الأمازون البيروية أو ملاحقتها يعني بوضوح وبساطة تسليم أراض شاسعة لكولومبيا الطامعة بها. لا يمكن للرئيس ليغيا أو أي حاكم بيروي آخر أن يُقدم على مثل هذا العمل دون أن يعني ذلك انتحاره. والبيرو تفتقر

إلى موارد لإقامة حامية حدودية قوية في بوتومايو قادرة على حماية السيادة الوطنية. ويضيف القائم بالأعمال لوشين جيروم أنه بناء على ذلك كله، لا مجال للأمل بأن تقوم حكومة البيرو بأي عمل فوري فعال، اللهم إلا التصريحات والمساعي غير الجوهرية.

كان هذا هو السبب في أن وزارة الخارجية البريطانية ـ قبل أن تنشر حكومة جلالته ***التقرير حول بوتومايو*** وتطلب من المجتمع الدولي فرض عقوبات ضد البيرو ـ قررت أن يعود روجر كيسمنت إلى موقع الأحداث ليتأكد هناك في الأمازون، بأم عينه، إن كانت قد أُجريت بعض الإصلاحات، وإن كان ثمة عملية قضائية تتقدم، وإن كان العمل القانوني الذي بدأه الدكتور كالوس آ. بالكارثل صحيحاً. إصرار السير إدوارد غراي جعل روجر يجد نفسه مضطراً إلى الموافقة، وهو يقول في أعماقه ما سيجد مناسبات كثيرة ليكرره: «سأخلف عظامي في هذه الرحلةاللعينة».

كان يعد العدّة للسفر عندما وصل إلى لندن عمرينو وأريدومي. فخلال الشهور الخمسة التي أمضياها في باربادوس في كنف الأب سميث، وفر لهم هذا دروساً بالإنكليزية، وإلماماً بالقراءة والكتابة، وعودهما على ارتداء الملابس على الطريقة الغربية. ولكن روجر وجد نفسه مع صبيين أدت الحضارة إلى إطفائهما واكتئابهما، على الرغم من توفير الطعام لهما وعدم ضربهما أو جلدهما. فهما يبدوان خائفين دوماً من المحيطين بهما، ممن يخضعونهما لفحص لا ينتهي، يتأملونهما من أعلى إلى أسفل، يلمسونهما، يمرون بأيديهم على بشرتيهما معتقدين أنها متسخة، ويستجوبونهما بأسئلة لا يفهمانها ولا يدريان كيف يردان

عليها، ويظنان أنهم سيُلحقون بهما الأذى. أخذهما روجر إلى حديقة الحيوان، ولتناول المثلجات في هايد بارك، ولزيارة أخته نينا، وابنة خالته جيرترويد، وإلى سهرة مع مثقفين وفنانين في بيت إليس ستوبفورد غرين. الجميع يعاملونهما بمحبة ولكن الفضول الذي يجري تفحصهما به، وخاصة حين يكون عليهما خلع قميصيهما وكشف قروح ظهريهما ومؤخرتيهما، كان يربكهما. وفي بعض الأحيان يكتشف روجر أن عيون الطفلين مغروروقة بالدموع. كان قد خطط لإرسالهما للتعلم في أيرلندا، في محيط دبلن، في مدرسة ثنائية اللغة في سانت إنداس يديرها باتريك بيرز الذي يعرفه جيداً. كتب إليه حول الأمر، وأخبره من أين هما آتيان. كان روجر قد ألقى محاضرة في سانت إنداس حول أفريقيا، وكان يدعم بتبرعات مالية جهود باتريك بيرز سواء في الرابطة الغيليّة ومنشوراتها أو في هذه المدرسة، من أجل تنشيط انتشار اللغة الأيرلندية القديمة. وكان بيرز شاعراً وكاتباً ومناضلاً كاثوليكياً، ومربياً وقومياً راديكالياً، وقد وافق على ضمهما إلى المدرسة، بل إنه عرض تقديم تخفيض في رسوم التسجيل والإقامة الداخلية في سانت إنداس. ولكن روجر،عند تلقيه الرد، كان قد قرر الموافقة على توسلات عمرينو وأريدومي اليومية: إعادتهما إلى الأمازون. فكلاهما يشعر بتعاسة عميقة في انكلترا تلك، حيث يشعران بأنهما تحولا إلى صنف من البشر غير الأسوياء، واستعراض يفاجئان الناس فيه ويمتعان، ويستثيران العطف، وفي بعض الأحيان يخيفان أشخاصاً لا يعاملونهما كشبيهين لهم وإنما كغريبين إكزوتيكيين.

وسيفكر روجر كثيراً خلال رحلة العودة إلى إيكيتوس بهذا الدرس الذي قدمه إليه الواقع حول مدى غرابة الروح البشرية وتفلتها من

الضبط. فالصبيان رغبا كلاهما في الهروب من الجحيم الأمازوني حيث كانت تساء معاملتهما ويجبران على العمل كحيوانات ويكاد لا يقدم لهما طعام. وقد بذلَ جهوداً وأنفق مبلغاً لا بأس به من ثروته الضئيلة ليدفع لهما ثمن التذكرة إلى أوروبا والإنفاق عليهما منذ حوالي ستة شهور، معتقداً أنه ينقذهما بتلك الطريقة، ويوفر لهما الدخول إلى حياة محترمة. ومع ذلك كانا هنا، ولأسباب مختلفة، بعيدين جداً عن السعادة، أو أنهما في حياة لا يمكن تحملها مثلما كانت حياتهما في بوتومايو. ومع أنهم لن يضربوهما، بل سيعاملونهما بعطف في الغالب، إلا أنهما يشعران بأنهما غريبين، وحيدين، ومدركين أنهما لن يكونا أبداً جزءاً من ذلك العالم.

قبل قليل من سفر روجر إلى الأمازون، عينت وزارة الخرجية، بنصيحة منه، قنصلاً جديداً في إيكيتوس: جورج ميتشل. وقد كان اختياراً عظيماً. فقد تعرف روجر إليه في الكونغو. وكان ميتشل مبادراً وعمل بحماسة في حملة التنديد بالجرائم في ظل نظام ليوبولد الثاني. وله في مواجهة الاستعمار موقفاً مماثلاً لموقف كيسمنت. وهو لن يتردد، عندما يحين الوقت، عن مواجهة شركةآرانا. التقيا في جلستي حوار طويلتين وخططا لتعاون وثيق في ما بينهما.

في السادس عشر من آب ١٩١١، انطلق روجر وعمرينو وأريدومي من ساوثمبتون، في السفينة *مجدلينا*، باتجاه باربادوس. ووصلوا إلى الجزيرة بعد اثني عشر يوماً. ومذ بدأت السفينة تمخر مياه البحر الكاريبي الفضية الزرقاء، أحس روجر في دمائه بأن عضوه الخامد خلال شهور المرض والقلق والعمل الجسدي والذهني الأخيرة تلك، قد عاد

للاستيقاظ وليملأ رأسه بالتخيلات والرغبات. وقد لخص في يومياته حالته المعنوية بثلاث كلمات: «أتأجج من جديد».

وفور نزوله من السفينة ذهب ليشكر الأب سميث على ما فعله من أجل الصبيين. وقد تأثر لرؤية عمرينو وأريدومي اللذين كانا ضنينين في إظهار مشاعرهما في لندن، يعانقان رجل الدين ويتبادلان معه صفق الأكف بمودة كبيرة. أخذهم الأب سميث لزيارة دير الراهبات الأورسولينيات. وفي رواق الرهبنة الهادئ ذاك ذي أشجار الخروب وأزهار الجهنمية البنفسجية، حيث لا يصل صخب الشارع ويبدو الزمن معلقاً، ابتعد روجرعن الآخرين وجلس على مقعد. كان يراقب رتل نمل يحمل ورقة، مثلما يرفع الحمالون محمل السيدة العذراء في مواكب البرازيل الدينية، وعندئذ تذكر فجأة: اليوم هو عيد ميلاده. سبعة وأربعون عاماً! لا يمكن القول إنه صار عجوزاً. كثير من الرجال الذين هم في مثل عمره يبدون في أوج كمالهم البدني والنفسي، لديهم الطاقة، والرغبات والمشاريع. أما هو فيشعر بأنه عجوز مع الإحساس المقيت بأنه قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته. لقد تخيل ذات يوم مع هربرت وارد، وهما في أفريقيا، كيف ستكون سنواتهما الأخيرة. تخيل النحات لنفسه شيخوخة متوسطية في بروفانس أو في توسكانا، في بيت ريفي. سيكون لديه مشغل فسيح والكثير من القطط والكلاب والبط والدجاج، حيث سيطهو هو نفسه في أيام الآحاد أطباقاً دسمة ومتبلة مثل الـ *bouillabaisse* لأقرباء كثيرين. أما روجر بالمقابل، فأكد متفاجئاً: «أنا لن أصل إلى الشيخوخة، إنني واثق من ذلك». لقد كان هاجساً غامضاً. وهو يتذكر بصورة حية تلك النبوءة، وعاد إلى الإحساس بها كحقيقة: لن أصل إلى الشيخوخة.

وافق الأب سميث على إيواء عمرينو وأريدوني خلال الأيام الثمانية التي سيبقونها في بريدجتاون. وفي اليوم التالي لوصوله ذهب روجر إلى حمامات عامة ارتادها عند مروره السابق بالجزيرة. ومثلما كان ينتظر، رأى هناك رجالاً شباباً، رياضيين كأنهم تماثيل منحوتة، فلا أحد هنا، كما في البرازيل، يخجل من جسده. النساء والرجال يعتنون بأجسادهم ويكشفونها برضا. أقلقه شاب فتي جداً، مراهق في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. له ذلك الشحوب المعهود بكثرة لدى الخلاسيين، بشرة ناعمة ولامعة، وعينان خضراوان، واسعتان وجريئتان، ومن سروال سباحته المشدود يظهر فخذاه الصقيلان والمرنان اللذان سببا لروجر بداية دوار. لقد شحذت الخبرةُ فيه ذلك الحدس الذي يسمح له أن يعرف بسرعة كبيرة، من خلال إشارات غير منظورة لأي شخص آخر ـ ابتسامة خفيفة، بريق في العينين، حركة مرحبة من اليد أو الجسد ـ، إن كان الفتى يفهم ما يريده هو ومستعد لتقديمه، أو للتفاوض عليه على الأقل. وبألم في روحه، أحس أن ذلك الفتى الجميل غير مبالٍ تماماً بالرسائل التي يبعثها إليه بعينيه. ولكنه اقترب منه مع ذلك. تحدث معه للحظات. إنه ابن كاهن من باربادوس ويتطلع لأن يكون محاسباً. يدرس في أكاديمية تجارية، وعما قريب، سيستغل إجازة، ويذهب مع أبيه إلى جاميكا. دعاه روجر لتناول مثلجات ولكن الفتى لم يوافق.

ولدى عودته إلى الفندق، فريسة التهيج، كتب في يومياته، بلغة عامية، وأشبه بلغة البرقيات التي يستخدمها في أشد الأحداث حميمية: «حمامات عامة. ابن رجل دين. باهر الجمال. عضو طويل، ورفيع، تصلب بين يدي. تلقيته في فمي. سعادة دقيقتين». استمنى ثم استحم من جديد، وكان يفرك جسده بالصابون بدقة بينما هو يحاول إزاحة

الحزن والإحساس بالوحدة اللذين يسيطران عليه في مثل تلك الحالات.

في اليوم التالي، عند الظهر، بينما كان يتناول الغداء على الشرفة الخارجية لأحد مطاعم ميناء بريدجتاون، رأى مرور أندريس أودونيل بجانبه. ناداه. رئيس العمال السابق لدى آرانا، ورئيس محطة إنتري ريوس، تعرّف إليه فوراً. نظر إليه لثوانٍ بارتياب وبشيء من الذعر. ولكنه صافحه أخيراً ووافق على الجلوس معه. تناول قهوة وكأساً من البراندي بينما هما يبادلان الحديث. اعترف له أن مرور روجر في بوتومايو كان أشبه بلعنة ساحر هيتوتو للعاملين في المطاط. فما إن غادر حتى انتشرت الإشاعة بأن شرطة وقضاة سيصلون بعد قليل مزودين بأوامر اعتقال، وأن جميع رؤساء فرق العمل ورؤساء المحطات والمعاونين في مناطق جمع المطاط سيقعون في مشاكل مع العدالة. وبما أن شركة آرانا إنكليزية، فسوف يُرسلون إلى إنكلترا ويُحاكمون هناك. ولهذا فضّل كثيرون، مثل أودونيل، أن يبتعدوا عن المنطقة باتجاه البرازيل أو كولومبيا أو الاكوادور. وقد جاء هو إلى هنا بوعد الحصول على عمل في مزراع قصب سكر، ولكنه لم يحصل على العمل. ويحاول الآن الرحيل إلى الولايات المتحدة، فهناك تتوافر، كما يبدو، الفرص للعمل في مدّ السكك الحديدية. وبينما هو جالس على تلك الشرفة، بلا جزمة، ولا مسدس، ولا سوط، ومرتدياً أفرهولاً عتيقاً وقميصاً بالياً، لم يكن أكثر من شيطان بائس خائف على مستقبله.

ـ حضرتك لا تعلم ذلك، ولكنك مدين لي بحياتك يا سيد كيسمنت ـ قال له بابتسامة مريرة وهو يودعه ـ. مع أنك قد لا تصدقني.

ـ أخبرني بما لديك على أي حال ـ شجعه روجر.

ـ كان أرماندو نورماند مقتنعاً بأنك إذا خرجت حياً من هناك، فإن رؤساء محطات المطاط جميعهم سيذهبون إلى السجن. وأنه من الأفضل إغراقك في النهر أو جعل أسد بوما أو تمساح يأكلك. أنت تفهمني. مثلما حدث للمكتشف الفرنسي أوجين روبتشين الذي بدأ يستثير عصبية الناس بكثرة الأسئلة التي يوجهها، ولهذا أخفوه من الوجود.

ـ ولماذا لم تقتلوني؟ لقد كان الأمر سهلاً، مع الخبرة التي لديكم.

ـ أنا من بيّنت لهم النتائج المحتملة، أكد أندريس أودونيل بشيء من التبجح ـ. وقد دعمني فيكتور ماثيدو. فبما أنك إنكليزي وشركة خوليو هي إنكليزية أيضاً، فإنهم سيحاكموننا في إنكلترا وفق القوانين الإنكليزية. وسيشنقوننا.

ـ لستُ إنكليزياً وإنما أيرلندي ـ صحح له روجر كيسمنت ـ. وربما ما كانت الأمور ستجري مثلما تظن. لكنني أشكرك على كل حال. إنني مضطر إلى الإخبار بأنني رأيتك وستصدر الحكومة الإنكليزية قريباً أمراً باعتقالك.

رجع في مساء ذلك اليوم إلى الحمامات العامة. وكان أوفر حظاً مما هي حاله في اليوم السابق. فقد ابتسم له شاب أسود متين وبشوش، كان قد رآه يرفع أثقالاً في صالة التمارين، ابتسم له. تأبط ذراعه، اقتاده إلى قاعة صغيرة يبيعون فيها مشروبات. وبينما هما يتناولان عصير أناناس وموز أخبره باسمه، ستانلي ويكس، اقترب منه كثيراً حتى لامس إحدى ساقيه بساقه. وبعد ذلك بابتسامة مفعمة بالنوايا، اقتاده من ذراعه

إلى قمرة صغيرة، أغلق بابها بمزلاج فور دخولهما. تبادلا القبلات، وعضعضة الآذان والرقبة بينما هما يخلعان بنطاليهما. تأمل روجر، وهو يختنق بالشهوة، قضيب ستانلي شديد السواد وحشفته الضاربة إلى الحمرة، وهو يكبر تحت نظره. «جنيهان وتمصه لي»، سمعه يقول. «وبعد ذلك ألوط بكَ.» وافق روجر، وجثى على ركبتيه. في ما بعد، في غرفته في الفندق، كتب في يومياته: «حمامات عامة. ستانلي ويكس: رياضي، شاب، ٢٧ عاماً. ضخم، شديد الصلابة، ٩ بوصات على الأقل. قبلات، عضعضة، إيلاج مع صراخ. باوندان اثنان».

غادر روجر وعمرينو وأريدومي باربادوس متوجهين إلى بارا يوم الخامس من أيلول، بالسفينة ***بونفيس***، وهي سفينة غير مريحة، صغيرة ومزدحمة، تفوح منها رائحة كريهة والطعام في بالغ السوء. ولكن روجر استمتع بالرحلة حتى بارا بفضل الدكتور هربرت سبنسر ديكي، وهو طبيب أمريكي عمل لدى شركة آرانا في الإنكانتو، وقد أكد الفظاعات التي صار كيسمنت يعرفها. روى له حكايات كثيرة، بعضها وحشية القسوة، وأخرى مضحكة، حول تجاربه في بوتومايو. تبين أنه رجل ذو روح مغامرة، جال نصف العالم، حساس وواسع القراءات. كانت ممتعة رؤية ظلام الليل يخيم إلى جانبه، بينما هما على ظهر السفينة، يدخنان ويشربان رشفات الويسكي من الزجاجة مباشرة، ويستمع منه إلى أمور ذكية. كان الدكتور ديكي يؤيد التحركات التي تقوم بها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة لوضع حدّ للفظائع في الأمازون. ولكنه كان قَدَرِيّاً ورواقياً: الأمورلن تتبدل هناك اليوم ولا في المستقبل.

ـ إننا نحمل الشر في أرواحنا يا صديقي ـ كان يقول نصف مازح

ونصف جدّي ـ. ولن نتخلص منه بسهولة. الشر في البلدان الأوروبية وفي بلادي أكثر تخفيّاً، لكنه يتكشف بوضوح كامل عند وقوع حرب، أو ثورة، أو تمرد. إنه بحاجة إلى مسوغ كي يصبح عاماً وجماعياً. أما في الأمازون، بالمقابل، فيتكشف بصورة سافرة ويرتكب أسوأ الفظاعات دون حاجة إلى مسوغات قومية أو دينية. وإنما بدافع الجشع المحض والقسوة. الشر الذي يسممنا موجود في كل مكان فيه بشر، وبجذور ضاربة عميقاً جداً في قلوبنا.

ولكنه بعد تقديم هذه التأكيدات الكئيبة مباشرة يفلت مزاحاً أو يروي طرفة تبدو كأنها تُكذب ما قاله. كان روجر معجباً بالتحدث إلى الدكتور ديكي، على الرغم من أن ذلك يسبب له، في الآن نفسه، قليلاً من الاكتئاب. وصلت السفينة ***بونفيس*** إلى بارا يوم العاشر من أيلول ظهراً. طوال الوقت الذي عمل فيه قنصلاً هنا، كان يشعر بالاحباط والاختناق. ومع ذلك، وقبل أيام من الوصول إلى هذا الميناء أحس بموجة من الشهوة وهو يتذكر ساحة القصر. فقد كان يذهب إلى هناك في الليل ليأخذ واحداً من أولئك الشبان الذين يتمشون بحثاً عن زبائن أو مغامرات بين الأشجار، وهم بسراويل تُبرز مؤخراتهم وخصياتهم.

نزل في فندق كوميرسيو. كان يشعر، في جسده، بانبعاث الحمى القديمة التي كانت تسيطر عليه حين يقوم بتلك الجولات في تلك الساحة. إنه يتذكر ـ أم إنه يختلق؟ ـ بعض الأسماء من تلك اللقاءات التي كانت تنتهي في فندق رخيص مجاور أو ـ أحياناً ـ في ركن مظلم على عشب الحديقة. وكان يستبق تلك الاختلاطات السريعة والمضطربة بإحساس أن قلبه يطفر من فمه. ولكنه كان سيء الحظ في هذه الليلة

أيضاً، لأن أحداً من ماركوس أو أوليمبيو أو بيبي (أهكذا هي أسماؤهم؟) لم يظهر له، بل كاد يتعرض للسطو على يد متشردين بأسمال، أشبه بطفلين. حاول أحدهما أن يدس يده في جيب روجر بحثاً عن المحفظة التي لم يكن يحملها، بينما تظاهر الآخر بأنه يسأله عن عنوان. تخلص منهما بدفع أحدهما بقوة أوقعته أرضاً. وحين رأيا موقفه الحازم هربا راكضين. رجع إلى الفندق غاضباً. هدأ نفسه بالكتابة في يومياته: «ساحة القصر: ثخين وصلب جداً. حبس تنفس. قطرات دم في السروال الداخلي. ألم لذيذ».

زار في اليوم التالي القنصل الإنكليزي وبعض الأوروبيين والبرازيليين الذين عرفهم خلال إقامته السابقة في بارا. وقد كانت تحرياته نافعة. فقد حدد مكان تواجد اثنين على الأقل من الهاربين من بوتومايو. وقد أكد له القنصل وقائد الشرطة المحلية أن كلاً من خوسيه إنوثينتي فونسيكا وألفريدو مونت، بعد أن أمضيا بعض الوقت في مزرعة على ضفاف نهر يافاري، استقرا الآن في ماناوس، حيث أمّنت لهما شركة آرانا عملاً في الميناء كمراقبي جمارك. أبرق روجر فوراً لوزارة الخارجية البريطانية كي تطلب من السلطات البرازيلية إصدار أمر اعتقال بحق هذين المجرمين. وبعد ثلاثة أيام من ذلك ردت عليه وزارة الخارجية البريطانية بأن بيتروبوليس تنظر بعين الرضا إلى الطلب. وأنها ستأمر شرطة ماناوس فوراً باعتقال مونت وفونسيكا. ولكنهما لن يُسلما وإنما ستجري محاكمتهما في البرازيل.

ليلتاه الثانية والثالثة في بارا كانتا مثمرتين أكثر من الليلة الأولى. فعند غروب اليوم الثاني، عرض شاب حافي القدمين، يبيع زهوراً،

نفسه عليه عملياً بينما كان روجر يسبره بسؤاله عن ثمن باقة الورد التي يحملها في يده. ذهبا إلى أرض خلاء صغيرة، حيث سمع روجر، في الظلمة، لهاث أشخاص آخرين. تلك اللقاءات الشوارعية، في ظروف غير مأمونة ومفعمة بالمجازفة دائماً، كانت تبعث في نفسه مشاعر متناقضة: استثارة وقرف. كانت تفوح من بائع الزهور رائحة إبطين، غير أن أنفاسه الحرى ودفء جسده وقوة عناقه أججته وأوصلته فوراً إلى اللذة. وعند دخوله إلى فندق كوميرسيو، انتبه إلى أن بنطاله مغطى بالتراب وببقع جعلت موظف الاستقبال ينظر إليه بارتباك. فأوضح له روجر: «لقد تعرضتُ للسطو».

في الليلة التالية، في ساحة القصر، كان له لقاء جديد، وهذه المرة مع شاب طلب منه صدقة. فدعاه إلى التمشي، تناولا في كشك هناك كأس روم. أخذه جواو إلى كوخ من الصفيح والحصائر في حي بائس. وبينما هما يخلعان ملابسهما ويمارسان الحب في العتمة فوق حصيرة ألياف ممدودة على الأرض الترابية، ويصلهما نباح كلاب، كان روجر متأكداً من أنه سيشعر في أي لحظة بحد سكين في رأسه أو ضربة هراوة. لقد كان مستعداً لذلك: ففي مثل تلك الحالات لم يكن يخرج حاملاً الكثير من النقود أو الساعة أو أقلامه الفضية، وإنما حفنة صغيرة من الأوراق النقدية وقطع العملة المعدنية كي يتيح للصوص سرقة شيء يهدئ من نزقهم. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. رافقه جواو في طريق العودة حتى مكان قريب من الفندق وودعه بعضة من فمه أرفقها بقهقهة مجلجلة، في اليوم التالي اكتشف روجر أن جواو أو بائع الزهور قد نقل إليه قمل العانة. فاضطر إلى الذهاب إلى صيدلية لشراء دواء مركب، وهي مهمة مزعجة على الدوام: لأن الصيدلاني - والأسوأ إذا كانت

صيدلانية ـ ينظر إليه عادة بطريقة تثير خجله، أو يبتسم له أحياناً ابتسامة تواطؤ تُغضبه، فضلاً عن أنها تربكه.

أفضل تجربة، ولكنها الأسوأ أيضاً، خلال الأيام الاثني عشر التي أمضاها في بارا، هي زيارته للزوجين دا ماتا. لقد كانا أفضل صديقين تعرف إليهما وارتبط بهما خلال إقامته في المدينة: جونيو، مهندس شاحنات، وزوجته إرين، رسامة لوحات مائية. إنهما شابان وسيمان، مرحان، مزوحان، ينضحان حباً للحياة. لديهما طفلة رائعة، ماريا، لها عينان واسعتان حالمتان. لقد تعرف إليهما روجر في لقاء اجتماعي أو في حفل رسمي، لأن جونيو يعمل في إدارة الأشغال العامة للحكومة المحلية. وكان يلتقي بهما بكثرة، يقومون معاً بنزهات إلى النهر، ويذهبون إلى السينما وإلى المسرح. وقد استقبلا صديقهما القديم بأذرع مفتوحة. أخذاه للعشاء في مطعم متخصص بتقديم مأكولات منطقة لاباهيا الحريفة جداً. أما الصغيرة ماريا، وقد صار عمرها خمس سنوات، فرقصت له وغنت وهي تقوم بحركات متغنجة.

تلك الليلة، خلال أرقه الطويل في سريره بفندق كوميرسيو، سقط روجر في واحدة من تلك الاكتئابات التي رافقته طوال حياته كلها تقريباً، وخاصة بعد يوم أو بعد ضربة حظ موفقة في لقاء جنسي شوارعي. فقد كان يحزنه معرفة أنه لن يجد أبداً منزلاً مثل منزل آل دا ماتا، وأن حياته ستكون أكثر فأكثر عزلة كلما تقدمت به السن. كان يدفع غالياً ثمن لحظات من المتعة المرتزقة. سيموت دون أن يعرف طعم تلك الحميمية الدافئة، وزوجة يعلق معها على أحداث اليوم والتخطيط للمستقبل ـ لرحلات وإجازات وأحلام ـ، دون أبناء يطيلون

بقاء اسمه وذكراه عندما يغادر هذا العالم. فشيخوخته، إذا ما وصل إليها، ستكون شيخوخة الحيوانات الشريدة التي لا صاحب لها. وسيكون مثلها في البؤس والفقر، فمع إنه يكسب راتباً محترماً مذ صار دبلوماسياً، إلا أنه لم يستطع الادخار بسبب كمية التبرعات والمساعدات التي يمنحها للهيئات الإنسانية المناضلة ضد العبودية، ومن أجل حق الشعوب والثقافات البدائية في الحياة والبقاء، وما يمنحه الآن للمنظمات المدافعة عن الهوية الغيليّة والتقاليد الأيرلندية.

ولكن ما كان يُشعره بالمرارة أكثر من ذلك كله هو التفكير في أنه سيموت دون أن يكون قد عرف الحب الحقيقي، حباً متقاسماً، مثل حب جونيو وإيرين، ذلك التواطؤ والذكاء الصامت اللذين يُلمحان بينهما، والعذوبة التي يمسك بها أحدهما بيد الآخر، أو تبادلهما الابتسامات وهما يريان حركات الصغيرة ماريا. وكما هي العادة في مثل هذه النوبات، ظل مؤرقاً لساعات طويلة، وعندما تمكن أخيراً من اصطياد النوم، شهد هالة لصورة أمه الذاوية ترتسم في عتمةالحجرة.

في الثاني والعشرين من أيلول غادر روجر وعمرينو وأريدومي بارا باتجاه ماناوس في السفينة البخارية *هيلدا* التابعة للبوث لاين، وهي سفينة قبيحة ومليئة بالمنغصات. وقد كانت أيام الإبحار الستة فيها عذاباً خالصاً لروجر، بسبب ضيق قمرته، والقذارة التي تسود كل مكان، والطعام الكريه، وسحب البعوض التي تهاجم المسافرين منذ الغروب حتى الفجر.

ما كاد روجر ينزل إلى البر في ماناوس حتى عاد لملاحقة الهاربين من بوتومايو. فقد ذهب بمرافقة القنصل الإنكليزي للقاء حاكم المدينة،

السيد دوس رييس، الذي أكد له أنه قد وصل، بالفعل، أمر من الحكومة المركزية في بتروبوليس من أجل اعتقال مونت وفونسيكا. ولماذا لم تعتقلهما الشرطة حتى الآن؟ قدم له الحاكم سبباً بدا له سخيفاً أو مجرد عذر: كانوا ينتظرون وصوله هو نفسه إلى المدينة. ألم يكن بإمكانهما عمل ذلك فوراً، قبل أن يطير هذان العصفوران؟ وهو ما سيفعلانه في ذلك اليوم بالذات.

كان على القنصل وكيسمنت، ومعهما أمر الاعتقال الوارد من بتروبوليس، أن ينتقلا مرتين، ذهاباً وإياباً، بين مقر الحاكم ومقر الشرطة. وأخيراً أرسل قائد الشرطة اثنين من رجاله لاعتقال مونت وفونسيكا في جمارك المرفأ.

في صباح اليوم التالي، جاء القنصل الإنكليزي مستهزئاً ليخبر روجر أن محاولة الاعتقال قد وصلت إلى نهاية مضحكة، نهاية هزلية. لقد أخبره بالأمر قائد الشرطة للتو، وهو يطلب منه كافة أشكال الاعتذار، ويبدي النوايا لإصلاح الضرر. فالشرطيان اللذان أُرسلا لاعتقال مونت وفونسيكا كانا يعرفانهما، وقبل اقتيادهما إلى مفوضية الشرطة، ذهبا لتناول بعض البيرة معهما. فأخذا سَكرة عظيمة، تمكن خلالها المجرمان من الهروب. وبما أنه لا يمكن استبعاد أن يكونا قد تلقيا نقوداً لتركهما يهربان، فإن الشرطيين المعنيين موقوفان. إذا ما ثبتت تهمة الفساد، فسوف يعاقبان بصرامة. «متأسف أيها السير روجر ـ قال له القنصل ـ ولكنني كنت أنتظر شيئاً من هذا القبيل، وإن لم أخبرك بذلك. فأنت الذي كنت دبلوماسياً في البرازيل، تعرف هذه الأمور جيداً. حدوث مثل هذه الأشياء هنا أمر طبيعي».

شعر روجر باستياء شديد تفاقم معه توعكه البدني. ظل معظم الوقت في الفراش، مع ارتفاع في الحرارة وآلام في العضلات، بينما هو ينتظر انطلاق السفينة إلى إيكيتوس. وذات مساء، بينما هو يناضل الإحساس بالعجز الذي يهزمه، دَوَّن تخيلاته في يومياته على هذا النحو: «ثلاثة عشاق في ليلة واحدة، بينهم بحاران. فعلوا بي ست مرات! وصلتُ إلى الفندق ماشياً بساقين مفتوحتين مثل امرأة في المخاض». وعلى الرغم من تعكر مزاجه، إلا أن ضخامة ما كتبه استثار فيه نوبة من الضحك. فهو المؤدب وشديد التهذيب في انتقاء مفرداته أمام الناس، يشعر على الدوام، في حميمية مذكراته، بحاجة قاهرة إلى كتابة بذاءات. فلأسباب لا يفهمها، تُشعره العبارات البذيئة بالراحة.

واصلت السفينة ***هيلدا*** الرحلة في يوم الثالث من تشرين الأول، وبعد رحلة متعثرة، مع أمطار طوفانية غزيرة واللقاء مع صفعة عاصفة صغيرة، وصلت إلى إيكيتوس فجر السادس من تشرين الأول ١٩١١. وهناك كان بانتظاره، ممسكاً قبعته بيده، مستر ستيرز. أما بديله، جورج ميتشيل وزوجته فسيصلان قريباً. وكان القنصل يبحث لهما عن بيت. لم ينزل روجر هذه المرة في منزل القنصل وإنما في فندق الأمازون، بالقرب من ساحة السلاح، بينما أخذ مستر ستيرز معه، بصورة مؤقتة، عمرينو وأريدومي. وكان الصبيان كلاهما قد قررا البقاء في المدينة ليعملا كخادمين منزليين بدل أن يعودا إلى بوتومايو. ووعد مستر ستيرز بأن يسعى ليجد لهما أسرة ترغب في خَدَمِ وتعاملهما جيداً.

بما أن روجر كان يخشى، بعد سوابق البرازيل، ألا تكون الأخبار هنا مشجعة أيضاً. لم يكن مستر ستيرز يعرف كم هم من جرى اعتقالهم

من مسؤولي شركة آرانا من القائمة الطويلة التي تضم ٢٣٧ مذنباً مزعوماً كان القاضي الدكتور كارلوس آ. بالكارثل قد أمر باعتقالهم بعد تلقيه تقرير رومولو باريديس حول حملته إلى بوتومايو. لم يستطع تحري ذلك لأن أجواء صمت غريبة تخيم على إيكيتوس، وكذلك على مكان وجود القاضي بالكارثل. فقد اعتُبر هذا القاضي، منذ عدة أسابيع، مجهول مكان الإقامة. والمدير العام لشركة الأمازون البيروية، بابلو ثومايتا، واسمه وارد في تلك القائمة، مختبئ ظاهرياً، ولكن مستر ستيرز أكد لروجر أن اختباءه مجرد مهزلة، لأن صهر آرانا وزوجته بيترونيلا يظهران في المطاعم والحفلات المحلية دون أن يزعجهما أحد.

في ما بعد، سيتذكر روجر تلك الأسابيع الثمانية التي أمضاها في إيكيتوس كما لو أنها غرق بطيء، غطس بصورة غير محسوسة في بحر مكايد، وإشاعات زائفة، وأكاذيب مكشوفة أو مواربة، وتناقضات، عالم لا يقول أحدٌ فيه الحقيقة، لأنها تأتي بالخصومات والمشاكل، أو لأن الناس، في حالات أكثر، يعيشون ضمن نظام من المستحيل التمييز فيه عملياً بين الزائف والصحيح، وبين الواقع والخداع. وقد عرف هو، منذ سنواته في الكونغو، هذا الإحساس الباعث على اليأس بالوقوع في رمال متحركة، في أرض موحلة آخذة بابتلاعه، حيث لا تنفعه جهوده إلا في الغرق أكثر فأكثر في تلك المادة اللزجة التي ستنتهي إلى ابتلاعه. يجب الخروج من هنا بأسرع ما يمكن!

في اليوم التالي لوصوله ذهب لزيارة محافظ إيكيتوس. كان هناك محافظ جديد، مرة أخرى. السيد أدولفو غامارّا ـ شارب خشن، كرش

مكور، سيجار يتعالى منه الدخان، يدان عصبيتان ورطبتان ـ استقبله في مكتبه بمعانقات وتهنئات:

ـ بفضل حضرتك ـ قال له وهو يفتح ذراعية بطريقة مسرحية ويربت له ـ تم اكتشاف ظلم اجتماعي فظيع في قلب منطقة الأمازون. حكومة البيرو وشعبها يعترفون لك بالجميل يا سيد كيسمنت.

وأضاف بعد ذلك مباشرة أن التقرير الذي وضعه القاضي كارلوس آ. بالكارثل بتكليف من الحكومة البيروية، ومن أجل تلبية متطلبات الحكومة الإنكليزية، كان «رائعاً» و«ساحقاً». وأنه مؤلف من قرابة ثلاثة آلاف صفحة، ويؤكد كافة الاتهامات التي أرسلتها إنكلترا إلى الرئيس أغسطو ب. ليغيا.

ولكن عندما سأله روجر إن كان بإمكانه الحصول على نسخة من التقرير، أجابه المحافظ بأن الأمر يتعلق بوثيقة حكومية وليس من صلاحيته السماح لأجنبي بقراءته. وأنه على السيد القنصل أن يتقدم بطلب إلى الحكومة العليا في ليما، عن طريق وزارة الخارجية، وسوف يحصل دون شك على إذن بالاطلاع على التقرير. وعندما سأله روجر عما يمكنه فعله للقاء القاضي كارلوس آ. بالكارثل، أبدى المحافظ ملامح الجدّية ورتل بتدفق:

ـ ليس لدي أدنى فكرة عن مكان وجود الدكتور بالكارثل. فقد انتهت مهمته، وبلغني أنه غادر البلاد.

خرج روجر من مقر المحافظة مذهولاً تماماً. ما الذي يحدث حقاً؟ فهذا الشخص لم يقل له سوى أكاذيب. بعد ظهر ذلك اليوم بالذات ذهب إلى مقر جريدة ***الاورينتي***، ليتبادل الحديث مع مديرها الدكتور

رومولو باريديس. وجد نفسه مع خمسيني شديد السمرة، بقميص قصير الكمين، يتصبب عرقاً، متردد وفريسة رعب. يخالط شعره بعض الشيب. ما كاد روجر يبدأ الكلام حتى أسكته بإيماءة حاسمة بدا أنها تقول: «حذار، للجدران آذان». ثم أمسك بذراعه واقتاده إلى حانة صغيرة عند الناصية تدعى حانة الحبارة. وأجلسه إلى منضدة منعزلة.

ـ أرجوك أن تعذرني أيها السيد القنصل ـ قال له وهو يتطلع طيلة الوقت في ما حوله بحرص ـ لا يمكنني ولا يجب عليّ أن أقول شيئاً مهماً. إنني في وضع حرج جداً. ورؤية الناس لي معك تمثل خطورة كبيرة عليّ.

كان شاحباً، صوته يرتعش وقد بدأ يقضم أظفاره. طلب كأس خمر قوي وشربها دفعة واحدة. واستمع بصمت إلى رواية روجر عن مقابلته مع المحافظ غامارّا.

ـ إنه ملك مهرج ـ قال أخيراً وقد أكسبته كأس الخمر شجاعة ـ. لدى غامارّا تقرير مني، يعزز جميع اتهامات القاضي بالكارثل. سلّمته إياه في شهر تموز. وقد مضى أكثر من ثلاثة شهور دون أن يرسله بعد إلى ليما. لماذا تظن أنه استبقاه كل هذا الوقت؟ لأن الجميع يعرفون أن المحافظ أدولفو غامارّا هو أيضاً، مثل نصف إيكيتوس، موظف عند آرانا.

أما بشأن القاضي بالكارثل، فقال له إنه غادر البلاد. ولا يعرف أين هو موجود، ولكنه يعرف أنه لو ظل في إيكيتوس، فربما يكون قد تحول إلى جثة. نهض واقفاً بجفاء:

ـ وهذا ما يمكن أن يحصل لي أيضاً في أي لحظة أيها السيد

القنصل ـ كان يمسح العرق وهو يتكلم، وفكر روجر في أنه سينفجر في البكاء ـ. فأنا لسوء الحظ لا أستطيع المغادرة. لديّ زوجة وأبناء، وعملي الوحيد هو الجريدة.

خرج دون أن يودّع. رجع روجر غاضباً إلى حيث المحافظ. وقد اعترف له السيد أدولف غامارّا بأنه لم يكن ممكناً، بالفعل، إرسال التقرير الذي أعده الدكتور باريديس إلى ليما «لأسباب لوجستية، وقد تم حلّها لحسن الحظ». وأنه سيتم إرساله على كل حال هذا الأسبوع بالذات «ومع شخص موثوق من أجل مزيد من الأمان. فالرئيس ليغيا يطلبه على وجه السرعة».

كل شيء هكذا. بدأ روجر يشعر بأنه يتأرجح في زوبعة مُنَوِّمة، يدور ويدور في المكان نفسه، تتلاعب به قوى مراوغة وغير مرئية. فكل المساعي، والوعود، والمعلومات، تتشوش وتتحلل دون أن تتطابق الوقائع قطّ مع الكلمات. فما يُفعل وما يقال عالمان متباعدان. الكلمات تنكر الوقائع والوقائع تكذب الكلمات وكل شيء يعمل ضمن الخدعة المعممة، في طلاقٍ مزمن بين القول والفعل يمارسه الجميع.

قام طيلة الأسبوع بتقصيات متعددة حول القاضي كارلوس آ. بالكارثيل. فالشخصية، كما هي حال سالدانيا روكا، توحي له بالاحترام، والمحبة، والشفقة، والتقدير. كان الجميع يقدمون إليه الوعود بالمساعدة، والمعلومات، ونقل الرسالة إليه، وتحديد مكانه، لكنهم يرسلونه من مكان إلى آخر دون أن يعطيه أحد أدنى توضيح جدي عن وضعه. وأخيراً، بعد سبعة أيام من وصوله إلى إيكيتوس، تمكن من الخروج من شبكة العنكبوت تلك الباعثة على الجنون بفضل إنكليزي

مقيم في المدينة. كان مستر ف. ج. هاردينغ، المدير في شركة جون لايلي وشركاه، رجلاً طويل القامة ومتيبساً، عازباً وشبه أصلع، وأحد التجار القلائل في إيكيتوس الذين يبدو أنهم لا يرقصون على إيقاع شركة الأمازون البيروية.

ـ لا أحد يقول ولن يقول لك ما حدث للقاضي بالكارثل لأنهم يخشون أن يجدوا أنفسهم متورطين في مشكلة أيها السير روجر ـ كانا يتبادلان الحديث في بيت مستر هاردينغ المجاور لكورنيش النهر. وكانت تزين الجدران رسوم لقلاع اسكتلندا. وكانا يتناولان مرطب جوز هند ـ. لقد توصل نفوذ آرانا في ليما إلى عزل القاضي بالكارثل بتهمة الإخلال بأمانة الوظيفة ولا أدري كم من الأكاذيب الأخرى. لابد أن الرجل المسكين، إذا كان لا يزال حياً، يتأسف بمرارة على اقترافه أسوأ خطأ في حياته بقبوله تكليفه بهذه المهمة. فقد جاء ليُدخل نفسه في فم الذئب، وقد دفع الثمن غالياً. لقد كان قاضياً محترماً جداً في ليما كما يبدو. وهاقد أغرقوه الآن في القذارة وربما يكونون قد قتلوه. لا أحد يعرف أين هو. عسى أن يكون قد رحل خارجاً. لقد صار الكلام عنه تابو في إيكيتوس.

وبالفعل، لا يمكن لقصة ذلك الدكتور كارلوس آ. بالكارثيل المسكين والجريء أن تكون أشد حزناً مما هي عليه. لقد راح روجر يعيد بناء قصته خلال تلك الأسابيع مثلما تُرَكَّب لعبة بزل. فعندما وجد الجرأة لإصدار أمر اعتقال بحق ٢٣٧ شخصاً يُعتقد اقترافهم جرائم، ولجميهم تقريباً ارتباط بشركةالأمازون البيروية، سرت قشعريرة في منطقة الأمازون. وليس في منطقة الأمازون البيروية وحدها، وإنما

الكولومبية والبرازيلية أيضاً. وعلى الفور وجهت ماكينة إمبراطورية خوليو س. آرانا الضربة وبدأت هجومها المعاكس. لم تستطع الشرطة العثور سوى على تسعة من المتهمين المئتين وسبعة وثلاثين. والشخص الوحيد المهم حقاً من التسعة هو أوريليو رودريغيث، أحد رؤساء الأقسام في بوتومايو، والمسؤول عن قائمة كبيرة من عمليات الاختطاف، والاغتصاب، وبتر الأعضاء، والقتل. ولكن المعتقلين التسعة، بمن فيهم رودريغيث، تقدموا إلى محكمة إيكيتوس العليا بطلب تحقيق في قانونية اعتقالهم، فأطلقت المحكمة سراحهم مؤقتاً ريثما يُدرس ملفهم.

- لسوء الحظ - شرح المحافظ الأمر لروجر دون أن يرف له جفن، ومبدياً ملامح الأسى -، لقد استغل أولئك المواطنون الأشرار الحرية المؤقتة الممنوحة لهم وهربوا. ولا تجهل حضرتك أنه سيكون من الصعب العثور عليهم في اتساعات الأمازون الشاسعة إذا ما صادقت المحكمة العليا على الأمر باعتقالهم.

لم تكن المحكمة مستعجلة بأي حال لعمل ذلك. فعندما ذهب روجر كيسمنت لسؤال القضاة متى سينظرون في الملف، أوضحوا له أن ذلك يجري «وفق ترتيب صارم لوصول القضايا». وهنالك عدد كبير من الملفات في الانتظار «قبل الملف المذكور الذي يهم حضرتك». وقد سمح أحد المعاونين في المحكمة لنفسه أن يضيف، بلهجة ساخرة:

- العدالة هنا مضمونة ولكنها بطيئة، ويمكن لهذه الاجراءات أن تستمر لسنوات طويلة أيها السيد القنصل.

كان بابلو ثومايتا، من مخبئة المزعوم، يدير الهجوم القانوني ضد

القاضي كارلوس آ. بالكارثيل، رافعاً ضده، من خلال أشخاص يُسخِّرهم، شكاوى كثيرة بسبب إخلاله بأمانة وظيفته، وتتهمه بالاختلاس، وتدبير شهادات مزيفة وجرائم أخرى عديدة. وذات صباح حضرت إلى مفوضية شرطة إيكيتوس امرأة هندية مع ابنتها ذات السنوات القليلة، يرافقهما مترجم، لتتهم القاضي كارلوس آ. بالكارثيل «بالاعتداء على شرف بنت قاصر». فكان على القاضي أن يقضي شطراً كبيراً من وقته في الدفاع عن نفسه من تلك الافتراءات المفبركة، بتقديم أقواله، والتنقل من مكان إلى آخر، وكتابة عرائض بدل أن ينشغل بالتحقيق الذي جاء من أجله إلى الأدغال. راح العالم كله ينهار فوقه. الفندق الذي كان ينزل فيه، فندق يرويماغواس، طرده. ولم يجد نزلاً أو بنسيوناً في المدينة يتجرأ على إيوائه. فاضطر إلى استئجار غرفة صغيرة في ناناي، وهذا حي في الضواحي تملؤه مكبات القمامة وبرك مياة آسنة، حيث كان يشعر، في الليل، بتراكض الفئران تحت سريره، ويدوس على الصراصير حين ينهض.

راح روجر يعرف ذلك كله في نتف مجزأة، مع تفاصيل يجري التهامس بها هنا وهناك، بينما تقديرة يتعاظم لذلك الحقوقي الذي ودّ لو يتمكن من مصافحته وتهنئته على تصميمه وشجاعته. ما تراه حدث له؟ ما استطاع معرفته بصورة يقينية، وإن تكن كلمة «يقين» ليست متجذرة بعمق كما يبدو في أرض إيكيتوس، هو أن كارلوس آ. بالكارثيل قد اختفى عندما وصل من ليما أمر إعفائه من مهمته. ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان أحد في المدينة معرفة مكان وجوده. أيكونون قد قتلوه؟ إن قصة الصحفي بينجامين سالدانيا روكا تتكرر. فقد كان العداء له عظيماً

إلى حدّ لم يجد معه مفراً من الهرب. وفي لقاء آخر، في بيت مستر ستيرز، قال له رومولو باريديس، مدير جريدة ***الأورينتي***:

ـ أنا نفسي، يا سير روجر، نصحتُ القاضي بالكارثيل أن يطلب نقله قبل أن يقتلوه. وكان قد وصله الكثير من الاشعارات.

أي نوع من الاشعارات؟ استفزازات في المطاعم والبارات التي كان يدخل إليها القاضي بالكارثل ليتناول لقمة أو ليشرب كأس بيرة. وفجأة، يأتي سكير مخمور ويشتمه ويتحداه وهو يكشف له عن سكين. فإذا ذهب القاضي لتقديم شكوى للشرطة أو المحافظ، يجعلونه يملأ ما لا حصر له من الاستمارات، ويقدم وصفاً لأدنى تفاصيل الوقائع، ثم يؤكدون له أنهم «سيحققون في شكواه».

سرعان ما أحس روجر كيسمنت بما لا بد أن يكون القاضي بالكارثل قد شعر به قبل هروبه من إيكيتوس أو تصفيته على يد أحد قتلة آرانا المأجورين. لا شك أنه كان يشعر بأنه يُخدع في كل مكان، ويتحول إلى سخرية مجتمع دمى تحرك خيوطها شركة الأمازون البيروية التي تطيعها إيكيتوس بأسرها وتنصاع لها بعهر دنيء.

فكّر في العودة إلى بوتومايو، على الرغم من رؤيته بوضوح أنه إذا كانت شركة آرانا قد توصلت، هنا في المدينة، إلى التهرب من العقوبات وتجنب الإصلاحات المعلنة، فالأشد وضوحاً أن كل شيء هناك، في محطات المطاط، سيكون مشابهاً أو ربما أسوأ مما كانت عليه الحال من قبل في معاملة السكان الأصليين. فحثه رومولو باريديس ومستر ستيرز والمحافظ أدولفو غامارّا على التخلي عن فكرةالسفر.

ـ لن تخرج حياً من هناك، وموتك لن يفيد في شيء ـ أكد له مدير

جريدة ***الأورينتي*** ـ. ويؤسفني أن أخبرك بهذا يا سيد كيسمنت، ولكنك الشخص الأكثر محطاً للكراهية في بوتومايو. فلا سالدانيا روكا، ولا الغريب هاردينبرغ، ولا القاضي باركارثل مكروهون مثلك. أنا نفسي رجعتُ حياً من بوتومايو بمعجرة. ولكن هذه المعجزة لن تتكرر إذا ما ذهبتَ إلى هناك كي يصلبوك. وإضافة إلى ذلك، هل تعرف؟ سيكون أسخف ما في الأمر أن يجعلوك تموت بسهم مسموم يُطلق من ثيرباتانة هندي من البورا أو الهيتوتو الذين تدافع عنهم. لا تذهب، لا تكن مغفلاً. . . لاتنتحر.

أما المحافظ أدولفو غامارّا، فما كاد يعلم ببدء إعداده للرحلة إلى بوتومايو حتى جاء بحثاً عنه في فندق الأمازون. كان مذعوراً جداً. أخذه لتناول بيرة في بار يعزفزن فيه موسيقى برازيلية. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي شعر فيها روجر بأن المحافظ يكلمه بصراحة.

ـ أتوسل إليك أن تتخلى عن هذا الجنون يا سيد كيسمنت ـ قال له وهو ينظرإلى عينيه ـ. ليس لدي ما أضمن به حمايتك. يؤسفني قول هذا لك، ولكنها الحقيقة. ولا أريد تحمّل جثتك في سجلي خدمتي. سيكون ذلك نهاية حياتي الوظيفية. أقول لك هذا وقلبي في يدي. لن تصل حضرتك إلى بوتومايو. لقد توصلتُ، بكثير من الجهد، إلى أن أضمن ألا يمسك أحد بسوء هنا. وأقسم لك أن الأمر لم يكن سهلاً. اضطررت إلى التوسل والتهديد مع من يأمرون هنا. ولكن سلطتي تتلاشى خارج حدود المدينة. لا تذهب إلى بوتومايو. من أجلك ومن أجلي. لا تدمر مستقبلي، أرجوك بأحب شيء إليك. إنني أكلمك كصديق، حقاً.

ولكن ما جعله يتخلى عن الرحلة أخيراً هي زيارة غير متوقعة ومفاجئة، في منتصف الليل. كان مضطجعاً في الفراش ويوشك أن يصطاد إغفاءة عندما طرق عليه الباب موظف الاستقبال في فندق الأمازون. هنالك سيد ينتظره، ويقول إن الأمر مستعجل جداً. ارتدى ثيابه ونزل ليجد نفسه مع خوان تيثون. لم يكن قد عرف أي شيء عنه منذ الرحلة إلى بوتومايو، حين تعاون هذا الموظف الكبير في شركة الأمازون البيروية مع اللجنة بطريقة مخلصة. لم يكن ولو مجرد شبح للرجل الواثق من نفسه الذي يتذكره روجر. كان يراه هرِماً، مستنفداً، وأكثر من ذلك كله مثبط العزيمة.

ذهبا بحثاً عن مكان هادئ ولكن ذلك كان مستحيلاً، لأن ليل إيكيتوس مترع بالصخب والضجيج، والسكارى، والخلاعة والجنس. فقنعا بالجلوس في الـ «بيم بام»، وهو بار- ماخور حيث اضطرا إلى أن يزيحا عنهما خلاسيتين برازيليتين حاصرتاهما كي يخرجا للرقص معهما. طلبا زجاجتي بيرة.

وبالمزاج الشهم والأساليب المتأنقة التي يتذكرها روجر، تحدث إليه خوان تيثون بطريقة بدت له صريحة بالمطلق.

- لم يتحقق شيء مما عرضت الشركة القيام به، على الرغم من أننا، بعد الطلب المقدم من الرئيس ليغيا، أقَرَّرناه في اجتماع مجلس الإدارة. وعندما قدمت لهم تقريري اتفقوا جميعهم معي، بمن فيهم بابلو ثومايتا وإخوة آرانا وصهره، على أنه لا بد من إجراء تحسينات جذرية في المحطات، من أجل تجنب المشاكل مع العدالة ولأسباب أخلاقية ومسيحية. مجرد كلام. لم يتحقق ولن يتحقق أي شيء.

وأخبره أنه باستثناء إعطاء تعليمات للموظفين في بوتومايو باتخاذ الاحتياطات ومحو آثار أعمال التعسف السابقة ـ إخفاء الجثث، على سبيل المثال ـ، وتسهيل الشركة هروب المتهمين الأساسيين في التقرير الذي أرسلته لندن إلى حكومة البيرو. فنظام جمع المطاط بتسخير الأيدي العاملة من السكان الأصليين مازال كما هو في السابق.

ـ مجرد وصولي إلى إيكيتوس كان كافياً كي الاحظ أن شيئاً لم يتبدل ـ وافقه روجر ـ. وماذا عنك أنت يا دون خوان؟

ـ سأرجع إلى ليما الأسبوع القادم ولا أظن أنني سأعود ثانية إلى هذه الأنحاء. لقد صار وضعي في شركة الأمازون البيروية لا يطاق. وقد فضّلتُ أن أستقيل قبل أن يطردوني. سيشترون أسهمي، ولكن بسعر تافه. وسيكون عليّ في ليما أن أشتغل في أمور أخرى. لستُ متأسفاً، على الرغم من أنني أضعت عشر سنوات من حياتي في العمل لشركة آرانا. إنني أجد نفسي أحسن حالاً، حتى لو اضطررت إلى البدء من الصفر. فبعد ما رأيناه في بوتومايو صرت أشعر في الشركة بأنني قذر ومذنب. تشاورتُ في الأمر مع زوجتي وقد ساندتني.

تبادلا الحديث قرابة الساعة. وقد ألح خوان تيثون أيضاً على أن روجر يجب ألا يعود إلى بوتومايو مهما كان السبب: لأنه لن يتوصل إلى شيء سوى أنهم سيقتلونه، وربما سينكلون به، كما في واحدة من حالات القسوة تلك رآها في جولته على محطات المطاط.

انهمك روجر في إعداد تقرير جديد لوزارة الخارجية. يشرح فيه أنه لم يتم إجراء أي إصلاح ولم تُطبق أي عقوبة على مجرمي شركة الأمازون البيروية. ولا أمل في أن يتحقق شيء في المستقبل.

والمسؤولية عن ذلك تقع على شركة خوليو س. آرانا بقدر ما تقع على الإدارة العامة، وحتى على البلاد بأسرها. فالحكومة البيروية، في إيكيتوس، ليست سوى وكيل لخوليو س. آرانا. وسلطة شركته قوية إلى حدّ أن كافة الهيئات السياسية والشرطية والقضائية تعمل بفعالية من أجل السماح له بمواصلة استغلال السكان الأصليين دون أية مجازفة، لأن كافة الموظفين الحكوميين يتلقون نقوداً من الشركة أو يخشون انتقامها.

وكما لو أن محكمة إيكيتوس العليا أرادت إعطاءه الحق في كلامه. فقد أصدرت فجأة، في تلك الأيام، حكماً بشأن إعادة النظر التي طالب بها المعتقلون التسعة. وكان الحكم عملاً بارعاً في الصفاقة: توقف جميع الإجراءات القانونية طالما لم يتم اعتقال المئتين وسبعة وثلاثين شخصاً الذين تضمهم قائمة القاضي بالكارثل. لأن أي تحقيق مع مجموعة صغيرة من المعتقلين ستكون قاصرة وغير قانونية، هذا ما حكم به القضاة. وهذا يعني أن التسعة المذكورين ظلوا طلقاء بصورة نهائية، وأن القضية ستظل معلقة إلى أن تسلم قوى الشرطة إلى العدالة المئتين وسبعة وثلاثين متهماً، وهو ما لن يحدث أبداً بالطبع.

بعد أيام من ذلك، جرى في إيكيتوس حدث أشد فجاجة، وضع قدرة روجر كيسمنت على الدهشة موضع اختبار. فبينما هو في طريقه من الفندق إلى بيت مستر ستيرز، رأى أناساً متجمعين عند مبنيين يبدوان كأنهما مكاتب حكومية، إذ يظهر على واجهتيهما شعار البيرو وعلمها. ما الذي يحدث؟

ـ هنالك انتخابات بلدية اليوم ـ شرح له مستر ستيرز بصوته الضعيف

الذي يبدو غير قابل للتأثر ـ. وهي انتخابات خاصة جداً. فمن أجل نيل حق التصويت، حسب قانون البيرو الانتخابي، يجب أن يكون المرء مالكاً وأن يعرف القراءة والكتابة. وهذا يقلص عدد الناخبين إلى بضع مئات من الأشخاص. الواقع أن نتيجة الانتخابات تُقَرَّر في مكاتب شركة آرانا. أسماء الناجحين والنسبة المئوية التي يحصلون عليها في التصويت.

ولا بد أن الأمر كذلك، لأنه جرى الاحتفال في تلك الليلة بالذات لحشد صغير في ساحة السلاح مع فرقة موسيقية وتوزيع خمر، وقد راقب روجر من بعيد الاحتفال الذي أقيم لانتخاب عمدة جديد لمدينة إيكيتوس، دون بابلو ثومايتا! صهر خوليو س. آرانا ظهر من «مخبئه» تعويضاً له من شعب إيكيتوس ـ هذا ما قاله في خطاب الشكر الذي ألقاه ـ عن افتراءات المؤامرة الإنكليزية ـ الكولومبية، مصمماً على مواصلة النضال، بلا لين، ضد أعداء البيرو ومن أجل تقدم منطقة الأمازون. وبعد توزيع المشروبات الكحولية، أقيمت حفلة رقص شعبي مع ألعاب نارية وجيتارات وصخب دعائي استمر حتى الفجر. فاختار روجر الانسحاب إلى فندقه كيلا يكون هدفاً للشنق في الشارع.

وصل القنصل جورج ميتشل وزوجته أخيراً إلى إيكيتوس، في سفينة قادمة من ماناوس، يوم الثلاثين من تشرين الثاني ١٩١١. وكان روجر يهيء حقائبه للمغادرة. مجيء القنصل البريطاني الجديد استُبق بمساع محمومة من جانب مستر ستيرز وكيسمنت نفسه من أجل العثور على بيت للزوجين. «لقد فقدت بريطانيا العظمى حظوتها هنا بسببك يا سير روجر»، قال له القنصل النازل، وأضاف: «لا أحد يريد تأجيري

بيتاً للزوجين ميتشل، على الرغم من عرضي سعراً أعلى. فالجميع يخشون إغضاب آرانا، الجميع يرفضون». طلب روجر المساعدة من رومولو باريديس، وحلّ لهما مدير جريدة ***الأورينتي*** المشكلة. فقد استأجر البيت هو نفسه ثم أعاد تأجيره إلى القنصلية البريطانية. وكان بيتاً قديماً وقذراً لا بد من تجديده بسرعة وتأثيثه كيفما اتفق لاستقبال نزلائه الجدد. كانت السيدة ميتشل امرأة صغيرة باسمة وصلبة الإرادة تعرّف إليها روجر عند سلّم السفينة فقط، في المرفأ، يوم وصولها. لم تفقد الحماسة لرؤية حالة منزلها الجديد ولا بسبب المكان الذي تطؤه أول مرة. كانت تبدو عصية على اليأس. فعلى الفور، حتى قبل أن تفتح حقائبها، انكبت على تنظيف كل شيء بهمة وطيب مزاج.

دار حديث طويل بين روجر وصديقه القديم وزميله جورج ميتشل، في صالة بيت مستر ستيرز الصغيرة. أخبره عن الوضع بفيض من التفاصيل دون أن يخفي عنه ولو واحدة من المصاعب التي سيواجهها في منصبه الجديد. بينما كان ميتشل، الأربعيني البدين بعض الشيء والمتيقظ الذي يبدي مثل همة ونشاط زوجته في كل إيماءاته وحركاته، يسجل ملاحظات في دفتر صغير مع وقفات قصيرة لطلب توضيحات. وأخيراً، بدل أن يبدي القنوط أو يشكو من المستقبل الذي ينتظره في إيكيتوس، اكتفى بالقول وهو يبتسم ابتسامة كبيرة: «لقد صرت أعرف ما هي الحال الآن وأنا جاهز للصراع».

خلال الأسبوعين الأخيرين في إيكيتوس سيطر على روجر من جديد، وبصورة لا تُقاوم، شيطان الجنس. لقد كان شديد الحذر في أثناء إقامته السابقة، أما الآن، وعلى الرغم من معرفته بالعداء الذي يكنه

له أناسٌ كثيرون مرتبطون بتجارة المطاط، ويمكن لهم أن ينصبوا له كميناً، لم يتردد في الذهاب إلى حيث يوجد على الدوام نساء ورجال يبحثون عن زبائن. هكذا تعرف على ألسيبياديس رويث، إذا كان هذا هو اسمه حقاً. أخذه إلى فندق الأمازون. لم يبدِ البواب الليلي اعتراضاً بعد أن قدم له روجر اكرامية. وقد رضي ألسيبياديس أن يتخذ له أوضاع تماثيل كلاسيكية يطلبها منه. كما وافق، بعد بعض المساومة، على التعري. ألسيبياديس هجين أبيض، تشولو، وقد سجل روجر في يومياته أن هذا الاختلاط العرقي يُنتج ذكوراً بالغي الجمال، حتى إنهم يتفوقون في جمالهم على «الكابولك» في البرازيل، وهم رجال لهم ملامح إكزوتيكية خفيفة تختلط فيها نعومة وعذوبة السكان الأصليين والخشونة الرجولية للمتحدرين من إسبان. تبادل هو وأليسيبياديس القبلات وتلامسا ولكنهما لم يمارسا الحب، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي، حين رجع الشاب إلى فندق الأمازون. كان الوقت صباحاً، وقد تمكن روجر من تصويره عارياً في أوضاع عديدة. وعندما غادر، كتب روجر في يومياته: «أليسيبياديس رويث. ***تشولو***. حركات راقص. صغير وطويل ينحني كقوس عند الانتصاب. دخل فيّ كدخول يد في قفاز».

في تلك الأيام تعرض مدير جريدة ***الأورينتي***، رومولو باريديس لاعتداء في الشارع. فلدى خروجه من مطبعة جريدته انقض عليه ثلاثة أشخاص زعران تفوح منهم رائحة كحول كريهة. وكانوا سيقتلونه ضرباً، حسب ما قال هو نفسه لروجر حين ذهب إليه في الفندق بعد الحادث مباشرة، لو لم يكن مسلحاً وتمكن من إخافة المعتدين الثلاثة بإطلاق النار في الهواء. وقد أحضر معه حقيبة. كان دون رومولو مضطرباً بسبب ما حدث، حتى إنه لم يوافق على الخروج إلى الشارع

ليتناولا كأساً مثلما اقترح روجر. ولم تكن هنالك حدود لسخطه وغضبه من شركة الأمازون البيروية:

ـ لقد كنتُ على الدوام متعاوناً وفياً مع شركة آرانا وأرضيتهم في كل ما أرادوه ـ قال شاكياً. كانا يجلسان على زاويتي السرير ويتكلمان في ما يشبه الظلمة، لأن مصباح الفتيل يكاد لا يضيء سوى ركن من الحجرة ـ سواء وأنا قاضٍ أم بعد أن أصدرتُ جريدة ***الأورينتي***. لم أعترض على طلباتهم قط، بالرغم من أنها كثيراً ما كانت مقرفة لضميري. ولكنني رجل واقعي أيها السيد القنصل، أعرف المعارك التي لا يمكن كسبها. وتلك المهمة بالذهاب إلى بوتومايو بتكليف من القاضي بالكارثل، لم أكن راغباً في توليها قطّ. فمنذ اللحظة الأولى عرفتُ أنني سأدخل في مشاكل. هم من أجبروني. بابلو ثومايتا هو من طالبني بذلك. قمتُ بتلك الرحلة تنفيذاً لأوامره وحسب. وقبل أن أسلّم تقريري إلى المحافظ، أعطيه للسيد ثومايتا كي يقرأه. وأعاده إليّ دون تعليقات. ألا يعني هذا أنه موافق عليه؟ عندئذ فقط سلّمته للمحافظ. والنتيجة أنهم أعلنوا عليّ الحرب الآن ويريدون قتلي. هذا الهجوم هو إنذار كي أغادر إيكيتوس. إلى أين؟ لدي زوجة وخمسة أبناء وخادمتان يا سيد كيسمنت. أرأيت جحوداً مثل جحود هذه الجماعة؟ أنصحك أنت أيضاً بأن ترحل بأسرع ما يمكن. حياتك في خطر يا سير روجر. لم يحدث لك شيء حتى الآن، لأنهم يفكرون في أن قتلهم إنكليزياً، وهو دبلوماسي فوق ذلك، سيتسبب في مشكلة دولية. ولكن لا تطمئن. فهذه الوساوس قد تتلاشى لدى أي سكير مخمور. اعمل بنصيحتي وغادر يا صديقي.

ـ أنا لست إنكليزياً، وإنما أيرلندي ـ صحح له روجر بعذوبة.

سلّمه رومولو الحقيبة التي جاء بها معه.

ـ لديك هنا كافة الوثائق التي جمعتها في بوتومايو والتي اعتمدت عليها في تقريري. لقد أحسنتُ صنعاً بعدم تسليمها إلى المحافظ أدولفو غامارّا. كان سيحدث الشيء نفسه الذي حدث للتقرير: تأكله العثة في مقر محافظة إيكيتوس. خذها، أنا أعرف أنك ستستخدمها على أحسن وجه. ويؤسفني أن أجعلك تحمل حزمة أخرى مثل هذه مع أمتعتك.

غادر روجر بعد أربعة أيام، بعد أن ودّع عمرينو وأريدوفي. وكان مستر ستيرز قد أدخلهما للعمل في ورشة نجارة ناناي، ففضلاً عن عملهما كخادمين لصاحب الورشة، وهو بوليفي، سيكونان متدربين في الورشة. وفي المرفأ، حيث ذهب ستيرز وميتشيل لوداعه، علم روجر أن حجم المطاط المصدر خلال الشهرين الأخيرين قد فاق كمية الفترة نفسها من العام السابق. أي دليل أفضل من هذا على أن شيئاً لم يتغير، وأن هنود الهيتوتو والبورا والاندوكي وغيرهم من السكان الأصليين مازالوا يُعتصرون دون رحمة؟

خلال أيام الرحلة الخمسة حتى ماناوس لم يكد يغادر قمرته. كان يجلس محبط المعنويات، مريضاً ومشمئزاً من نفسه. يكاد لا يأكل، ولا يخرج إلى سطح السفينة إلا عندما يصبح الحر في القمرة الضيقة غير محتمل. ومع التقدم نزولاً في الأمازون واتساع مجرى النهر وغياب ضفتيه عن النظر، كان يفكر في أنه لن يعود أبداً إلى هذه الأدغال. ففي تناقض ذلك المشهد المهيب ـ لقد فكر في ذلك مرات كثيرة في أفريقيا، بينما هو يبحر في نهر الكونغو ـ، حيث أسراب البجع الوردي

والببغاوات الزاعقة التي تحلق أحياناً فوق السفينة، وأثر أفواج الأسماك الصغيرة التي تلحق المركب متقافزة، وتتراقص كما لو أنها تريد لفت أنظار المسافرين، يعشش العذاب الدواري الذي يسببه في أعماق الأدغال طمعُ تلك الكائنات الجشعة والدموية التي عرفها في بوتومايو. إنه يتذكر وجه خوليو س. آريا الهادئ في ذلك الاجتماع، في لندن، لمجلس إدارة شركة الأمازون البيروية. وعاد يقسم إنه سيناضل حتى آخر قطرة طاقةٍ تبقى في جسده من أجل إنزال عقوبة بذلك الرجل الضئيل المتأنق الذي أدار آليةَ سحق كائنات بشرية بالجملة من أجل إشباع نهمه إلى الثروات. من الذي يتجرأ الآن على القول إن خوليو س. آرانا لم يكن يعلم بما يحدث في بوتومايو؟ لقد أقام استعراضاً كي يخدع العالم بأسره ـ الحكومتان البيروية والبريطانية قبل الجميع ـ، بهدف مواصلة استخراج المطاط من تلك الأدغال التي يجري انتهاكها كما السكان الأصليون الذين يسكنونها.

في ماناوس التي وصلها في منتصف كانون الأول، أحس أنه أحسن حالاً. وبينما هو ينتظر خروج سفينة متوجهة إلى باربادوس استطاع العمل معتكفاً في غرفته في الفندق، مضيفاً تعليقات ووقائع محددة بدقة إلى تقريره. أمضى مساء أحد الأيام مع القنصل الأنكليزي الذي أكد له أن السلطات البرازيلية، وعلى الرغم من مطالباته، لم تفعل شيئاً فعلياً لإلقاء القبض على مونت وأغويرو، أو على الهاربين الآخرين. وهنالك إشاعات في كل مكان عن أن عدداً من رؤساء المحطات السابقين في شركة خوليو س. آرانا في بوتومايو يعملون الآن في مدّ سكة حديد ماديرا ـ ماموري.

خلال الأسبوع الذي أمضاه في ماناوس، عاش روجر حياة إسبارطية، دون خروج في الليل بحثاً عن مغامرات. كان يقوم بنزهات على ضفة النهر وفي شوارع المدينة، وعندما لا يعمل، يقضي ساعات طويلة في قراءة كتب حول تاريخ أيرلندا القديم أوصته بها إليس ستوبفورد غرين. فالاهتمام بشؤون بلده سيساعده على أن ينتزع من رأسه صور بوتومايو ومكايد وأكاذيب وانتهاكات ذلك الفساد السياسي الشامل الذي رآه في إيكيتوس. ولكن لم يكن من السهل عليه التعرف إلى نفسه في الشؤون الأيرلندية، لأنه يتذكر في كل لحظة أنه لم يُنه مهمته بعد، وسيكون عليه الوصول بها، في لندن، إلى منتهاها.

أبحر في يوم السابع والعشرين من كانون الأول باتجاه بارا، حيث وجد أخيراً وسيلة اتصال بوزارة الخارجية البريطانية. لقد تلقت الخارجية برقياته التي أرسلها من إيكيتوس وهي على اطلاع على أنه لم يتحقق أي شيء بشأن التجاوزات في بوتومايو، على الرغم من وعود الحكومة البيروية، اللهم إلا السماح بهروب المتهمين.

أبحر عشية عيد الميلاد باتجاه باربادوس في ***دينيس***، وهي سفينة مريحة لم يكن فيها سوى حفنة صغيرة من المسافرين. فقام برحلة مريحة حتى بريدجتاون. وهناك وجد أن الخارجية البريطانية قد حجزت له تذكرة سفر في السفينة ***س. س ترينس*** إلى نيويورك. فالسلطات البريطانية قررت العمل بقوة ضد الشركة البريطانية المسؤولة عما يجري في بوتومايو، وتريد من الولايات المتحدة أن تنضم إلى مساعيها وأن تحتجا معاً لدى حكومة البيرو على سوء نواياها في الاستجابة لمطالب المجتمع الدولي.

وفي عاصمة باربادوس، بينما هو ينتظر خروج السفينة، عاش روجر حياة تعفف كما في ماناوس: لم يقم بأية زيارة إلى الحمامات العامة، ولا أي خروج ليلي متخف. فقد دخل مرة أخرى بواحدة من فترات الانقطاع عن الجنس تلك التي تمتد، أحياناً، لشهور طويلة. وهي فترات يمتلئ بها رأسه، بصورة عامة، بهموم دينية. ففي بريدجتاون واظب يومياً على زيارة الأب سميث. وأجرى معه أحاديث مطولة حول العهد الجديد الذي اعتاد أن يحمله معه في أسفاره. يقرؤه أحياناً، أو يتناوب معه قراءة الشعراء الأيرلنديين، وبخاصة وليم بتلر ييتس الذي حفظ بعض قصائده عن ظهر قلب. وحضر قداساً في دير الأورسولينات وشعر، مثلما حدث له من قبل، برغبة في تناول خبز القربان. قال ذلك للأب سميث، فذكّره هذا باسماً بأنه ليس كاثوليكياً وإنما هو ينتمي إلى الكنيسة الأنجليكانية. وإذا كان يرغب في التحول فإنه يعرض عليه مساعدته في أن يخطو خطواته الأولى. أحس روجر بإغراء فعل ذلك، ولكنه ندم حين فكر في مناحي الضعف والخطايا التي سيكون عليه أن يعترف بها لهذا الصديق الطيب الذي هو الأب سميث.

في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول انطلق في السفينة ***س س تيرنس*** باتجاه نيويورك ومن هناك، على الفور، ودون أن تتاح له فرصة للإعجاب بناطحات السحاب، ركب القطار إلى العاصمة واشنطن. فقد فاجأه السفير البريطاني جيمس بريس بإخباره أن رئيس الولايات المتحدة وليم هاورد تافت قد حدد له موعد اجتماع. فالرئيس ومساعدوه يريدون أن يعرفوا، من فم السير روجر الذي يعرف شخصياً ما يحدث في بوتومايو وهو رجل محل ثقة الحكومة البريطانية، حقيقة الوضع في محطات المطاط، وما إذا كانت الحملة التي تقوم بها في

الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكنائس متعددة، ومنظمات إنسانية، وصحف ومطبوعات ليبرالية هي أمور صحيحة أم مجرد ديماغوجيا ومبالغات مثلما تؤكد شركات المطاط والحكومة البيروية.

استُضيف في مقر إقامة السفير البريطاني بريس، وعُومل معاملة ملك، ودُعي بلقب سير روجر في كل مكان. ذهب كيسمنت إلى حلاق ليقص شعره ويشذب لحيته وأظفاره. وجدّد ملابسه من محلات الأناقة في واشنطن العاصمة. لقد فكر في تناقضات حياته مرات كثيرة في تلك الأيام. فمنذ أقل من أسبوعين كان مجرد شيطان بائس مهدد بالموت في فندق تافه بإيكيتوس، في حين أنه الآن، هو الأيرلندي الحالم باستقلال أيرلندا، يجسد موظفاً مبعوثاً من التاج البريطاني ليقنع رئيس الولايات المتحدة بأن تساعد الإمبراطورية في مطالبة حكومة البيرو بوضع حدّ لعار الأمازون. أليست الحياة شيئاً سخيفاً، وتمثيلاً درامياً يتحول فجأة إلى مهزلة؟

الأيام الثلاثة التي أمضاها في واشنطن العاصمة كانت دواراً متواصلاً: جلسات عمل يومية مع موظفين من الخارجية الأمريكية ومقابلة شخصية مطولة مع وزير العلاقات الخارجية. وفي اليوم الثالث استقبله في البيت الأبيض الرئيس تافت يرافقه عدد من المعاونين ووزير الخارجية. وقبل لحظات من بدء عرضه للوضع في بوتومايو، غرق روجر في حلم: إنه هناك ليس كممثل دبلوماسي للتاج البريطاني، وإنما كمبعوث خاص من جمهورية أيرلندا حديثة التأسيس. وأنه مُرسل من الحكومة الأيرلندية المؤقتة للدفاع عن المسوغات التي قادت الأغلبية العظمى من الأيرلنديين، في فعل استفتائي، إلى قطع روابطهم مع

بريطانيا العظمى والمطالبة باستقلالهم. وأيرلندا الجديدة تريد إقامة علاقات صداقة وتعاون مع الولايات المتحدة ومشاطرتها الانتماء إلى الديمقراطية، وهي البلاد التي تعيش فيها جالية كبيرة من أصول أيرلندية.

أنجز روجر كيسمنت واجباته بطريقة لا تشوبها شائبة. فاللقاء الذي يجب أن يستمر نصف ساعة، استمر ثلاثة أضعاف هذا الوقت، ذلك أن الرئيس تافت نفسه، وقد استمع باهتمام كبير إلى تقريره حول وضع السكان الأصليين في بوتومايو، أخضعه لاستجواب دقيق وطلب منه رأيه حول أفضل طريقة لإجبار حكومة البيرو على وضع حدّ للجرائم في محطات المطاط. فكان اقتراح روجر بأن تفتح الولايات المتحدة لها قنصلية في إيكيتوس تعمل، إلى جانب القنصلية البريطانية، على التنديد بأعمال التعسف، وقوبل الاقتراح برضا من الرئيس. وسترسل الولايات المتحدة، بالفعل، بعد أسابيع، دبلوماسياً ذا خبرة، هو ستورت ج. فولير، كقنصل في إيكيتوس.

أقوى من الكلمات التي سمعها، كانت مفاجأة وغضب الرئيس تافت ومعاونيه عند سماعهم روايته، مما أقنع روجر بأن الولايات المتحدة ستتعاون منذ الآن بطريقة حاسمة مع إنكلترا في التنديد بوضع سكان الأمازون الأصليين.

عند عودته إلى لندن، وبالرغم من حالته البدنية التي تبدو سيئة على الدوام بسبب الإجهاد والتوعكات القديمة، انهمك جسداً وروحاً في إكمال تقريره الجديد لوزارة الخارجية البريطانية، مثبتاً أن السلطات البيروية لم تقم بالإصلاحات التي وعدت بها، وأن شركة الأمازون

البيروية قد جمدت كافة المبادرات، وجعلت حياة القاضي كارلوس آ. بالكارثل مستحيلة، واحتجزت في مقر المحافظة تقرير دون رومولو باريديس الذي حاولوا قتله لأنه وصف بحيادية ما شهده خلال أربعة شهور (من ١٥ آذار حتى ١٥ تموز) أمضاها في محطات المطاط التابعة لآرانا. بدأ روجر يترجم إلى الإنكليزية مقاطع من الشهادات، والمقابلات، والوثائق المختلفة التي سلّمه إياها مدير جريدة ***الاورينتي*** في إيكيتوس. وسوف تُغني هذه المادة تقريره بصورة معتبرة.

كان يقوم بهذا العمل في الليل، لأن نهاراته مشغولة بالاجتماعات في وزارة الخارجية، حيث يتوالى عليه الطلب، من الوزير وحتى لجان متعددة، للحصول على معلومات، ونصائح واقتراحات حول الأفكار التي تتداولها الحكومة البريطانية للتصرف. فالفظائع التي تقترفها شركة بريطانية في الأمازون كانت هدفاً لحملة نشطة بدأتها جمعية مناهضة العبودية ومجلة ***الحقيقة***، وصارت تساندها الآن الصحافة الليبرالية والكثير من المنظمات الدينية والإنسانية.

كان روجر يلح على نشر ***التقرير حول بوتومايو*** فوراً. لأنه فقد الأمل في فائدة الدبلوماسية الهادئة الي انتهجتها الحكومة البريطانية مع الرئيس ليغيا. وعلى الرغم من مقاومة بعض قطاعات الإدارة، وافق السير إدوارد غري أخيراً على وجهة النظر هذه وصادقت الحكومة على النشر. وسيكون عنوان التقرير *Blue Book* (الكتاب الأزرق). أمضى روجر عدة ليالٍ ساهراً، يدخن دون توقف ويتناول ما لا حصر له من فناجين القهوة، ويراجع الصياغة الأخيرة كلمة كلمة.

وفي اليوم الذي ذهب فيه النص النهائي، أخيراً، إلى المطبعة، كان

يشعر بأنه في حالة بالغة السوء إلى حدّ خشي معه أن يحدث له شيء وهو وحيد، فذهب ليلوذ ببيت صديقته إليس ستوبفورد غرين. «إنكَ تبدو أشبه بهيكل عظمي»، قالت له المؤرخة وهي تمسك به من ذراعه وتقوده إلى الصالة. كان روجر يجرجر قدميه ويشعر، وهو ذاهل، أنه قد يفقد الوعي في أي لحظة. وكان ظهره يؤلمه مما جعل إليس تضع له عدة وسائد كي يتمكن من الاستلقاء على الصوفا. وعلى الفور غفا أو أغمي عليه. وحين فتح عينيه، رأى أخته نينا وإليس جالستين إلى جانبه، متلاصقتين وباسمتين.

ـ ظننا أنك لن تستيقظ أبداً ـ سمع إحداهما تقول له.

كان قد نام قرابة أربع وعشرين ساعة. وقد استدعت إليس طبيب الأسرة وكان التشخيص التقني أن روجر مستنفد القوى، ويجب تركه نائماً. لا يتذكر أنه حلم بشيء. وعندما حاول النهوض، التوت ساقاه وانهار من جديد على الصوفا. وفكر: «لم تقتلني الكونغو ولكن الأمازون ستقتلني».

وبعد أن تناول وجبة خفيفة، تمكن من النهوض وحملته سيارة إلى شقته في فيلبيتش جاردن. أخذ حماماً طويلاً أعاد إليه بعض صفاء الذهن. ولكنه كان يشعر بوهن شديد اضطر معه إلى العودة للنوم.

أجبرته وزارة الخارجية على أخذ إجازة لعشرة أيام. ولكنه أصر على عدم مغادرة لندن قبل ظهور ***الكتاب الأزرق***، غير أنه وافق أخيراً على السفر. وبرفقة أخته نينا التي طلبت إذناً من المدرسة حيث تُعلّم، أمضيا أسبوعاً في كورنويل. كان إنهاكه شديداً إلى حدّ يكاد لا يستطيع معه التركيز في القراءة. كان ذهنه يتشتت في صور مفككة. وبفضل

الحياة الهادئة والنظام الغذائي الصحي راح يسترد قواه. تمكن من القيام بمسيرات طويلة في البرية مستفيداً من بعض الأيام الدافئة. لا يمكن أن يكون هناك مكان أشد اختلافاً وتَحَضُّر مشهداً من كورنويل بالمقارنة مع الأمازون. ومع ذلك، وعلى الرغم من الرفاه والهدوء اللذين يشعر بهما، ورؤيته روتين المزارعين، ورعي الأبقار الراضية، وصهيل الخيول في الاسطبلات، دون تهديد من الضواري أو الأفاعي أو البعوض، إلا أنه وجد نفسه يفكر ذات يوم في أن هذه الطبيعة التي تشي بقرون من العمل الزراعي في خدمة الإنسان، والمأهولة والمتحضرة، قد فقدت شرطها كعالم طبيعي ـ أو روحها، كما يمكن للحلوليين أن يقولوا ـ بالمقارنة مع تلك الأرضي الأمازونية الوحشية، الهائجة، الجامحة، غير المروضة، حيث يبدو كما لو أن كل شيء آخذ بالولادة والموت، عالم غير مستقر، مجازف، مزعزع، يشعر المرء فيه بأنه مُنتزع من الحاضر ومرمياً نحو ماضٍ بعيد، وعلى اتصال مع الأسلاف، في عودة إلى فجر الحدث البشري. وفوجئ بأنه يتذكر ذلك المكان بحنين على الرغم من الفظائع التي يخبئها.

خرج ***الكتاب الأزرق*** حول بوتومايو مطبوعاً في تموز ١٩١٢. وأحدث منذ اليوم هزة، مركزها لندن، راحت تتوسع دائرياً في أوروبا كلها، والولايات المتحدة ومناطق كثيرة أخرى من العالم، ولاسيما كولومبيا والبرازيل والبيرو. كرست له جريدة ***التايمز*** عدة صفحات وافتتاحية في الوقت الذي رفعت فيه روجر كيسمنت إلى السحاب، قائلة إنه أظهر مرة أخرى مواصفاته الاستثنائية كـ «إنساني عظيم»، طالبت بأعمال فورية ضد الشركة البريطانية ومساهميها الذين ينتفعون مادياً من الصناعة التي تمارس العبودية والتعذيب وتبيد شعوب السكان الأصليين.

ولكن أكثر مديح أثر في روجر هو المقال الذي كتبه صديقه وحليفه في الحملة ضد ملك البلجيكيين ليوبولد الثاني، الصحفي إدموند د. موريل، في جريدة ***الديلي نيوز***. ففي تعليقه على ***الكتاب الأزرق***، قال عن روجر كيسمنت «لم تُرَ قطُّ جاذبية في كائن بشري مثلما هي فيه». غير أن روجر الحساس دوماً للاستعراضية العامة، لم يستمتع قطّ بتلك الموجة الجديدة من الشعبية. بل كان يشعر بعدم الراحة ويحاول تجنبها. ولكن ذلك كان صعباً لأن الضجة التي أثارها ***الكتاب الأزرق*** جعلت عشرات المطبوعات الإنكليزية والأوروبية والأمريكية راغبة في مقابلته. تلقى دعوات لإلقاء محاضرات في هيئات أكاديمية، ومنتديات سياسية، ومراكز دينية وخيرية. وأقيم قداس خاص في ويسمنستر آبي حول الموضوع، وألقى الكاهن القانوني هربرت هينسون موعظة هاجم فيها بقسوة المساهمين في شركة الأمازون البيروية لأنهم يتربحون من ممارسة العبودية والقتل وبتر الأعضاء.

القائم بأعمال بريطانيا العظمى في البيرو، ديس غراز، أرسل أخباراً حول الضجة التي أحدثتها في ليما اتهامات ***الكتاب الأزرق*** للحكومة البيروية، وخشيتها من حصار اقتصادي تفرضه عليها البلدان الغربية، فأعلنت عن وضع فوري للاصلاحات موضع التنفيذ وأرسلت قوات عسكرية وشرطية إلى بوتومايو. ولكن ديس غراز يضيف أنه من المحتمل ألا يكون الإعلان فعالاً في هذه المرة أيضاً، لأن هناك قطاعات حكومية تنظر إلى الوقائع الواردة في ***الكتاب الأزرق*** على أنها مؤامرة من الإمبراطورية البريطانية تأييداً للمزاعم الكولومبية بشأن بوتومايو.

أجواء التعاطف والتضامن مع سكان الأمازون الأصليين التي أيقظها ***الكتاب الأزرق*** في الرأي العام أتاحت لمشروع فتح بعثة كاثوليكية في بوتومايو تلقي الكثير من المساعدات المادية. وضعت الكنيسة الأنجليكانية بعض الاعتراضات، ولكنها انتهت إلى الاقتناع بحجج روجر بعد ما لا حصر له من اللقاءات والمواعيد والرسائل والحوارات. فبما أن الأمر يتعلق ببلد تتجذر فيه الكنيسة الكاثوليكية بعمق، فإن بعثة بروتستانتية ستوقظ شكوكاً وستتولى شركة الأمازون البيروية التشهير بها بتقديمها كرأس حربة لشهوات التاج البريطاني الاستعمارية.

عقد روجر في أيرلندا وإنكلترا اجتماعات مع كهنة جزويت وفرنسيسكان، وهما مذهبان كان يشعر بالتعاطف معهما على الدوام. فقد قرأ، مذ كان في المدرسة، عن الجهود التي بذلتها في الماضي فرقة يسوع في الباراغواي والبرازيل لتنظيم السكان الأصليين وتعليمهم الديانة المسيحية وتجميعهم في قرى بحيث يمكنهم، في الوقت الذي يحافظون فيه على تقاليدهم في العمل المشترك، أن يمارسوا حياة مسيحية أولية، مما رفع مستوى حياتهم وخلّصهم من الاستغلال والإبادة. ولهذا السبب دمرت البرتغال بعثات الجزويت التبشيرية ودست الدسائس حتى أقنعت إسبانيا والفاتيكان بأن فرقة يسوع قد تحولت إلى دولةداخل الدولة وصارت تشكل خطراً على السلطة البابوية وسيادة الإمبراطورية الإسبانية. ومع ذلك، فإن الجزويت لم يتلقوا مشروع إنشاء بعثة في الأمازون بحرارة كبيرة. أما الفرنسيسكان فتبنوها بحماسة.

هكذا تعرف روجر كيسمنت على العمل الذي كان يقوم به في أشد أحياء دبلن فقراً الكهنةُ العمال الفرنسيسكان. كانوا يشتغلون في المعامل

والورش ويعيشون حياة الضيق والحرمان نفسها التي يعيشها العمال. وبتبادله الحديث معهم ورؤيته الورع الذي يتولون فيه مهمتهم الدينية في الوقت الذي يشاطرون فيه البؤساء مصيرهم، فكر روجر في أنه ليس هنالك من هو مهيأ خيراً من أولئك المتدينين للتحدي الذي يعنيه إنشاء بعثة في محطتي لاتشوريرا وإنكنتو.

وحين ذهب روجر مبتهجاً إلى إليس ستوبفورد غرين ليحتفل معها بسفر أول أربعة كهنة فرنسيسكان إلى منطقة الأمازون البيروية، سألته إليس:

- هل أنتَ متأكد يا روجر من أنك مازلتَ عضواً في الكنيسة الأنجليكانية؟ لأنك آخذ، ربما دون أن تنتبه، في المضي دون رجعة على طريق التحول إلى بابوي.

بين المشاركين المعهودين في سهرات حوار إليس، في حجرة المكتبة العامرة ببيتها في شارع غروسفنور رود، كان هناك قوميون أيرلنديون من الأنجليكانيين، والبروتستانت المشيخيين والكاثوليك. ولم يلحظ روجر وجود تصادمات أوخلافات بينهم قطّ. وبعد تلك الملاحظة من إليس، تساءل مرات عديدة في تلك الأيام عما إذا كان تقربه من الكاثوليكية هو محض قابلية روحية ودينية أم أنه سياسي، وطريقة لالتزام أكبر بالخيار القومي لأن الغالبية العظمى من الاستقلاليين الأيرلنديين هم كاثوليك.

كي يهرب بطريقة ما من الملاحقة التي صار هدفاً لها باعتباره مؤلف *الكتاب الأزرق*، طلب إذناً لبضعة أيام أخرى من الوزارة وذهب إلى ألمانيا. وقد خلّفت برلين انطباعاً استثنائياً في نفسه. بدت له ألمانيا

تحت حكم القيصر نموذجاً للحداثة، والتطور الاقتصادي، والنظام والفعالية. وعلى الرغم من قِصر تلك الزيارة، إلا أنها كانت مفيدة في بلورة فكرة تجول في رأسه منذ بعض الوقت، وتحوّلها منذ ذلك الحين أحد أركان فعله السياسي. فمن أجل أن تنال أيرلندا استقلالها، لا يمكنها الاعتماد على تفهم الإمبراطورية البريطانية، ناهيك عن عطفها. ويؤكد ذلك ما جرى في تلك الأيام. فمجرد احتمال أن البرلمان الإنكليزي سيناقش مجدداً مشروع قانون منح أيرلندا الحكم الذاتي، وهو ما يعتبره روجر وأصدقاؤه الراديكاليون تنازلاً شكلياً غير كافٍ، أثار في إنكلترا رفضاً وطنياً وغاضباً ليس بين المحافظين وحدهم، وإنما كذلك في قطاعات ليبرالية وتقدمية واسعة، بما في ذلك نقابات عمالية وجمعيات حرفية. وفي أيرلندا، عبأ احتمال أن يكون للجزيرة حكم إداري ذاتي وبرلمان خاص دعاةَ الوحدة في ألتسر بطريقة متأججة. فأقيمت مهرجانات خطابية، وراح يتشكل جيش المتطوعين، وبدأ جمع تبرعات عامة لشراء أسلحة، ووقّع عشرات آلاف الأشخاص بياناً بأن الأيرلنديين الشماليين يعلنون أنهم لن يوافقوا على الحكم الذاتي إذا نجح التصويت عليه وأنهم سيدافعون بأسلحتهم وحيواتهم عن بقاء أيرلندا ضمن الإمبراطورية. في تلك الظروف، فكر روجر في أنه على دعاة الاستقلال أن يسعوا إلى نيل تضامن ألمانيا معهم. فأعداء أعدائنا هم أصدقاء لنا وألمانيا هي الخصم التقليدي لإنكلترا. وفي حالة الحرب، سيَفتح إلحاقُ هزيمة عسكرية ببريطانيا العظمى الاحتمالَ الوحيد لتحرر أيرلندا. وقد كرر روجر مرات كثيرة، في تلك الأيام، المثل القومي القديم: «نكبات إنكلترا هي سعادة لأيرلندا».

وبينما هو يصل إلى هذه النتائج السياسية التي لا يتداولها إلا مع

أصدقائه القوميين خلال رحلاته إلى أيرلندا، أو في لندن، في بيت إليس ستوبفورد غرين، كانت إنكلترا هي من تبدي العطف والتقدير لما فعله. وقد أثار تذكّره ذلك الاستياء في نفسه.

في أثناء ذلك الوقت كله، وعلى الرغم من الجهود اليائسة التي بذلتها شركة الأمازون البيروية من أجل تجنب المصير المحتوم، كان يتأكد مع كل يوم يمر، وبجلاء أكبر فأكبر، أن مصير خوليو س. آرانا مُهَدَّد. وتفاقم فقدانه السمعة بعد فضيحة جرت عند ذهاب هوراس توروغود، الصحفي في جريدة *ذي مورننغ ليدر*، إلى مكاتب الشركة المركزية في **الستي** ليحاول مقابلة المديرين، فتلقى من واحد منهم، هو السيد آبيل لاركو، صهر خوليو س.آرانا، مغلفاً فيه مبلغ من المال. سأله الصحفي عما يعنيه ذلك. فأجابه لاركو بأن الشركة تبدي الكرم على الدوام مع أصدقائها. أعاد الصحفي الغاضب النقود التي أرادوا رشوته بها، وندد في جريدته بما جرى، فاضطرت شركة الأمازون البيروية إلى طلب الاعتذار علناً، قائلة إن سوء فهم قد وقع، وإن المسؤولين عن محاولة الرشوة سيُفصلون.

بدأت أسهم شركة خوليو س. آرانا بالهبوط في بورصة لندن. وإن كان السبب جزئياً هو المنافسة التي واجهت المطاط الأمازوني من شركات تصدير مطاط جديدة من المستعمرات البريطانية في آسيا ـ سنغافورة وماليزيا وجاوا وسومطرة وسيلان ـ، بعد أن زُرعت شتول جيء بها من الأمازون في عملية تهريب جريئة نفذها العالم والمغامر الإنكليزي هنري ألكسندر ويكشام، وكان الضربة القاصمة التي أدت إلى انهيار شركة الأمازون البيروية هي الصورة الخبيثة التي اكتسبتها أمام

الرأي العام والأوساط المالية على إثر نشر *الكتاب الأزرق*. فأوقفت اللويدز اعتمادها. وانتهجت النهج نفسه مصارف كثيرة أخرى في أوروبا والولايات المتحدة. كما أن مقاطعة مطاط شركة الأمازون البيروية الذي دعت إليه جمعية مناهضة العبودية ومنظمات أخرى حرم الشركة من زبائن وشركاء كثيرين.

الوخزة الأخيرة ضد إمبراطورية خوليو س. آرانا جاءت بتشكيل لجنة خاصة في مجلس العموم، يوم ١٤ آذار ١٩١٢، للتحقيق في مسؤولية شركة الأمازون البيروية عن الفظائع المقترفة في بوتومايو. تألفت اللجنة من خمسة عشر عضواً برئاسة برلماني مشهور هو تشارلز روبرتس، وتواصلت جلساتها خمسة عشر شهراً. عقدتْ خلالها ستاً وثلاثين جلسة، واستجوبتْ سبعة وعشرين شاهداً في اجتماعات عامة تغص بصحفيين، وسياسيين، وأعضاء جمعيات علمانية ودينية، منها جمعية مناهضة العبودية ورئيسها الوزير جون هاريس. وكتبت صحف ومجلات بإفاضة عن تلك الاجتماعات، وكانت هنالك وفرة من المقالات، ورسوم الكاريكاتير، والإشاعات والتقولات التي تُبَهِرُها.

وكان الشاهد المنتظر بتلهف والذي اجتذب حضوره مزيداً من الجمهور هو السير روجر كيسمنت. مثل أمام اللجنة يومي ١٣ تشرين الثاني و١١ كانون الأول. ووصف بدقة وبساطة ما رآه بأم عينه في محطات المطاط: أقفاص التعذيب، أداة التعذيب الموجودة في كافة المعسكرات، والظهور التي تحمل آثار الجلد، والسياط وبنادق الونشتر التي يحملها رؤساء العمال في المحطات و«الشباب» أو «العقلاء» المكلفون بالحفاظ على النظام ومهاجمة القبائل في «غزوات»، ونظام

العبودية السائد، والاستغلال المفرط والمجاعة اللذان يخضع لهما السكان الأصليون. ولخص بعد ذلك شهادات الباربادوسيين، وأشار إلى أن صحتها مضمونة بواقع اعتراف معظمهم بأنهم نفذوا بأنفسهم أعمال تعذيب وقتل. وشرح كذلك النظام الميكافيلي السائد: رؤساء الأقسام لا يتلقون رواتب وإنما عمولة من المطاط المجموع، مما يدفعهم إلى المطالبة بمزيد ومزيد من جامعي المطاط من أجل زيادة الأرباح.

وأثناء مثوله الثاني أمام اللجنة، قدَّم روجر مشهداً استعراضياً. فأمام عيون البرلمانيين المتفاجئين، راح يُخرج من كيس كبير يحمله حاجبان، أشياء اشتراها من متاجر شركةالأمازون البيروية في بوتومايو. وأثبت كيف كان يجري سلب العاملين الهنود الذين تعمد الشركة، من أجل إبقائهم مدينين، إلى بيعهم، وبأسعار أعلى عدة مرات مما هي عليه في لندن، أدوات عمل ولوازم الحياة المنزلية أو ترهات زينة. عرض بندقية صيد قديمة بسبطانة واحدة سعرها في لاتشوريريا ٤٥ شلناً. ومن أجل دفع هذا هذا المبلغ يحتاج هندي الهيتوتو أو البورا إلى العمل سنتين، إذا ما دُفع له الأجر الذي يتقاضاه كنَّاس في إيكيتوس. وراح يعرضَ قمصان خام، وبناطيل من قماش رقيق، وخرزاً ملوناً، وعلب بارود، وأحزمة، وخداريف، ودوامات، ومصابيح زيت، وقبعات قش، ومراهم ضد اللسعات، وينادي في أثناء ذلك معلناً الأسعار التي يمكن شراء هذه الأشياء بها في إنكلترا. كانت عيون البرلمانيين تنفتح بسخط وذعر. وكان الوضع أسوأ عندما بدأ روجر يعرض أمام تشارلز روبرتس وأعضاء اللجنة الآخرين عشرات الصور الفوتوغرافية التي التقطها هو نفسه في الإنكانتو ولاتشوريرا وغيرهما من محطات بوتومايو: تظهر فيها الظهور والإليات التي تحمل «شعار شركة آرانا» على شكل جروح أو

قروح، وصور جثث قضمتها الضواري ولسعتها الحشرات وهي تتعفن بين الآجام، وصور هزال لا يُصدق لرجال ونساء وأطفال، وعلى الرغم من شدة نحولهم العظمي، يحملون على رؤوسهم لفافات ضخمة من المطاط المتصلب. وبطون منتفخة بسبب الطفيليات لأطفال حديثي الولادة على وشك الموت. كانت الصور دليلاً لا يقبل الدحض على الظروف التي تعيش فيها كائنات بلا غذاء تقريباً، وبإساءة معاملة يقترفها أناس جشعون هدفهم الوحيد في الحياة جمع المزيد من المطاط حتى لو اقتضى ذلك موت شعوب بأسرها من الهزال.

مشهد مؤثر في الجلسات تبدى خلال استجواب المديرين البريطانيين لشركة الأمازون البيروية، حيث تألق الأيرلندي سويفت ماكنيل بإلحاحه وبراعته، وهو البرلماني المجرب عن ساوث دونغيل. فقد أثبت دون أي ظلال من الشك أن رجال أعمال، مثل هنري م. ريد وجون رسل غوبنز، نجمي المجتمع اللندني وأرستقراطيين آخرين أو أصحاب مداخيل عالية، مثل السير جون ليستر كاي والبارون سوزا ديرو، كانوا غير مطلعين تماماً على ما يحدث في شركة خوليو س. آرانا التي يحضرون جلسات مجلس إدارتها ويوقعون على محاضرها، ويتقاضون منها مبالغ مالية ضخمة. حتى عندما بدأت أسبوعية ***الحقيقة*** بنشر شكاوى بنجامين سالدانيا روكا ووالتر هاردينبرغ، لم يهتموا بتقصي ما يوجد من حقائق في تلك الاتهامات. بل اكتفوا بما يقدمه لهم آبيل لاركو أو خوليو س. آرانا من نفي لتلك الاتهامات، واتهامهم الصحفيين المتهِمين بالمبتزين الحاقدين لأنهما لم يتلقيا من الشركة النقود التي حاولا الحصول عليها بالتهديد. ولم يهتم أي من أولئك المديرين البريطانيين بالتحقق على الأرض إن كانت الشركة التي

يمنحونها سمعة أسمائهم قد اقترفت تلك الجرائم. بل إن الأسوأ من ذلك هو أن أياً منهم لم يقم بتفحص أوراق، وحسابات، وتقارير، ومراسلات الشركة حيث خلّفت تلك الممارسات المسيئة آثاراً في الملفات. ذلك أن خوليو س. آرانا، وآبيل لاركو وغيرهم من المسؤولين كانوا يشعرون، مهما بدا غير معقول، بأنهم في مأمن حتى انفجار الفضيحة، فلم يخفوا في سجلاتهم آثار المخالفات، مثل: عدم دفع أجور الأيدي العاملة من السكان الأصليين، وإنفاق مبالغ مالية ضخمة في شراء السياط والمسدسات والبنادق.

وكانت هنالك لحظة بالغة الدرامية حين مثل خوليو س. آرانا أمام اللجنة ليقدم أقواله. كان لا بد من تأجيل ظهوره الأول، لأن زوجته إليونورا، وكانت في جنيف، عانت من صدمة عصبية بسبب توتر تعيشه الأسرة وهي ترى، بعد صعودها إلى أعلى المراتب، أن كل مكانتها ومسيرتها آخذة بالانهيار. دخل آرانا إلى مجلس العموم وهو يلبس بأناقته المعهودة، وكان وجهه شاحباً كشحوب مرضى حمى المستنقعات في الأمازون. ظهر محاطاً بمعاونين ومستشارين، ولكن لم يسمح له بدخول قاعة الجلسة إلا مع محاميه. أبدى في البدء الهدوء والعجرفة. ومع توالي أسئلة تشارلز روبرتس والعجوز سويفت ماكنيل التي راحت تحاصره، بدأ يقع في تناقضات وعثرات بذل مترجمه المستحيل للتخفيف منها. وقد استفز برودة الجمهور عندما سأله رئيس اللجنة ـ لماذا كانت كل بنادق الونشستر تلك في محطات بوتومايو؟، وهل هي من أجل «الغزوات» أو الهجمات على القبائل لاقتياد الناس إلى محطات جمع المطاط؟ ـ فأجاب: «لا يا سيدي، إنها للدفاع عن النفس من النمور الكثيرة في المنطقة». إنه يحاول إنكار كل شيء، ولكنه سرعان

ما اعترف، أجل، صحيح، لقد سمع ذات مرة عن امرأة من السكان الأصليين جرى حرقها حية. غير أن ذلك حدث منذ زمن بعيد. وأعمال التعسف، أجل لقد اقترُفت، ولكنها أمور من الماضي على الدوام.

وجاء اضطراب تاجر المطاط الأقصى حين حاول الحطّ من قيمة شهادة والتر هاردينبرغ متهماً الصحفي الأمريكي بتزوير كمبيالية في ماناوس. فقاطعه سويفت ماكنيل ليسأله إن كان يتجرأ على إطلاق تسمية «مزوِّر» على هاردينبرغ في مواجهة شخصية معه، وكان يُعتقد أن الصحفي يعيش في كندا. فأجاب آرانا: «نعم». عندئذ ردّ عليه ماكنيل: «افعل إذاً» وأضاف: «ها هوذا أمامك». أحدث وجود هاردينبرغ هزة في القاعة. وبنصيحة من محاميه تراجع آرانا عن أقواله وأعلن أنه لا يتهم هاردينبرغ، وإنما «أحدهم» قام باستبدال كمبيالية في مصرف وتبين أنها مزيفة. أثبت هاردنبيرغ أن ذلك كله كان مكيدة لتشويه سمعته دبرتها شركة آرانا باستخدامها شخصاً ذا سوابق خبيثة يدعى خوليو موريداس، وهو معتقل حالياً في بارا بتهمة النصب والاحتيال.

ابتداء من هذه الواقعة انهار آرانا. وصار يكتفي بتقديم إجابات مترددة ومضطربة على كافة الأسئلة، كاشفاً عن سوء حالته، ولاسيما عدم المصداقية كملمح جلي في شهادته.

وفي ذروة عمل اللجنة البرلمانية نزلت على رجل الأعمال كارثة جديدة. فالقاضي سونفين إيدي، من محكمة العدل العليا، وبناء على طلب فريق من المساهمين أصدر قراراً بالوقف الفوري لأعمال شركة الأمازون البيروية. وجاء في حيثيات القرار الإعلانُ بأن الشركة تحصل على منافع «بجمعها المطاط بأشد الطرق التي يمكن تصورها فظاعة»

وأنه «إذا كان السيد آرانا لا يدري بما يحدث، فإن مسؤوليته تصبح أخطر، إذ يقع عليه، أكثر مما على أي شخص آخر، الواجب المطلق بمعرفة ما يحدث في ممتلكاته».

ولم يكن التقرير النهائي أقل ثقلاً. فقد انتهى إلى أن «السيد خوليو س. آرانا، مثله مثل شركائه، كان يعرف وهو بالتالي المسؤول الرئيسي عن الفظائع المرتكبة على يد عملائه وموظفيه في بوتومايو».

عندما نشرت اللجنة تقريرها الذي ختم الإطاحة النهائية بسمعة خوليو س. آرانا وسرّع انهيار الإمبراطورية التي جعلت من ذلك المقيم في قرية رييوخا رجلاً ثرياً ومتنفذاً، كان روجر كيسمنت قد بدأ بنسيان الأمازون وبوتومايو. وعادت شؤون أيرلندا لتشكّل همّه الأساسي. فبعد أن أخذ إجازة قصيرة، اقترحت عليه وزارة الخارجية أن يعود إلى البرازيل كقنصل عام في ريو دي جانيرو ووافق في البدء. ولكنه راح يؤجل سفره، وعلى الرغم من أنه كان يقدم لوزارة الخارجية، ولنفسه، أعذاراً مختلفة، فالحقيقة أنه كان قد قرر في أعماق قلبه أنه لن يرجع للخدمة كدبلوماسي في أي منصب تابع للتاج البريطاني. وأنه يريد استعادة الزمن الضائع، ويقدم ذكاءه وطاقته للنضال في سبيل ما سيكون منذ الآن الهدف الحصري الوحيد لحياته: تحرير أيرلندا.

ولهذا تابع من بعيد، دون كثير من الاهتمام، التحولات الأخيرة بشأن شركة الأمازون البيروية ومالكها. وحول ما اتضح بجلاء في جلسات اللجنة، من خلال اعترافات المدير العام بالذات هنري لكس جيلود، من أنه ليس لدى شركة خوليو س. آمانا أي سند ملكية للأراضي في بوتومايو، وأنها تستغلها بفعل «حق الإشغال» وحسب،

مما زاد من فقدان ثقة المصارف والدائنين الآخرين بها. فسارعوا من فورهم إلى الضغط على صاحبها مطالبينه بتسديد الدفعات والتعهدات المستحقة (كانت ديونه لمؤسسات **الستي** وحدها تتجاوز المئتين وخمسين ألف جنيه استرليني). انهالت عليه التهديدات بالحجز على أملاكه وبيعها في المزاد العلني. فكان آرانا يحتج علناً بأنه، من أجل إنقاذ شرفه، سيدفع حتى آخر سنت، وقد عرض للبيع قصره اللندني في كينسنغتون، ومنزله في بيارتس وبيته في جنيف. ولكن ما حصل عليه من تلك المبيعات لم يكن كافياً لتهدئة دائنيه، فقد حصل هؤلاء على أمر قضائي بتجميد أرصدته وحساباته المصرفية في إنكلترا. وفي الوقت الذي راحت فيه ثروته الشخصية تتداعى، كانت أعماله تواصل انحدارها دون توقف. فانهيار أسعار المطاط الأمازوني بفعل منافسة المطاط الآسيوي يمضي بموازاة قرار كثير من المستوردين الأوروبيين والأمريكيين بعدم العودة إلى استيراد المطاط البيروي إلى أن يتم التأكد، من خلال لجنة دولية مستقلة، من توقف ممارسات العبودية والتعذيب ومهاجمة القبائل، ومن أن شركات جمع المطاط تدفع للسكان الأصليين جامعي المطاط مقابل عملهم، وأن تُحترم قوانين العمل سارية المفعول في إنكلترا والولايات المتحدة.

لم تكن الفرصة متوافرة ولو لإمكانية محاولة تنفيذ تلك المطالب الخيالية. فهروب رؤساء العمال ورؤساء محطات بوتومايو الرئيسيين، لخوفهم من فكرة زجهم في السجن، وضع المنطقة بأسرها في حالة فوضى. كما أن كثيراً من الوطنيين ـ قرى بأكملها ـ انتهزوا الفرصة أيضاً ليهربوا، وتقلص استخراج المطاط بذلك إلى أدنى حدوده، وسرعان ما توقف نهائياً. وكان الهاربون قد نهبوا قبل هروبهم متاجر الشركة

ومكاتبها حاملين معهم كل ما هو ثمين، من أسلحة ومؤن أساسية. وقد عُرف في ما بعد أن الشركة الخائفة من احتمال أن يتحول أولئك القتلة الهاربون إلى شهود إثبات ضدها، قامت بمنحهم مبالغ كبيرة لتسهيل هروبهم وشراء صمتهم.

تابع روجر الانهيار في إيكيتوس من خلال رسائل صديقه القنصل البريطاني جورج ميتشل. فقد أخبره هذا الأخير كيف أُغلقت فنادق ومطاعم ومتاجر حيث كانت تباع من قبل بضائع مستوردة من باريس ونيويورك، مثل الشمبانيا التي كانت زجاجتها تُفتح في ما مضى بسخاء، واختفت فجأة كما في أعمال سحر، ومثلها الويسكي والكونياك والنبيذ. ولم يعد هنالك في الحانات والمواخير سوى خمر محلي ثقيل يجرح الحنجرة، ومشروبات مريبة المنشأ، ومقويات بدل أن تؤجج الشهوات الجنسية، كثيراً ما يكون لها مفعول الديناميت في معدة من يستخدمها من غير الفطنين.

وكما في ماناوس، أدى انهيار شركة آرانا والمطاط إلى أزمة عامة في إيكيتوس لا تقل سرعة عن الازدهار الذي عاشته المدينة خمسة عشر عاماً. كان أول من هجرها هم الأجانب ـ تجار، مكتشفون، مهربون، أصحاب حانات، مهنيون، فنيون، عاهرات، قوادون ـ، عادوا إلى بلدانهم أو ذهبوا بحثاً عن أرض أكثر ازدهاراً من تلك التي غرقت في الخراب والعزلة.

لم تختف الدعارة، ولكنها استبدلت عملاءها. فقد اختفت المومسات البرازيليات ومن كنّ يقلن إنهن «فرنسيات»، بينما يكنَ في العادة بولونيات، أو بلجيكيات، أو تركيات أو إيطاليات، وحلّت

محلهن خلاسيات أو هنديات، كثيرات منهن قاصرات ومراهقات عملن كخادمات منزليات وفقدن عملهن لأن أسيادهن غادروا أيضاً بحثاً عن رياح مواتية أو أنهم، بسبب الأزمة الاقتصادية، لم يعودوا قادرين على إكسائهن أو توفير الطعام لهن. ويقدم القنصل البريطاني في إحدى رسائله وصفاً مؤثراً لأولئك الهنديات الصغيرات اللواتي في حوالي الخامسة عشرة من أعمارهن، هزيلات، يتمشين على كورنيش إيكيتوس مطليات بالأصبغة كالببغاوات بحثاً عن زبائن. واختفت الصحف والمجلات، وحتى النشرة الأسبوعية التي تعلن مواعيد خروج السفن ووصولها، لأن النقل النهري الذي كان كثيفاً في السابق، راح يتناقص إلى أن توقف تقريباً. الحدث الذي ختم عزلة إيكيتوس وانقطاعها عن العالم الفسيح الذي كانت لها معه، طوال خمسة عشر عاماً، علاقات تبادل تجاري مكثف، هو قرار شركة بوث لاين بالتقليص المتزايد لرحلات سفنها ناقلة البضائع والمسافرين. وحين توقفت حركة السفن نهائياً، انقطع الحبل السري الذي كان يربط إيكيتوس بالعالم. لقد قامت عاصمة إقليم لوريتو برحلة إلى الوراء في الزمن. وخلال سنوات قليلة عادت لتكون قرية نائية ومنسية في قلب الأدغال الأمازونية.

ذات يوم في دبلن، وكان روجر قد ذهب إليها لاستشارة طبيب بشأن آلام المفاصل، بينما هو يجتاز العشب المبلل في سانت سيفينز غرين، لمح راهباً فرنسيسكانياً يومئ له محيياً. كان واحداً من رهبان البعثة الأربعة ـ الرهبان العمال ـ الذين سافروا إلى بوتومايو للتحضير لاستقرار البعثة. جلسا لتبادل الحديث على مقعد، بجوار بركة البط والبجع. لقد كانت تجربة رجال الدين الأربعة قاسية جداً. لم يرعبهم العداء الذي واجهوه في إيكيتوس من السلطات التي تأتمر بأمر شركة

آرانا ـ وجدوا العون من الآباء الأغوسطونيين ـ، ولم تفتَّ من عضدهم كذلك هجمات الملاريا ولا لسعات الحشرات التي وضعت روح تضحيتهم موضع الاختبار خلال الشهور الأولى في بوتومايو. وعلى الرغم من العقبات والنكبات تمكنوا من الاستقرار في محيط محطة الإنكانتو، في كوخ مشابه لتلك التي يشيدها أبناء الهيتوتو في مخيماتهم. وعلاقتهم مع السكان الأصليين، بعد بداية أبدى فيها هؤلاء التجهم والريبة، كانت جيدة، وحتى حميمة. بدأ الرهبان الفرنسيسكان الأربعة بتعلم لغتي الهيتوتو والبورا وأقاموا كنيسة بدائية في الهواء الطلق، بسقف من أوراق النخيل فوق المذبح. ولكن سرعان ما جاء ذلك الهروب الشامل لأناس من كافة المستويات. رؤساء محطات وموظفون، حرفيون وحراس، هنود خدمة منزليون وجامعو مطاط راحوا جميعهم يرحلون كأنهم هاربون من قوة شريرة أو وباء مرعب. وحين ظل الرهبان الفرنسيسكان الأربعة وحدهم صار كل يوم أشد مشقة من سابقه. أصيب أحدهم، الأب ماككيري بداء البيريبري. عندئذ، وبعد جدل طويل، اختاروا أيضاً مغادرة ذلك المكان الذي بدا كأنه وقع ضحية لعنة إلهية.

عودة الفرنسيسكان الأربعة كانت رحلة هوميرية ودرب آلام. فمع التقلص الجذري لتصدير المطاط، والفوضى وإقفار المحطات، انقطعت بين ليلة وضحاها، ودون إنذار مسبق، وسيلة الخروج الوحيدة من بوتومايو المتمثلة في سفن شركة الأمازون البيروية، وخاصة السفينة *ليبرال*. وبهذا ظل رهبان البعثة الأربعة معزولين عن العالم، ومحتجزين في مكان مهجور ولديهم مريض في حالة حرجة. وحين توفي الأب ماككيري، دفنه رفاقه على مرتفع صغير ووضعوا على قبره كتابة بأربع

لغات: الغيلية، والإنكليزية، والهيتوتوية، والإسبانية. ثم انطلقوا على بركة الله. ساعدهم بعض السكان الأصليين على النزول في نهر بوتومايو في قارب من جذع مجوف حتى التقائه بنهر يافاري. وخلال الرحلة انقلب الطوف مرتين وكان عليهم بلوغ الضفة سباحة. وهكذا فقدوا الحاجيات القليلة التي كانت لديهم. وفي يافاري، بعد انتظار طويل، وافقت سفينة على نقلهم إلى ماناوس شريطة ألا يشغلوا قمرات. فناموا على سطح السفينة، تحت المطر، وأصيب أكبر الرهبان سناً بذات الرئة. وعند وصولهم، أخيراً، إلى ماناوس بعد مرور أسبوعين، وجدوا ديراً للفرنسيسكانيين احتضنهم، وهناك توفي الأب أونيتي على الرغم من عناية رفيقيه به. وجرى دفنه في مقبرة الدير. الكاهنان المتبقيان على قيد الحياة، وبعد استعادتهما العافية من تلك الرحلة الشاقة، أُعيدا إلى أيرلندا. وقد رجعا الآن إلى مهمتما بين عمال دبلن الصناعيين.

ظل روجر جالساً لوقت لا بأس به تحت الأشجار الوارفة في سانت ستيفنز غرين. حاول أن يتخيل الحال التي صارت إليها منطقة بوتومايو الشاسعة بعد اختفاء المحطات، وهرب السكان الأصليين، وموظفي وحراس وخبراء شركة خوليو س. آرانا. وراح يتخيل وهو مغمض العينين. ستأخذ الطبيعة الخصيبة بتغطية الأراضي الخلاء في المحطات بشجيرات ومتعرشات وآجام، وتغطي كل فراغ في الأدغال، فتنبعث الغابة، وتعود الحيوانات لتقيم مخابئها هناك. ويمتلئ المكان بتغريد الطيور، وصفير وزمجرة وزعيق الببغاوات والقردة والأفاعي والطيور الباوخيل والجغوارات. ومع الأمطار والانهيارات، لن يبقى بعد سنوات قليلة أي أثر لتلك المعسكرات، حيث تسبب الجشع والقسوة بالكثير من الآلام وبتر الأطراف والموت. أخشاب المنشآت المشيدة ستأخذ بالتعفن

تحت الأمطار، وستتداعى بخشبها الذي سينخره النمل الأبيض. وستقيم كل الحشرات جحوراً ومخابئ لها بين الأنقاض. وفي مستقبل غير بعيد جداً، سيكون قد امحى أي أثر بشري في الأدغال.



أيـرلنـدا



XIII

زاستيقظ بين مذعور ومتفاجئ. ففي التشوش الذي كانت عليه لياليه، جاءته في الحلم، في هذه الليلة، ذكرى صديقه ـ صديقه السابق الآن ـ هربرت وارد، وخلّفته مضطرباً ومتوتراً. ولكن الذكرى لم تأتِهِ من هناك من أفريقيا، حيث تعارفا عندما كانا يعملان ضمن حملة السير هنري مورتون ستانلي، وليس من باريس، حيث ذهب روجر بعد ذلك، عدة مرات، لزيارة هربرت وساريتا، وإنما رآه في شوارع دبلن، ووسط الدوي، والمتاريس، وتبادُل الرصاص، وقصف المدافع والتضحية الجماعية في أسبوع الفصح. هربرت وارد وسط المنتفضين الأيرلنديين، بين المتطوعين الأيرلنديين وجيش المواطنين الأيرلنديين، يقاتل من أجل استقلال أيرلندا! كيف يمكن للذهن البشري المستسلم للحلم أن يركّب مثل هذه التخيلات غير المعقولة؟

تذكّر أن مجلس الوزراء البريطاني قد اجتمع قبل أيام قليلة دون أن يتخذ أي قرار بشأن طلب الرحمة. لقد أخبره بذلك محاميه جورج غافن دوفي. ما الذي يحدث؟ لماذا هذا التأجيل الجديد؟ غافي دوفن يرى فيه إشارة طيبة: هنالك خلافات بين الوزراء، ولم يتوصلوا إلى الاجماع الذي لا بد منه. يوجد أمل إذاً. ولكن الانتظار يعني مواصلة الموت مرات ومرات كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة.

أحزنه تذكّر هربرت وارد. لأنهما لن يعودا إلى أن يكونا صديقين أبداً. فموت ابنه شارل، الشاب الفتي، الوسيم، المعافى، في جبهة نوفي شبيل، في شهر كانون الأول ١٩١٦، فتح بينهما هوة لا يمكن لأي شيء أن يردمها. هربرت هو الصديق الحقيقي الوحيد الذي ارتبط به في أفريقيا. لقد رأى في هذا الرجل، منذ اللحظة الأولى، شيئاً أكبر منه، فهو ذو شخصية متميزة، جال على نصف العالم ـ نيوزيلاندا، أستراليا، سان فرانسيسكو بورنيو ـ، وأوسع ثقافة من كل الأوربيين المحيطين بهما، بمن في ذلك ستانلي. إنه شخص يمكن تعلِّم أشياء كثيرة بمرافقته ومشاطرته الهموم والتطلعات. وعلى خلاف الأوربيين الآخرين الذين جندهم ستانلي من أجل تلك الحملة في خدمة الملك ليوبولد الثاني، ممن لا يتطلعون سوى إلى الحصول على المال والسلطة في أفريقيا، كان هربرت محباً للمغامرات. إنه رجل أفعال ولكنه مولع بالفن يتقرب من الأفريقيين بفضول محترم. يتقصى عن معتقداتهم، وعاداتهم، وأدواتهم المقدسة، وملابسهم وزيناتهم التي يهتم بها من الوجهة الجمالية والفنية، وكذلك ثقافياً وروحياً. فمنذ ذلك الحين كان هربرت، ينتهز أوقات فراغه ليرسم وينحت منحوتات صغيرة لموتيفات أفريقية. وفي أحاديثهما الطويلة في الليل، حين ينصبون الخيام، ويعدون الطعام ويستعدون للراحة من مسيرات وأعمال النهار، كان يُسِرُّ لروجر بأنه سيترك كل تلك الأعمال ذات يوم ليكرس نفسه للنحت وحده ويعيش حياة فنان في باريس «عاصمة الفن العالمية». ذلك الحب لأفريقيا لم يغادره قطّ. بل على العكس، فقد زاد البعد ومرور السنوات منه. تذكر بيت آل وارد اللندني، في شيستر سكوير ٥٣، الممتلئ بأشياء أفريقية. وأكثر من ذلك محترفه بباريس، بجدرانه المغطاة برماح،

وحراب، وسهام، وتروس، وأقنعة، ومجاديف، وسكاكين من كل الأنواع والأحجام. وبين رؤوس الضواري المحنطة على الأرض وجلود الحيوانات التي تغطي الآرائك الجلدية، كانا يمضيان ليالي كاملة وهما يتذكران رحلاتهما إلى أفريقيا. وكانت ابنة آل وارد التي يلقبونها *Gricket* (جدجد) لا تزال طفلة، ترتدي أحياناً عباءات وعقوداً وزينات أفريقية وترقص رقصة باكونغو ويرافقها أبواها بتصفيق وإيقاع رتيب.

كان هربرت أحد الأشخاص القليلين الذين أطلعهم روجر على خيبة أمله بستانلي، وبليوبولد الثاني، وبالفكرة التي اجتذبته إلى أفريقيا: فكرة أن الإمبراطورية والاستعمار سيفتحان طريق الحداثة والتقدم. وقد اتفق هربرت معه تماماً حين تأكد من أن الهدف الحقيقي لوجود الأوروبيين في أفريقيا ليس مساعدة الأفارقة على الخروج من الوثنية والهمجية، وإنما استغلال القارة بجشع لا يعرف حدوداً في التعسف والقسوة.

ولكن هربرت وارد لم يأخذ على محمل الجدّ قط تحول روجر المتمادي نحو الأيديولوجية القومية. وقد اعتاد السخرية منه، بالطريقة المحببة التي هي من سماته، محذراً إياه من بهرجات الوطنية ـ رايات، أناشيد وطنية، زي موحد ـ لأنها تمثل، يقول له، على الدوام، عاجلاً أو آجلاً، تراجعاً إلى المناطقية، إلى روح برج النواقيس وتشويه القيم الكونية. ومع ذلك فإن هذا المواطن العالمي، مثلما كان هربرت يحب تسمية نفسه، وحيال عنف الحرب العالمية المنفلت من عقاله جاء ردّ فعله في اللوذ بالوطنية مثل ملايين كثيرة من الأوروبيين. ورسالته التي قطع بها علاقته بروجر مفعمة بتلك المشاعر الوطنية التي كان يسخر منها قبلاً، بذلك الحب للراية ومسقط الرأس الذي كان يبدو له من قبل بدائياً

ومزدرى. تخيل هربرت وارد، ذلك الإنكليزي الباريسي، مختلطاً مع رجال الشين فين بقيادة أرثر غريفث، وجيش الشعب بقيادة جيمس كونلي، والمتطوعين بقيادة باتريك بيرز، يقاتل معهم في شوارع دبلن من أجل استقلال أيرلندا، يا للهذيان. ومع ذلك، وبينما هو ينتظر الفجر مستلقياً على سرير زنزانته الضيق، قال روجر لنفسه إن هناك شيئاً من العقل، في نهاية الأمر، في خلفية تلك الرؤيا اللاعقلانية، لأن عقله حاول أن يتصالح، في الحلم، مع أمرين يحبهما ويشتاق إليهما: صديقه وبلاده.

في وقت مبكر من الصباح جاء *الشريف* ليخبره بزيارة. أحس روجر بتسرع في قلبه حين دخل قاعة الزيارات ورأى إليس ستوبفورد غرين جالسة على المقعد الوحيد في الحجرة الضيقة. نهضت المؤرخة حين رأته، واقتربت منه باسمة لتعانقه.

ـ إليس، عزيزتي إليس ـ قال لها روجر ـ يا لسعادة رؤيتك من جديد! ظننت أننا لن نلتقي مرة أخرى. في هذا العالم على الأقل.

ـ لم يكن سهلاً الحصول على هذا الإذن الثاني بالمجيء ـ قالت إليس ـ ولكن عنادي، كما ترى، انتهى إلى إقناعهم. أنت لا تعرف كم من الأبواب طرقت.

صديقته القديمة التي اعتادت أن تلبس بأناقة مدروسة، جاءت الآن، خلافاً للزيارة السابقة، ترتدي ثوباً ذاوياً، ومنديلاً معقوداً كيفما اتفق على رأسها الذي تبرز منه خصل شعر رمادية. وتنتعل حذاء ملطخاً بالوحل. ليس زينتها وحدها هي التي افتقرت. بل إن ملامحها كانت تشي بالإنهاك وفقدان الهمة. ما الذي حدث لها خلال تلك الأيام

وتسبب بمثل ذلك التغيير؟ هل عادت سكوتلانديارد إلى مضايقتها؟ نفت ذلك وهي تهز كتفيها، كما لو أن ذلك الحادث القديم يخلو من الأهمية. لم تتطرق إليس إلى موضوع طلب الاسترحام وتأجيله حتى جلسة مجلس الوزراء التالية. ولم يأتِ روجر كذلك على ذكره، متوقعاً أنها لم تعرف بعد شيئاً بهذا الشأن. ولكنه روى لها الحلم السخيف الذي رآه، وكيف تخيل هربرت وارد مختلطاً مع المتمردين الأيرلنديين وسط مناوشات ومعارك أسبوع الفصح في قلب دبلن.

ـ لقد بدأ يتسرب، شيئاً فشيئاً، المزيد من الأخبار حول كيف جرت الأمور ـ قالت إليس، ولاحظ روجر أن صوت صديقته يحزن ويغضب في آن واحد. وانتبه كذلك إلى أن *الشريف* والحارس اللذين ظلا إلى جانبهما يوليانهما ظهريهما، قد تجمدا وأرهفا سمعهما دون شك، حين سمعا أن الحديث يدور عن التمرد الأيرلندي. فخشي أن ينبههما *الشريف* إلى أن التحدث في هذا الموضوع ممنوع، ولكنه لم يفعل.

ـ هل عرفتِ أشياء جديدة إذاً يا إليس؟ ـ سألها خافضاً صوته حتى تحول إلى همس.

لاحظ أن المؤرخة قد شحبت قليلاً وهي تهز رأسها مؤكدة. ظلت صامتة طويلاً قبل أن تجيب، كما لو أنها تتساءل عما إذا كان عليها أن تُقلق صديقها بتناول موضوع مؤلم له، أو كما لو أنه، وهذا الأصح، لديها معلومات كثيرة تخبره بها بهذا الشأن ولا تدري من أين تبدأ. وأخيراً اختارت الردّ عليه بأنه، على الرغم من أنها سمعت ومازالت تسمع روايات كثيرة حول ما عاشته دبلن ومدن أيرلندية أخرى في أسبوع الانتفاضة ـ أمور متناقضة، مبالغات واختلاقات، مثلما يحدث حين

يستثير حدثٌ ما شعباً بكامله ـ، إلا أنها تعطي الكثير من المصداقية لشهادة أوستين، وهو ابن أخت لها، وراهب كابوتشي، جاء للتو إلى لندن. إنه مصدر من الدرجة الأولى، لأنه كان هناك، في دبلن، في أوج المناوشات، كممرض ومستشار روحي، يتنقل من مكتب البريد العام، مقر القيادة الذي يقود منه باتريك بيرز وجيمس كونُلي الانتفاضة، إلى خنادق سانت ستفنز غرين، حيث تقود العمليات الكونتيسة كونزتنس ماركيفيش بطبنجة قرصان وبزيّ المتطوعين الكامل، وإلى المتاريس المقامة في جاكوبز بيسكويت فاكتوري، وإلى محلات بولاندز ميل التي احتلها المتمردون بقيادة أيمون دي فاليرا قبل أن تحاصره القوات الإنكليزية. وقد بدا لإليس أنه يمكن لشهادة الراهب أوستين أن تكون الأقرب إلى تلك الحقيقة التي لا يمكن الوصول إليها، ولن يكشفها تماماً سوى مؤرخي المستقبل.

ساد صمت آخر لم يتجرأ روجر على مقاطعته. لقد رآها منذ أيام قليلة فقط، ولكن إليس بدت كما لو أنها هرمت عشر سنوات. فقد ظهرت تجاعيد في جبهتها وعنقها، وامتلأت يداها بالنمش. وعيناها شديدتا الزرقة لم تعودا تلمعان. لاحظ أنها حزينة جداً ولكنه كان واثقاً من أن إليس لن تبكي أمامه. أيكونون قد رفضوا استرحامه ولا تتجرأ على قول ذلك له؟

ـ أكثر ما يتذكره ابن أختي ـ أضافت إليس ـ ليس تبادل إطلاق النار، والقنابل، والجرحى، والدماء، ولهيب الحرائق، والدخان الذي يمنعهم من التنفس، وإنما أكثر ما يتذكره، أتدري يا روجر؟ هو الفوضى. الارتباك العظيم الذي ساد معاقل الثوريين.

ـ الفوضى؟ ـ كرر روجر بصوت خافت جداً. وأغمض عينيه محاولاً رؤيتها، سماعها، الإحساس بها.

ـ الفوضى الهائلة، العظيمة ـ كررت إليس مرة أخرى بتفخيم ـ. كانوا مستعدين لأن يُقتَلوا، وعاشوا في الوقت نفسه لحظات غبطة. لحظات لا تُصدق. لحظات كبرياء. لحظات حرية. على الرغم من أن أياً منهم، لا القادة ولا المناضلين، كان يعرف بالضبط ما الذي يفعلونه ولا ما يريدون فعله. هذا ما يقوله أوستين.

ـ هل كانوا يعرفون على الأقل لماذا لم تصل الأسلحة التي كانوا ينتظرونها؟ ـ تمتم روجر حين انتبه إلى أن إليس قد دخلت مرة أخرى في صمت طويل.

ـ ما كانوا يعرفون شيئاً عن أي شيء. لقد كانوا يقولون لبعضهم بعضاً أشد الأمور خيالية. ولم يكن بمقدور أحد تكذيبها، لأن أحداً لم يكن يعرف حقيقة الوضع. يجري تداول إشاعات استثنائية يمنحها جميعهم المصداقية، لأنهم بحاجة إلى تصديق أن هنالك مخرجاً من الوضع اليائس الذي وجدوا أنفسهم فيه. كالقول، مثلاً، إن جيشاً ألمانياً يقترب من دبلن. وأن كتائب، وألوية قد تم إنزالها في نقاط عديدة من الجزيرة وهي تتقدم باتجاه العاصمة. وأنه في المناطق الداخلية، في كورك، في غالوي، في ويكسفورد، في ميث، في تريلي، في كل الأنحاء، بما في ذلك ألستر، قد انتفض المتطوعون وجيش المواطنين بالملايين، واحتلوا الثكنات ومراكز الشرطة، وأنهم يتقدمون من كل الجهات باتجاه دبلن، مع تعزيزات للمحاصرين. لقد كانوا يقاتلون وهم

شبه موتى من العطش والجوع، وبلا ذخائر تقريباً، وكانت آمالهم كلها معلقة على عدم الواقعية.

ـ كنتُ أعرف أن هذا ما سيحدث ـ قال روجر ـ. لم أصل في الوقت المناسب لوقف هذا العمل الجنوني. والآن، صارت حرية أيرلندا، مرة أخرى، أبعد مما كانت عليه في أي وقت.

ـ لقد حاول إيون ماكنيل وقفهم حين علم بالأمر ـ قالت إليس ـ. لقد أبقته القيادة العسكرية للأخوية الجمهورية الأيرلندية في الضباب بشأن خططها للانتفاضة، لأنه كان ضد أي عمل مسلح ما لم يتوافر دعم ألماني. وعندما علم أن القيادة العسكرية للمتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية وجيش المواطن الأيرلندي قد دعت الناس إلى مناورات عسكرية في يوم أحد الشعانين، أصدر أمراً معاكساً حظر فيه تلك المسيرة وطلب من كتائب المتطوعين عدم الخروج إلى الشارع ما لم تتلقَ تعليمات أخرى تحمل توقيعه. لقد أدى ذلك إلى بلبلة عظيمة. فمئات، وآلاف المتطوعين ظلوا في بيوتهم. حاول كثيرون منهم الاتصال ببيرز، بكونلي، بكلارك، ولكنهم لم يتوصلوا إلى ذلك. وفي ما بعد، لم يستطع من استجابوا للأمر المضاد الصادر عن ماكنيل إلا أن يقفوا مكتوفي الأيدي بينما من لم ينصاعوا له سعوا إلى مقتلهم. ولهذا صار كثيرون من أعضاء الشين فين والمتطوعين يكرهون ماكنيل ويعتبرونه خائناً.

صمتت إليس من جديد، وسها روجر. إيون ماكنيل خائن! يا للبلاهة! تخيَّلَ مؤسس الرابطة الغالية، وناشر جريدة ***غَيليك جورنال***، أحد مؤسسي منظمة المتطوعين الأيرلنديين الذي كرس حياته للنضال من

أجل إحياء اللغة والثقافة الأيرلنديتين، يُتهم بخيانة إخوته لأنه أراد وقف تلك الانتفاضة الرومانسية المحكوم عليها بالإخفاق. وفي السجن الذي حُبس فيه سيكون هدفاً للمضايقات، وربما الاحتقار الجليدي الذي يعاقِبُ به الوطنيون الأيرلنديون المترددين والجبناء. كيف سيشعر بالأذى ذلك الأستاذ الجامعي الوديع والمثقف، المفعم بحب لغة وعادات وتقاليد بلاده. سيعذب نفسه بالتساؤل «هل أسأتُ التصرف بإصدار ذلك الأمر المضاد؟ أأكون أنا الذي أردتُ فقط حماية الأرواح، قد ساهمتُ في إخفاق التمرد بزرع الفوضى والانقسام بين الثوريين؟». أحس روجر بالتطابق مع إيون ماكنيل. فهما متشابهان في المواقع المتناقضة التي وضعهما فيها التاريخ والظروف. ما الذي كان سيحدث لو أنه، بدل أن يُعتقل في تريلي، توصل إلى التكلم مع بيرز ومع كلارك وغيرهما من مسؤولي القيادة العسكرية؟ هل كان سيقنعهم؟ من المحتمل أن لا. وربما كانوا سيقولون عنه الآن إنه خائن.

- إنني أقوم بشيء يجب عليّ عدم الإقدام عليه يا عزيزي - قالت إليس وهي تُظهر ابتسامة مغتصبة - اقتصاري على تقديم الأخبار السيئة وحدها إليك، الرؤية المتشائمة.

- وهل توجد رؤية أخرى بعد كل ما حدث؟

- أجل توجد - أكدت المؤرخة بصوت متحمس وهي تحمر خجلاً - أنا أيضاً كنتُ معارضة للانتفاضة في هذه الظروف. ومع ذلك...

- مع ذلك ماذا يا إليس؟

- لقد كانت أيرلندا لساعات، لأيام، لأسبوع كامل، بلداً حراً يا عزيزي - قالت، وبدا لروجر أن إليس ترتعش متأثرة - كانت جمهورية

مستقلة وذات سيادة مع رئيس حكومة مؤقتة. لم يكن أوستين قد وصل إلى هناك بعد عندما خرج باتريك بيرز من مكتب البريد، ومن فوق أدراج الساحة، قرأ إعلان الاستقلال وتأسيس الحكومة الدستورية لجمهورية أيرلندا الذي وقّعه السبعة. لم يكن هناك أناس كثيرون كما يبدو. لا بد أن من كانوا هناك وسمعوه قد شعروا بشيء خاص جداً، أليس كذلك يا عزيزي؟ أنا كنت ضد الانتفاضة كما قلت لك. ولكنني حين قرأت ذلك النص انفجرت بالبكاء الصارخ مثلما لم أبك قطّ. «باسم الرب وأجيالنا الميتة، من تتلقى منهم تقاليدها الوطنية القديمة، تدعو أيرلندا أبناءها، على لساننا، للاجتماع الآن تحت رايتها، وتعلن حريتها. . .» أترى، لقد حفظته عن ظهر قلب، أجل. وندمت بكل قواي لأني لم أكن هناك، معهم. أنت تفهمني، أليس كذلك؟

أغمض روجر عينيه. كان يرى المشهد صافياً نابضاً. في أعلى درج مكتب البريد العام، تحت سماء كثيفة الغيوم تهدد بسكبها مطراً، وأمام مئة؟ مئتي؟ شخص مسلحين ببنادق ومسدسات وسكاكين وفؤوس وهراوات، معظمهم رجال، ولكن هناك أيضاً عدداً لا بأس به من النساء يضعن مناديل على رؤوسهن، تنتصب قامة باتريك بيرز النحيله الرشيقة والعليلة، بسنوات عمره الست والثلاثين ونظرته الفولاذية، المضمخة بـ «إرادة السلطة» النيتشية تلك التي أتاحت له على الدوام، ولاسيما منذ انضمامه وهو في السادسة عشرة إلى الرابطة الغيليّة التي سرعان ما صار زعيمها المُسلَّم به، وواجه كل المصاعب، والمرض، والضغوط، والصراعات الداخلية، وجسَّد حلم حياته الأسطوري ـ انتفاضة الأيرلنديين المسلحة ضد المضطهِد. استشهاد القديسين لافتداء شعب بأكمله ـ يقرأ، بذلك الصوت الصوفي الذي يزيد انفعال اللحظة من

عظمته، الكلمات المنتقاة بدقة تختم قروناً من الاحتلال والعبودية وتؤسس حقبة جديدة في تاريخ أيرلندا. سمع الصمت الديني المقدس الذي فرضته، دون شك، كلمات بيرز في ذلك الركن من مركز دبلن الذي مازال سليماً لأن تبادل إطلاق النار لم يبدأ بعد. ورأى وجوه المتطوعين التي تطل، لتأمل مشهد الحفل البسيط والمهيب، من نوافذ مبنى البريد والأبنية المجاورة لشارع سكفيل ستريت التي احتلها المتمردون. سمع التصفيق وصرخات «يحيا» و«هورا» كوفئت بها كلمات باتريك بيرز عند انتهائه من قراءة الأسماء السبعة التي وقّعت الإعلان، صرخات من الناس في الشارع وعلى النوافذ والأسطحة، وقِصر تلك اللحظات وزخمها حين أنهى بيرز نفسه والقادة الآخرون بالقول لا مزيد من إضاعة الوقت. فعليهم العودة إلى مواقعهم، وإنجاز واجباتهم، والتهيؤ للقتال. أحس بأن عينيه تتضمخان. وبدأ هو نفسه يرتعش أيضاً. وكيلا يبكي، سارع إلى القول:

ـ لا بد أنه كان مؤثراً بكل تأكيد.

ـ إنه رمز، والتاريخ مؤلف من رموز ـ أكدت إليس ستوبفورد غرين ـ ليس مهماً أنهم أعدموا رمياً بالرصاص بيرز وكونلي وكلارك وبلانكيت والموقّعين الآخرين على بيان الاستقلال. بل على العكس. إعدامهم عمّد هذا الرمز بالدم، ومنحه هالة بطولة واستشهاد.

ـ وهذا بالضبط ما أراده بيرز وبلانكيت ـ قال روجر ـ معكِ حق يا إليس. أنا أيضاً أتمنى لو أنني كنت هناك... معهم.

وبقدر تأثر إليس بذلك الاحتفال على الأدراج الخارجية لمكتب البريد، كان تأثرها بأن نساء كثيرات من منظمة المتمردين النسائية،

Cumann na mBan (مجلس النساء الأيرلنديات)، شاركن في التمرد. هذا أمر رآه الراهب الكابوشي بأم عينه. ففي كافة مواقع التمرد كان القادة يكلِّفون النساء بالطبخ للمقاتلين، ولكن بعد، مع ازدياد حدّة المعارك، فرض ثِقل العمليات توسيع مروحة مسؤوليات أولئك المناضلات من مجلس النساء الأيرلنديات اللاتي أنتزعهنَّ الرصاص والقنابل والحرائق من المطابخ المرتجلة وحوّلهن إلى ممرضات. كنّ يضمدن الجرحى ويساعدن الأطباء في استخراج طلقات من الأجساد، وخياطة الجراح، وبتر الأعضاء المهددة بالغنغرينا. ولكن ربما كان الدور الأهم لأولئك النسوة ـ ومنهن مراهقات، وبالغات، ومن هنّ على حافة الشيخوخة ـ هي خدمة البريد. فبسبب العزلة المتزايدة للمتاريس والمواقع المتمردة، كان لا بد من اللجوء إلى الطاهيات والممرضات وإرسالهن، على دراجات، وحين شحت أعداد الدراجات، على أقدامهن السريعة، لإيصال وجلب رسائل ومعلومات شفوية أو خطية (مع تعليمات بإتلاف أو إحراق أو ابتلاع تلك الأوراق إذا ما جُرحن أو أُلقي القبض عليهن). وقد أكد الراهب أوستين لإليس أنه خلال ستة أيام التمرد، وسط القصف وتبادل الرصاص، والانفجارات التي تدمرسقوفاً وجدراناً وشرفات، وتحول مركز دبلن إلى أرخبيل من الحرائق وأكوام أنقاض محروقة ودامية، لم يتوقف قطّ عن رؤيتهن يذهبن ويجئن متشبثات بمقود الدراجة كأنهن أمازونيات يمتطين خيولاً، ويحركن الدواسة بسرعة نزقة. أولئك الملائكة ذوات التنانير، الحوريات، البطلات، رابطات الجأش، متحديات الرصاص، يحملن رسائل ومعلومات لكسر الحصار الذي تسعى استراتيجية الجيش البريطاني إلى فرضه على المتمردين المعزولين قبل سحقهم.

ـ وعندما لم يعد بإمكانهن العمل كمراسلات، لأن قوات الجيش احتلت الشوارع وصار التجوال مستحيلاً، أخذت كثيرات منهن مسدسات وبنادق أزواجهن وإخوتهن وآبائهن وقاتلن أيضاً ـ قالت إليس ـ ليست كونستنزا ماركيفتش وحدها من أثبتت أنه ليس جميع النساء ينتمين إلى الجنس الضعيف. كثيرات هن من قاتلن مثلها وقُتلن أو جُرحن وهن يحملن السلاح.

ـ هل يعرف عددهن؟

نفت إليس بحركة من رأسها.

ـ لا توجد أرقام رسمية. والأرقام التي تُذكر هي مجرد تخيلات. ولكن الأمر المؤكد هو أنهن قاتلن. يعرف ذلك العسكريون البريطانيون الذين اعتقلوهن وسجنوهن في ثكنة ريشموند وفي سجن كيلماينهام. كانوا يريدون إخضاعهن لمحاكم عسكرية وإعدامهن رمياً بالرصاص أيضاً. أعرف ذلك من مصدر مطلع جداً: من وزير. مجلس الوزراء البريطاني أصيب بالذعر حين فكر، وبحق، في أنهم إذا بدؤوا بإعدام النساء رمياً بالرصاص فإن أيرلندا ستنتفض عن بكرة أبيها بالسلاح هذه المرة. وقد أبرق رئيس الوزراء اسكويث نفسه إلى قائد دبلن العسكري السير جون ماكسويل يمنعه بصورة قاطعة من رمي أي امرأة بالرصاص. وبهذا أنقذت حياة الكونتيسة كونستنزا ماركيفيش. فقد حكمت عليها محكمة عسكرية بالإعدام ولكنهم خففوا الحكم إلى السجن المؤبد بفعل ضغوط الحكومة.

ومع ذلك لم يكن كل شيء حماسة وتضامناً وبطولة بين أهالي دبلن المدنيين خلال أسبوع المعارك. فقد كان الراهب الكابوشي شاهداً على

أعمال سلب ونهب في متاجر ومخازن سكفيل ستريت وشوارع أخرى في مركز المدينة، اقترفها متشردون، وأوغاد أو مجرد بؤساء آتين من الأحياء الهامشية المجاورة، مما وضع قادة الأخوية الجمهورية الأيرلندية والمتطوعين وجيش الشعب في وضع صعب، لأنهم لم يأخذوا في الحسبان مثل هذا الانحراف الجانح في التمرد. لقد حاول المتمردون في بعض الحالات منع نهب الفنادق، ووصل بهم الأمر إلى إطلاق النار في الهواء لإخافة الناهبين الذين كانوا يخربون فندق غريشام، ولكنهم في حالات أخرى تركوهم يسرقون، لاعتقادهم الخاطئ بأن أولئك الناس البؤساء الجائعين، يظنون أنهم يناضلون بتلك الطريقة من أجل مصلحتهم، لأنهم يواجهونهم بغضب كي يتركوهم يخلعون المتاجر المترفة في المدينة.

ولم يكن المتمردون وحدهم هم من واجهوا اللصوص في شوارع دبلن. بل فعلت ذلك أيضاً نساء كثيرات من أمهات وزوجات وأخوات رجال الشرطة والجنود الذين هاجمهم المنتفضون بالسلاح، وجرحوهم أو قتلوهم خلال الانتفاضة، وكنّ في بعض الأحيان جماعات كبيرة العدد من النساء الجريئات اللاتي استفزهن الألم واليأس والغضب. ووصل الأمر بأولئك النسوة في بعض الحالات إلى التوجه نحو مواقع المتمردين، وشتمهم، ورجمهم بالأحجار، والبصق على المقاتلين ولعنهم ووصفهم بالقتلة. كانت تلك هي التجربة الأقسى بالنسبة لمن كانوا يظنون أن العدالة إلى جانبهم، وخاصة حين يتبينون الحقيقة: اكتشاف أن من يواجهونهم ليسوا كلاب صيد الإمبراطورية، ولا جنود الاحتلال، وإنما أيرلنديات بائسات، أصابتهن المعاناة بالعمى، لا يرين فيهم محرري الوطن، وإنما قتلة أحبائهم، أولئك الأيرلنديين أمثالهم

الذين تتمثل جريمتهم الوحيدة في أنهم بؤساء يعملون في مهنة الجنود والشرطة التي يكسب بها حياتهم فقراء هذا العالم.

ـ لا شيء أبيض وأسود يا عزيزي ـ علقت إليس ـ ولا حتى في قضية على هذا القدر من العدالة. فهنا أيضاً تظهر تلك اللطخات الرمادية التي تجعل كل شيء غائماً.

وافق روجر على أن ما قالته صديقته ينطبق عليه. فمهما كان المرء محترساً ويخطط لأعماله بأكبر قدر من التبصر، فإن الحياة، وهي أشد تعقيداً من كافة الحسابات، تدمر المخططات وتستبدلها بأوضاع ملتبسة ومتناقضة. أولم يكن هو نفسه مثالاً حياً لتلك الالتباسات؟ فمستجوباه ريجينالد هول وباسيل تومسون كانا يظنان أنه جاء من ألمانيا ليقف على رأس الانتفاضة التي أخفى أمرها عنه قادتها حتى اللحظة الأخيرة لأنهم يعرفون أنه سيعارض تمرداً لا يعتمد على عمل منسق مع القوات المسلحة الألمانية. هل يمكن طلب ما هو أكبر من عدم التناسب هذا؟

هل سيشيع الآن انهيار المعنويات بين القوميين؟ فقد سقط أفضل كوادرهم قتلى، أو رمياً بالرصاص أو انتهوا إلى السجن. إعادة بناء حركة الاستقلال ستتطلب أعواماً. والألمان الذين كان كثيرون من الأيرلنديين، مثله، يثقون بهم، قد أداروا لهم ظهورهم. سنوات من التضحية والجهود المكرسة لأيرلندا، ضاعت دون جدوى. وهو هنا، في سجن إنكليزي، ينتظر نتيجة طلب استرحام من المحتمل أن يُرفض. ألم يكن من الأفضل له أن يموت هناك، مع اولئك الشعراء والصوفيين، وهو يطلق الرصاص ويتلقاه؟ كان يمكن أن يكون لموته مغزى حاسماً، بدل ما سيكون عليه خاطئاً موته على المشنقة، مثل مجرم عادي.

«شعراء وصوفيون». هكذا كانوا وهكذا تصرفوا حين لم يختاروا ثكنة عسكرية أو قلعة دبلن، حصن السلطةالاستعمارية، لتكون بؤرة الثورة، وإنما اختاروا مبنى مدنياً، مركز البريد الذي جرت إعادة تأهيله للتو. إنه خيار مواطنين متحضرين وليس خيار سياسيين أو عسكريين. يريدون اجتذاب الأهالي قبل أن يهزموا الجنود الإنكليز. أولم يقل ذلك بوضوح جوزيف بلانكيت في مناقشاتهما في برلين؟ ثورة شعراء وصوفيين متلهفين للشهادة من أجل هز الجماهير المنومة التي تؤمن، مثل جون ريدموند، بالطريق السلمي وحسن نوايا الإمبراطورية للحصول على حريةأيرلندا. أكانوا ساذجين أم متبصرين؟

تنهد، وربتت إليس بتحبب على ذراعه:

ـ الحديث في هذا الأمر محزن ومؤثر، أليس كذلك يا عزيزي روجر؟

ـ أجل يا إليس. إنه محزن ومؤثر. أشعر أحياناً بغضب شديد على ما فعلوه. وفي أحيان أخرى أحسدهم من أعماق روحي ويصير تقديري لهم بلا حدود.

ـ هذا صحيح. فلستُ أفعل شيئاً سوى التفكير في هذا. في شعوري بالحاجة إليك يا روجر ـ قالت إليس وهي تمسك ذراعه ـ فأفكارك، وبُعد بصيرتك يساعدانني كثيراً على رؤية الضوء وسط كل هذا الضباب الكثيف. أتعرف أمراً؟ ليس الآن، وإنما على المدى المتوسط سيتمخض شيء جيد عن كل هذا الذي حدث. وقد ظهرت بعض المؤشرات.

هز روجر رأسه موافقاً دون أن يفهم تماماً ما الذي تعنيه المؤرخة.

ـ فجأة صار أنصار جون ريدموند يفقدون في كل يوم المزيد من قوتهم في أيرلندا ـ أضافت المؤرخة ـ ونحن الذين كنا أقلية انتقلنا إلى أن تكون أكثرية الشعب الأيرلندي إلى جانبنا. قد لا تصدق ذلك، ولكنني أقسم لك إن هذا ما يحدث. فالإعدامات رمياً بالرصاص، والمحاكم العسكرية، وعمليات الإبعاد، تقدم لنا خدمة عظيمة.

انتبه روجر إلى أن *الشريف* الذي يدير لهما ظهره طيلة الوقت، قد تحرك، كما لو أنه سيلتفت إليهما ليأمرهما بالصمت. ولكنه لم يفعل ذلك هذه المرة أيضاً. صارت إليس تبدو متفائلة. فحسب رأيها، ربما لم يكن بيرز وبلانكيت مخطئين إلى الحد الذي يظنه. لأن أعداد مظاهرات الأهالي العفوية تتكاثر كل يوم، في الشوارع، في الكنائس، في جمعيات الأحياء، في النقابات، تضامناً مع الشهداء، مع من يُعدمون رمياً بالرصاص، ومن يُحكم عليهم بأحكام سجن طويلة، وعداءً لرجال الشرطة وجنود الجيش البريطاني. وقد صار هؤلاء هدفاً لشتائم وإهانات المارة إلى حدّ أن الحكومة العسكرية أصدرت تعليمات لرجال الشرطة والجنود بأن يقوموا بدورياتهم في جماعات على الدوام، وأن يرتدوا الملابس المدنية عندما لا يكونون في الخدمة. لأن العداء الشعبي أفقد قوات النظام معنوياتها.

وقد حدث التبدل البارز، على حدّ قول إليس، في الكنيسة الكاثوليكية. فالمراتب الكنسية العليا ومعظم الكهنة أظهروا على الدوام اقتراباً أكبر من الطروحات السلمية، التدريجية لمصلحة الحكم الذاتي لأيرلندا، وكانوا أقرب إلى جون روديموند وأتباعه في الحزب البرلماني الأيرلندي منهم إلى الانفصاليين الراديكاليين في الشين فين والرابطة

الغيليّة والأخوية الجمهورية الأيرلندية والمتطوعين. ولكن ذلك تغير منذ الانتفاضة. ربما أثر فيهم السلوك الديني الصارم الذي أبداه المنتفضون خلال أسبوع المعارك. فشهادات الكهنة ـ ومنهم الراهب أوستين ـ ممن كانوا على المتاريس، وفي المباني والدكاكين التي تحولت إلى بؤر متمردة، كانوا حاسمين: أقاموا قداديس، وتلقوا اعترافات، وقدموا مشاركات في خبز القربان، وكان مقاتلون كثيرون من المنتفضين قد طلبوا من الكهنة مباركتهم قبل أن يبدؤوا بإطلاق النار. وفي كافة مواقع الانتفاضة جرى احترام حظر قاطع لتناول ولو قطرة واحدة من الكحول. وفي فترات هدوء المعارك كان المتمردون يُصلّون جاثين بأصوات عالية. ولم يمتنع أي واحد ممن أُعدموا، بمن فيهم جيمس كونلي الذي يعلن أنه اشتراكي ومشهور بأنه ملحد، عن طلب العون الروحي من كاهن قبل مواجهته فصيلة الإعدام. وعلى كرسي مُقْعَدٍ، وبجراح لا تزال نازفة من الرصاصات التي تلقاها في المعركة، جرى إعدام كونلي بعد أن قبّل الصليب الذي قدمه إليه كاهن سجن كيلمنهام. ومنذ شهر آيار، ازدهرت في كل أنحاء أيرلندا صلوات فعل الشكر والتكريم لشهداء أسبوع الفصح. ولا يمر يوم أحد، في مواعظ القداديس، إلا ويحث الكهنة رعيتهم من المؤمنين على الصلاة لراحة أرواح الوطنيين الذين أعدمهم الجيش البريطاني ودفنهم بصورة سرية. وقد قدم القائد العسكري السير جون ماكسويل احتجاجاً رسمياً إلى المراتب الدينية الكاثوليكية، وبدلاً من يُقدم إليه تفسيراً، برر المطران أودوير لكهنته ذلك باتهام الجنرال بأنه «دكتاتور عسكري» ويتصرف بطريقة غير مسيحية مع المحكوم عليهم بالإعدام وبرفضه إعادة جثامين من أُعدموا رمياً بالرصاص إلى أسرهم. وهذا الفعل الأخير، بصورة خاصة، إذ قامت

الحكومة العسكرية، في ظل ضمانات القانون العرفي، بدفن الوطنيين سراً لتجنب تحول قبورهم إلى مراكز حج للجمهوريين، مما سبب سخطاً شمل أناساً لم تكن تتعاطف حتى ذلك الحين مع الراديكاليين.

ـ وباختصار، البابويون يكسبون مزيداً من الميدان بينما ننكمش نحن القوميين الأنجليكانيين مثل ***جلد الخلد*** في تلك الرواية لبلزاك. لم يبق إلا أن نتحول أنا وأنت أيضاً إلى الكاثوليكية يا روجر ـ قالت إليس مازحة.

ـ أنا فعلت ذلك عملياً ـ أجاب روجر ـ وليس لأسباب سياسية.

ـ أنا لن أفعله أبداً، لا تنس أن أبي كان رجل دين في كنيسة أيرلندا ـ قالت المؤرخة ـ أما حالتك فلا تفاجئني، كنت أراها آتية منذ زمن. أتتذكر الممازحات التي كنا نوجهها إليك في السهرات في بيتي؟

ـ تلك السهرات التي لا تُنسى ـ تنهد روجر ـ سأروي لك شيئاً. فالآن، مع وقت الفراغ الطويل المتوافر للتفكير، قمت في أيام كثيرة بإجراء هذا الحساب: أين ومتى كنت أكثر سعادة؟ في سهرات أيام الأربعاء، في بيتك في شارع غروسفنور رود يا عزيزتي إليس. لم أقل لك ذلك قطّ من قبل، ولكنني كنت أخرج من تلك الاجتماعات بحالة ابتهاج. كنت أخرج متحمساً وسعيداً. متصالحاً مع الحياة. كنت أفكر: «من المؤسف أنني لم أدرس، لم أمرّ في الجامعة». فحين أسمعكِ أنت وأصدقاءك أشعر أنني بعيد جداً عن الثقافة مثل السكان الأصليين في أفريقيا أو في الأمازون.

ـ أنا وأصدقائي كان يحدث لنا الشيء نفسه معك يا روجر. كنا نحسد رحلاتك، مغامراتك، وأنك عشت حيوات عديدة مختلفة في

تلك الأمكنة. لقد سمعتُ يتس يقول ذات مرة: «روجر كيسمنت هو الأيرلندي الأكثر عالمية ممن عرفتهم. إنه مواطن عالمي حقيقي». وأظن أنني لم أخبرك بهذا من قبل قط.

تذكَّرا نقاشاً جرى قبل سنوات، في باريس، حول الرموز، مع هربرت وارد. فقد عرض عليهما هذا الأخير تفريغ قالب حديث لأحد تماثيله يشعر برضى شديد عنه: تمثال ساحر أفريقي. وقد كان قطعة بديعة بالفعل، فهي تُظهر، على الرغم من طابعها الواقعي، كل ما هو سري وغامض في ذلك الرجل ذي الوجه المغطى بشقوق، والمسلح بمكنسة وجمجمة، مدركاً تلك السلطات التي تمنحه إياها ألوهية الغابة، والجداول والضواري، والتي يثق بها رجال القبيلة ونساؤها بصورة عمياء، وبقدرتها على إنقاذهم من الدسائس، والأمراض، والمخاوف، وتتيح لهم التواصل مع عالم الغيب.

ـ جميعنا نحمل في داخلنا واحداً من هؤلاء الأسلاف ـ قال هربرت، مشيراً إلى ساحر القبيلة البرونزي الذي يبدو، بعينيه نصف المغمضتين، في غيبوبة أحد تلك الأحلام التي يُغرقه فيها مغلى بعض الأعشاب ـ أتريدون الدليل؟ إنها الرموز التي نحترمها بتوقير ديني: شعارات الدول، الأعلام، الصلبان.

جادله روجر وإليس، متذرعين بأنه لا يجب النظر إلى الرموز باعتبارها مغالطة تاريخية من عصور ما قبل العقلانية الإنسانية. بل على العكس، فالراية على سبيل المثال هي الرمز لجماعة بشرية تشعر بأنها متضامنة وتشترك في معتقدات، وقناعات، وعادات، وتحترم الفروقات والاختلافات الفردية التي لا تدمر القاسم المشترك، بل تعززه. واعترف

كلاهما بأن رؤيتهما خفق علم جمهوري أيرلندي يهز مشاعرهما على الدوام. كم سخر منهما هربرت وساريتا يومها بسبب هذه الجملة!

عندما علمت إليس أنه بينما كان بيرز يقرأ إعلان الاستقلال، ارتفعت رايات جمهورية كثيرة على سطح مكتب البريد، قاعة الحرية. وفي ما بعد، حين رأت صور الأبنية التي احتلها متمردو دبلن، مثل فندق متروبول وفندق إمبريال وعلى نوافذها ومتاريسها الأعلام التي تهزها الريح، أحست بحنجرتها تنغلق. لا بد أن ذلك استثار سعادة غير محدودة في من عاشوه مباشرة. وعلمت أيضاً، في ما بعد، أنه خلال الأسابيع السابقة للانتفاضة، كانت نساء «مجلس النساء الأيرلنديات»، الهيئة النسائية المساندة للمتطوعين، وبينما هؤلاء يجهزون قنابل بيتية، وعبوات ديناميت، ورمانات يدوية، وفؤوساً وحراباً، كانت أولئك النساء يجمعن أدوية، وأضمدة، ومضادات التهابات، ويخطن رايات ثلاثية الألوان لتُرفع صباح يوم الاثنين الرابع والعشرين من نيسان على الأسطح في مركز دبلن. وكان بيت آل كلانكيت، في كيماغ، هو أنشط ورشات صنع الأسلحة وأعلام الانتفاضة.

ـ لقد كان عملاً تاريخياً ـ أكدت إليس ـ. نحن نتعسف في استخدام الكلمات. فالسياسيون، بصورة خاصة، يطلقون صفة «تاريخي» و«تاريخية» على أية بلاهة. ولكن تلك الرايات الجمهورية في سماء دبلن القديمة، كانت كذلك. وسيجري تذكرها إلى الأبد بحماسة. إنها عمل تاريخي. لقد انتشر في العالم بأسره يا عزيزي. في صحف الولايات المتحدة نشروا الخبر في الصفحات الأولى. ألم تكن تحب رؤية ذلك الحدث؟

أجل، هو أيضاً يتمنى لو أنه رأى ذلك. فهناك مزيد من أهالي الجزيرة، على حدّ قول إليس، يتحدون في كل يوم الحظر ويرفعون راياتٍ جمهورية على واجهات بيوتهم، حتى في بلفاست وديري، المدينتين المواليتين للبريطانيين.

ومن جهة أخرى، على الرغم من الحرب في القارة وما يأتي عنها من أخبار مقلقة ـ فالعمليات تتمخض عن أرقام دوارية من الضحايا والنتائج مازالت غائمة ـ، هنالك أناس كثيرون في إنكلترا نفسها يبدون استعداهم لمساعدة من أبعدتهم السلطات العسكرية من أيرلندا. مئات الرجال والنساء ممن اعتُبروا مخلين بالنظام طُردوا وهم منتشرون الآن في أنحاء إنكلترا كلها، مع أوامر بأن يستقروا في أمكنة نائية، ومعظمهم ليس لديهم موارد للعيش. وإليس المنتمية إلى جمعيات إنسانية ترسل إليهم نقوداً ومؤناً وملابس، قالت لروجر إن الجمعيات لا تجد صعوبة في جمع أموال ومساعدات من الجمهور عموماً. وقد كانت مشاركة الكنيسة في هذا الأمر مهمة أيضاً.

كان بين المبعدين عشرات النساء. كثيرات منهن ـ تبادلت إليس الحديث معهن مباشرة ـ يشعرن، وسط تضامنهن، بالغضب من قادة التمرد الذين وضعوا عقبات أمام مشاركة النساء مع المتمردين. ومع ذلك، فإن الأمر انتهى بمعظمهم، عن طيب خاطر أو مرغمين، إلى قبولهن في المتاريس والاستفادة منهن. والقائد الأخير الذي رفض صراحة قبول نساء في بولاندز ميل والمنطقة المحيطة بها التي تشرف عليها قواته، هو أيمون دي فاليرا. وقد أغضبت حججه مناضلات (مجلس النساء الأيرلنديات) لأنها حجج محافظة: إن مكان النساء هو

البيت وليس المتاريس، وأشغالهن الطبيعية هي المغزل، والمطبخ، والزهور، والإبرة والخيط، وليس المسدسات والبنادق. وأنه يمكن لحضورهن أن يشغل المقاتلين الذين سيهملون واجباتهم من أجل حماية النساء. أستاذ الرياضيات الطويل والنحيل، قائد المتطوعين الأيرلنديين، والذي تحاور معه روجر كيسمنت مرات كثيرة وتبادل معه مراسلات غزيرة، حكمت عليه بالموت إحدى تلك المحاكم العسكرية السرية والسريعة التي حاكمت قادة الانتفاضة. ولكنه نجا في الدقيقة الأخيرة. فبعد أن اعترف للكاهن، وتلقى المسحة الأخيرة، وراح ينتظر بهدوء تام، والمسبحة بين أصابعه، اقتياده إلى الجدار الخلفي في سجن كيلمنهام حيث كانت تتم عمليات الإعدام رمياً بالرصاص، قررت المحكمة تخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد. وكانت القوات التي يقودها أيمون دي فاليرا، حسبما تقول الشائعات، وعلى الرغم من عدم تمتع هذا الأخير بأي تأهيل عسكري، قد قاتلت بفعالية وانضباط كبيرين، وكبدت العدو الكثير من الخسائر. وكانت آخر من استسلم. ولكن الشائعات تقول أيضاً إن التوتر والتضحيات خلال تلك الأيام كانت قاسية، حتى إن مرؤوسيه في المحطة، حيث أقام مقر قيادته، ظنوا أنه سيفقد عقله لشدة تقلب سلوكه. ولم يكن الحالة الوحيدة في هذا الشأن. فتحت وابل الرصاص والنار، دون نوم، ودون أكل أو شرب، أصيب بعضهم بالجنون أو تعرضوا لنوبات عصبية في المتاريس.

شرد ذهن روجر وهو يتذكر شبح أيمون دي فاليرا الطويل، وأسلوبه الاحتفالي والطقوسي في الكلام. وانتبه إلى أن إليس تتحدث الآن عن حصان. تفعل ذلك بتأثر وبدموع في عينيها. فالمؤرخة تكنّ حباً عظيماً

للحيوانات، ولكن لماذا تنفعل بهذه الطريقة شديدة الخصوصية على ذلك الحصان؟ وشيئاً فشيئاً راح يفهم أن ابن أختها قد روى لها الواقعة. الموضوع يتعلق بحصان أحد جنود الخيالة البريطانيين الذين شنوا في يوم الانتفاضة الأول هجوماً على مكتب البريد، وخسروا ثلاثة رجال. تلقى الحصان عدة رصاصات وانهار أمام أحد المتاريس مصاباً بجراح بالغة. كان يصهل برعب، يخترقه الألم. يتمكن أحياناً من النهوض، ولكن ضعفه بعد فقدانه الكثير من دمائه يُسقطه أرضاً من جديد بعد أن يخطو بضع خطوات. جرى وراء المتراس جدال بين من أرادوا الإجهاز عليه كيلا يعاني أكثر، ومن يعارضون ذلك معتقدين أنه سيتمكن من استعادة قواه. وأخيراً أطلقوا عليه النار. كان لا بد من رصاصتي بندقية لوضع حدّ لاحتضاره.

ـ لم يكن الحيوان الوحيد الذي مات في الشوارع ـ قالت إليس محزونة ـ حيوانات كثيرة ماتت: أحصنة، كلاب، قطط. ضحايا بريئة لقسوة البشر. في ليال كثيرة تداهمني كوابيس عن موتها. يا للحيوانات المسكينة. نحن البشر أسوأ من الحيوانات، أليس كذلك يا روجر؟

ـ ليس دوماً يا عزيزتي. أؤكد لك أن بعضها لا يقل شراسة عنا. أفكّرُ في الأفاعي مثلاً، فسمها يقتلُ ببطء، وسط حشرجات فظيعة. وأسماك الكانيرو(١) الأمازونية التي تندس في البدن من الشرج وتسبب نزفاً فظيعاً. باختصار...

---

(١) أسماك الكانيرو: canero وتسمى أيضاً مصاصة الدماء، جنس أسماك موطنها الأمازون، مخيفة بعدوانيتها المتمثلة باندساسها من فتحات الجسد البشري واستقرارها فيه للتغذي على دمه. وهي نحيلة وشفافة مما يجعل اكتشاف وجودها في الماء صعباً.

ـ فلنتكلم في أمر آخر ـ قالت إليس ـ يكفي حديثاً عن الحرب، والمعارك، والجرحى والقتلى.

ولكنها بعد لحظات كانت تروي لروجر أنه في أوساط مئات الأيرلنديين المبعدين والمجلوبين إلى السجون الإنكليزية، يبدو مذهلاً كيف يتعاظم التأييد للشين فين والأخوية الجمهورية الأيرلندية. حتى إن أشخاصاً معتدلين ومستقلين ومعروفين بتوجهاتهم السلمية انضموا إلى هاتين المنظمتين الراديكاليتين. والعدد الكبير من العرائض التي تُقدم في كل أنحاء أيرلندا مطالبة بالعفو العام عن المحكومين. وفي الولايات المتحدة أيضاً، في كافة المدن التي تتواجد فيها جاليات أيرلندية، تتواصل مظاهرات الاحتجاج ضد القمع المفرط بعد الانتفاضة. لقد قام جون ديفوي بعمل عظيم وتوصل إلى جمع تواقيع أفضل شخصيات المجتمع الأمريكي على طلب عفو عام، ابتداء من فنانيين ورجال أعمال حتى سياسيين وأساتذة جامعيين وصحفيين. وقد صوت مجلس النواب على اقتراح، صيغ بعبارات صارمة، يدين أحكام الإعدام الصورية ضد خصوم سلموا أسلحتهم. على الرغم من الهزيمة، لم تسؤ الأمور بسبب الانتفاضة. فبالنسبة إلى الدعم الدولي، لم يكن الوضع أفضل قطّ مما هو عليه الآن للوطنيين.

ـ لقد انقضى وقت الزيارة بزيادة كبيرة ـ قاطعها ***الشريف*** ـ يجب أن تتبادلا الوداع.

ـ سأحصل على إذن زيارة آخر، وسآتي لرؤيتك قبل أن. . . ـ قالت إليس ذلك وصمتت وهي تنهض واقفة. لقد شحب لونها.

ـ أجل، بالطبع يا عزيزتي إليس ـ أكد روجر وهو يعانقها ـ آمل أن

تحصلي على الإذن. أنت لا تعرفين كم تُشعرني رؤيتك بالتحسن. كم تطمئنني وتملؤني بالسلام.

ولكن الأمر لم يكن كذلك هذه المرة. رجع إلى زنزانته مع ركام من الصور في رأسه، وكلها مرتبطة بتمرد عيد الفصح، كما لو أن ذكريات صديقته وشهاداتها قد أخرجته من سجن بينتونفيل وألقت به وسط حرب الشوارع، في آوار المعارك. أحس بحنين هائل لدوبلن، لمبانيها وبيوتها المشيدة بالقرميد الأحمر، لحدائقها الصغيرة المحمية بأسيجة خشبية، ولتراماتها الصاخبة، ولأحيائها المشوهة بمساكن متداعية لأناس بائسين وحفاة تحيط بجزر الوفرة والحداثة. كيف صار ذلك كله بعد قصف المدفعية والقنابل الحارقة، والانهيارات؟ فكر في مسرح آبي، في ذي غيت، وفي الأولمبيا، في البارات كريهة الروائح العابقة برائحة البيرة والمجادلات الحادة. هل ستعود دبلن إلى ما كانت عليه؟

لم يعرض عليه *الشريف* أن يأخذه إلى دوشات الاستحمام ولم يطلب هو منه ذلك. كان يرى أن السجان مكتئب جداً، بملامح من السهو والغياب، فلم يشأ إزعاجه. تحزنه رؤيته يتألم بهذه الطريقة، ويحزنه أكثر أنه لا يجد ما يمكنه عمله لبث الحماسة فيه. لقد جاء *الشريف* مرتين ليتبادل الحديث معه في زنزانته، خارقاً بذلك الأنظمة، وفي كل مرة كان روجر يغتم لأنه لم يكن قادراً على منح مستر ستاسي الطمأنينة التي يبحث عنها. ففي المرة الثانية، كما في الأولى، لم يفعل شيئاً سوى التحدث عن ابنه أليكس وموته في المعارك ضد الألمان في لوس، ذلك المكان المجهول في فرنسا الذي يشير إليه كركنٍ ملعون.

في إحدى اللحظات، وبعد صمت طويل، اعترف السجان لروجر بأنه يشعر بالمرارة لذكرى تلك المرة التي جلد فيها أليكس بالحزام، وكان لا يزال صغيراً جداً بعد، لأنه سرق قطعة حلوى من متجر الخبز على الناصية. «لقد ارتكب خطأ ويجب معاقبته ـ قال مستر ستاسي ـ ولكن ليس بتلك الطريقة الصارمة. جلد طفل عمره سنوات قليلة بتلك الطريقة كان قسوة لا تغتفر». حاول روجر أن يهدئه مذكراً إياه بأنه هو أيضاً، وأخوته، وحتى أمه، تلقوا الضرب أحياناً من أبيه النقيب كيسمنت، ومع ذلك لم يتخلوا عن حبهم له قطّ. ولكن، هل كان مستر ستاسي يسمعه؟ فقد ظل صامتاً، يجتر آلامه، بتنفس عميق ومتهدج.

وعندما أقفل السجان الزنزانة، ذهب روجر للاستلقاء على السرير الضيق. كان يتنهد محموماً. الحديث مع إليس لم يُحسن من حالته. فهو يشعر الآن بالحزن لأنه لم يكن هناك مرتدياً زي متطوع والماوزر في يده، يشارك في الانتفاضة، دون أن يهتم بأن ذلك العمل المسلح سينتهي بمجزرة. ربما كان باتريك بيرز وجوزيف لانكيت والآخرون على حق. فالمسألة ليست في كسب القتال، وإنما في المقاومة لأطول وقت ممكن. في التضحية بالنفس مثل شهداء المسيحية في الأزمنة البطولية. لقد كانت دماؤهم البذرة التي نمت وتفتحت وقضت على الآلهة الوثنيين واستبدلتهم بيسوع المُخَلِّص. الدماء التي سالت من المتطوعين ستزهر أيضاً، ستفتح عيون العميان وتكسب الحرية لأيرلندا. كم من الرفاق والأصدقاء في الشين فين والمتطوعين وجيش الشعب والأخوية الجمهورية الأيرلندية كانوا على تلك المتاريس، وهم يعرفون أنه مسعى انتحاري؟ إنهم مئات، وآلاف دون شك. أولهم باتريك بيرز. فقد كان يرى على الدوام أن الاستشهاد هو الأساس لقضية عادلة. ألا

يشكل هذا جزءاً من الشخصية الأيرلندية، من التاريخ السلتي؟ قابلية التماهي مع معاناة الكاثوليك كانت حاضرة منذ القدم لدى كوتشولن، ولدى أبطال أيرلندا الأسطوريين ومآثرهم العظيمة، وكذلك في البطولة الهادئة لقديسيها التي درستها صديقته إليس بكثير من الحب والحكمة: قدرة لامتناهية على المآثر العظيمة. ربما تكون الروح الأيرلندية غير عملية، ولكن يعوض عنها بسخاء منقطع النظير في تبني أشد الأحلام جرأة في العدالة والمساواة والسعادة. حتى عندما تكون الهزيمة مؤكدة. فعلى الرغم من كل لا عقلانية خطة بيرز وتوم كلارك وبلانكيت والآخرين، ظهرت إلى السطح في تلك الأيام الستة، كيما يقدّرها العالم، روح الشعب الأيرلندي الجامحة رغم قرون طويلة من العبودية، الروح المثالية، الجسورة، المستعدة لكل شيء في سبيل قضية عادلة. كم كان مختلفاً موقف مواطنيه الأسرى في معسكر ليمبورغ، العميان والصم عن تحريضه له. موقفهم هو الوجه الآخر لأيرلندا: أيرلندا المذعنين، من فقدوا بعد قرون من الاستعمار تلك الشرارة الجامحة التي حملت نساء ورجالاً كثيرين إلى متاريس دبلن. أتراه أخطأ مرة أخرى في حياته؟ ما الذي كان سيحدث لو أن الأسلحة التي جاءت بها السفينة **أود** وصلت إلى أيدي المتطوعين في ليلة العشرين من نيسان على شاطئ تريلي باي؟ تخيل مئات الوطنيين ينطلقون على درجات هوائية، وفي سيارات وعربات، وعلى البغال والحمير وينتشرون تحت النجوم ليوزعوا في كل أنحاء جغرافية أيرلندا تلك الأسلحة والذخائر. أكانت ستغير الأمور تلك العشرون ألف بندقية والعشرة رشاشات والخمسة ملايين طلقة لو أنها وصلت إلى أيدي المنتفضين؟ كانت المعارك ستستمر لوقت أطول على الأقل، ولكان المتمردون قد دافعوا عن

أنفسهم بصورة أفضل وأنزلوا مزيداً من الخسائر بالعدو. لاحظ بسعادة أنه يتثاءب. سيمحو النوم تلك الصور ويهدئ هذه التفاهة. وبدا له أنه يغرق.

رأى حلماً لطيفاً. أمه تظهر وتختفي، باسمة، جميلة ونحيلة بقبعتها القش الطويلة التي تُعلّق بها شريطاً يطفو مع الريح. ومظلة مزركشة برسوم أزهار تحمي بياض خديها من الشمس. كانت عينا آن جيفسون مركزتين عليه وعينا روجر مركزتين عليها، ويبدو أنه لا يمكن لشيء أو أحد أن يقطع تواصلهما الصامت والعذب. ولكن أطل فجأة، من الأيكة الصغيرة، نقيب الخيالة روجر كيسمنت، بزيّ الخيالة الخفيفة المتلألئ. كان ينظر إلى آن جيفسون بعينين فيهما جشع داعر. أغضبت كل تلك الفجاجة روجر وأخافته. لم يدر ما عليه عمله. فليس لديه قوة لمنع ما يحدث ولا للركض بعيداً والتحرر من ذلك الهاجس الرهيب. وبدموع في عينيه، وبينما هو يرتجف من الخوف والسخط، رأى النقيب يحمل أمه. سمعها تطلق صرخة مفاجأة ثم تضحك بعد ذلك ضحكة مغتصبة ومتساهلة. ومرتجفاً من القرف والغيرة، رآها تضرب بساقيها في الهواء، كاشفة عن كاحليها النحيلين، بينما أبوه يحملها راكضاً بين الأشجار. بدأا يختفيان في الأيكة وضحكهما يخفت إلى أن تلاشى. إنه يسمع الآن أنين الريح وتغريد الطيور. لم يبكِ. فالعالم قاس وظالم والموت أفضل من المعاناة بهذه الطريقة.

استمر الحلم وقتاً طويلاً، ولكنه عندما استيقظ، والظلام لا يزال مخيماً، بعد بضع دقائق أو ساعات، لم يعد روجر يتذكر نهاية الحلم. وعاد عدم معرفته كم الساعة يملؤه بالغم من جديد. في بعض الأحيان

ينسى ذلك، ولكن أدنى قلق، أو شك، أو همّ، يجعل وخز جزءه من عدم معرفته في أي لحظة هو من النهار أو الليل يُحدث جليداً في قلبه، ويراوده إحساس بأنه قد أستُبعد من الزمن، ويعيش في ليمبو لا وجود فيه لما هو ما قبل وما هو الآن وما هو ما بعد.

لقد مضى عليه أكثر قليلاً من ثلاثة شهور منذ اعتقاله ويشعر كما لو أنه منذ سنوات بين القضبان، في عزلة يفقد فيها إنسانيته يوماً فيوماً، وساعة فساعة. لم يقل ذلك لإليس، ولكن إذا كان الأمل قد راوده يوماً بأن توافق الحكومة البريطانية على طلب الاسترحام وخففت حكم الإعدام إلى السجن، فإنه فقد ذلك الأمل الآن. ففي أجواء الغضب والرغبة في الانتقام التي وضعت انتفاضة أسبوع الفصح فيها التاج، وبخاصة عسكرييه، صارت إنكلترا بحاجة إلى إنزال عقوبة تكون عبرة نموذجية للخونة الذين يرون في ألمانيا، العدو الذي تقاتله الإمبراطورية في سهول الفلاندر، حليفاً لأيرلندا في نضالها من أجل الانعتاق. الغريب أن مجلس الوزراء أجّل القرار كثيراً. ما الذي ينتظرونه؟ أيريدون إطالة أمد احتضاره بجعله يدفع ثمن جحودة للبلاد التي منحتة الألقاب وشرّفته فردّ عليها بالتآمر مع العدو؟ لا، ففي السياسة لا أهمية للمشاعر، وإنما للمصالح والمنافع. لا بد أن الحكومة تُقَوِّم ببرود المنافع والمضار التي سيأتي بها إعدامه. أينفع في أن يكون عبرة؟ هل ستسوء علاقات الحكومة بالشعب الأيرلندي؟ حملة تشويه سمعته ترمي إلى ألا يبكي أحدٌ هذا الحثالة البشرية، هذا المنحط الذي ستحرر المشنقة المجتمع المحترم منه. لقد كان غبياً بتركه تلك اليوميات في متناول يد أي كان حين سافر إلى الولايات المتحدة. إهمال ستستغله

الإمبراطورية على أحسن وجه وسيشوه لوقت طويل حقيقة حياته، وسلوكه السياسي، بل وموته أيضاً.

غفا مرة أخرى. وبدل الحلم، رأى في هذه المرة كابوساً لم يستطع أن يتذكره جيداً في صباح اليوم التالي. ظهر في الكابوس طائر صغير، كناري صافي الصوت تعذبة أسلاك القفص المحبوس فيه. ويلحظ في خفقه اليائس لجناحيه الذهبيين، دون توقف، الإحساس كما لو أن تلك الأسلاك ستتباعد لتتيح له الانطلاق. عيناه الصغيرتان تدوران بصورة متواصلة في محجريهما طالبتين الرحمة. ورجر، طفل ببنطال قصير، يقول لأمه إنه يجب ألا توجد الأقفاص، ولا حدائق الحيوان، وإن الحيوانات يجب أن تعيش بحرية على الدوام. وفي الوقت نفسه، كان شيء سرّي يحدث، خطرٌ ما يقترب منه، شيء غير مرئي تلتقطه حساسيته، شيء مخاتل، غدار، ها قد صار بجانبه ويستعد لضربه. يأخذ بالتعرق، ويرتجف مثل ورقة.

استيقظ مضطرباً وهو شبه عاجز عن التنفس. يشعر بالاختناق. قلبه ينبض في صدره بقوة شديدة ربما في بداية سكتة قلبية. هل عليه أن يستدعي الحارس المناوب؟ استبعد الفكرة على الفور. ماذا يريد أفضل من الموت هنا، على سريره الضيق، ميتة طبيعية تخلّصه من المشنقة؟ بعد دقائق من ذلك هدأ قلبه وتمكن من التنفس من جديد بصورة طبيعية.

هل سيأتي الأب كاري اليوم؟ إنه يرغب في رؤيته وتبادل حديث طويل معه حول موضوعات ومخاوف لها علاقة كبيرة بالروح والدين والرب، وضئيلة بالسياسة. وفي تلك اللحظة بالذات، حين بدأ يهدأ

وينسى كابوسه الجديد، ورد إلى ذهنه لقاءه الأخير بكاهن السجن ولحظة التوتر المفاجئة تلك التي ملأته بالقلق. كانا يتحدثان عن الكاثوليكية. الأب كاري يقول له إنه عليه عدم الكلام عن «تحوّله»، وبما أنه قد عُمِّد وهو طفل، فإنه لم يبتعد قطّ عن الكنيسة. والعملية ستكون مجرد تحديث لوضعه الكاثوليكي، وهو أمر لا يحتاج إلى أية إجراءات شكلية. وعلى كل حال ـ في تلك اللحظة لاحظ روجر أن الأب كاري يتردد باحثاً عن الكلمات بحذر كي يتجنب جرح مشاعره ـ، فإن غبطة الكردينال بورن قد فكر في أنه، إذا بدا لروجر مناسباً، يمكنه أن يوقّع على وثيقة، على نص خاص بينه وبين الكنيسة، يعرب فيه عن إرادته بالعودة، تأكيداً لوضعه الكاثوليكي وشهادة في الوقت نفسه على تخليه وندمه على أخطاء وعثرات قديمة.

لم يستطع الأب كاري مداراة عدم الراحة الذي يشعر به.

ساد صمت. وبعد ذلك قال روجر بنعومة:

ـ لن أوقّع أي وثيقة أيها الأب كاري. عودة انضمامي إلى الكنيسة الكاثوليكية يجب أن يكون مسألة حميمة، وتكون حضرتك الشاهد الوحيد عليها.

ـ هذا ما سيكون ـ قال الكاهن.

تلا ذلك صمت آخر، ومتوتر أيضاً.

ـ هل يعني الكاردينال بورن ما أفكر فيه؟ ـ سأله روجر ـ. أعني الحملة ضدي، الاتهامات بشأن حياتي الخاصة. أهذا ما يجب أن أندم عليه في وثيقة مكتوبة كي أُقبل في الكنيسة الكاثوليكية؟

صار تنفس الأب كاري أسرع. كان يبحث من جديد عن الكلمات قبل أن يجيب.

ـ الكردينال بورن رجل طيب وكريم، ذو روح رحيمة ـ أكد أخيراً ـ ولكن لا تنسى يا روجر، إنه يحمل على كاهله مسؤولية السهر على حسن سمعة الكنيسة في بلاد نشكل فيها نحن الكاثوليك أقلية وحيث مازال هناك من يغذون أشكالاً من الرهاب ضدنا.

ـ قل لي بصراحة أيها الأب كاري: هل وضع الكردينال شرطاً على قبولي في الكنيسة الكاثوليكية بأن أوقّع هذه الوثيقة التي أندم فيها على تلك الأمور الخسيسة والرذائل التي تتهمني بها الصحافة؟

ـ ليس شرطاً، إنه مجرد اقتراح ـ قال رجل الدين ـ. يمكنك قبوله أو عدم قبوله وهذا لا يغير شيئاً. فأنت قد عُمِّدت. إنك كاثوليكي وستبقى كذلك. ولنترك الحديث في هذا الأمر.

ولم يعودا، بالفعل، إلى التحدث في الأمر. ولكن ذكرى هذا الحوار كانت تعاود روجر بين حين وآخر وتحمله إلى التساؤل عما إذا كانت رغبته في العودة إلى كنيسة أمه هي رغبة نقية أم إنها ملطخة بظروف وضعه. ألم يكن عملاً أملته أسباب سياسية؟ ألا يكون عملاً يُظهر فيه تضامنه مع الأيرلنديين الكاثوليك المؤيدين للاستقلال وعداءه لتلك الأقلية، الأقلية العظمى التي هو بروتستانتياً منها، والتي تريد البقاء كجزء من الإمبراطورية؟ وما هي، في عيني الرب، قيمة تحوّل لا يشكل في العمق أية استجابة روحية، وإنما لهفة للإحساس بأنه محمي من جماعة، وأن يكون جزءاً من قبيلة كبيرة؟ سيرى الرب في مثل تحوّل كهذا تخبط ذراعي مشرف على الغرق.

ـ ما هو مهم الآن يا روجر ليس الكردينال بورن، ولا أنا، ولا كاثوليك إنكلترا، ولا كاثوليك أيرلندا ـ قال الأب كاري ـ. المهم الآن هو أنت. عودة لقائك بالرب. هناك تكمن القوة، الحقيقة، هذا السلام الذي تستحقه بعد حياة شديدة الزخم ومفعمة بكثير من التجارب التي كان عليك مواجهتها.

ـ أجل، أجل أيها الأب كاري ـ وافق روجر جزعاً ـ. أعرف ذلك. ولكن، بالضبط. إنني أبذل جهداً، أقسم لك. أحاول أن أجعله يسمعني، أن أصل **إليه**. وفي بعض المرات، وهي قليلة جداً، يبدو لي أنني أتوصل إلى ذلك. وعندئذ أشعر بشيء من السلام، بتلك السكينة غير المعقولة. كما في بعض الليالي، هناك في أفريقيا، تحت القمر المكتمل، والسماء المفعمة بالنجوم، ودون قطرة ريح واحدة تحرك الأشجار، هسيس الحشرات. كل شيء كان جميلاً جداً وهادئاً جداً حتى إن التفكير الوحيد الذي كان يدور في رأسي على الدوام: «الرب موجود. كيف يمكن، وأنا أرى ما آراه، مجرد تخيل أنه غير موجود؟». ولكنني في أحيان أخرى أيها الأب كاري، وهي معظم الأحيان، لا أراه، لا يرد عليّ، لا يسمعني. فأشعر أنني وحيد جداً. وفي حياتي، أشعر معظم الوقت بأنني وحيد. والآن، في هذه الأيام، يحدث لي ذلك بكثرة. ولكن وحدة الرب أسوأ بكثير. عندئذ أقول لنفسي: «الرب لا يسمعني ولن يسمعني. سأموت وحيداً مثلما عشت». هذا شيء يعذبني ليلاً ونهاراً يا أبتاه.

ـ إنه موجود يا روجر. يسمعك. يعرف ما تشعر به. وأنك بحاجة

إليه. ولن يخذلك. وإذا كان هناك شيء يمكنني أن أضمنه لك، وأنا واثق منه بالمطلق، فهو أن الرب لن يخذلك.

وفي الظلام، بينما هو ممدد على سريره، فكر روجر في أن الأب كاري قد فرض على نفسه مهمة بطولية كبطولة المتمردين على المتاريس، أو أكبر منها: حمل المواساة والسلام لتلك الكائنات اليائسة الممزقة التي ستقضي سنوات طويلة في الزنازين أو من يتهيؤون للصعود إلى المشنقة. إنها مهمة رهيبة، مدمرة للروح الإنسانية، ولا بد أنها أوصلت الأب كاري في أيام كثيرة، ولاسيما في بداية خدمته، إلى حدود اليأس. ولكنه يعرف كيف يخفي ذلك. إنه يحتفظ على الدوام بالهدوء وينقل في كل لحظة هذا الشعور من التفهم والتضامن الذي يريحه، هو روجر. لقد تحدثا ذات مرةعن الانتفاضة.

ـ ما الذي كنت ستفعله أيها الأب كاري لو أنك كنت موجوداً في دبلن تلك الأيام؟

ـ الذهاب لتقديم العون الروحي لمن يحتاج إليه، مثلما فعل كهنة كثيرون.

وأضاف أنه من أجل تقديم مساعدة روحية للمتمردين ليس بحاجة لأن يكون متفقاً مع فكرة المتمردين في أن حرية أيرلندا لا يمكن الوصول إليها إلا بالسلاح.

لم يكن ذلك بكل تأكيد هو ما يؤمن به الأب كاري الذي يدعو على الدوام إلى نبذ العنف. ولكنه كان سيذهب لتلقي الاعتراف، وتقديم خبز القربان، والصلاة لمن يطلب منه ذلك، ومساعدة المرضى والأطباء. هذا ما فعله عدد كبير من رجال الدين ومن المتدينات، وقد

دعمتهم المراتب الكنسية في ذلك. فالرعاة يجب أن يكونوا حيث يوجد القطيع، أليس كذلك؟

هذا كله صحيح، ولكن الصحيح أيضاً هو أن فكرة الرب لا يتسع لها العقل البشري المحدود. لا بد من إدخالها إليه باستخدام لبَّاسة، لأنها لا تتوافق مع مقاسه تماماً. لقد تحدث هو وهربرت وارد مرات كثيرة حول هذا الموضوع. وكان هربرت يقول: «في مسألة الرب يجب الإيمان، وليس التفكير. فإذا فكرت، يتبخر الرب مثل نفثة من الدخان».

لقد أمضى روجر حياته في الإيمان والشك. ولم يكن قادراً، بما في ذلك الآن، وهو على أبواب الموت، أن يؤمن بالرب بمثل ذلك الإيمان الحاسم الذي كانت تؤمن به أمه، أو أبوه، أو إخوته. كم هم محظوظون أولئك الذين لم يكن وجود الكائن الأعلى مشكله لهم على الإطلاق، بل يرونه يقيناً ينتظم لهم العالم بفضله، ويجد كل واحد منهم تفسيره وعلة وجوده. من يؤمنون بهذه الطريقة يصلون دون ريب إلى استسلام أمام الموت لن يعرفه أبداً من عاشوا، مثله، وهم يلعبون لعبة الغُمَّيضة مع الرب. تذكّر روجر أنه كتب ذات مرة قصيدة بهذا العنوان: «الغُمَّيضة مع الرب». لكن هربرت وارد أكد له أنها قصيدة سيئة جداً، فألقى بها روجر إلى القمامة. أمر مؤسف. كم يطيب له أن يقرأها ويصححها الآن.

بدأ الفجر بالبزوغ. فقد بدأ شعاع خفيف بالتسلل من بين قضبان النافذة العالية. قريباً سيأتون من أجل إخراج دلو البول والبراز وإحضار الفطور له.

بدا له أن وجبة الفطور الصغيرة قد تأخرت اليوم أكثر مما في مرات أخرى. فالشمس ارتفعت في السماء، ونور ذهبي وبارد يضيء زنزانته. وهو منذ وقت لا بأس به يقرأ ويعيد قراءة حِكَم توماس دي كيمبس حول الشك تجاه المعرفة التي تحوّل البشر إلى متعجرفين، وتبديد الوقت الذي هو «كثرة التأمل والتفكير في أمور غامضة وخفية» لا نلقى ولو مجرد تأنيب عليها يوم الدينونة. عندئذ شعر بأن المفتاح الضخم يدور في القفل وباب الزنزانة يُفتح.

ـ صباح الخير ـ قال الحارس وهو يضع على الأرض رغيف الخبز الصغير المصنوع من دقيق أسمر وفنجان القهوة. أيكون شاياً اليوم؟ فلأسباب لا تفسير لها كثيراً ما يتبدل الفطور من شاي إلى قهوة أو من قهوة إلى شاي.

ـ صباح الخير ـ قال روجر وهو ينهض واقفاً ويتوجه لأخذ الطبق ـ لقد تأخرت اليوم أكثر من الأيام الأخرى، أم أنني مخطئ؟

وبإخلاص لشعار الصمت، لم يردّ الحارس عليه، وبدا لروجر أنه يتجنب النظر إلى عينيه. ابتعد الحارس عن الباب ليفسح له الطريق للمرور، وخرج روجر على امتداد الممر المليء بلطخات سوداء وهو يحمل الدلو. وكان الحارس يمشي على بُعد خطوتين منه. أحس بتحسن في معنوياته مع بريق الشمس الصيفية على الجدران السميكة وعلى أحجار الأرضية، مُحدثة ومضات كأنها الشرر. فكر في حدائق لندن، في النهر المتلوي وأشجار الدُّلب والحور والكستناء العالية في الهايد بارك، وبروعة لو أنه يتمشى الآن بالذات هناك، مجهولاً بين الرياضيين الذين يركبون خيولاً أو دراجات، وبين العائلات ذات

الأطفال التي انتهزت الجو الطيب وخرجت لقضاء اليوم في الهواء الطلق.

وفي الحمام المقفر ـ لا بد أن هنالك تعليمات بأن يحددوا له موعداً للنظافة مختلفاً عن موعد السجناء الآخرين ـ أفرغ الدلو وغسله. جلس بعد ذلك على كرسي المرحاض دون نجاح ـ لقد كان الإمساك مشكلة طوال حياته ـ وأخيراً، خلع قميص السجن الأزرق، وغسل جسمه ووجهه ودعكهما بهمة. ونشف الماء بالمنشفة الرطبة التي يعلقها في زردة. ثم رجع إلى زنزانته حاملاً الدلو النظيف، ببطء، مستمتعاً بالشمس التي تسقط على الممر من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية في أعلى الجدار، وبالضجة ـ أصوات غير مفهومة، مزامير، خطوات، محركات، زعاق ـ التي تمنحه انطباعاً بأنه دخل الزمن مرة أخرى وتلاشت فور إقفال الحارس باب الزنزانة بالمفتاح.

يمكن للشراب أن يكون شاياً أو قهوة. لم يهتم بتفاهة طعمه، يكفي أن السائل، عند نزوله عبر الصدر إلى المعدة، أشعره بالتحسن وخلّصه من الحموضة التي تعكر صباحاته دوماً. احتفظ بقطعة الخبز تحسباً لشعوره بالجوع في ما بعد.

وبينما هو مستلق في سريره الضيق، عاد للقراءة في ***محاكات يسوع***. كان يبدو له الكتاب أحياناً سذاجة طفولية، ولكنه في أحيان أخرى، حين يقلب الصفحة، يجد نفسه أمام فكرة تقلقه وتدفعه إلى إغلاق الكتاب. كان يستغرق في التفكير. يقول الراهب إنه من المفيد أن يعاني المرء بين حين وآخر آلاماً ونكبات، لأن ذلك يُذكّره بشرطه: إنه «منفي في هذه الأرض» وعليه ألا يبني أية آمال على أشياء هذا

العالم، وإنما على شؤون الماوراء. هذا صحيح. فالراهب الألماني، هناك في ديره في أغنتنبرغ، قبل خمسمئة عام، قد أصاب عين الحقيقة، وعبر عن حقيقة عاشها روجر بلحمه الحي. أو بكلمة أدق منذ أغرقه موت أمه، وهو طفل، في يُتم لم يستطع التحرر منه قطّ. هذه هي الكلمة التي تصف على أفضل وجه ما شعر به على الدوام، في اسكتلندا، في إنكلترا، في أفريقيا، في البرازيل، في إيكيتوس، في بوتومايو: منفيّ. لقد تباهى لشطر لا بأس به من حياته بشرطه ذاك كمواطن عالمي، والذي كان يتس، على حدّ قول إليس، يقدّره فيه: شخص لا ينتمي إلى أي مكان لأنه ينتمي إلى كل الأمكنة. لقد قال لزمن طويل إن ذلك الامتياز يمنحه حرية يجهلها من يعيشون مستقرين في مكان واحد. ولكن توماس دي كيمبس على حق. فهو لم يكن يشعر قط بانتمائه إلى أي مكان لأن هذا هو الشرط الإنساني: النفيّ في وادي الدموع هذا، قَدَرٌ عابر إلى أن يعود البشر، نساء ورجالاً، بالموت والماوراء إلى الحظيرة، إلى ينبوعهم المغذي، إلى حيث سيعيشون الخلود كله.

أما وصفة توماس دي كيمبس، بالمقابل، لمقاومة الإغواء فكانت ساذجة. هل واجه ذلك الرجل التقيّ الغواية ذات مرة، هناك في وحدة ديره؟ إن كان قد حدث له ذلك، فيجب ألا يكون قد وجد سهولة في مقاومتها وهزم «الشيطان الذي لا ينام أبداً ويمضي متجولاً على الدوام بحثاً عمن يستطيع التهامه». يقول توماس كيمبس إنه لا أحد كامل وبمنجى من الغوايات، وإنه من المستحيل أن يجد المسيحي نفسه قادراً على قهر «الشهوة»، مصدر كل الغويات.

وهو ـروجر ـ ضَعُف واستسلم للشهوة مرات كثيرة. ليس بالكثرة التي كتب بها في مفكراته ودفاتر ملاحظاته، بالرغم من أن كتابة ما لم يعشه، ما كان يرغب في أن يعيشة، هو أيضاً ودون شك طريقة ـ جبانة وخجولة ـ لعيشه، وبالتالي استسلام للغواية. هل سيدفع مقابل ذلك مع أنه لم يستمتع به حقاً، اللهم إلا بطريقة ملتبسة وغير محسوسة مثلما تعاش التخيلات؟ هل سيكون عليه أن يدفع ثمن كل ذلك الذي لم يفعله، وإنما رغب فيه فقط وكتبه؟ الرب يعرف كيف يميز ولا بد أنه يحكم على تلك الأخطاء النظرية بطريقة أخف من حكمه على الخطايا المقترفة فعلاً.

وعلى كل حال، كتابة ما لم يعش للإيحاء بفكرة عيشه، يحمل بحد ذاته عقوبته المضمرة: إحساس الإخفاق والإحباط الذي تنتهي به دوماً ألعاب مذكراته الكاذبة (وكذلك الوقائع المعاشة بالتالي). ولكن تلك الألعاب غير المسؤولة وضعت الآن سلاحاً مهماً في يد العدو لتشويه اسمه وذكراه.

ومن جهةأخرى، لم يكن من السهل معرفة إلى أي غوايات كان يشير توماس دي كيمبس. فهي قد تأتي متنكرة جداً ومستترة، بحيث يُخلط بينها وبين شؤون خيّرة، أو حماسات جمالية. وتذكر روجر أن انفعالاته الأولى، في سنوات مراهقته البعيدة، أمام الأجساد المسبوكة، والعضلات الرجولية، ورشاقة المراهقين المتناسقة لم تكن تنطوي على أي مغزى خبيث أو شهواني، وإنما على تجليات حساسية وحماسة جمالية. هذا ما اعتقده لزمن طويل. وأن ذلك الميل الفني نفسه هو ما دفعه إلى تعلم تقنيات التصوير الفوتوغرافي من أجل أن يلتقط على قطع الكرتون تلك الأجساد البديعة. وقد انتبه في إحدى اللحظات، وكان آنذاك يعيش في أفريقيا، أن ذلك الإعجاب لم يكن صحياً، أو بتعبير

أدق، لم يكن صحياً وحسب، بل كان صحياً ووبيلاً في آن واحد، ذلك أن تلك الأجساد المتناسقة، المتعرقة، ذات العضلات، والخالية من أي قطرة شحم، والتي يلمح فيها الحسية المادية للحيوانات الهرّيّة، لم تكن تبعث فيه الانبهار والإعجاب، وإنما كذلك الطمع، والشهوات، ورغبة مجنونة في مداعبتها. وكان أن تحولت الغوايات بتلك الطريقة لأن تكون جزءاً من حياته، تثورها، تملؤها بأسرار، بغمٍّ، بخوف، ولكن بلحظات متعة مفاجئة أيضاً. وندم، ومرارة بالطبع. هل سيُجري الرب في اللحظة القصوى عمليات جمع وطرح؟ هل سيغفر له؟ هل سيعاقبه؟ كان يشعر بالفضول وليس بالخوف. كما لو أن الأمر لا يخصه، وإنما هو تمرين ذهني أو أحجية.

وبينما هو في ذلك التفكير، سمع متفاجئاً صوت المفتاح الغليظ يعالج القفل مجدداً. وعندما انفتح باب الزنزانة، دخل لهيب ضوء، تلك الشمس التي تبدو فجأة كأنها تشعل صباحات شهر آب اللندنية. ومنبهراً بالضوء، انتبه إلى أن ثلاثة أشخاص قد دخلوا إلى الزنزانة. لا يمكنه تمييز وجوههم. نهض واقفاً. وعند إغلاق الباب رأى أقربهم إليه، يكاد يلامسه، إنه حاكم سجن بينتونفيل الذي كان قد رآه مرتين فقط من قبل. كان رجلاً كبير السن، نحيفاً ومجعد البشرة. وكان يرتدي السواد وتبدو عليه ملامح الوقار. ومن ورائه ***الشريف***، أبيض كالورق. وحارس مطرق ينظر إلى الأرض. بدا لروجر أن الصمت استمر قروناً.

وأخيراً تكلم حاكم السجن وهو ينظر إلى عينيه، بصوت متردد في البدء، راح يكتسب القوة مع تقدمه في شرحه:

ـ إنني أقوم بواجب إبلاغك بأن مجلس وزراء جلالة الملك اجتمع صباح هذا اليوم، الثاني من آب ١٩١٦، ودرس طلب الاسترحام المقدم

من محاميك، ورفضه بإجماع أصوات الوزراء الحاضرين. وبالتالي، سيُنفذ حكم المحكمة التي حاكمتك وأدانتك بتهمة الخيانة العظمى يوم غد، الثالث من آب ١٩١٦، في فناء سجن بينتونفيل، في الساعة التاسعة صباحاً. ووفقاً للعرف المعمول به، يجب على المحكوم ألا يلبس ملابس السجن عند تنفيذ الحكم، ويمكنه ارتداء الملابس المدنية التي خُلعت عنه عند دخوله السجن والتي ستُعاد إليه. كما أقوم بواجب إبلاغك أن الكاهنين: الأسقف الكاثوليكي الأب كاري، والأب ماككارول، من الطائفة نفسها، سيكونان تحت تصرفك ليقدما لك العون الروحي، إذا كانت هذه هي رغبتك. وهما الشخصان الوحيدان المسموح لك بمقابلتهما. وإذا كنت ترغب في ترك رسائل لأسرتك بشأن ترتيباتك الأخيرة، سيوفر لك السجن مواد كتابة. وإذا كان لديك طلب آخر، يمكنك قوله الآن.

ـ في أي ساعة يمكنني رؤية الكاهنين؟ ـ سأله روجر وبدا له أن صوته مبحوح وجليدي.

التفت حاكم السجن إلى *الشريف* وتبادلا همساً بعض العبارات، وكان *الشريف* هو من أجاب:

ـ سيأتيان مع بداية المساء.

ـ شكراً.

بعد برهة تردد غادر الأشخاص الثلاثة الزنزانة وسمع روجر كيف كان الحارس يدير المفتاح في القفل.

XIV

مرحلة حياته التي غاص فيها أكثر من سواها في مشاكل أيرلندا، بدأها روجر كيسمنت وهو مسافر إلى جزر الكناري، في شهر كانون الثاني ١٩١٣. وبينما السفينة تتقدم في الأطلسي، كان ينزع عن كاهله ثقلاً عظيماً، فقد راح يتخلص من صور إيكيتوس، وبوتومايو، ومزارع الكاوتشوك، والباربادوسيين، وخوليو س. آرانا، ومكايد وزارة الخارجية البريطانية، ويستعيد حرية تصرف تتيح له الآن التحول إلى شؤون بلاده. لقد فعل ما يستطيعه من أجل سكان الأمازون الأصلين. وآرانا، أحد أسوأ جلاديهم، لن يعود إلى رفع رأسه: إنه الآن رجل فاقد السمعة ومفلس، وليس مستحيلاً أن يقضي بقية أيام حياته في السجن. عليه الآن أن يهتم بسكان أصليين آخرين: بالأيرلنديين. فهولاء أيضاً بحاجة إلى التحرر من الـ «الآرانات» الذين يستغلونهم، وإن كانوا يفعلون ذلك بأسلحة أكثر تهذباً ونفاقاً من أسلحة تجار المطاط البيرويين والكولومبيين والبرازيليين.

ولكنه على الرغم من التحرر الذي يشعر به وهو يبتعد عن لندن، سواء خلال رحلته في البحر أو خلال الشهر الذي قضاه في لاس بالماس، فقد ظل مستاء من تردي صحته. فآلام الحوض والظهر بسبب داء المفاصل تنقض عليه في أي وقت من النهار أو الليل. ولم تعد المُسكّنات تعطي مفعولها السابق. مما يضطره إلى البقاء مستلقياً لساعات في سرير الفندق أو على أريكة في الشرفة وهو يتعرق عرقاً بارداً. كان يمشي بصعوبة، وبعكاز دائماً، ولم يعد بمقدوره مشي مسافات طويلة في البرية أو عند سفوح الجبال، كما في رحلات سابقة،

خوفاً من أن يشله الألم وهو في منتصف مسيره. أفضل ذكرياته في تلك الأسابيع من بداية العام ١٩١٣ ستكون تلك الساعات التي أمضاها مستغرقاً في ماضي أيرلندا بفضل قراءته كتاباً لصديقته إليس ستوبفورد غرين، *ذي أولد أيريش ورلد* (عالم أيرلندا القديم)، حيث التاريخ، والميثولوجيا، والأساطير، والتقاليد تختلط لترسم مجتمع مغامرة وخيال، مجتمع نزاعات وإبداع، حيث شعب مناضل وكريم ينمو أمام طبيعة صعبة ويحتفي بالشجاعة والابتكار في أغانيه ورقصاته وألعابه الخطرة، وطقوسه وعاداته: تراث كامل جاء الاحتلال البريطاني ليدمره ويحاول دثره، دون أن يتمكن من ذلك بالكامل.

في اليوم الثالث لوجوده في لاس بالماس، خرج بعد تناوله العشاء ليقوم بجولة في محيط الميناء، حي ممتلئ بحانات وبارات وفنادق مواخير. وفي حديقة سانتا كاتالينا المجاورة لشاطئ لاس كانتيراس، بعد أن استطلع الجو، اقترب من شابين لهما هيئة بحارة ليطلب منهما ناراً. تبادل معهما الحديث للحظات. إسبانيته غير المتقنة التي يخلطها مع البرتغالية، استثارت ضحك الشابين. اقترح عليهما الذهاب لتناول كأس، ولكن أحدهما كان لديه موعد مما اضطره إلى الذهاب، فبقي مع ميغيل، أصغر الاثنين سناً، وهو أسمر له شعر مجعد في حلقات، وخارج لتوه من المراهقة. ذهبا إلى بار ضيق ويعبق بالدخان اسمه «الأميرال كولمبس»، تغني فيه امرأة متقدمة في السن بمرافقة عازف جيتار. بعد الكأس الثانية، ومحتمياً بشبه عتمة المحل، مدّ روجر يده ومرّ بها على ساق ميغيل. فابتسم هذا الأخير راضياً. فتشجع روجر ومد يده أكثر نحو فتحة السروال. أحس بعضو الشاب وجابته موجة شهوة من رأسه حتى قدميه. منذ شهور طويلة ـ «كم شهراً؟» فكر،

«ثلاثة، ستة؟» ـ يعيش دون جنس، بلا رغبة ولا تخيلات. بدا له أنه التهيج سيعيد الشباب إلى عروقه ويستعيد حب الحياة. «أيمكننا الذهاب إلى فندق؟»، سأله. ابتسم ميغيل دون أن يوافق أو يرفض، ولكنه لم يقم بأدنى محاولة للنهوض، بل إنه طلب كأساً أخرى من نبيذ قوي وحريف قُدم إليه. عندما انتهت المرأة من الغناء، طلب روجر الكأس الرابعة. ثم دفع الحساب وخرجا. «أيمكننا الذهاب إلى فندق؟»، عاد يسأله في الشارع، بجزع. بدا الشاب متردداً، أو ربما كان يتأخر في الردّ لدفعه إلى التوسل وزيادة التعويض الذي سيحصل عليه مقابل خدماته. وفي أثناء ذلك، شعر روجر بطعنة في حوضه جعلته ينكمش على نفسه ويستند إلى إفريز نافذة. لم يأته الألم هذه المرة شيئاً فشيئاً كما في مرات سابقة، وإنما دفعة واحدة وبشدَّة أكثر من المعتاد. مثل طعنة سكين، أجل. اضطر إلى الجلوس على الأرض، منثنياً على نفسه. فارتعب ميغيل وابتعد بخطوات مسرعة، دون أن يسأله عما حدث له ودون أن يقول كلمة وداع. ظل روجر لوقت طويل على تلك الحال، منكمشاً ومغمض العينين، منتظراً أن يهدأ ذلك الحديد المتوقد الذي يشل ظهره بضراوة. وعندما تمكن من النهوض، اضطر إلى المشي عدة شوارع، ببطء شديد، مجرجراً قدميه، إلى أن وجد سيارة توصله إلى الفندق. لم تتراجع الآلام حتى الفجر واستطاع عندئذ أن ينام. وفي الحلم المضطرب الذي تخالطه كوابيس، كان يتألم ويستمتع على شفير هاوية وهو يوشك طيلة الوقت على أن يهوي متدحرجاً فيها.

في صباح اليوم التالي، بينما هو يتناول الفطور، فتح يومياته، وكتب ببطء وبخط متلاصق أنه مارس الحب مع ميغيل، عدة مرات، في عتمة حديقة سانتا كاتالينا أولاً وهو يسمع هدير البحر، وبعد ذلك

في حجرة نتنة بفندق رخيص تُسمع منه ولولة صفارات السفن. وكان الفتى الأسمر يمتطيه ساخراً «ما أنت إلا عجوز، هذا هو أنت، عجوز هرم»، ويصفعه براحته على إليتيه فيجعله يئن، ربما ألماً، وربما استمتاعاً.

لم يحاول الإقدام على مغامرة جنسية أخرى خلال الشهر الذي قضاه في جزر الكناري، ولا خلال الرحلة إلى أفريقيا الجنوبية، ولا خلال الأسابيع التي أمضاها في كيب تاون وفي دُربن مع أخيه وزوجة أخيه كاتجي، فقد شله الخوف من أن يعيش مرة أخرى، بسبب التهاب المفاصل، وضعاً مضحكاً مثل ذاك الذي أحبط لقاءه مع البحار الكناريّ في حديقة سانتا كاتالينا. وبين حين وآخر، ومثلما فعل مرات كثيرة في أفريقيا وفي البرازيل، كان يمارس الحب متوحداً، مخربشاً في يومياته بخط عصبي ومتسرع، عبارات مقتضبة، ومضحكة أحياناً مثلما هم عشاق الدقائق أو الساعات الذين أتيح له أن يكافئهم. وستُغرقه تلك الاختلاقات في سبات باعث على الاكتئاب، بحيث صار يحاول كتابتها في أوقات متباعدة أكثر فأكثر، إذ لم يعد هنالك ما يجعله مدركاً لوحدته وشرطه السري الذي سيرافقه ـ وهذا ما يعرفه جيداً ـ حتى مماته.

الحماسة التي بعثها فيه كتاب إليس ستوبفورد غرين حول أيرلندا القديمة دفعه إلى الطلب من صديقته مزيداً من مواد القراءة حول الموضوع. ووصله طرد الكتب والنشرات الذي أرسلته إليه إليس وهو يستعد للإبحار في السفينة ***غارانتي كاستيل*** باتجاه أفريقيا الجنوبية، يوم السادس من شباط ١٩١٣. قرأ نهاراً وليلاً خلال الرحلة البحرية، وواصل القراءة في أفريقيا الجنوبية، أي أنه بالرغم من البعاد، عاد في

تلك الأسابيع للشعور بأنه قريب جداً من أيرلندا، أيرلندا اليوم، والأمس، والمغرقة في القدم، وهو ماض بدا له أنه راح يحيط به من خلال النصوص التي اختارتها له إليس. وخلال الرحلة خفت آلام الظهر والورك.

اللقاء بأخيه توم، بعد سنوات طويلة، كان مُتعباً. فخلافاً لما ظنه روجر عندما قرر الذهاب لزيارته من أن الرحلة ستقرّبه من أخيه الأكبر وتُقيم بينهما رابطة عاطفية لم يكن لها في الحقيقة من وجود قطّ، جاءت تلك الرحلة لتؤكد أنهما شخصان غريبان. وأنه لا وجود لشيء مشترك بينهما، باستثناء صلة الدم. لقد تبادلا المراسلات خلال تلك السنوات كلها، وبصورة عامة عندما كان توم وزوجته الأولى، الأسترالية بلانش باهاري، يعانيان مشكلات مادية ويريدان من روجر أن يساعدهما. لم يتوقف عن عمل ذلك قطّ، اللهم إلا عندما تكون القروض التي يطلبها أخوه وزوجته مبالغاً فيها بالنسبة لميزانيته. لقد تزوج توم للمرة الثانية من الجنوب أفريقية كاتجي أكيرمان، وبدأا معاً مشروعاً سياحياً في دُربن وكان يعمل جيداً. بدا أخوه أكثر هرماً مما هو عليه، وقد تحول إلى الجنوب أفريقي النمطي، الخشن الذي لوحته الشمس والحياة في الهواء الطلق، وذي الأساليب المستهترة والفجة بعض الشيء، حتى في طريقة تكلمه الإنكليزية يبدو جنوب أفريقي أكثر مما هو أيرلندي. لم يكن يهتم بما يحدث في أيرلندا أو بريطانيا العظمى أو أوروبا. الموضوع المسيطر على ذهنه هو المشكلات المادية التي يواجهها نُزل الاستجمام الذي افتتحه مع كاتجي في دُربن. كانا يظنان أن جمال المكان سيجتذب سياحاً وصيادين، ولكن لا يأتي كثيرون وتكاليف الصيانة أكبر مما قدّراه. لقد بنيا أحلاماً كثيرة على هذا

المشروع وهما يخشيان الآن، للطريقة التي تسير بها الأمور، أن يضطرا إلى بيع النزل بأبخس الأثمان. وعلى الرغم من أن زوجة أخيه بدت أكثر مرحاً وتشويقاً من أخيه ـ لديها هوايات فنية وحس فكاهة ـ، فقد انتهى الأمر بروجر إلى الندم على قيامه بتلك الرحلة الطويلة لمجرد زيارة الزوجين.

في منتصف نيسان أبحر عائداً إلى لندن. وفي تلك الأثناء كان يشعر بحماسة أكبر، وبفضل المناخ الأفريقي الجنوبي خفّت آلام مفاصله. كان اهتمامه منصباً على وزارة الخارجية. لم يعد بإمكانه مواصلة تأجيل اتخاذ القرار بتلك الإجازات غير مدفوعة الأجر. فإما أن يعود إلى تولي مسؤولية القنصلية في ريو دي جانيرو، مثلما يطلب منه رؤساؤه، أو يستقيل من عمله الدبلوماسي. العودة إلى ريو، المدينة التي لم ترق له على الرغم من جمال محيطها الطبيعي، ذلك أنه شعر على الدوام بأنها معادية له. ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد. فهو لا يريد، بصورة خاصة، أن يعود إلى عيش حياة مزدوجة: أن يمارس العمل كدبلوماسي في خدمة إمبراطورية يدينها بمشاعره ومبادئه. وخلال الرحلة البحرية إلى إنكلترا، أجرى حساباته: مدخراته شحيحة، ولكنه إذا عاش حياة تقشف ـ وهذا سهل عليه ـ إضافة إلى المعاش التقاعدي الذي سيتلقاه عن تراكم سنوات عمله كموظف، سيكون بإمكانه أن يتدبر أموره. وعند وصوله إلى لندن كان قد اتخذ القرار. فكان أول ما فعله هو الذهاب إلى وزارة العلاقات الخارجية ليقدم استقالته موضحاً أنه يستقيل من الخدمة لأسباب صحية.

بقي أياماً قليلة في لندن، قام خلالها بترتيب أمر تقاعده من وزارة

الخارجية والتحضير لرحلته إلى إيرلندا. كان يفعل ذلك بسعادة، ولكن بشيء من الحنين المستبق أيضاً، كما لو أنه سيتخفف إلى الأبد من إنكلترا. التقى بإليس مرتين وكذلك بأخته نينا التي لم يشأ أن يقلقها، وأخفى عنها تعثرات توم الاقتصادية في أفريقيا الجنوبية. حاول اللقاء بأدموند د. موريل الذي لم يرد، بصورة مثيرة للفضول، على أي من رسائله التي كتبها إليه خلال الشهور الثلاثة الأخيرة. ولكن صديقه القديم، *البولدوغ*، لم يستطع استقباله متعللاً برحلات اضطرارية تبين له بكل وضوح أنها مجرد ذرائع. ما الذي حدث لرفيق النضال ذاك الذي يقدّره ويحبه كثيراً؟ لماذا هذا الفتور؟ أية تقولات أو مكيدة أُوصلت إليه ليتكدر منه؟ بعد قليل من ذلك أخبره هربرت وارد، في باريس، أن موريل، بعد اطلاعه على القسوة التي ينتقد بها روجر إنكلترا والإمبراطورية بخصوص أيرلندا، صار يتفادى اللقاء به كيلا يخبره برأيه في مثل تلك التصرفات السياسية.

ـ ما يحدث هو أنك، دون أن تنتبه، قد تحولت إلى متطرف ـ قال له هربرت بين المزاح والجد.

وفي دبلن، استأجر روجر بيتاً صغيراً وقديماً في ٥٥ لوار باغوت ستريت. وللبيت حديقة صغيرة فيها أزهار جيرانيوم وأُرنتسية كان يقلمها ويسقيها باكراً كل صباح. إنه حيّ هادئ يسكنه أصحاب دكاكين وحرفيون ومتاجر رخيصة، حيث تذهب العائلات في أيام الآحاد إلى القداس، السيدات متأنقات كما لو أنهن ذاهبات إلى حفلة، والرجال ببدلاتهم السوداء وقبعاتهم وأحذيتهم الملمعة. وفي الحانة ذات شِباك العناكب على الناصية، حيث تقوم على الخدمة نادلة قزمة، كان روجر

يتناول بيرة سوداء مع جيرانه: بائع الخضار والخياط والاسكافي، ويناقش معهم الأوضاع ويغني أغنيات قديمة. الشهرة التي بلغها في إنكلترا وحملاته ضد الجرائم في الكونغو والأمازون كانت قد امتدت إلى أيرلندا، وعلى الرغم من رغبته في عيش حياة بسيطة ومغفلة، فقد وجد نفسه منذ وصوله إلى دبلن مطلوباً من أناس من مختلف المشارب ـ سياسيون، مثقفون، صحفيون، أندية، مراكز ثقافية ـ لإقامة ندوات، وكتابة مقالات، وحضور لقاءات اجتماعية. بل إنه وجد نفسه مضطراً لأن يجلس أمام الرسامة سارا برسير لترسمه. ويظهر روجر في اللوحة التي رسمتها مستعيداً الشباب، وبملامح أمان وظفر لا يمكن التعرف فيها عليه.

عاد من جديد إلى دراسة اللغة الأيرلندية القديمة. وكانت الأستاذة مسز تيمبل، بعكازها، ونظارتها وقبعتها ذات الخمار تذهب ثلاث مرات كل أسبوع لإعطائه دروساً بالغيليّة وتكلفه بواجب تقوم بتصحيحه فيما بعد بقلم أحمر وتُقوِّمه بدرجات تكون منخفضة على العموم. لماذا يجد كل هذه الصعوبة في تعلم لغة السلت الذين يرغب كثيراً في التطابق معهم؟ لديه سهولة في تعلم اللغات، فقد تعلم الفرنسية والبرتغالية، وثلاث لغات أفريقية على الأقل، وكان قادراً على التفاهم بالإسبانية والإيطالية. فلماذا تتفلت منه بهذه الطريقة اللغةُ المحلية التي يشعر بالتضامن معها؟ فكلما تعلم شيئاً، وبجهد كبير، لا يلبث بعد أيام قليلة أن ينساه، وأحياناً خلال ساعات قليلة. منذ ذلك الحين بدأ يتساءل، دون أن يخبر أحداً بتساؤلاته، ودون أن يأتي على ذكرها في مناقشاته السياسية حيث كان يؤكد العكس لأسباب مبدئية، وكان تساؤله يتركز حول ما إذا كان واقعياً، وليس مجرد وهم، حلم أناس مثل البروفيسور

إيون ماكنيل والشاعر التربوي باتريك بيرز، وإيمانهم بأنه يمكن إعادة بعث لغة لاحقها المستعمِر وحولها إلى لغة سرّية تتكلمها قلة من الناس، وشبه منقرضة، وتحويلها من جديد إلى لغة أم للأيرلنديين. هل يمكن أن تتراجع اللغة الإنكليزية في أيرلندا المستقبل، وتحل لغة السلت محلها بفضل المدارس والصحف، ومواعظ الكهنة وخطابات السياسيين؟ في العلن، كان روجر يقول نعم، وإنه ليس ممكناً وحسب، وإنما ضروري من أجل استعادة أيرلندا هويتها الحقيقية. ستكون عملية طويلة، تمتد لعدة أجيال، ولكن لا بد منها، لأن أيرلندا لن تكون حرة إلا عندما تصبح اللغة الغيليّة هي اللغة الوطنية. ومع ذلك، في وحدة مكتبه في بيته بشارع لوير باغوت، عندما يجلس في مواجهة تمارين الإنشاء باللغة الغيليّة التي تكلفه بها مسز تيمبل، يقول لنفسه إن ذلك مهمة مستحيلة. كان الواقع قد تقدم كثيراً باتجاه ليِّها. فقد تحوَّلت الإنكليزية إلى وسيلة التواصل، والتكلم، والحياة، والإحساس لأكثرية هائلة من الأيرلنديين، والتخلي عنها نزوة سياسية لا يمكن أن ينتج عنها إلا بلبلة بابلية وتحويل محبوبته أيرلندا ثقافياً إلى حالة أركيولوجية مثيرة للفضول، وغير متواصلة مع بقية العالم. هل يستحق هذا الأمر العناء؟

في أيار وحزيران من عام ١٩١٣، رأى انقطاع حياة الهدوء والدراسة التي كان يعيشها، بعد محادثة مع صحفي في ***ذي أيريش إندبندنت*** أخبره بفقر وبدائية حياة الصيادين في كونيمرا، فانساق للدوافع وقرر السفر إلى تلك المنطقة على ساحل غالوي، حيث مازال يجري الحفاظ، كما قيل له، على أيرلندا الأكثر تقليدية، ومازال سكانها يحافظون على حيوية اللغة الأيرلندية القديمة. وبدل أن يجد في كونيمرا لقية تاريخية، وجد روجر هناك تناقضاً هائلاً بين جمال الجبال

المنحوتة، والسفوح التي تكنسها الغيوم، وبحيرات بكر على ضفافها تجول الخيول القزمة التي منشؤها من تلك المنطقة، وأناساً يعيشون في بؤس مرعب، بلا مدارس، بلا أطباء، وبإهمال كامل. والأدهى من ذلك أن حالات من التيفوس بدأت بالظهور هناك. ويمكن للجائحة أن تنتشر وتسبب أضراراً واسعة. رجل العمل الذي كانه روجر كيسمنت، يمكن أن ينطفئ أحياناً ولكنه لا يموت أبداً، وقد بدأ العمل فوراً. كتب مقالاً لجريدة ***ذي أيريش إندبندنت***، «بوتومايو الأيرلندية»، وأسس صندوق معونة كان أول المتبرعين له والمشتركين فيه. وانكب في الوقت نفسه على نشاطات عامة مع الكنائس الأنجليكانية والمشيخية والكاثوليكية ومع جمعيات خيرية، وشجع أطباء وممرضات على الذهاب إلى قرى كونيمرا كمتطوعين لدعم العمل الصحي الرسمي الشحيح. وقد لاقت الحملة نجاحاً. جاء متطوعون كثيرون من أيرلندا وإنكلترا. وقام روجر بثلاث رحلات حاملاً أدوية وملابس وأغذية للأسر المتضررة. كما أنشأ لجنة لتموين كونيمرا بمعدات صحية، وبناء مدارس ابتدائية. وبمناسبة تلك الحملة خلال ذينك الشهرين عقد اجتماعات منهكة مع رجال دين وسياسيين وسلطات ومثقفين وصحفيين. وقد فوجئ هو نفسه بالتقدير الذي عومل به، حتى ممن يختلفون مع مواقفه القومية.

وفي شهر حزيران رجع إلى لندن ليخضع لكشف الأطباء الذين عليهم إخبار وزارة الخارجية عن دقة الأسباب الصحية التي تعلل بها للاستقالة من العمل الدبلوماسي. ومع أنه لم يكن يشعر بالمرض، على الرغم من النشاط المكثف الذي قام به بسبب جائحة كونيمرا، إلا أنه ظن أن الفحص الطبي سيكون مجرد إجراء شكلي. ولكن تقرير الأطباء

كان أكثر خطورة مما تصوره: التهاب العمود الفقري والعظم الحرقفي والركبتين قد تفاقم. ويمكن التخفيف منه باتباع علاج صارم وحياة هادئة جداً، ولكن شفاءه غير ممكن. وفي حال تقدم المرض يمكن أن يؤدي به إلى الشلل. وافقت وزارة الخارجية على استقالته، وبالنظر إلى حالته الصحية، منحته راتباً تقاعدياً لائقاً.

وقبل أن يعود إلى أيرلندا قرر الذهاب إلى باريس، استجابة لدعوة من هربرت وساريتا وارد. أسعدته العودة لرؤيتهما ومشاطرتهما الجو الدافئ في ذلك الحيز الأفريقي الذي هو بيتهما الباريسي. فالبيت كله يبدو كما لو أنه ينبثق من ذلك المُحتَرَف الكبير الذي عرض عليه هربرت فيه مجموعة من منحوتاته لرجال ونساء أفريقيا، وبعض حيواناتها كذلك. إنها قطع قوية، من البرونز والخشب، أنجزها في السنوات الأخيرة، وسيعرضها في الخريف بباريس. وبينما هربرت يريه إياها، ويروي له طرائف وأحداثاً، ويعرض عليه رسوماً تخطيطية ونماذج مصغرة لكل واحدة من تلك المنحوتات، كانت ذاكرة روجر ترجع إلى صور وفيرة من الفترة التي كان يعمل فيها مع هربرت في حملتي هنري مورتون ستانلي وهنري سلتون سانفورد. لقد تعلم الكثير آنذاك من استماعه إلى هربرت يتحدث عن مغامراته وتجواله في نصف العالم، وعن الناس الرائعين الذين تعرّف إليهم في جولاته عبر أستراليا، ومن خلال قراءاته الواسعة. مازال ذكاؤه على حدّته تلك، ومثله حماسته الشبابية المتفائلة. وزوجته ساريتا، الأمريكية، والوارثة الثرية، هي توءم روحه، وهي مغامرة أيضاً وعلى شيء من البوهيمية. وهما متفاهمان بطريقة رائعة. يقومان برحلات مشياً على الأقدام عبر فرنسا وإيطاليا. وقد ربيا أبناءهما بالروح الكزموبوليتية والقلقة والفضولية نفسها. إبناهما

يدرسان الآن في مدرسة داخلية بإنكلترا، ولكنهما يقضيان كل إجازاتهما في باريس. أما الصغيرة *Cricket* فتعيش معهما.

أخذه الزوجان وارد للعشاء في برج إيفل، حيث تُرى من أعلاه جسور نهر السين وأحياء باريس، وإلى الكوميدي فرنسيس لمشاهدة ***المريض بالوهم*** لموليير.

ولكن لم يكن كل شيء سعادة وتفاهماً ومحبة في الأيام التي أمضاها مع الزوجين. لقد اختلف من قبل مع هربرت على مسائل كثيرة دون أن يؤدي ذلك قطّ إلى فتور في علاقتهما؛ بل على العكس، كانت الاختلافات تزيدها حيوية. أما في هذه المرة فكان الأمر مختلفاً. ففي إحدى الليالي تجادلا بطريقة شديدة الاندفاع إلى حدّ اضطرت معه ساريتا إلى مقاطعتهما وإجبارهما على تغيير الموضوع.

لقد كان لهربرت على الدوام موقفاً متسامحاً وعلى شيء من المزاح من نزعة روجر القومية. ولكنه في تلك الليلة اتهم صديقه بتبني فكرة القومية بطريقة شديدة الحماسة، وبقليل من اللاعقلانية، وبما يقارب التعصب.

ـ إذا كانت أغلبية الأيرلنديين راغبة بالانفصال عن بريطانيا العظمى، فليكن ـ قال له ـ. أنا لا أظن أن أيرلندا ستكسب الكثير بامتلاكها علماً وشعار دولة ورئيس جمهورية. ولا أظن أن مشكلاتها الاقتصادية والسياسية ستُحل بذلك. أرى أنه من الأفضل تبني خيار الحكم الذاتي الذي يدافع عنه جون ريدموند وأنصاره. فهم أيرلنديون أيضاً، أليس هذا صحيحاً؟ بل إنهم أغلبية عظمى في مقابل من هم مثلك يريدون الانفصال. وباختصار، لا شيء من هذا كله يهمني في الحقيقة. ولكن

ما يهمني هو رؤية عدم التسامح الذي تحوّلتَ إليه. لقد كنت تقدم في السابق مسوغات عقلانية يا روجر. أما الآن فأنت تصرخ بحقد فقط ضد بلاد هي بلادك أيضاً، وبلاد أبويك وإخوتك. بلاد خدمتها بجدارة كبيرة لسنوات طويلة. وقد اعترفتْ لك بجهدك، أليس هذا صحيحاً؟ لقد جعلتْ منك نبيلاً، ومنحتك أهم أوسمه المملكة. ألا يعني هذا كله أي شيء لك؟

ـ هل يجب عليّ أن أتحول إلى استعماري في الشكر؟ ـ قاطعه كيسمنت ـ. هل يجب عليّ أن أتقبل لأيرلندا ما رفضتُه للكونغو؟

ـ يبدو لي أن هنالك فرقاً شاسعاً بين الكونغو وأيرلندا. ففي شبه جزيرة كونيمرا لا يقوم الإنكليز بقطع الأيدي وكسر ظهور الوطنيين بالسياط.

ـ أساليب الاستعمار في أوروبا أكثر تهذباً يا هربرت، ولكنها لا تقل قسوة.

وخلال أيامه الأخيرة في باريس، تجنب روجر العودة إلى التحدث في موضوع أيرلندا. ما كان يريد إفساد صداقته مع هربرت. وقال لنفسه بحزن إنه في المستقبل، وحين يجد نفسه ملتزماً أكثر فأكثر في النضال السياسي، سيأخذ التباعد مع هربرت بالتزايد، دو شك، وربما ينتهي بتقويض صداقتهما، وهي واحدة من أمتن الصداقات التي أقامها في حياته. «أتراني تحوّلت إلى متعصب؟»، كان يتساءل منذ ذلك اليوم، وبذعر في بعض الأحيان.

عند عودته إلى دبلن، في أواخر الصيف، لم يستطع العودة إلى دورس اللغة الغيليّة. فالوضع السياسي تحول إلى الغليان، ووجد نفسه

منساقاً منذ اللحظة الأولى إلى المشاركة فيه. فمشروع الحكم الذاتي الذي يمنح أيرلندا برلماناً وحرية إدارية واقتصادية واسعة، بدعم من الحزب البرلماني الأيرلندي بقيادة جون ريدموند، تمت المصادقة عليه في مجلس العموم في شهر تشرين الأول ١٩١٢. غير أن مجلس اللوردات رفضه بعد شهرين من ذلك. وفي كانون الثاني ١٩١٣، في ألستر، حصن الاتحاديين الذي تسيطر عليه أغلبية محلية بروتستانتية ومؤيدة للإنكليز، قام المعادون للحكم الذاتي برئاسة إدوارد هنري كارسون بشن حملة تحريض. وشكلوا قوة متطوعي ألستر (Ulster Volunteer Force)، وتضم أربعين ألف متطوع. وهي منظمة سياسية وقوة عسكرية مستعدة لمقاومة الحكم الذاتي بقوة السلاح إذا ما تم التصديق عليه. واصل الحزب البرلماني الأيرلندي بقيادة جون ريدموند نضاله من أجل الحكم الذاتي. فجرت المصادقة في القراءة الثانية على القانون في مجلس العموم، ورفضه من جديد مجلس اللوردات. وفي الثالث والعشرين من أيلول، صادق المجلس الاتحادي على التحول إلى حكومة مؤقته لألستر، أي انفصال ألستر عن أيرلندا في حال المصادقة على الحكم الذاتي لأيرلندا.

بدأ روجر كيسمنت الكتابة في الصحافة القومية، وصار يفعل ذلك الآن باسمه ولقبه الحقيقيين، منتقداً اتحاديي ألستر. ندد بالتجاوزات التي تقترفها في تلك المقاطعات ذات الأغلبية البروتستانتية ضد الأقلية الكاثوليكية، وبأن عمال هذه الطائفة الأخيرة يُفصلون من عملهم في المصانع، وأن بلديات الأحياء الكاثوليكية تتعرض للتمييز في الميزانيات والضرائب. «ولرؤيتي لما يحدث في ألستر ـ كتب في أحد مقالاته ـ لم أعد أشعر بأنني بروتيستانتي». ويبدي حزنه لأن تصرف المتطرفين يقسم

الأيرلنديين إلى فريقين متعاديين، وهو أمر سيتمخض عن نتائج مأساوية في المستقبل. وينتقد في مقال آخر رجال الدين الأنجليكانيين لرعايتهم، بصمتهم، أعمال التعسف ضد المجتمع الكاثوليكي.

وعلى الرغم من أنه كان يبدي، في أحاديثه السياسية، تشكيكاً في نفع الحكم الذاتي لأيرلندا في استقلالها، فقد كان يُفسح، في مقالاته، مجالاً للأمل: إذا ما صودق على القانون دون تعديلات تغير من طبيعته، وصار لأيرلندا برلمان قادر على اختيار سلطاتها وإدارة مواردها، فإنها ستصل إلى عتبة السيادة. وإذا كان هذا الحل يجلب السلام، فما أهمية أن تظل شؤونها الدفاعية وعلاقاتها الدبلوماسية بأيدي التاج البريطاني؟

في تلك الأيام توطدت صداقته مع أيرلنديين اثنين كرسا حياتيهما للدفاع عن لغة السلت وتعلّمها ونشرها: البرفيسور إيون ماكنيل وباتريك بيرز. وقد توصل روجر إلى الشعور بتعاطف كبير مع ذلك الصليبي الرديكالي والمتشدد في الدفاع عن الغيليّة المتمثل بباتريك بيرز الذي انضم إلى الرابطة الغيليّة في مراهقته، وكان منكباً على الأدب والصحافة والتعليم. وأسس وأدار مدرستين ثنائيتي اللغة، مدرسة سانت إنداز للذكور، ومدرسة سانت إتاز للإناث، وهما أول مدرستنين مكرستين لإحياء الغيليّة كلغة وطنية. فضلاً عن كتابته قصائد ومسرحيات ومقالات يؤكد فيها على طرحه بأنه ما لم تُستعد لغة السلت، فسيكون الاستقلال بلا جدوى، لأن أيرلندا ستظل مستعمرة ثقافياً. وعدم تسامحه في هذا المجال كان مطلقاً؛ ووصل به الأمر في شبابه على إطلاق صفة «الخائن» على الشاعر وليم بتلر يتس ـ سيتحول في ما بعد إلى معجب

به دون تحفظ ـ لأنه يكتب بالإنكليزية. لقد كان خجولاً، أعزب، له جسم مربوع ومهيب، يعمل بلا كلل، مع عيب بسيط في إحدى عينيه، كما أنه خطيب حماسي وكاريزمي. وعندما لا يكون الحديث حول اللغة الغيليّة أو حول التحرر، ويكون بين أناس موثوقين، يتحوّل باتريك بيرز إلى رجل ينضح بالسخرية واللطف، ومحدث مفوه ومنفتح، ويفاجئ أصدقاءه أحياناً بتنكره في هيئة متسولة عجوز تطلب الصدقات في مركز دبلن أو بهيئة غانية مرحة تجول بوقاحة على أبواب الحانات. ولكن حياته كانت كحياة تقشف الرهبان. يعيش مع أمه وإخوته، لا يشرب، ولا يدخن، ولم تُعرف له علاقات غرامية. وصديقه المفضل هو أخوه ويلي الذي لا ينفصل عنه، النحات وأستاذ الفن في مدرسة سانت إنداز. وعلى واجهة مدخل هذه المدرسة، المحاطة بهضاب رثفَرنهام، نقش بيرز جملة تنسبها الأساطير الأيرلندية إلى البطل الأسطوري كوتشولن: «لا يهمني لو عشت يوماً واحداً وليلة واحدة فقط، مادامت مآثري ستُذكر إلى الأبد». ويقال إنه كان عفيفاً. يمارس عقيدته الكاثوليكية بانضباط عسكري، وكان يكثر من الصيام، ويرتدي مسوح كهنة خشنة، ويحمل مسبحة على الدوام. في تلك الفترة، حين كان منهمكاً تماماً بمشاغل الحياة السياسية ومكايدها ومناقشاتها، قال روجر كيسمنت مرات عديدة إن سبب المحبة القاهرة التي يستحقها باتريك بيرز يجب أن يكون في أنه أحد القلة القليلة من السياسيين الذين يعرفهم الذين لم تحرمهم السياسة من حس السخرية، وأنه في أعماله التمدنية سبَّاق ونزيه على الدوام: إنه يهتم بالأفكار ويزدري السلطة. ولكن يُقلقه هوس بيرز في تصور الوطنيين الأيرلنديين على انهم نسخة معاصرة من المتصوفين البدائيين: «مثلما كانت دماء الشهداء هي بذرة المسيحية،

سيكون الوطنيون هم بذرة حريتنا»، هذا ما كتبه في أحد مقالاته. وفكر روجر: إنها عبارة جميلة. ولكن، أليس فيها شيء منفر؟

أما هو فتوقظ فيه السياسة مشاعر متناقضة. فمن جهة، تجعله يعيش زخماً مجهولاً ـ لقد تحوّل أخيراً إلى أيرلندا جسداً وروحاً! ـ ولكن يغيظه الإحساس بإضاعة الوقت الذي تسببه له نقاشات لا تنتهي تسبق الاتفاقات والأعمال، أو تحول دونها أحياناً، والمكائد، والتفاهات والدناءات التي تختلط بالمُثل والأفكار في المهمات اليومية. لقد سمع وقرأ أن السياسة، مثل كل ما يرتبط بالسلطة، تُخرج إلى النور أفضل ما في الكائن البشري ـ المثالية، البطولة، التضحية، الكرم ـ، ولكنها تُخرج أيضاً أسوأ ما فيه: القسوة، الحسد، الضغينة، العجرفة. وتأكد من أن ما سمعه وقرأه صحيح. إنه يخلو من أية طموحات سياسية، لأن السلطة لا تغويه. وربما لهذا السبب، فضلاً عن الشهرة التي يجرجرها باعتباره مناضلاً دولياً عظيماً ضد التعسف مع السكان الأصليين في أفريقيا وأميركا الجنوبية، لم يكن له أعداء في الحركة القومية. وهذا صحيح على الأقل، لأن كل الجهات تبدي له الاحترام. وفي خريف العام ١٩١٣، صعد إلى منبر ليخوض تجربته الأولى كخطيب عام.

في آخر شهر آب انتقل إلى ألستر طفولته وشبابه، في محاولة لحشد الأيرلنديين البروتستانت المعارضين للاتجاه المتطرف المؤيد لبريطانيا بقيادة إدوارد كارسون وأتباعه الذين راحوا، في حملتهم ضد الحكم الذاتي، يدربون قوتهم العسكرية على مرأى من السلطات. واللجنة التي ساعد روجر على تشكيلها، وسُميت «باليموني»، دعت إلى مظاهرة في تاون هول ببلفاست. وتم الاتفاق على أن يكون هو نفسه أحد الخطباء،

إلى جانب إليس ستوبفورد غرين، والكابتن جاكوايت، وأليكس ويلسون، وشاب ناشط لقبه دينزمور. ألقى خطابه الأول في حياته عند غروب ماطر يوم ٢٣ تشرين الأول ١٩١٣ في قاعة بلدية بلفاست، أمام خمسمئة شخص. وبعصبية. كان قد كتب الخطاب في العشية. وكان يشعر أنه بصعوده إلى ذلك المنبر سيخطو خطوة لا رجوع بعدها، فلا تراجع بعد تلك اللحظة عن الطريق الذي انطلق فيه. وستكون حياته في المستقبل مكرسة لمهمة قد تعرضه، بفعل الظروف القائمة، إلى مخاطر كبيرة كتلك التي واجهها في الأدغال الأفريقية والأمريكية الجنوبية. خطابه الذي دار بكامله عن رفض أن يكون انقسام الأيرلنديين دينياً وسياسياً (كاثوليك يؤيدون الحكم الذاتي وبروتستانت يؤيدون الاتحاد مع بريطانيا)، ودعوة إلى «وحدة في تنوع معتقدات ومُثل جميع الأيرلنديين» لقي تصفيقاً عاصفاً. وبعد الاحتفال، وبينما كانت أليس ستوبفورد غرين تعانقه، همست في أذنه: «دعني أؤدي دور العرافة. إنني أتنبأ لك بمستقبل سياسي عظيم».

خلال الشهور الثمانية التالية، أحس روجر أنه لا يفعل شيئاً سوى الصعود إلى المنصات والنزول عنها لإلقاء خطابات حماسية. في البدء فقط كان يقرؤها، وفي ما بعد صار يرتجل انطلاقاً من رؤوس أقلام صغيرة. جاب أيرلندا في كل الاتجاهات، حضر اجتماعات، ولقاءات، ومناقشات، وموائد مستديرة، عامة أحياناً وسرية في أحيان أخرى، يناقش، يعرض الحجج، يقدم الاقتراحات، يدحض آراءاً على امتداد ساعات وساعات، متخلياً في سبيل ذلك، وفي أحيان كثيرة، عن الطعام والنوم. ذلك الاستسلام التام للعمل السياسي كان يملؤه بالحماسة

أحياناً، وفي أحيان أخرى يسبب له قنوطاً عميقاً. وفي أوقات خمود الهمة تعود لإزعاجه آلام الورك والظهر.

في تلك الشهور الأخيرة من العام ١٩١٣ وبداية العام ١٩١٤ كان التوتر السياسي يواصل تفاقمه في أيرلندا. فالانقسام بين دعاة الاتحاد في ألستر ودعاة الحكم الذاتي والاستقلال قد تفاقم بطريقة بدا معها أنه التمهيد لحرب أهلية. ففي شهر تشرين الثاني ١٩١٣، وكردّ على منظمة متطوعي ألستر بقيادة إدوارد كارسون، أُسس جيش المواطن الأيرلندي، وكان ملهمه الرئيسي، جيمس كونلي، قائداً نقابياً وعمالياً. وفرقة متطوعين كتشكيل عسكري، سبب وجودها المعلن هو الدفاع عن العمال في مواجهة أرباب عملهم والسلطات. وكان قائدها الأول النقيب جاك وايت الذي خدم بجدارة في الجيش البريطاني قبل تحوله إلى التوجه القومي الأيرلندي. وفي حفل التأسيس تلي نص تأييد من روجرالذي كان أصدقاؤه السياسيون قد أرسلوه في تلك الأيام إلى لندن لجمع مساعدات للحركة القومية.

وبالتزامن تقريباً مع تأسيس جيش المواطن الأيرلندي، ظهرت بمبادرة من البروفيسور إيون ماكنيل منظمة المتطوعين الأيرلنديين، وكان روجر كيسمنت الشخص الثاني فيها، وقد اعتمدت المنظمة منذ البدء على دعم من المنظمة السرية «الأخوية الجمهورية الأيرلندية» وهي ميليشيا تطالب باستقلال أيرلندا، ويقودها، من كشك تبغ صغير يشكل غطاء، توم كلارك، وهو شخصية أسطورية في المنتديات القومية. كان قد أمضى خمسةعشر عاماً في السجون البريطانية بتهمة القيام بأعمال إرهابية بالديناميت. غادر بعد ذلك إلى المنفى، إلى الولايات المتحدة.

ومن هناك أرسله قادة «كلان نا غيل» (الفرع الأمريكي للأخوية الجمهورية الأيرلندية) إلى دبلن كي يُفعّل عبقريته التنظيمية بإقامة شبكة سرية. وقد حقق ذلك. كان يحتفظ بصحة جيدة وهو في الثانية والخمسين من عمره، وبنشاط لا يعرف الكلل، وتكتم تام. ولم تكتشف أجهزة التجسس البريطانية شخصيته الحقيقية. عملت المنظمتان كلتاهما بترابط وطيد، وإن لم يكن ذلك سهلاً على الدوام، كانتا تتعاونان وكان كثيرون من المنضوين إليهما يتمتعون بعضوية المنظمتين على السواء. وقد انضم إلى المتطوعين كذلك أعضاء من الرابطة الغيليّة، ومناضلون من الشين فين التي كانت تخطو خطواتها الأولى بقيادة آرثر غريفت، وأعضاء من طائفة الهيبرنيين القديمة وآلاف من أنصار الاستقلال.

عمل روجر كيسمنت مع البروفيسور ماكنيل وباتريك بيرز في صياغة بيان تأسيس المتطوعين وكان بين حشد الحاضرين في المهرجان العام للمنظمة يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٣، في مستديرة دبلن. ومنذ البدء، وعملاً بما اقترحه ماكنيل وروجر، كانت منظمة المتطوعين حركة عسكرية، تتولى تجنيد وتدريب وتسليح أعضائها المقسمين إلى فصائل، وكتائب، وألوية على طول إيرلندا وعرضها، تحسباً لاندلاع الأعمال المسلحة، وهو أمر كان يبدو وشيكاً بالنظر إلى أجواء التطرف السياسي السائدة.

تبنى روجر جسداً وروحاً العمل من أجل حركة المتطوعين. وتوصل عن ذلك الطريق إلى الاتصال وإقامة صداقات متينة مع قادتها الذين كان يكثر بينهم الشعراء والكتّاب، مثل توماس ماكدونا الذي

يكتب المسرحيات ويُدّرس في الجامعه، والشاب جوزيف بلانكيت، المصاب بمرض في الرئة والمعتل، ولكنه يبدي، على الرغم من محدوديته البدنية، نشاطاً استثنائياً: فهو كاثوليكي متشدد مثل بيرز، وقارئ للصوفيين، وكان أحد مؤسسي «مسرح آبي». شغلت نشاطات روجر من أجل المتطوعين نهاراته ولياليه منذ تشرين الثاني ١٩١٣ حتى تموز ١٩١٤. فكان يتحدث يومياً في اجتماعاتِ حشودها في المدن الكبرى، مثل دبلن وبلفاست وكورك، ولندنديري، وغالوي، وليمرك، أو في قرى صغيرة وضياع، أمام مئات أو حفنة من الأشخاص. كانت خطاباته تبدأ («أنا بروتيستانتي من ألستر يدافع عن سيادة وتحرير أيرلندا من نير الاستعمار الإنكليزي») ولكنه كلما تقدم في خطابه تأخذه الحماسة وينتهي عادة باحتدادات ملحمية. وينتزع على الدوام تصفيق مستمعيه المدوي.

وكان يشارك في الوقت نفسه في وضع الخطط الاستراتيجية للمتطوعين. فهو أحد أكثر القادة انهماكاً في تزويد الحركة بسلاح قادر على توفير دعم فعال للنضال من أجل السيادة، لقناعته بأن ذلك النضال سينتقل بصورة حتمية من المستوى السياسي إلى العمل الحربي. ومن أجل التسلح لا بد من الأموال ومن الضروري إقناع الأيرلنديين المحبين للحرية بأن يكونوا أسخياء مع المتطوعين.

وهكذا نشأت فكرة إرسال كيسمنت إلى الولايات المتحدة. فالجاليات الأيرلندية هناك تملك موارد مادية ويمكنهما مضاعفة مساعدتها من خلال حملة رأي عام. ومن أفضل لتلك المهمة من الأيرلندي الأوسع شهرة في العالم بأسره؟ قرر المتطوعون أن يستشيروا

في هذا الشأن جون ديفوي، زعيم منظمة «كلان نا غيل» القوية والمتنفذة في الولايات المتحدة، والتي تضم العديد من الجاليات الأيرلندية القومية في أميركا الشمالية. وديفوي المولود في كيل بمقاطعة كيلدير، كان ناشطاً سرياً منذ شبابه وحُكم عليه، بتهمة الإرهاب، بالسجن خمسة عشر عاماً. ولكنه لم يقضِ في السجن سوى خمسة أعوام منها. وقد خدم في الفرقة الأجنبية في الجزائر. وأسس في الولايات المتحدة صحيفة ***دي غيليك أميركان***، عام ١٩٠٣، وأقام علاقات وطيدة مع أمريكيين في ***الاستبلشمنت***، وبفضل علاقاته تلك كانت «كلان نا غيل» تستند إلى نفوذ سياسي.

وبينما جون ديفوي يدرس الاقتراح، كان روجر يواصل الانكباب على تعبئة المتطوعين الأيرلنديين ونضاليتهم. وصار صديقاً جيداً للكولونيل موريس مور، المفتش العام للمتطوعين، وقد رافقه في جولاته في الجزيرة الأيرلندية ليرى كيف يجري التدريب وإن كانوا متأكدين من مخابئ الأسلحة. وبإلحاح من الكولونيل مور، انضم روجر إلى هيئة أركان المنظمة.

لقد أُرسل عدة مرات إلى لندن. وكانت تعمل هناك لجنة سرية تترأسها إليس ستوبفورد غرين، وفضلاً عن قيامها بجمع الأموال، كانت تقوم بمساع سرية في إنكلترا وعدة بلدان أوروبية لشراء البنادق والمسدسات والقنابل اليدوية والرشاشات والذخائر وإدخالها خفية إلى أيرلندا. وفي تلك الاجتماعات في لندن مع إليس وأصدقائها، توصل روجر إلى الحدس بأن نشوب حرب في أوربا لم يعد مجرد احتمال، وإنما تحول إلى واقع آخذ بالتقدم: جميع السياسيين والمثقفين الذين

يترددون على سهرات المؤرخة في بيتها بشارع غروسنفور رود يعتقدون أن ألمانيا قد حزمت الأمر ولم يعد التساؤل عما إذا كانت الحرب ستقع وإنما متى ستندلع.

كان روجر قد انتقل إلى مالاهايد، على شاطئ دبلن الشمالي، مع أنه قلما كان يقضي الليل في بيته بسبب رحلاته السياسية الكثيرة. وبعد قليل من استقراره هناك، حذره المتطوعون من أن الشرطة الملكية الأيرلندية قد فتحت له ملفاً، وأن الشرطة السرية تتابعه. وهو سبب آخر ليسافر إلى الولايات المتحدة: هناك سيكون أكثر فائدة للحركة القومية من بقائه في أيرلندا حيث سيضعونه وراء القضبان. وأرسل جون ديفوي أن زعماء «كلان نا غيل» يرحبون بمجيئه إليهم في الولايات المتحدة. فالجميع يعتقدون أن حضوره سيسرّع جمع التبرعات.

وافق على السفر، ولكنه أجّله من أجل مشروع يداعب أحلامه: احتفال ضخم في الثالث والعشرين من نيسان ١٩١٤ بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لمعركة كلونتارف التي ألحق بها الأيرلنديون بقيادة براين بورو الهزيمة بالإنكليز. وقد دعمه ماكنيل وبيرز، أما بقية القادة فكانوا يرون في تلك المبادرة إضاعة للوقت: لماذا تبديد الطاقات في عملية أثرية تاريخية في حين أن المهم هو الوضع الراهن؟ لم يكن هنالك وقت لإضاعته. لم يصل المشروع إلى التحقق مثلما هو شأن مبادرات أخرى قدمها روجر، كحملة جمع تواقيع تطالب بمشاركة أيرلندا في الألعاب الأولمبية بفريق من رياضييها.

وبينما هو يعد العدة للرحلة، واصل التحدث في الاجتماعات الشعبية، جنباً إلى جنب في معظم الأحيان مع ماكنيل وبيرز، وفي بعض

الأحيان مع توماس دونغا. فعل ذلك في كورك، وغالوي، وكيلكيني. وفي يوم القديس باتريس، صعد إلى المنبر في ليمرك، في أكبر مظاهرة شهدها في حياته. كان الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. فدعاة الاتحاد في ألستر، المسلحون حتى الأسنان، يقومون باستعراضات ومناورات عسكرية دون تخفٍ، إلى حدّ اضطرت معه الحكومة البريطانية إلى القيام بإيماءة ما، فأرسلت مزيداً من الجنود ورجال البحرية إلى شمالي أيرلندا. وفي تلك الأثناء أقيم مهرجان كورا، وهو حدث سيكون له تأثير كبير على أفكار روجر السياسية. ففي ذروة تعبئة الجنود والبحارة البريطانيين لكبح أي عمل مسلح محتمل يقوم به متطرفو ألستر، أرسل الجنرال السير آرثر باغيت، القائد العام لأيرلندا، إلى الحكومة الإنكليزية يخبرها بأن عدداً كبيراً من الضباط البريطانيين في قوات كورا العسكرية أعلموه بأنه إذا أصدر إليهم الأمر بمهاجمة متطوعي ألستر التابعين لإدوارد كاسون فإنهم قد يقدِّمون استقالاتهم. رضخت الحكومة البريطانية للابتزاز ولم يُعاقب أي من أولئك الضباط.

أكد ذلك قناعات روجر: الحكم الذاتي لن يكون واقعاً أبداً، لأن الحكومة الإنكليزية، على الرغم من وعودها، سواء أكانت محافظة أو عمالية، لن توافق عليه مطلقاً. وسيجد جون ريدموند والأيرلنديون المؤمنون بالحكم الذاتي أنفسهم محبطين مرة بعد أخرى. فهذا ليس هو الحل لأيرلندا. الحل يكون بالاستقلال، بكل بساطة وصفاء، والاستقلال لا يمكن أن يُمنح بالحسنى. يجب انتزاعه عن طريق عمل سياسي ومسلح، وبتضحيات كبيرة وبطولة، مثلما يريد بيرز وبلانكت. فهكذا حصلت على حريتها جميع الشعوب الحرة على الأرض.

في شهرنيسان ١٩١٤، جاء إلى أيرلندا الصحفي الألماني أوسكار سويرنير. يريد كتابة تحقيق عن فقراء كوميرا. وبما أن روجر كان نشيطاً في مساعدة الأهالي خلال جائحة التيفوس، فقد بحث عنه. سافرا معاً إلى المكان، وجابا قرى الصيادين، والمدارس والمستوصفات التي بدأت تعمل. وقد ترجم روجر في ما بعد مقالات شويرنير لجريدة *ذي أيريش إندبندنت*. وخلال الأحاديث مع الصحفي الألماني المؤيد للطروحات القومية، عزز روجر الفكرة التي تكونت لديه في أثناء رحلته إلى برلين بربط النضال من أجل انعتاق أيرلندا بألمانيا في حالة اندلاع نزاع حربي بين تلك البلاد وبريطانيا العظمى. فمع مثل ذلك الحليف القوي، ستكون الإمكانيات أكبر لأن تحصل أيرلندا، بوسائلها القليلة، من انكلترا ـ قزم في مواجهة عملاق ـ على ما لا يمكنها التوصل إليه منفردة أبداً. لم تكن الفكرة جديدة، ولكن الحرب الوشيكة تمنحها صلاحية متجددة.

في تلك الظروف عُرف أن متطوعي ألستر بقيادة إدوارد كارسون قد تمكنوا من أن يُدخلوا خفية إلى ألستر، عبر ميناء لارن، ٢١٦ طناً من الأسلحة. وإضافة إلى ما كانوا يملكونه من قبل، وستمنح تلك الأسلحة لميليشيا الاتحاديين قوة تفوق بكثير قوة المتطوعين الوطنيين. فكان على روجر أن يعجل بسفره إلى الولايات المتحدة.

وقد فعل ذلك، ولكن كان عليه قبل السفر أن يرافق إيون ماكنيل إلى لندن لمقابلة جون ريدموند، زعيم الحزب البرلماني الأيرلندي. وعلى الرغم من كل الظروف غير المواتية، كان هذا الأخير لا يزال مقتنعاً بأن الأمر سينتهي بإقرار الحكم الذاتي. ودافع أمامهما عن حسن

نوايا حكومة الأحرار البريطانية. كان رجلاً ممتلئاً وديناميكياً، يتكلم بسرعة كبيرة جداً، يطلق الكلمات رشاً. ثقته المطلقة بنفسه التي يبديها أسهمت في إحساس روجر كيسمنت بالاستياء منه. لماذا هو واسع الشعبية هذا الأيرلندي؟ فطرحه بأنه يجب الحصول على الحكم الذاتي من خلال التعاون والصداقة مع إنكلترا يتمتع بدعم أغلبية الأيرلنديين. ولكن روجر كان موقناً من أن شعبية زعيم الحزب البرلماني الأيرلندي تلك ستبدأ بالكسوف من اكتشاف الرأي العام أن الحكم الذاتي ليس إلا سراباً تستخدمه الحكومة الإمبراطورية لإبقاء الأيرلنديين مخدوعين، وإضعاف تعبئتهم وتفريقهم.

أكثر ما أغضب روجر في المقابلة هو تأكيد ريدموند على أنه إذا نشبت الحرب مع ألمانيا، على الأيرلنديين أن يقاتلوا إلى جانب إنكلترا، كقضية مبدأ واستراتيجية: بهذه الطريقة سيكسبون ثقة الحكومة الإنكليزية والرأي العام، مما يضمن الحكم الذاتي مستقبلاً. وطالب إيدموند بأن يكون في اللجنة التنفيذية للمتطوعين خمسة وعشرون ممثلاً من حزبه، وهو أمر رضخ المتطوعون للموافقة عليه من أجل الحفاظ على الوحدة. ولكن هذا التنازل لم يدفع ريدموند إلى تغيير رأيه بروجر كيسمنت، إذ كان يتهمه بين حين وآخر بأنه «ثوري راديكالي». ومع ذلك، كتب روجر، خلال أسابيع وجوده الأخيرة في أيرلندا، رسالتين لطيفتين إلى ريدموند، يحثه فيهما على العمل بطريقة تحفظ وحدة الأيرلنديين رغم خلافاتهم المحتملة. ويؤكد له أنه إذا ما تحول الحكم الذاتي إلى واقع فسيكون أول من يدعمه. أما إذا لم تتمكن الحكومة الإنكليزية، بسبب ضعفها حيال متطرفي ألستر، من التوصل إلى فرض الحكم الذاتي، فلا بد للقوميين من امتلاك استراتيجية بديلة.

كان روجر يتحدث في اجتماع حاشد للمتطوعين في كتشيندون يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ عندما وصل الخبر بأن إرهابياً صربياً في سرايفو أقدم على اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند النمساوي. في تلك اللحظات لم يُول أحد كبير اهتمام لذلك الحدث الذي سيتحول، بعد أسابيع قليلة، إلى الذريعة في نشوب الحرب العالمية الأولى. خطاب روجر الأخير في أيرلندا ألقاه في كارن يوم الثلاثين من حزيران. وكان صوته قد بُح من كثرة الكلام.

بعد سبعة أيام من ذلك غادر، بصورة سرية، من ميناء غلاسكو، في السفينة *كاساندرا* ـ وقد كان اسم السفينة رمزاً لما يخبئه له المستقبل ـ متوجهاً إلى مونتريال. سافر في الدرجة الثانية، باسم منتحل. بدّل طريقة لبسه، وهي متأنقة عموماً، أما الآن فمتواضعة جداً، وملامح وجهه بتغيير تسريحة شعره وقص لحيته. أمضى بضعة أيام هادئاً وهو يبحر، بعد زمن طويل لم يعرف خلاله الهدوء. وقد قال لنفسه متفاجئاً إنه كان لاضطرابات تلك الشهور الأخيرة فضيلة تسكين آلام مفاصله. فهو يكاد لا يعاني منها، وعندما تعاوده تكون محتملة أكثر من السابق. وفي القطار من مونتريال إلى نيويورك، خضّر التقرير الذي سيقدمه إلى جون ديفوي وقادة «كلان آن غيل» الآخرين حول الوضع في أيرلندا وضرورة العون المادي الذي يحتاج إليه المتطوعون لشراء الأسلحة، فبالطريقة التي يتطور بها الوضع السياسي، يمكن للعنف أن ينفجر في أي لحظة. ومن جهة أخرى، ستفتح الحرب فرصة استثنائية للاستقلاليين الأيرلنديين.

ولدى وصوله إلى نيويورك، في الثامن عشر من تموز، نزل في

فندق بيلمونت، وهو فندق متواضع يرتاده الأيرلنديون. وفي ذلك اليوم بالذات، بينما هو يتمشى في منهاتن، في الحر النيويوركي اللاهب، حدث لقاؤه مع النرويجي إفيند أدلِر كريستنسن. أهو لقاء مصادفة؟ هذا ما ظنه آنذاك. لم يخطر لذهنه لحظة واحدة الشك في أنه يمكن لذلك اللقاء أن يكون مخططاً له من أجهزة التجسس البريطانية التي صارت تتابع خطواته منذ شهور. كان واثقاً من أن احتياطاته للخروج من غلاسكو متخفياً كانت كافية. ولم يخامره الشك كذلك في الأيام التالية بالكارثة التي سيسببها في حياته ذلك الشاب ذو الأربعة والعشرين عاماً والذي لم تكن هيئته البدنية تشي بأي حال أنه متشرد مهجور يكاد يموت جوعاً كما قال له. فعلى الرغم من ملابسه المهترئة، بدا لروجر أنه أجمل من رآهم في الرجال في حياته وأكثرهم جاذبية. وبينما هو يراقبه يأكل الساندوتش ويشرب رشفات من الشراب الذي دعاه لتناوله أحس بالتشوش، بالخجل، لأن قلبه راح يخفق بشدة، وشعر بفوران في دمه لم يشعر به منذ زمن. فهو، الحذر دوماً في حركاته، والمدقق المتصلب في الأساليب الحميدة، وجد نفسه عدة مرات في ذلك المساء وتلك الليلة على وشك تجاوز الشكليات، والاستجابة للدوافع التي تداهمه لمداعبة تينك الذراعين العضليتين اللتين يغطيهما زغب ذهبي أو تطويق خصر إفيند النحيل.

وحين علم أن ليس للشاب مكان ينام فيه، دعاه إلى فندقه. حجز له غرفة في الطابق نفسه الذي فيه غرفته. وعلى الرغم من الإرهاق المتراكم من الرحلة الطويلة، لم يغمض روجر عينيه في تلك الليلة. كان يستمتع ويتعذب متخيلاً جسد صديقه الجديد الرياضي المتجمد بالنوم، الشعر الأشقر المبعثر وذلك الوجه الرقيق، بعينيه شديدتي

الزرقة، يستند إلى ذراع، وربما هو ينام وشفتاه مفتوحتان، تكشفان عن أسنانه البيضاء والمنتظمة.

تعرّفه إلى إفيند أدلِر كريستنسن كان تجربة قوية، حتى إنه في اليوم التالي، خلال موعده الأول مع جون ديفوي الذي لديه موضوعات مهمة يناقشها معه، كان ذلك الوجه وتلك الهيئة يعودان إلى ذاكرته للحظات في المكتب الصغير والمثقل بالحر الذي يتبادلان النقاش فيه.

تأثر روجر بشدة بذلك الثوري العجوز المحنك الذي تبدو حياته أشبه برواية مغامرات. إنه يحمل سنوات عمره الاثنتين والستين بقوة، ويرسل طاقة مُعدية بإيماءاته وحركاته وطريقته في الكلام. يسجل ملاحظات في دفتر صغير بقلم رصاص يبلل رأسه بفمه بين حين وآخر، واستمع إلى تقرير روجر حول المتطوعين دون أن يقاطعه. وعندما صمت، وجه إليه أسئلة لا حصر لها، طالباً منه تفاصيل دقيقة. وقد اندهش روجر لكون جون ديفوي مطّلعاً بذلك التفصيل على ما يحدث في أيرلندا، بما في ذلك أمور يظن أنها تُحفظ بأعلى قدر من السرية.

لم يكن رجلاً حميماً. لقد صلّبته سوات السجن والعمل السّريّ والنضال، ولكنه يوحي بالثقة، وبإحساسٍ بأنه صريح ونزيه، وصاحب قناعات غرانيتية. في تلك المحادثة والأحاديث الأخرى التي تبادلاها خلال مدة إقامته في الولايات المتحدة، انتبه روجر إلى أن هنالك توافقاً دقيقاً بين آرائه وآراء ديفوي حول أيرلندا. فجون يعتقد أيضاً بأن الزمن لم يعد مناسباً للحكم الذاتي، وأن هدف الوطنيين الأيرلنديين الآن هو التحرر وحسب. والعمليات المسلحة ستكون مسألة تكميلية لا مفر منها للمفاوضات. والحكومة الإنكليزية لن توافق على التفاوض إلا عندما

تخلق لها العمليات العسكرية وضعاً صعباً يكون فيه منح الاستقلال لأيرلندا هو أهون الشرور. وفي هذه الحرب وشيكة الاندلاع، لا مفر للقوميين من التقرّب من ألمانيا. فدعمها اللوجستي والسياسي سيمنح الاستقلاليين فعالية أكبر. وأخبره جون ديفوي بأنه لا يوجد إجماع في هذا الشأن بين الجالية الأيرلندية في الولايات المتحدة. فلطروحات جون ريدموند أنصارها هنا أيضاً، وإن كانت قيادة «كلان نا غيل» تتفق وآراء ديفوي وكيسمنت.

في الأيام التالية عرّفه جون ديفوي على معظم قيادات المنظمة في نيويورك، وكذلك على جون كوين وويليم بيرك كوكرن، المحاميين الأمريكيين المتنفذين واللذين يقدمان الدعم للقضية الأيرلندية. ولكليهما علاقات بأوساط عليا في حكومة وبرلمان الولايات المتحدة.

لاحظ روجر الأثر الطيب الذي خلّفه في أوساط الجاليات الأيرلندية منذ أن بدأ، بطلب من جون ديفوي، التحدث في اللقاءات الشعبية والاجتماعات من أجل جمع أرصدة. لقد كان معروفاً بحملاته لمصلحة السكان الأصليين في أفريقيا والأمازون، فكانت خطاباته العقلانية والمؤثرة تصل إلى كافة مستويات الجمهور. وفي نهاية المهرجانات التي شاركت بها في نيويورك وفيلادلفيا ومدن أخرى على الساحل الشرقي، تضاعفت التبرعات. فكان قادة «كلان نا غيل» يمازحونه بأنه على هذا المعدل سيتحولون إلى رأسماليين. ودعته طائفة الهيبرنيين القديمة إلى أن يكون خطيباً رئيسياً في أوسع مهرجان بين تلك التي شارك فيها روجر في الولايات المتحدة.

في فيلادلفيا تعرف إلى آخرين من كبار القادة القوميين في المنفى،

جوزيف ماكغريتي المعاون المقرب من جون ديفوي في «كلان نا غيل». وقد كانا في بيته بالذات عندما وصلهم خبر النجاح في الإنزال السري لألف وخمسمئة بندقية وعشرة آلاف طلقة ذخائر للمتطوعين على شاطئ منطقة هوث. أحدث الخبر انفجار بهجة واحتفلوا به بشرب نخب. وبعد قليل من ذلك عُرف أنه بعد ذلك الإنزال وقع حادث في بشيلورز ووك بين أيرلنديين وجنود بريطانيين من وحدة الحدود الاسكتلندية المستقلة، وسقط فيه ثلاثة قتلى وأكثر من أربعين جريحاً. هل بدأت الحرب إذاً؟

وفي معظم جولاته في الولايات المتحدة، واجتماعات «كلان نا غيل» والمهرجانات العامة، كان روجر يأتي وبرفقته إفيند أدلِر كريستنسن. يقدمه على أنه مساعده وشخص موثوق. وكان قد اشترى له ملابس أفضل مظهراً وأطلعه على تطورات المشكلة الأيرلندية التي قال الشاب النرويجي إنه لا يعرف شيئاً عنها. لقد كان جاهلاً ولكنه ليس أحمق، فقد تعلم بسرعة وأبدى التكتم في الاجتماعات بين روجر وجون ديقو وأعضاء المنظمة الآخرين. وإذا كانت الشكوك قد راودت هؤلاء بالشاب النرويجي، فإنهم لم يوجهوا إلى روجر في أي وقت أسئلة وقحة حول مرافقه.

وعندما اندلعت في آب ١٩١٤ الحرب العالمية ـ أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا في اليوم الرابع من آب ـ كان كيسمنت وديفوي وجوزيف ماكغرتي وجون كيتنغ والدائرة الضيقة من قادة «كلان نا غيل» قد اتخذوا القرار بسفر روجر إلى ألمانيا. سيذهب كممثل لأنصار الاستقلال الأيرلنديين لإقرار تحالف استراتيجي تقدم حكومة

قيصر ألمانيا بمقتضاه مساعدة سياسية وعسكرية للمتطوعين، ويقوم هؤلاء بحملة ضد تجنيد الأيرلنديين في الجيش البريطاني الذي يدافع عنه بقوة دعاة الاتحاد في ألستر مثل أتباع جون ريدموند. وقد جرى التشاور في هذا المشروع مع عدد محدود من قادة المتطوعين، مثل باتريك بيرز وإيون ماكنيل اللذين صادقا عليه دون تحفظ. السفارة الألمانية في واشنطن التي لديها علاقات مع «كلان نا غيل» شاركت في صياغة الخطط. فالملحق العسكري الألماني، الكابتن فرانز فون بابين، جاء إلى نيويورك والتقى مرتين بروجر. وقد أبدى حماسته للتقارب بين «كلان نا غيل» والأخوية الجمهورية الأيرلندية والحكومة الألمانية. وبعد التشاور مع برلين، أخبرهم أن روجر كيسمنت سيكون مرحباً به في ألمانيا.

كان روجر ينتظر اندلاع الحرب، مثل العالم بأسره، وما إن تحول التهديد إلى واقع حتى انهمك في العمل بالطاقة الهائلة القادر عليها. موقفه المؤيد للرايخ انفجر بحدة معادية لبريطانيا فاجأت حتى رفاقه في «كلان نا غيل» على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا يراهنون أيضاً على انتصار ألماني. وقع جدال عنيف بينه وبين جون كوين الذي دعاه لقضاء بضعة أيام في منزله الفاخر، لتأكيده بأن هذه الحرب هي مؤامرة حقدٍ وحسد بلد آخذ بالانحدار مثل إنكلترا في مواجهة قوة عظمى صاعدة، وفي أوج تطور صناعي واقتصادي، مع ديموغرافيا متنامية. فألمانيا تمثل المستقبل لأنه لا مخلفات استعمارية لديها، بينما إنكلترا، التي تجسد الماضي الاستعماري نفسه، محكوم عليها بالانقراض.

في آب وأيلول وتشرين الأول ١٩١٤، عمل روجر، كما في أفضل

أزمنته، نهاراً وليلاً، في كتابة مقالات ورسائل، وتقديم أحاديث وإلقاء محاضرات يتهم فيها أنكلترا، بإلحاح مهووس، بأنها المتسبب في تلك الكارثة الأوربية، ويحث الأيرلنديين على عدم الاستجابة لأغنيات حورية جون ريدموند الذي يقوم بحملة لتجندهم. قامت الحكومة البريطانية بالمصادقة على الحكم الذاتي في البرلمان، ولكنها أوقفت العمل به حتى انتهاء الحرب. فصار انقسام المتطوعين أمراً لا يمكن تفاديه. كانت المنظمة قد تعاظمت بطريقة استثنائية، وكان ريدموند والحزب البرلماني الأيرلندي هو الأغلبية العظمى. فقد تبعه أكثر من مئة وخمسين ألف متطوع، بينما استمر بالمقابل أقل من أحد عشر ألفاً مع أيون ماكنيل وباتريك بيرز. لم يضعف شيء من ذلك من حماسة تأييد روجر كيسمنت لألمانيا، فقد واصل، في كافة المهرجانات في الولايات المتحدة، تقديم ألمانيا القيصر على أنها ضحية تلك الحرب والمدافع الأفضل عن الحضارة الغربية. «ليس حب ألمانيا هو ما يتكلم بفمك وإنما كره إنكلترا»، قال له جون كوين في ذلك الجدال الذي دار بينهما.

في أيلول ١٩١٤ صدر في فيلادلفيا كتاب صغير لروجر كيسمنت بعنوان ***أيرلندا، ألمانيا وحرية البحار: نتيجة محتملة لحرب ١٩١٤***، يضم دراسات ومقالات مؤيدة لألمانيا. وسوف تعاد طباعة الكتاب في برلين ***بعنوان الجريمة ضد أوروبا***.

أذهلت أقواله المؤيدة لألمانيا ممثلي الرايخ الدبلوماسيين المعتمدين في الولايات المتحدة. فسافر السفير الألماني في واشنطن الكونت يوهان فون برنستورف إلى نيويورك ليجتمع سراً بثلاثي قيادة «كلان نا

غيل» ـ جون ديفوي، وجوزيف ماكغيرتي وجون كتينغ ـ وروجر كيسمنت. وكان حاضراً كذلك الملحق العسكري الكابتن فرانز فون بابين. كان روجر، وفق اتفاق مع رفاقه، هو من عرض أمام الدبلوماسي الألماني طلب القوميين: خمسين ألف بندقية وذخائر. يمكن إنزالها في موانئ أيرلندية مختلفة بطريقة سرية يؤمنها المتطوعون. وتستخدم في انتفاضة عسكرية ضد الاستعمار وتشل جزءاً مهماً من القوات العسكرية الإنكليزية، تستغله قوات القيصر البحرية والعسكرية لشن هجوم ضد الحاميات العسكرية على الساحل الإنكليزي. ولتوسيع التعاطف مع ألمانيا بين الرأي العام الأيرلندي، لا بد أن تعلن الحكومة الألمانية تصريحاً تضمن فيه، في حال انتصارها، أن تدعم رغبات الأيرلنديين بالتحرر من نير الاستعمار. ومن جهة أخرى، يجب على الحكومة الألمانية الالتزام بتوفير معاملة خاصة للجنود الأيرلنديين الذين يقعون أسرى، وفصلهم عن الجنود الإنكليز، ومنحهم الفرصة للانضمام إلى لواء أيرلندي يقاتل «إلى جانب، وليس ضمن» الجيش الألماني ضد العدو المشترك. وسيتولى روجر تنظيم اللواء الأيرلندي.

استمع إليه الكونت فون برنستورف بمظهره المربوع وعدسة المونكل والصدر المزدحم بالأوسمة، باهتمام شديد. وكان الكابتن فون بابين يدون ملاحظات. على السفير أن يستشير برلين بكل تأكيد، ولكنه استبق القول لهم بأن الاقتراح يبدو معقولاً. وبالفعل، بعد أيام قليلة، وفي اجتماع ثانٍ، أخبرهم أن الحكومة الألمانية مستعدة لعقد محادثات حول الموضوع، في برلين، مع كيسمنت كممثل للقوميين الأيرلنديين. وسلّم إليهم رسالة تطلب من السلطات أن تقدم كافة التسهيلات للسير روجر خلال إقامته في ألمانيا.

بدأ التحضير لسفره فوراً. وانتبه إلى أن ديفوي وماكغريتي وكيتنغ قد فوجئوا حين قال لهم إنه سيسافر إلى ألمانيا ويأخذ معه مساعده إفيند أدلِر كريستنسن. فبما أنه خطط، لأسباب أمنية، أن يسافر في سفينة من نيويورك إلى كريستيانيا، فإن مساعدة النروجي له في بلاده كمترجم ستكون مفيدة، وكذلك في برلين، لأن إفيند يتكلم الألمانية أيضاً. لم يطلب نقوداً اضافية لمساعده. فالمبلغ الذي قدمته إليه «كلان نا غيل» من أجل الرحلة والإقامة ـ ثلاثة آلاف دولار ـ سيكون كافياً لكليهما.

إذا كان رفاقه النيويوركيون قد رأوا شيئاً غريباً في سعيه لأن يأخذ معه ذلك الشاب الفايكنغ الذي يظل صامتاً أمامهم في الاجتماعات، فإنهم سكتوا عن الأمر. وافقوا دون تعليقات. وما كان بإمكان روجر القيام بالرحلة من دون إفيند. فمعه دخلت حياته في تدفق شبابي، في أحلام، وفي ـ جعلته الكلمة يحمر خجلاً ـ حب. لم يخطر له ذلك من قبل. لقد عرف من قبل تلك المغامرات الشوارعية المتباعدة مع أشخاص ينسى أسماءهم فوراً، إذا كانت تلك الأسماء حقيقية وليست مجرد ألقاب، أو مع تلك الأشباح التي تختلقها مخيلته ورغباته وعزلته على صفحات يومياته. أما مع «الفايكنغ الجميل»، كما كان يدعوه على انفراد، فقد شعر خلال تلك الأسابيع والشهور، بعيداً عن المتعة، بأنه قد توصل أخيراً إلى علاقة عاطفية يمكن لها أن تستمر، وتُخرجه من الوحدة التي حكمت عليه بها ميوله الجنسية. لم يكن يتحدث في هذه الأمور مع إفيند. لم يكن ساذجاً، وقد قال لنفسه مرات كثيرة إن الاحتمال الأكبر، بل المؤكد، هو أن النرويجي بقي معه لأسباب مصلحية، فبوجوده مع روجر يأكل مرتين في اليوم، ويعيش تحت سقف، وينام في سرير محترم، ولديه ملابس وحالة من الأمان، على

حدّ قوله هو نفسه، لم يتمتع بها منذ زمن طويل. ولكن الأمر انتهى بروجر إلى استبعاد كافة احتياطاته في التعامل اليومي مع الشاب. كان يهتم به ويحنو عليه، يبدو كأنه يعيش لخدمته، يناوله ملابسه ليرتديها، ويخدمه في كل طلباته. يتوجه إليه في كل لحظة، حتى في أكثرها حميمية، محتفظاً بمسافة مناسبة، دون أن يسمح لنفسه باستغلال الثقة أو بالإقدام على أي ابتذاك.

اشتريا تذكرتي سفر في الدرجة الثانية في السفينة ***أوسكار الثاني*** من نيويورك إلى كريستيانيا، والتي ستنطلق في الثاني من تشرين الأول. وروجر الذي كان يستخدم وثائق باسم جيمس لاندي، بدّل مظهره بقص شعره كله وتبييض وجهه البرونزي بالكريمات. جرى اعتراض السفينة من قبل البحرية البريطانية في عرض البحر واقتيدت إلى ميناء ستورنوي في جزر هبرديز، حيث أخضعها الإنكليز لتفتيش صارم. ولكن لم تُكتشف حقيقة شخصية كيسمنت. ووصل الاثنان سالمين إلى كريستيانيا عند غروب يوم ٢٨ تشرين الأول. لم يشعر روجر قطّ بأنه كان أفضل حالاً مما هو عليه. ولو أنه سُئل يومذاك لقال إنه رجل سعيد، على الرغم من كل المشاكل.

ومع ذلك، في تلك الساعات، اللحظات، نفسها التي كان يشعر فيها أنه قد أمسك بتلك النار الكاذبة ـ السعادة ـ، بدأت المرحلة الأشد مرارة في حياته، ذلك الإخفاق الذي سيقوض، كما سيفكر في ما بعد، كل ما هو جيد ونبيل في ماضيه. ففي اليوم نفسه الذي وصلا فيه إلى العاصمة النرويجية، أخبره إفيند بأنه قد اختُطف لعدة ساعات على يد مجهولين واقتيد إلى القنصلية البريطانية، حيث استجوبوه عن مرافقه

الغامض. وقد صدقه هو الساذج. وفكر في أن تلك الحادثة قد توفر له فرصة من العناية الإلهية ليكشف الممارسات الخبيثة (نوايا الاغتيال) للقنصلية البريطانية. ولكن الحقيقة، مثلما تحرى في ما بعد، هي أن إفيند ذهب إلى القنصلية عارضاً عليهم بيعه. لم تؤدِ تلك المسألة إلى الاستحواذ على ذهن روجر وجعله يضيع أسابيع وشهوراً في مساعٍ وتحضيرات غير مجدية ولم تأت، في النهاية، بأي منفعة للقضية الأيرلندية، وكانت دون شك سبباً للسخرية في وزارة الخارجية والمخابرات البريطانيتين، حيث يُنظر إليه كوطني متدرب في الدسائس.

متى بدأت خيبة أمله بالمانيا تلك التي راح يقدّرها، ربما كمجرد رفض لإنكلترا، ويسميها نموذجاً في الفعالية، والانضباط، والثقافة، والحداثة؟ لم تبدأ في أسابيعه الأولى في برلين. في الرحلة، وكانت شاقة جداً، من كريستيانيا إلى العاصمة النرويجية برفقة ريتشارد ماير الذي سيكون صلة الوصل بينه وبين وزارة خارجية القيصر، كان لا يزال ممتلئاً بالأوهام، ومقتنعاً بأن ألمانيا ستكسب الحرب وسيكون انتصارها حاسماً في تحرير أيرلندا. لقد كانت جيدة انطباعاته الأولى عن تلك المدينة الباردة، ذات المطر والضباب التي كانتها برلين في ذلك الخريف. بل إن معاون وزير الدولة للشؤون الخارجية آرثر زيميرمان، وكذلك الكونت جورج فون فيديل، رئيس الدائرة الإنكليزية في وزارة الخارجية، استقبلاه بلطف وأبديا الحماسة لخططه بتشكيل لواء من الأسرى الأيرلنديين. وكلاهما كان مؤيداً لإعلان الحكومة الألمانية تصريحاً لمصلحة استقلال أيرلندا. وبالفعل، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٩ أعلن الرايخ ذلك، ربما ليس بالصيغة الواضحة التي كان ينتظرها روجر، ولكنها واضحة بما يكفي لتبرير موقف من يدافعون مثله عن

تحالف القوميين الأيرلنديين مع ألمانيا. ومع ذلك، وعلى الرغم من الحماسة التي زوده بها ذلك التصريح ـ وهو نجاح له دون شك ـ ومن إبلاغ وزير الخارجية له بأن القيادة العليا الألمانية قد أمرت بجمع أسرى الحرب الأيرلنديين في معسكر واحد حيث يمكنه زيارتهم، حينئذ بدأ روجر يهجس بأن الواقع لا يمضي متطابقاً مع خططه، بل إنه يسعى إلى إفشالها.

الإشارة الأولى إلى أن الأمور تتخذ مساراً غير متوقع هو معرفته، من خلال الرسالة الوحيدة التي تلقاها من إليس ستوبفورد غرين خلال ثمانية عشر شهراً ـ وهي رسالة جالت أطلسياً من أجل الوصول إليه، فتوقفت في نيويورك، حيث تم استبدال مغلفها واسم المرسل ـ، وجاء فيها أن الصحافة البريطانية تناقلت أخبار وجوده في برلين. وقد أثار ذلك جدلاً مكثفاً بين القوميين المؤيدين والمعارضين لقراره بالوقوف إلى جانب ألمانيا في الحرب. وإليس تعارضه: تقول له ذلك بعبارات صارمة. وتضيف أن كثيرين من الوطنيين المصممين على الاستقلال يتفقون معها في الرأي. وأقصى ما يمكن القبول به، تقول إليس، هو موقف محايد من الأيرلنديين بشأن الحرب الأوروبية. أما الوقوف مع ألمانيا فلا. فعشرات آلاف الأيرلنديين يقاتلون مع بريطانيا العظمى: ما الذي سيشعر به مواطنوه هؤلاء حين يعلمون أن شخصية وطنية أيرلندية بارزة تتفق مع العدو الذي يقصفهم بالمدافع والغازات السامة في خنادق بلجيكا؟

كان لرسالة إليس وقع الصاعقة عليه. فأن تدين الشخصية التي يقدرها أكثر من أي شخص آخر ما يقوم به، وتقول ذلك بهذه

العبارات، سبب له البلبلة. فالأمور في لندن تُرى بطريقة مختلفة، دون أخذ البعد في الاعتبار. ولكن مهما قدم لنفسه من مسوغات، فإن شيئاً ظل في وعيه، وكان يُقلقه: مرشدته السياسية، صديقته ومعلمته، تعارضه لأول مرة، وترى أنه يضر بالقضية الأيرلندية بدل أن يساعدها. منذ ذلك الحين، كان هنالك سؤال يدور في ذهنه بصوت نذيرشؤم: «وماذا لو كانت إليس محقة وكنتُ أنا على خطأ؟».

في شهر تشرين الثاني ذاك بالذات جعله الألمان يسافر إلى الجبهة، في شارلفيل، كي يتحدث إلى القادة العسكريين عن اللواء الأيرلندي. كان روجر يقول لنفسه إنه إذا تمكن من النجاح وتشكلت قوة عسكرية تقاتل إلى جانب الألمان من أجل استقلال أيرلندا، فربما تتلاشى وساوس رفاق كثيرين مثل إليس. وسيتقبَّلون أن المشاعر تشكل عائقاً في السياسة، وأن عدو أيرلندا هو إنكلترا، وأن أعداء أعدائه هم أصدقاء لأيرلندا. الرحلة إلى الجبهة خلّفت لديه انطباعاً جيداً. فكبار الضباط الألمان الذين يقاتلون في بلجيكا كانوا واثقين من النصر. وجميعهم صفقوا لفكرة اللواء الأيرلندي. أما من الحرب نفسها فلم يرَ شيئاً كثيراً: قوات في شاحنات، مستشفيات في القرى، أرتال أسرى يحرسهم جنود مسلحون، وقصف مدافع بعيدة. عند عودته إلى برلين، وجد خبراً طيباً بانتظاره. فالفاتيكان قرر الموافقة على إرسال كاهنين إلى المعسكر الذي يجري تجميع الأسرى الأيرلنديين فيه: كاهن أغسطوني هو الراهب أوغورمان، وكاهن دومينيكاني هوالراهب توماس كروتي. وسيبقى أوغورمان مدة شهرين، بينما يظل كروتي هناك طيلة الوقت الذي يحتاجون فيه إليه.

وماذا لو أن روجر كيسمنت لم يتعرف إلى الأب توماس كروتي؟ ربما ما كان قُيض له أن يتجاوز حياً شتاء ١٩١٤ ـ ١٩١٥ الرهيب، حيث تعرضت ألمانيا بأسرها، وبرلين بصورة خاصة، لعواصف ثلجية جعلت الطرق والدروب غير سالكة، ورياحٍ تقتلع الأشجار وتحطم واقيات مداخل البيوت ونوافذها، ودرجات حرارة بين الخمس عشرة والعشرين درجة مئوية تحت الصفر يجب تحمّلها في أحيان كثيرة، بسبب الحرب، دون إضاءة أو تدفئة. عادت العلل البدنية تتكالب عليه بحدّة: آلام الحوض والعظم الحرقفي تجعله ينكمش على نفسه في المقعد دون أن يتمكن من الوقوف. فكر في أحيان كثيرة أنه، في ألمانيا، سيظل مشلولاً إلى الأبد. وعادت البواسير إلى إزعاجه. الذهاب إلى المرحاض تحوّل إلى عذاب. كان يشعر بالوهن والتعب في جسمه كما لو أن عشرين عاماً إضافياً قد حطّت عليه دفعة واحدة.

في تلك الفترة كلها كان الأب كروتي هو خشبة خلاصه. فكان يقول لنفسه: «القديسون موجودون وليسوا خرافة». وماذا يكون الأب كروتي غير ذلك؟ لم يكن يتذمر مطلقاً، ويتأقلم مع أسوأ الظروف بابتسامة على شفتيه، كمظهر لطيب مزاجه وتفاؤله الحيوي، وقناعته الحميمة بأن في الحياة أشياء كثيرة طيبة تجعلها جديرة بأن تُعاش.

كان رجلاً أقرب إلى قِصر القامة منه إلى الطول، له شعر قليل وأشهب، ووجه مدور ومتورد، فيه عينان زرقاوان تبدوان كأنهما تتلألأان. يتحدر من أسرة فلاحية مدقعة الفقر، من غالوي، وفي بعض الأحيان، عندما يكون أكثر سعادة من المعتاد، يغني بالغيليّة أغنيات مهد سمعها من أمه وهو طفل. وحين علم أن روجر قد أمضى عشرين عاماً

في أفريقيا وقرابة العام في الأمازون، أخبره أنه كان يحلم، منذ أيام المدرسة الدينية، بالذهاب إلى أراضي البعثات التبشيرية في بلاد نائية، ولكن الطائفة الدومينكانية قررت له مصيراً آخر. وفي المعسكر صار صديقاً لكل الأسرى، لأنه عامل الجميع بالتقدير نفسه، دون أن يهتم بأفكارهم ومعتقداتهم. وكما تكهن، منذ اللحظة الأولى، أن قلة ضئيلة فقط ستتقبل الاقتناع بأفكار روجر، حافظ بصرامة على حياديته، دون أن يتخذ قطّ موقفاً مؤيداً أو معارضاً للواء الأيرلندي. «جميع من هم هنا يتألمون، وهم أبناء الرب، وبالتالي إخوتنا، أليس كذلك؟»، هذا ما قاله لروجر. ونادراً ما كانت تُطل السياسة في أحاديثه الطويلة مع الأب كروتي. كانا يتحدثان عن أيرلندا، أجل، عن ماضيها، عن أبطالها، عن قديسيها، عن شهدائها، ولكن الأيرلنديين الأكثر تواتراً على لسان الأب كروتي هم أولئك الفلاحون التعساء المهجورين الذين يعملون من شروق الشمس حتى مغيبها ليكسبوا كسرات خبز، واضطروا إلى الهجرة إلى أميركا وأفريقيا الجنوبية وأستراليا كيلا يموتوا جوعاً.

وكان روجر هو من حمل الأب كروتي للحديث في الدين. فقد كان الراهب الدمينكاني متحفظاً جداً، يفكر دون شك في أن محدثه، باعتباره أنجليكانياً، يفضل تجنب المسائل الخلافية. ولكن عندما عرض عليه روجر عدم يقينه الروحي واعترف له بأنه يشعر منذ بعض الوقت بانجذاب أكبر فأكبر إلى الكاثوليكية، ديانة أمه، وافق الأب كروتي بطيب خاطر على مقاربتهما الموضوع. فكان يلبي بصبر فضوله وشكوكه وأسئلته. وذات مرةتجرأ روجر على سؤاله وهو يقترب منه: «هل تظن أن هذا الذي أفعله جيد أم أنني مخطئ يا أب كروتي؟». أبدى الكاهن

جدّية كبيرة: «لا أدري يا روجر. فأنا لا أحب الكذب. وبكل بساطة، لا أدري».

وروجر لم يعد يدري الآن، فبعد تلك الأيام الأولى من شهر كانون الأول ١٩١٤، وبعد أن تمشى في معسكر ليمبورغ مع الجنرالين الألمانيين دي غراف وإكسنير، تحدث أخيراً إلى مئات الأسرى الأيرلنديين. لا، الواقع أنه لم يمتثل لتحذيراتهما. «كم كنتُ ساذجاً وأبله»، هذا ما سيقوله في ما بعد وهو يتذكر، ومذاق رماد يملأ فمه فجأة، وجوه الأسرى القلقة، المرتابة، المعادية، حين شرح لهم بكل نار حبه لأيرلندا، سبب تشكيل اللواء الأيرلندي، والمهمة التي سيتولاها، وكم سيكون الوطن ممتناً لهذه التضحية. يتذكر الهتافات المتباعدة المحيية جون ريدموند تقاطعه، والهمهمات المستنكرة بعد ذلك، بل والتهديدات، والصمت الذي تلا كلماته. وما هو أشد إذلالاً أن الجنود الألمان، بعد أن أنهى خطبته، أحاطوا به ورافقوه للخروج من المعسكر، لأن سلوك معظم الأسرى، حتى لو لم يفهم الجنود كلامهم، يشير إلى أن الموقف قد ينتهي باعتداء على الخطيب.

وهذا هو بالضبط ما حدث في المرة الثانية التي رجع فيها روجر إلى معسكر ليمبورغ ليتحدث إليهم، في الخامس من كانون الثاني ١٩١٥. ففي هذه المرة لم يكتف الأسرى بإظهار وجوه متجهمة والتعبير عن استيائهم بحركات وإيماءات. بل صفروا له وشتموه. «كم دفع لك الألمان؟»، كانت هذه هي أكثر الصرخات تواتراً. ولم يجد مفراً من الصمت لأن الصرخات كانت تصم الآذان. وكان قد بدأ بتلقي مطر من

الحصى الصغيرة، والبصاق وقذائف أخرى متنوعة. فأخرجه الجنود الألمان راكضين من المكان.

لم يستطع تجاوز تلك التجربة. فذكراها، مثل السرطان، ستنهشه من الداخل دون توقف.

ـ هل عليّ التخلي عن هذا الأمر بالنظر إلى ذلك الرفض الشامل أيها الأب كروتي؟

ـ عليك أن تفعل ما ترى أنه أفضل من أجل أيرلندا يا روجر. أفكارك نقية. وعدم الشعبية ليس مؤشراً جيداً على الدوام من أجل تحديد عدالة قضية ما.

منذ ذلك الحين سيعيش ازدواجية مؤثرة تمزقه، بالتظاهر أمام السلطات الألمانية بأن اللواء الأيرلندي يتقدم. الحقيقة أن هناك قلة من المنضمين إليه، ولكن الأمر سيختلف عندما يتجاوز الأسرى عدم الثقة الأولي ويدركون أن المناسب لأيرلندا، وبالتالي لهم بالذات، هو الصداقة والتعاون مع ألمانيا. أما في داخله فكان يعرف جيداً أن ما يقوله غير صحيح، وأنه لن يكون هنالك أبداً انضمام كثيف إلى اللواء، وأن ذلك اللواء لن يتجاوز كونه مجرد جماعة رمزية.

إذا كان الأمركذلك، لماذا لا يتراجع؟ لأن التراجع يعني انتحاراً، وروجر كيسمنت لا يريد الانتحار. ليس بعد. وليس بهذه الطريقة على أي حال. ولهذا، وبينما الجليد في قلبه، خلال الشهور الأولى من العام ١٩١٥، وبينما هو يواصل إضاعة الوقت بـ «مسألة فيندلي»، كان يتفاوض مع سلطات الرايخ للاتفاق بشأن اللواء الأيرلندي. طالب ببعض الشروط، واستمع إليه محاوروه، آرثر زيمرمان والكونت جورج

فون ويديل والكونت رودلف نادولني، بجدّية، وهم يسجلون ملاحظات في دفاترهم. وفي الاجتماع التالي أبلغوه أن الحكومة الألمانية توافق على طلباته: سيكون للواء الأيرلندي زيّ خاص به، وضباط أيرلنديون، وسيختار ميادين المعارك التي يعمل فيها، ونفقاته ستُردّ إلى الحكومة الألمانية فور تشكيل الحكومة الجمهورية الأيرلندية. كان يعرف جيداً، مثلما يعرفون هم، أن ذلك كله بانتوميم، لأن اللواء الأيرلندي في منتصف العام ١٩١٥ لم يتوافر لديه من المتطوعين ما يكفي لتشكيل كتيبة: لم يكد يجند أكثر من أربعين عنصراً، ومن المستحيل أن يحافظوا جميعهم على التزامهم. وكثيراً ما كان يتساءل: «إلى متى ستدوم هذه المهزلة؟». في رسائله إلى إيون ماكنيل وجون ديفوي يجد نفسه مضطراً إلى التأكيد بأن اللواء الأيرلندي آخذ بالتحول إلى واقع، وإن يكن ببطء. وأن المتطوعين آخذين بالتزايد شيئاً فشيئاً. وأنه لا بد لهم من أن يرسلوا إليه ضباطاً أيرلنديين ليدربوا اللواء، ويقفوا على رأس السرايا والكتائب المستقبلية. فكانوا يعدونه، ولكنهم هم أيضاً أخفقوا: الضابط الوحيد الذي جاءه هو النقيب روبرت مونتيث. وإن كان مونتيث الصلب، وهذا حقيقي، يساوي كتيبة وحده.

أولى الإشارات على ما هو آت حصل عليها روجر، مع انتهاء الشتاء، عندما بدأت تظهر أول البراعم الخضراء على أشجار أونتر دين ليندن. فذات يوم، في أحد اللقاءات الدورية أخبره وزير العلاقات الخارجية، بطريقة فجة، أن القيادة العسكرية العليا لا تثق بمعاونه إفيند أدلِر كريستنسن. فهناك مؤشرات إلى أنه قد يكون مخبراً لدى المخابرات البريطانية. وعليه إستبعاده فوراً.

فاجأه التحذير، واستبعد صحته على الفور. طلب أدلة. فردّوا عليه أن أجهزة المخابرات الألمانية ما كانت لتؤكد على مثل هذا الأمر لو لم تكن لديها أسباب قوية. وبما أن إفيند كان يرغب في الذهاب لبضعة أيام إلى النرويج، فقد شجعه روجر على المغادرة. أعطاه نقوداً وذهب ليودعه في محطة القطار. ولم يعد لرؤيته بعدها قطّ. ومنذ ذلك الحين، أضيف غمّ آخر لغمومه السابقة: هل من الممكن أن يكون الإله الفايكنغي جاسوساً؟ فتش في ذاكرته محاولاً أن يجد في تلك الشهور الأخيرة التي عاشا فيها معاً شيئاً يشي بذلك. لم يجد شيئاً. كان يحاول طمأنة نفسه بالقول إن تلك الأكذوبة هي مناورة من أولئك الأرسطقراطيين الألمان ذوي الأحكام المسبقة والمتزمتين الذين ارتابوا بأن علاقته بالنرويجي ليست بريئة، فأرادوا إبعاده عنه متذرعين بأي ذريعة، بما في ذلك الافتراء. ولكن الشكوك عاودته، وأرقته. وحين علم أن إفيند أدلِر كريستنسن قرر العودة إلى الولايات المتحدة من النرويج، دون العودة إلى ألمانيا، أحس بالسعادة.

في العشرين من نيسان ١٩١٥ وصل إلى برلين الشاب جوزيف بلانكيت، كمندوب عن المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية، بعد أن قام بجولة عبر نصف أوروبا ليفلت من شِباك المخابرات البريطانية. كيف أمكن له القيام بذلك الجهد بوضعه البدني ذاك؟ لم يكن يتجاوز السابعة والعشرين من العمر، لكنه بدا هيكلاً عظمياً، شبه عاجز بفعل شلل الأطفال والتدرن الرئوي الذي ينهشه ويمنح وجهه في بعض اللحظات هيئة جمجمة. إنه ابن أرستقراطي مزدهر، الكونت جورج نوبل بلانكيت، مدير متحف دبلن الوطني. وجوزيف الذي يتكلم الإنكليزية بلكنة أرستقراطية، يرتدي ملابس كيفما اتفق: بنطال منتفخ

وسترة طويلة الذيل وكبيرة على مقاسه، وقبعة غاطسة في رأسه حتى الحاجبين. ولكن يكفي سماعه يتكلم وتبادل قليل من الحديث معه لاكتشاف أن وراء مظهر المهرج ذاك، والبنية الجسدية المحطمة هنالك ذكاء فائق ونفاذ لا يتوافر إلا لقليلين، وثقافة أدبية فسيحة، وروح متوقدة، مع ميل متأجج إلى النضال والتضحية في سبيل القضية الأيرلندية أذهل روجر كيسمنت كثيراً في المرات التي تناقش معه في دبلن، وفي اجتماعات المتطوعين. إنه يكتب شعراً صوفياً، وقد كان، مثل باتريك بيرز، مؤمناً ورعاً ويعرف المتصوفين الإسبان بالتفصيل، ولاسيما سانتا تيريسا دي خيسوس وسان خوان دي لاكروث اللذين يرتل أبياتاً من أشعارهما عن ظهر قلب بالإسبانية. ومثل باتريك بيرز أيضاً، كان يقف على الدوام، ضمن صفوف المتطوعين، مع الراديكاليين مما قرّبه من روجر. وحين كان هذا الأخير يسمعهما في أحيان كثيرة، يقول في نفسه إن بيرز وبلانكيت يبحثان عن الشهادة، لقناعتهما بأن هدر البطولة وازدراء الموت مثلما فعل أولئك الأبطال الجبابرة المخلدون في التاريخ الأيرلندي، ابتداء من كوتشولن، وفين، وون روي حتى وولف تون وروبرت إيميت، والتضحية بأنفسهم كما شهداء المسيحية في أزمنة البداية، سينقلون إلى الأغلبية عدوى أن الطريقة الوحيدة لنيل الحرية هي في امتشاق السلاح وخوض الحرب. ومن تضحيات أبناء أيرلندا سيولد هذا البلد الحر، بلا مستعمرين ولا مستغلين، حيث يسود القانون، والمسيحية والعدالة. كان روجر، وهو في أيرلندا، يشعر بالرعب أحياناً من رومانسية جوزيف بلانكيت وباتريك بيرز الجنونية. أما في تلك الأسابيع في برلين، وبينما هو يستمع إلى الشاب الشاعر والثوري، في تلك الأيام البديعة حيث الربيع

يملأ الحدائق بالزهور وأشجار المتنزهات تستعيد خضرتها، أحس روجر بالتأثر وباللهفة لتصديق كل ما يقوله له القادم الجديد.

كان يحمل أخباراً مثيرة من أيرلندا. فانقسام المتطوعين بسبب الحرب الأوروبية أفاد في توضيح الأمور، على حدّ رأيه. صحيح أن أغلبية عظمى مازالت تتبع طروحات جون ريدموند في التعاون مع الإمبرطورية والإلتحاق بالجيش البريطاني، غير أن الأقلية الوفية للمتطوعين تعدّ آلافاً من الناس المصممين على القتال، جيش حقيقي متحد، متماسك، يعرف أهدافه ومستعد للموت في سبيل أيرلندا. وهنالك الآن تعاون حقيقي بين المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية وكذلك جيش المواطن الأيرلندي، وجيش الشعب المؤلف من ماركسيين ونقابيين مثل جيم لاركن وجيمس كونلي، والشين فين بقيادة آرثر غريفت. وحتى شين أوكسي الذي هاجم المتطوعين بشراسة ودعاهم بـ «البرجوازيين المدللين»، صار يبدي تأييده للتعاون. واللجنة المؤقتة التي يقودها توم كلارك وباتريك بيرز وتوماس ماكدونا وآخرون، تحضر للانتفاضة ليلاً ونهاراً. الظروف مواتية. فالحرب الأوروبية تشكل فرصة فريدة. ولا بد لألمانيا من تقديم المساعدة بإرسال خمسين ألف بندقية وقيام جيشها بعمل في الأراضي البريطانية وذلك بمهاجمة الموانئ الأيرلندية التي عسكرتها البحرية الملكية. وربما سيحسم هذا العمل المشترك انتصار ألمانيا في الحرب. وستنال أيرلندا أخيراً الاستقلال والحرية.

كان روجرموافقاً. فهذا هو طرحه منذ زمن، والسبب الذي جاء من أجله إلى برلين. وألح كثيراً على أن تقرّ اللجنة المؤقتة أن هجوم البحرية

والجيش الألماني هو شرط لا مفر منه من أجل الانتفاضة. فمن دون هجوم كهذا سيُخفق التمرد لأن ميزان القوة اللوجستية مختل جداً.

ـ ولكنك يا سير روجر ـ قاطعه بلانكيت ـ تنسى عاملاً يتجاوز بأهميته الأسلحة العسكرية وعدد الجنود: إنه التصوف. نحن نمتلكه، أما الإنكليز فلا.

كانا يتبادلان الحديث في حانة. وكان روجر يشرب بيرة وجوزيف يتناول شراباً مرطباً. ويدخنان. أخبره بلانكيت أن «لاركفيلد مانور»، بيته في حي كيميج بدبلن، قد تحول إلى كور حدادة وترسانة أسلحة، يصنعون فيه رمانات يدوية وقنابلَ وحراباً وفؤوساً، ويخيطون أعلاماً. وكل ذلك يجري بحالة من النشوة. وأخبره كذلك أن اللجنة المؤقتة قررت إخفاء الاتفاق بشأن الانتفاضة عن إيون ماكنيل. فوجئ روجر بذلك. كيف يمكن إخفاء سرّ مثل هذا عمن كان مؤسس حركة المتطوعين ومازال رئيسها؟

ـ جميعنا نحترمه ولا أحد يشك في وطنية ونزاهة البروفيسور ماكنيل ـ أوضح بلانكيت ـ ولكنه طري. يؤمن بالإقناع والأساليب السلمية. سنُطلعه على الأمر عندما يكون الوقت قد فات على إمكانية منعه اندلاع الانتفاضة. وعندئذ، لا أحد يشك في أنه سينضم إليها على المتاريس.

عمل روجر نهاراً وليلاً مع جوزيف في تحضير خطة من اثنتين وثلاثين صفحة لتفاصيل الانتفاضة. وقدماها معاً إلى وزارة الخارجية وقيادة البحرية الألمانيتين. وتؤكد الخطة على أن القوات العسكرية البريطانية في أيرلندا مبعثرة في حاميات محدودة ويمكن السيطرةعليها بسهولة. . كان الدبلوماسيين والموظفون والعسكريون الألمان يستمعون

بذهول إلى ذلك الشاب المشوه والذي يلبس مثل مهرج، ويتكلم ويومئ ويشرح، بدقة رياضية وبتماسك فكري، كبير فائدة توافق هجوم ألماني مع الثورة الوطنية. من يعرفون الإنكليزية، بصورة خاصة، كانوا يستمعون إليه مفتونين بالطلاقة والقوة والخطابية المتحمسة التي يعبر بها. ولكن حتى من لا يفهمون الإنكليزية وعليهم أن ينتظروا قيام المترجم بترجمة كلماته، كانوا ينظرون بذهول إلى الحدّة والإيماءات النزقة التي يقوم بها مبعوث القوميين الإيرلنديين هذا الذي في حالة تبدو مزرية.

كانوا يستمعون، ويسجلون ملاحظات عما يطلبه منهم جوزيف وروجر، ولكن إجاباتهم لم تكن تُلزمهم بأي شيء. لا بالهجوم المتزامن ولا بإرسال الخمسين ألف بندقية مع ذخائرها المناسبة. فذلك كله سيُدرس ضمن الاستراتيجية الشاملة للحرب. الرايخ يؤيد تطلعات الشعب الأيرلندي ولديه النوايا لدعم رغباته المشروعة. ولكنهم لا يمضون إلى ما هو أبعد من ذلك.

أمضى جوزيف بلانكيت نحو شهرين في ألمانيا، يعيش بتقشف كتقشف كيسمنت، وغادرها في العشرين من حزيران باتجاه الحدود السويسرية، في طريق عودته إلى أيرلندا مروراً بايطاليا واسبانيا. لم يلفت انتباه الشاب الشاعر ضآلة عدد المنضوين إلى اللواء الأيرلندي. فضلاً عن أنه لم يُبدِ أدنى تعاطف مع ذلك اللواء. والسبب؟

ـ من أجل الخدمة في اللواء، على الأسرى أن يتراجعوا عن قَسَمِهم بالولاء للجيش البريطاني ـ قال لروجر ـ. لقد كنتُ على الدوام ضد انضمام أبناء شعبنا إلى صفوف المحتل. ولكنهم وقد فعلوا ذلك، لم

يعد بإمكانهم التراجع عن قسم أقسموه أمام الرب دون الوقوع في الخطيئة وفقدان شرفهم.

سمع الأب كروتي هذه المحادثة واحتفظ بالصمت. هكذا ظل، كأنه أبو الهول، خلال مساء اليوم الذي أمضاه الأشخاص الثلاثة معاً، يستمع إلى الشاعر الذي يستحوذ على الحديث. وفي ما بعد، علق الكاهن الدومنيكاني لكيسمنت:

ـ هذا الشاب شخص خارج عن المألوف، لا شك في ذلك. بسبب ذكائه، وبسبب احتضانه لقضية. مسيحيته هي مسيحية أولئك المسيحيين الذين كانوا يموتون وتلتهمهم الأسود في الحلبات الرومانية. ولكنها أيضاً مسيحية الصليبيين الذين استعادوا أورشليم بقتلهم جميع الكفرة اليهود والمسلمين الذين وجدوهم، بمن في ذلك النساء والأطفال. الغيرة المتوقدة نفسها، والتمجيد نفسه للدم والحرب. أعترف لك يا روجر أن أشخاصاً من هذا النوع، حتى وإن كانوا هم من يصنعون التاريخ، إلا أنهم يجعلونني أشعر بالخوف أكثر من التقدير والإعجاب.

أحد أكثر الموضوعات تواتراً في أحاديث روجر وجوزيف خلال تلك الأيام هو إمكانية اندلاع الانتفاضة دون أن يقوم الجيش الألماني في الوقت نفسه بهجوم على إنكلترا، أو دون أن يقصف على الأقل الموانئ التي تحميها البحرية الملكية البريطانية في الأراضي الأيرلندية. وكان بلانكيت يؤيد، حتى في مثل هذه الحالة، مواصلة خطط الانتفاضة. فالحرب الأوروبية خلقت فرصة يجب عدم هدرها. كان روجر يرى أن ذلك سيكون انتحاراً. فمهما كان الثوار بطوليين وجسورين، فإن آلة

الحرب الإمبراطورية ستسحقهم. وسيُستغل ذلك للقيام بمهمة تطهير شرسة. وعندئذ سيتأخر تحرير أيرلندا خمسين عاماً أخرى.

ـ هل أفهم من هذا أنك لن تكون معنا يا سير روجر إذا اندلعت الثورة دون تدخل من جانب ألمانيا؟

ـ سأكون معكم بكل تأكيد. ولكن مع علمي بأنها ستكون تضحية بلا طائل.

نظر الشاب بلانكيت طويلاً إلى عينيه، وبدا لروجر أنه يلمح في تينك العينين شعوراً بالشفقة.

ـ اسمح لي أن أكلمك بصراحة يا سير روجر ـ دمدم أخيراً بهدوء من يعرف أنه يملك حقيقة غير قابلة للدحض ـ. هنالك شيء لم تفهمه على ما أرى. ليست المسألة مسألة كسب. فنحن سنخسر المعركة بالطبع. المسألة هي مسألة الاستمرار. المقاومة لأيام، لأسابيع. والموت بطريقة يعاظم فيها موتنا ودماؤنا مشاعر الأيرلنديين الوطنية حتى تحوليها إلى قوة لا تُقَاوَم. المسألة هي أن يولد من كل واحد يموت مئة ثوري جديد. ألم يحدث ذلك في المسيحية؟

لم يدر بماذا يردّ. الأسابيع التي تلت مغادرة بلانكيت كانت مكثفة جداً بالنسبة لروجر. واصل المطالبة بأن تطلق ألمانيا سراح أسرى أيرلنديين يستحقون ذلك لأسباب صحية، أو لتقدمهم في العمر، أو لمكانتهم الفكرية والمهنية، أو لسلوكهم. فمثل هذه اللفتة ستترك انطباعاً جيداً في أيرلندا. وكانت السلطات الألمانية تبدي التصلب، ولكنها الآن بدأت تتنازل. فقد أُعدت قوائم، ونوقشت أسماء. وأخيراً، وافقت القيادة العليا العسكرية على إطلاق سراح نحو مئة من المهنيين،

والمعلمين، والطلاب، ورجال الأعمال ذوي المكانة اللائقة. لقد كانت ساعات وأياماً طويلة من مناقشات شدّ وجذب استنفدت قوى روجر. ولقلقه، من جهة أخرى، من أن المتطوعين سيتبعون طروحات بيرز وبلانكيت، ويقومون بانتفاضة قبل أن تقرر ألمانيا شن هجوم على إنكلترا، كان يضغط على وزارة الخارجية وقيادة البحرية لإعطائه جواباً على مسألة الخمسين ألف بندقية. فيردون عليه بإجابات مبهمة. إلى أن جاء يوم، في أحد الاجتماعات بوزارة العلاقات الخارجية، قال له الكونت بليشير شيئاً أشعره باليأس:

ـ ليس لديك، يا سير روجر، فكرة دقيقة عن الأوضاع. انظر إلى الخريطة بموضوعية وسترى مدى ضآلة ما تمثله أيرلندا بالمعنى الجغرافي. فمهما كان تعاطف الرايخ مع قضيتها، فإن هنالك بلداناً ومناطق أخرى أكثر أهمية لمصالح ألمانيا.

ـ أيعني هذا أننا لن نتلقى الأسلحة أيها السيد الكونت؟ وأن بريطانيا تلغي خطة الهجوم.

ـ الأمران كلاهما مازالا قيد الدرس. ولو أن الأمر يتعلق بي، لاستبعدتُ موضوع الهجوم بكل تأكيد في المستقبل القريب. لكن الاختصاصيين هم من يقررون. وسوف تتلقى جواباً نهائياً في أي لحظة.

كتب روجر رسالة مطولة إلى جون ديفوي وجوزيف ماكغريتي، مقدماً إليهما أسبابه في معارضة انتفاضة لا تعتمد على عمل عسكري ألماني متزامن. ويحثهما على استخدام نفوذهما مع المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية لإقناعهم بأنهم سيتورطون في عمل طائش. وأكد

لهما في الوقت نفسه أنه مازال يبذل كافة الجهود من أجل الحصول على أسلحة. ولكن المحصلة مأساوية: «لقد أخفقتُ. إنني معطل هنا بلا فائدة. اسمحوا لي بالعودة إلى الولايات المتحدة».

في تلك الأيام تفاقمت أمراضه. لم يعد أي دواء يؤثر في التهاب مفاصله. رشوحاتٌ متواصلة، يرافقها ارتفاع كبير في الحرارة، تجبره على التزام الفراش بكثرة. أصابه الهزال ومعاناة الأرق، وكان أسوأ الشرور في تلك الأيام معرفته أن جريدة ***ذي نيويورك ورلد*** قد نشرت خبراً، لا بد أنه مسرّب من جهاز مكافحة التجسس البريطاني، يقول إن السير روجر كيسمنت موجود في برلين ويتلقى مبالغ مالية ضخمة من الرايخ للتحريض على تمرد في أيرلندا. فأرسل رسالة احتجاج ـ «إنني أعمل من أجل أيرلندا وليس ألمانيا» ـ ولكنها لم تُنشر. وجعله أصدقاؤه في نيويورك يصرف النظر عن رفع دعوى قضائية: سوف يخسرها والـ «كلان نا غيل» غير مستعدة لتبذير الأموال في نزاع قضائي.

منذ شهر أيار ١٩١٥ تنازلت السلطات الألمانية لمطلب ألح عليه روجر: أن يُفصل متطوعو اللواء الأيرلندي عن الأسرى في لِمبورغ. ففي العشرين من أيار، جرى نقل عناصر اللواء الخمسين الذين يعاملون بعدائية من رفاقهم إلى معسكر زوسن الصغير، على مقربة من برلين. وقد احتفلوا بالمناسبة بقداس قدمه الأب كروتي، وكانت هنالك أنخاب وأغنيات أيرلندية في أجواء رفاقية رفعت بعض الشيء من معنويات روجر. وأخبر عناصر اللواء بأنهم سيتلقون خلال أيام الملابس العسكرية الخاصة باللواء التي وضع هو نفسه تصميمها، كما ستصل عما قريب حفنة من الضباط الأيرلنديين للإشراف على التدريب. وقال لهم

إنهم هم الذين يشكلون الكتيبة الأولى من اللواء الأيرلندي سيدخلون التاريخ باعتبارهم رواد هذه المأثرة.

وبعد ذلك الاجتماع مباشرة، كتب رسالة جديدة إلى جوزيف ماكغرتي يخبره بافتتاح معسكر زوسن ويعتذر عن كارثية رسالته السابقة. وأنه كتبها في لحظة قنوط، ولكنه الآن يشعر بأنه أقل تشاؤماً. لقد كان مجيء جوزيف بلانكت وإنشاء معسكر زوسن حافزاً له. سيواصل العمل من أجل اللواء الأيرلندي. فحتى لو كان جماعة قليلة العدد، ستكون له رمزيةٌ مهمة في إطار الحرب الأوروبية.

مع بداية صيف العام ١٩١٥ سافر إلى ميونخ. نزل في باسلر هوف، وهو فندق صغير متواضع لكنه مريح. بدا اكتئابه في عاصمة بافاريا أقل من ذاك الذي تسببه له برلين، مع أنه يعيش هنا حياة عزلة أكثر مما كانه في العاصمة. صحته مازالت تتدهور، والآلام والرشوحات تضطره إلى البقاء في غرفته. فكانت حياته المنزوية عملاً فكرياً مكثفاً. كان يشرب الكثير من فناجين القهوة ويدخن دون توقف سجائر تبغ أسود تملأ حجرته بالدخان. ويكتب رسائل متواصلة إلى من هم صلة وصله في وزارة الخارجية والقيادة البحرية، ويحتفظ مع الأب كروتي بمراسلات يومية، في شؤون روحية ودينية. يعيد قراءة رسائل الكاهن ويخبئها ككنز. حاول في أحد الأيام أن يصلي. ولم يكن قد فعل ذلك منذ زمن طويل، بهذه الطريقة على الأقل، بالتركيز، ومحاولة أن يفتح قلبه للرب، ويكشف له عن شكوكه، ومراراته، وخشيته من أن يكون قد زاغ، ويطلب منه الرحمة والإرشاد بشأن سلوكه المستقبلي. وكان في الوقت نفسه يكتب دراسات موجزة حول الأخطاء التي يجب

على أيرلندا المستقلة أن تتجنبها، مستفيدة من تجارب أمم أخرى، كيلا تقع في الفساد، والاستغلال، والمسافات الفلكية التي تفصل في كل مكان بين الفقراء والأغنياء، وبين الأقوياء والضعفاء. ولكنه يفقد الحماسة في بعض الأحيان: ما الذي سيفعله بهذه النصوص؟ لا مغزى لإضاعة وقت أصدقائه في أيرلندا بدراسات حول المستقبل في الوقت الذي هم فيه غارقون في حاضر من الاستعباد الشديد.

عند انتهاء الصيف، شعر ببعض التحسن، وسافر إلى معسكر زوسن. كان رجال اللواء قد تلقوا الزي العسكري الذي صممه بنفسه، وجميعهم يتألقون بالشعار الأيرلندي على قبعاتهم. وبدا له المعسكر مرتباً ويعمل بصورة جيدة. لكن البطالة والحبس كانا يضعفان من معنويات عناصر اللواء الخمسين، على الرغم من جهود الأب كروتي لرفع معنوياتهم. فهو ينظم منافسات رياضية، ومسابقات، ودروساً ومناظرات حول مسائل متنوعة، وقد بدا لروجر أن الوقت مناسب ليلمح لهم إلى حافز للممارسة.

جَمَعَهم في دائرة وعرض عليهم استراتيجية يمكن لها أن تتيح إخراجهم من زوسن وتعيد إليهم الحرية. فإذا كان من المستحيل عليهم أن يقاتلوا الآن في أيرلندا، فلماذا لا يفعلون ذلك في أمكنة أخرى حيث تدور المعركة نفسها التي أُنشئ من أجلها اللواء؟ فالحرب العالمية قد امتدت إلى الشرق الأوسط. ألمانيا وتركيا تقاتلان لطرد البريطانيين من مستعمرتهم المصرية. فلماذا لا يشاركون هم أيضاً في ذلك النضال ضد الاستعمار، ومن أجل استقلال مصر؟ وبما أن اللواء مازال صغيراً،

فسيكون عليهم الانضمام إلى وحدة أخرى من الجيش، ولكنهم سيفعلون ذلك مع محافظتهم على هويتهم الأيرلندية.

كان روجر قد ناقش الاقتراح مع السلطات الألمانية وتمت الموافقة عليه. وكان جون ديفوي وماكغريتي موافقين أيضاً. ووافقت تركيا على ضم اللواء إلى جيشها، بالشروط التي قدمها روجر. جرى نقاش طويل. وفي النهاية أعلن سبعةٌ وثلاثون من أفراد اللواء استعدادهم للقتال في مصر. أما المتبقون فيحتاجون إلى التفكير في الأمر. ولكن ما كان يُقلق جميع عناصر اللواء هو أمر أشد إلحاحاً: فأسرى معسكر ليمبورغ هددوهم بالوشاية بهم إلى السلطات الإنكليزية بهدف حرمان أُسرهم في أيرلندا من تلقي رواتبهم كمقاتلين في الجيش البريطاني. وإذا حدث ذلك، فإن آباءهم وزوجاتهم وأبناءهم سيموتون جوعاً. ما الذي سيفعله روجر في هذا الشأن؟

من المؤكد أن الحكومة البريطانية ستتخذ هذا النوع من العقوبات، وهو أمر لم يخطر لباله من قبل. ورؤيته وجوه أفراد اللواء الجزعة، ولم يجد ما يقوله سوى التأكيد لهم أن عائلاتهم لن تفقد الحماية أبداً. فإذا لم تتلق الرواتب، ستقوم المنظمات الوطنية بمساعدتهم. وفي ذلك اليوم بالذات كتب إلى «كلان نا غيل» مطالباً بتأسيس صندوق خاص للتعويض على عائلات عناصر اللواء إذا ما وقعوا ضحية تلك العقوبات. ولكن لم تكن لدى روجر أيه أوهام. فحسب مسار الأمور، ستُخصص أية أموال تدخل صناديق المتطوعين والأخوية الجمهورية الأيرلندية و«الكلان نا غيل» لشراء الأسلحة، لأن هذه هي أولى الأولويات. وراح يقول لنفسه بجزع إن خمسين أسرة أيرلندية بائسة ستعاني الجوع وربما

سيقضي عليها التدرن الرئوي في الشتاء القادم. فكان الأب كروتي يحاول تهدئته، ولكن كلماته ومسوغاته لم تطمئنه هذه المرة. موضوع قلق جديد أضيف إلى الموضوعات التي تعذبة، وصحته تعاني تدهوراً آخر. ليس في جسده فقط، وإنما في ذهنه أيضاً، كما في أصعب الفترات في الكونغو والأمازون. أحس أنه يفقد توازنه الذهني. يبدو رأسه في بعض الأحيان كأنه بركان على وشك الانفجار. هل سيفقد عقله؟

رجع إلى ميونخ، وواصل من هناك إرسال رسائل إلى الولايات المتحدة وأيرلندا حول الدعم المادي لعائلات عناصر اللواء. وبما أن رسائله، من أجل تضليل المخابرات البريطانية، كانت تمر عبر عدة بلدان، حيث يُستبدل مغلفها والعنوان المرسلة إليه، فإن الردود عليها تتأخر شهراً أو اثنين في الوصول. وكان قلقه في ذروته عندما ظهر أخيراً روبرت مونتيث ليتولى مسؤولية اللواء عسكرياً. لم يأتِ الضابط معه باندفاع تفاؤله، ووقاره، وروحه المغامرة وحسب. بل كذلك بالوعد الرسمي بأن عائلات عناصر اللواء، إذا ما تعرضت للعقاب، ستتلقى مساعدة فورية من الثوريين الأيرلنديين.

ما كاد النقيب مونتيث يصل إلى ألمانيا حتى سافر فوراً إلى ميونخ لرؤية روجر، وقد أُصيب بالذهول حين رآه على تلك الحال من المرض. لقد كان يكنّ له التقدير ويعامله باحترام عظيم. قال له إنه لا أحد في الحركة الأيرلندية يعرف أنه مريض وبهذه الحالة الحرجة. فمنعه كيسمنت من إخبار أحد بشأن وضعه الصحي. سافر معه عائداً إلى برلين، وقدّم مونتيث لوزارة الخارجية والقيادة العسكرية. كان الضابط

الشاب يتحرق لهفة لبدء العمل ويبدي تفاؤلاً لا يلين بمستقبل اللواء، وهو تفاؤل كان روجر، في أعماقه، قد فقدة. وخلال الأشهرة الستة التي أمضاها في ألمانيا، كان روبرت مونتيث، مثله مثل الأب كروتي، حضوراً مباركاً لروجر. فكلاهما حالا دون غرقه في قنوط يمكن له أن يدفعه إلى الجنون. لقد كان رجل الدين والعسكري مختلفين جداً، ومع ذلك، كثيراً ما قال روجر لنفسه إنهما يجسدان شخصيتين نمطيتين أيرلنديتين: القديس والمحارب. وبالتناوب معهما، تذكر بعض أحاديثه مع باتريك بيرز، عندما كان هذا يمزج بين مذبح الكنيسة والسلاح مؤكداً أنه في انصهار هذين التقليدين، أي الشهداء المتصوفين والأبطال المحاربين، تتجلى قوة الروح والجسد التي ستحطم أغلال أيرلندا.

لقد كانا مختلفين، ولكن في كليهما نقاء طبيعي، وسخاء وتَبَنٍّ كامل للمثل الأعلى إلى حدّ أن روجر، حين يرى أن الأب كروتي والنقيب مونتيث لا يضيعان الوقت في تبدلات المزاج وفقدان الهمة، مثلما يحدث له، يشعر بالخجل من تشككه وتردده. لقد رسم كلاهما طريقه وهو يسير عليه دون تبديل في الاتجاه، وإنما يزدادان حماسة أمام الصعاب، مقتنعين بأن الانتصار ينتظرهما في النهاية: انتصار الرب على الشر، وانتصار أيرلندا على مضطهديها. «تعلَّم منهما يا روجر، كن مثلهما»، كان يردد لنفسه، كما في دُعاء.

لقد كان روبرت مونتيث رجلاً قريباً جداً من توم كلارك، ويكنُّ له تقديراً دينياً أيضاً. يتكلم عن كشك التبغ الذي يملكه كلارك ـ مقر قيادته السرّي ـ عند ناصية شارعي غريت بريتاين ستريت وساكفيل ستريت، كما لو أنه يتكلم عن «مكان مقدس». وقد تجاوز ذلك الثعلب العجوز،

حسب قول النقيب، الكثير من السجون الإنكليزية وبقي حياً، وهو يقود في الظل الاستراتيجية الثورية برمتها. أليس جديراً بالتقدير؟ فمن كشكه الصغير في شارع بائس بمركز دبلن، تمكن ذلك المناضل القديم ذو الجسد الضئيل والنحيل، الزاهد والمستنفد من المعاناة والتقدم في السن، والذي كرس حياته كلها للنضال من أجل أيرلندا، وقضى خمسة عشر عاماً في السجن، تمكن من بناء منظمة عسكرية وسياسية سرية، هي الأخوية الجمهورية الأيرلندية، تصل إلى كافة أنحاء البلاد، دون أن تتمكن الشرطة البريطانية من اعتقاله. فكان روجر يتساءل عن صحة إذا ما كانت المنظمة متجذرة إلى هذا الحدّ الذي يتحدث عنه النقيب وهو يفيض بالحماسة:

ـ لدينا سرايا وكتائب وألوية، ولها رموزها وشعاراتها ـ يؤكد وهو يومئ بابتهاج ـ. أشك في وجود جيش في أوروبا يتمتع بفعالية وحماسة جيشنا يا سير روجر. ولستُ أبالغ مقدار ذرة.

وقد وصلت التحضيرات، حسب قول مونتيث، إلى ذروتها. ولا ينقصهم سوى الأسلحة الألمانية كي تندلع الانتفاضة.

بدأ النقيب مونتيث العمل فوراً في تدريب وتنظيم الخمسين أسيراً الذين جُندوا في معسكر زوسن. وكان يذهب بكثرة إلى معسكر ليمبورغ، في محاولة للتغلب على رفض الأسرى الآخرين الانضمام إلى اللواء، ويتمكن من إقناع واحد أو اثنين، غير أن الأكثرية العظمى ظلت تبدي له العداء. ولكن لم يكن بإمكان أي شيء أن يضعف معنوياته. وكانت رسائله إلى روجر الذي رجع إلى ميونخ تطفح بالحماسة وتقدم إليه أخباراً مشجعة حول أدق شؤون اللواء.

المرة التالية التي التقيا بها في برلين، تناولا العشاء معاً في مطعم صغير بشارلوتنبرغ، يغص بلاجئين رومانيين. وقد تسلح النقيب مونتيث بكثير من الشجاعة والحذر في اختيار الكلمات كيلا يُغضبه، وقال له فجأة:

ـ أيها السير روجر، لا تعتبرني حشرياً وسفيهاً. ولكن لا يمكن لحضرتك أن تستمر على هذه الحال. فأنت شخص مهم لأيرلندا، ولنضالنا. أتوسل إليك باسم المُثل التي قدّمتَ الكثير من أجلها أن تستشير طبيباً. فأعصابك ليست على ما يرام. وهذا ليس بالأمر الغريب. فالمسؤوليات والقلق قد فعلت فعلها. وهذا أمر لا مفر من وقوعه. إنك بحاجة إلى مساعدة.

تلعثم روجر ببضع كلمات وغيّر الموضوع. لكن توصية النقيب أفزعته. هل عدم اتزانه واضح إلى حدّ أن هذا الضابط الذي تعامل معه باحترام وتحفظ على الدوام، يتجرأ على أن يقول شيئاً كهذا؟ وقد عمل بنصيحته. فبعد بعض التحريات تشجع على زيارة الدكتور أوبنهايم الذي يعيش خارج المدينة، بين أشجار وجداول غرونيفيلد. كان رجلاً مسناً، وقد أوحى له بالثقة، إذ بدا خبيراً واثقاً من نفسه. التقيا في جلستين طويلتين طرح فيهما روجر حالته، ومشاكله، وأرقه، ومخاوفه. وكان عليه أن يخضع لاختبارات للذاكرة واستجوابات دقيقة. وأخيراً أكد له الدكتور أوبنهايم أنه بحاجة إلى دخول مصحة والخضوع لعلاج. وإذا لم يفعل فإن حالته الذهنية ستواصل هذا الاختلال الذي بدأ. وقد اتصل به هو نفسه بميونيخ وحصل له على موعد مع زميل وتلميذ له هو الدكتور رودلف فون هوسلن.

لم ينزل روجر في مصحة الدكتور فون هوسلن، ولكنه صار يتردد عليه مرتين في الأسبوع، على امتداد عدة شهور. وقد أفاده العلاج.

ـ لستُ أستغرب أن تعاني هذه المشاكل بعد الأمور التي رأيتها في الكونغو وفي الأمازون، وما تقوم به الآن. ـ قال له الطبيب النفسي ـ ما يستحق الملاحظة هو أنك لم تتحول إلى مجنون عنيف، أو تنتحر.

لقد كان رجلاً شاباً، محباً للموسيقى، نباتياً وداعية سلام. وكان ضد تلك الحرب وضد كافة الحروب، يحلم في يوم تُقرّ فيه الأُخوَّة الشاملة ـ «السلام الكانتيّ»، كما قال ـ في العالم بأسره، تتلاشى الحدود ويعترف البشر ببعضهم بعضاً كإخوة. وكان روجر يخرج من جلسات الدكتور هادئاً ومرتفع المعنويات. ولكنه لم يكن متأكداً من أنه يتحسن. فذلك الإحساس بالراحة يأتيه دوماً كلما التقى في طريقه بشخص سليم وطيب ومثالي.

قام بعدة رحلات إلى زوسن، حيث كان روبرت مونتيث، مثلما هو متوقع، قد اكتسب محبة كافة المجندين في اللواء. وتوصل بفضل عمله الشاق إلى زيادة المتطوعين عشرة آخرين. وكانت التدريبات تمضي بصورة رائعة. ولكن عناصر اللواء مازالوا يُعاملون كأسرى من جانب الجنود والضباط الألمان، ويتعرضون للمضايقة أحياناً. وقد قام النقيب مونتيث باتصالات مع قيادة البحرية كي يُعامل الأسرى وفق الوعود التي قُدمت لروجر، وأن يحصلوا على هامش من الحرية، وأن يتمكنوا من الخروج إلى القرية لتناول كأس بيرة في إحدى الحانات بين حين وآخر. أليسوا حلفاء؟ لماذا تتواصل معاملتهم كأعداء؟ وحتى اللحظة لم تصل تلك المحاولات إلى أدنى نتيجة.

قدّم روجر احتجاجاً. وجرى لقاء عاصف بينه وبين قائد حامية زوسن، الجنرال شنيدر الذي قال له إنه لا يستطيع منح مزيد من الحرية لمن يبدون غير منضبطين، لأنهم يميلون إلى الشجار، بل إنهم اقترفوا بعض السرقات في المعسكر. ولكن مونتيث رأى أن تلك الاتهامات زائفة. والحوادث الوحيدة وقعت بسبب إهانات وجهها الحراس الألمان لعناصر اللواء.

شهور روجر كيسمنت الأخيرة في ألمانيا كانت نقاشات مماحكة متواصلة ولحظات توتر شديد مع السلطات الألمانية. وإحساسه بأنه قد خُدع راح يتزايد حتى يوم مغادرته برلين. فالرايخ غير مهتم بتحرير أيرلندا، ولم يأخذ قطّ على محمل الجدّ فكرة القيام بعمل مشترك مع الثوريين الأيرلنديين، ووزارةالخارجية وقيادة البحرية استغلتا سذاجته وطيب نواياه وجعلتاه يصدق أموراً لا يفكرون في إنجازها. ومشروع مشاركة اللواء الأيرلندي في القتال مع الجيش التركي ضد الإنكليز في مصر، وبعد دراسة كافة تفاصيله، أُحبط حين بدا على وشك التحقق، دون أن يقدموا إليه أي تفسير. وسرعان ما صار زيميرمان، والكونت جورج فون فيديل، والكابتن نادولني وجميع الضباط المشاركين في وضع الخطط يتفلتون ويتهربون منه. يرفضون استقباله بذرائع واهية. وحين يتمكن من التحدث إليهم يكونون مشغولين على الدوام، ولا يمكنهم أن يمنحوه سوى بضع دقائق، وموضوع مصر ليس ضمن مهامهم. رضخ روجر للواقع: رغبته في أن يكون اللواء قوة رمزية صغيرة في الصراع الأيرلندي ضد الاستعمار تحولت إلى هباء.

عندئذ، وبالحمية نفسها التي كان يقدّر بها ألمانيا، بدأ يشعر نحو

هذه البلاد باستياء راح يتحول إلى عداء شبيه، وربما أكبر، من العداء الذي توحي به إنكلترا له. هذا ما قاله في رسالة إلى المحامي جون كوين المقيم في نيويورك، بعد أن روى له سوء المعاملة التى يلقاها من السلطات: «هكذا هي الحال يا صديقي: لقد وصل بي الأمر إلى كراهية الألمان إلى حدّ أنني صرت أفضل المشنقة البريطانية على الموت هنا».

اضطرته حالة الغضب والتوعك البدني إلى العودة إلى ميونيخ. طلب منه الدكتور رودلف فون هوسلن أن يدخل مستشفى للراحة في بافاريا، وقدم لذلك حجة مدوية: «إنك على حافة أزمة لن تستعيد عافيتك منها أبداً، ما لم تسترح وتنسى كل ما عدا ذلك. وإلا ستفقد عقلك أو تتعرض لانهيار نفسي يُبقيك معطلاً طيلة ما تبقى من حياتك».

عمل روجر بنصيحته. وخلال أيام دخلت حياته في فترة سلام كبير شعر معها بأنه كائن مجرد من قواه. المهدئات تجعله ينام عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة. ويقوم بعد ذلك بنزهات طويلة في غابات القيقب والدردار، في صباحات لا تزال باردة، وفي شتاء يأبى أن يغادر. لقد حظروا عليه التبغ والكحول، وصار يتبع نظاماً غذائياً بسيطاً ونباتياً. ولم يكن يجد الحماسة للقراءة أو الكتابة. ويقضي ساعات خاوي الذهن، ويشعر بأنه شبح.

أخرجه من حالة السبات تلك روبرت مونتيث في صباح يوم مشمس من بدايات آذار ١٩١٦ . فلأهمية الموضوع، حصل النقيب على إذن من الحكومة الألمانية كي يأتي لرؤيته. وكان لا يزال تحت تأثير المفاجأة ويتكلم بتعثر.

ـ جاءت دورية حراسة لأخذي من معسكر زوسن وأوصلتني إلى

برلين، إلى القيادة العسكرية. وكانت بانتظاري هناك جماعة كبيرة من الضباط، بينهم جنرالان. وقد أخبروني بما يلي: «اللجنة الأيرلندية المؤقته قررت أن تبدأ الانتفاضة في يوم ٢٣ نيسان». أي بعد شهر ونصف.

قفز روجر من السرير. بدا له أن الإنهاك قد زال فجأة وأن قلبه تحوّل إلى طبل يقرعونه بنزق. لم يستطع التكلم.

- إنهم يطلبون بنادق، وبنادق قصيرة، ومدفعيين، ورشاشات، وذخائر - تابع مونتيث مشوشاً من التأثر - وأن تحمل ذلك كله سفينة تحرسها غواصة. يجب أن تصل الأسلحة إلى فينيت، على شاطئ تريلي باي، في كونتري كيلي، يوم أحد الفصح عند انتصاف الليل.

- لن ينتظروا عملاً مسلحاً ألمانياً إذاً - تمكن روجر من القول أخيراً. كان يفكر في مجزرة، في نهر دماء يصبغ مياه نهر ليفي.

- وتتضمن الرسالة تعليمات تخصّك أنت أيضاً أيها السير روجر - أضاف مونتيث -. عليك البقاء في ألمانيا كسفير لجمهورية أيرلندا الجديدة.

انهار روجر من جديد على السرير مثقلاً. رفاقه لم يخبروه بخططهم قبل أن يخبروا الحكومة الألمانية. ثم إنهم يأمرونه بالبقاء هنا بينما هم يمضون نحو الموت في واحدة من تلك النزوات التي تروق لباتريك بيرز وجوزيف بلانكيت. ألا يثقون به؟ لا وجود لتفسير آخر. بما أنهم يعرفون معارضته لانتفاضة لا تتزامن مع هجوم ألماني، ويعتقدون أن وجوده هناك، في أيرلندا، سيشكل عقبة، ويفضّلون بقاءه هنا، متقاطع

الذراعين، تحت تسمية وظيفية مستهجنة: سفير جمهورية سيجعلها هذا التمرد وحمام الدم أبعد منالاً ومستحيلة.

كان مونتيث ينتظر صامتاً.

ـ سنذهب فوراً إلى برلين أيها النقيب ـ قال روجر وهو ينهض من جديد ـ سأرتدي ملابسي، وأُعدّ حقيبتي ونذهب في أول قطار.

وهذا ما فعلاه. ترك روجر بضعة سطور شكر متسرعة للدكتور رودلف فون هوسلن. وخلال الرحلة الطويلة كان رأسه يدوي دون توقف، مع فواصل قصيرة يتبادل خلالها الأفكار مع مونتيث. وعند وصولهما إلى برلين كان قد تبلور لديهما خط يسلكانه. انتقلت مشاكله الشخصية إلى مكانة ثانوية. فالأسبقية الآن لتكريس طاقته وذكائه للحصول على ما طلبه رفاقه: بنادق وذخائر وضباط ألمان يمكنهم تنظيم العمليات العسكرية بطريقة فعالة. وعليه بعد ذلك أن ينطلق هو نفسه إلى أيرلندا مع شحنة الأسلحة. وسيحاول هناك إقناع أصدقائه بأن ينتظروا؛ فمع مرور مزيد من الوقت يمكن للحرب الأوروبية أن تخلق أوضاعاً ملائمة أكثر للانتفاضة. وعليه في المقام الثالث أن يحول دون ذهاب الثلاثة والخمسين أسيراً المنضوين إلى اللواء الأيرلندي إلى أيرلندا. لأن الحكومة البريطانية ستعدمهم دون تردد باعتبارهم «خونة» إذا ما وقعوا بأيدي البحرية الملكية. أما مونتيث فيقرر ما يريد عمله بنفسه، وبكامل الحرية. ولأنه صار يعرفه، فإنه متأكد من أنه سيذهب ليموت مع رفاقه في سبيل القضية التي كرس حياته لها.

وفي برلين، نزلا في فندق إيدن، كما هي عادته. وفي صباح اليوم التالي بدأا المفاوضات مع السلطات. كانت الاجتماعات تجري في مبنى

قيادة البحرية القبيح والمتهالك. وكان الكابتن نادولني يستقبلهما عند الباب ويقتادهما إلى قاعة يكون فيها دوماً أشخاص من وزارة الخارجية وعسكريون. وجوه جديدة تختلط بالوجوه القديمة المعروفة. منذ اللحظة الأولى، وبطريقة حاسمة، أُخبروا بأن الحكومة الألمانية ترفض إرسال ضباط لمساعدة الثوار.

ولكن الألمان وافقوا على موضوع الأسلحة والذخائر. وطوال ساعات وأيام أجروا حسابات ودراسات حول أكثر الطرق أمناً لوصولها في الموعد المحدد إلى الموقع المقرر. وأخيراً قرروا أن تُنقل الشحنة في السفينة **أود**، وهي سفينة إنكليزية مصادرة، أعيد تأهيلها وطلاؤها وتزويدها بالشعارات النرويجية. ولن يسافر روجر ولا مونتيث ولا أي عنصر من اللواء في السفينة أود. أدت هذه المسألة إلى جدال، ولكن الحكومة الألمانية لم تتراجع: وجود أيرلنديين على متن السفينة سيقوض حيلة اعتبار السفينة بلجيكية، وإذا اكتُشفت الخدعة، فستجد حكومة الرايخ نفسها في وضع حرج أمام الرأي العام الدولي. عندئذ طلب روجر ومونتيث أن تُوفر لهما وسيلة أخرى للسفر إلى أيرلندا بالتزامن مع إرسال الأسلحة. فكانت ساعات من الاقتراحات والاقتراحات المضادة التي يحاول بها روجر إقناعهم بأنه، إذا ذهب إلى هناك، فقد يتمكن من إقناع أصدقائه بانتظار أن يتحول مسار الحرب بصورة أكبر لمصلحة الجانب الألماني، لأن القيادة البحرية الألمانية ستتمكن عندئذ من مرافقة الانتفاضة بعمل عسكري مواز تقوم به البحرية والقوات البرية الألمانية. وأخيراً، وافقت قيادة البحرية على أن يسافر كيسمنت ومونتيث إلى أيرلندا. وسيكون ذلك في غواصة ويأخذان معهما عنصراً من اللواء كممثل لرفاقه.

قرار روجر برفض سفر اللواء إلى أيرلندا للانضمام إلى المتمردين تسبب له بمصادمات شديدة مع الألمان. ولكنه لا يريد لعناصر اللواء أن يُعدموا بصورة سريعة دون أن تُتاح لهم فرصة الموت وهم يقاتلون. ولا يريد أن يلقي مثل مسؤولية موتهم على كاهله.

في يوم السابع من نيسان أبلغت القيادة العليا الألمانية روجر بجهوزية الغواصة التي ستنقلهم. اختار النقيب مونتيث الرقيب دانييل بايلي ليكون ممثلاً للواء. وزودوه بوثائق مزيفة باسم جوليان بيفرلي. وأكدت القيادة العليا لكيسمنت أنه على الرغم من أن الثوار قد طلبوا خمسين ألف بندقية، فإن عشرين ألف بندقية فقط، وعشرة رشاشات، وخمسة ملايين طلقة ذخيرة ستكون شمالي إنستوسكسرت إيزلند، شاطئ تريل باي، في اليوم الموعود، ابتداء من الساعة العاشرة ليلاً: يجب أن يكون بانتظار السفينة فريق إرشاد مع زورق أو مركب تُحدد هويته بضوءين أخضرين

ومنذ اليوم السابع من الشهر حتى يوم الانطلاق لم يغمض روجر عينيه. كتب وصية مقتضبة يطلب فيها، في حالة موته، أن تُسلّم كافة مراسلاته وأوراقه إلى إدموند د. موريل، «الكائن العادل والنبيل بصورة استثنائية»، كي يرتب من تلك الوثائق «مذكرات تنقذ سمعتي بعد موتي».

مع أن مونتيث، مثله مثل روجر، كان يحدس بأن الجيش البريطاني سيسحق الانتفاضة، إلا أنه كان يتحرق لهفة للذهاب. وقد دار بينهما حديث على انفراد، لمدة ساعتين تقريباً، في اليوم الذي سلّمهما فيه الكابتن الألماني بويهم السّمّ الذي طلباه منه تحسباً لإمكانية اعتقالهما.

وأوضح لهما الضابط أنه سُمّ كوراري أمازوني. ومفعوله فوري. فقال له روجر مبتسماً: «الكوراري من معارفي القدماء. ففي بوتومايو رأيتُ بالفعل هنوداً يشلّون في الجو طيوراً بسهام مغموسة بهذا السمّ». ذهب روجر والنقيب لتناول كأس بيرة في حانة قريبة.

ـ أتصور أنك متضايق مثلي لسفرنا دون أن نودّع عناصر اللواء ونقدم تفسيراً لهم ـ قال روجر.

ـ سيظل هذا الأمر يُثقل على ضميري إلى الأبد ـ وافقه مونتيث ـ ولكنه قرار صائب. فالانتفاضة مسألة مهمة لا يمكن المجازفة بتعريضها لتسرب خبرها.

ـ هل تظن أنني سأتمكن من وقف الانتفاضة؟

نفى الضابط بحركة من رأسه.

ـ لا أظن أيها السير روجر. ولكنك تحظى باحترام كبير هناك، وربما ستفرض أسبابك نفسها عليهم. وعلى كل حال، لا بد من تفهم ما يحدث في أيرلندا. إنها سنوات طويلة من الإعداد لهذا الأمر. لا يمكن القول سنوات. بل هي قرون. إلى متى سنظل أمة أسيرة. وفي أوج القرن العشرين. ثم إنه لم يعد هنالك شك في أن إنكلترا الآن في أضعف أوقاتها في أيرلندا بسبب الحرب الدائرة.

ـ ألا تشعر بالخوف من الموت؟

هز مونتيث كتفيه.

ـ لقد رأيته قريباً مني مرات كثيرة. في أفريقيا الجنوبية، خلال حرب البوير، كان الموت قريباً جداً. جميعنا نخاف الموت على ما أظن. ولكن هناك موتاً وموتاً يا سير روجر. فالموت في القتال من أجل

الوطن هو موت لائق مثل موت المرء في سبيل أسرته أو إيمانه. ألا ترى ذلك؟

- أجل، إنه كذلك - وافقه كيسمنت - وآمل أن نموت هكذا عندما تحين اللحظة، وليس بتناول هذا الشراب الأمازوني الذي يجب أن يكون غير قابل للهضم.

عشية السفر، ذهب روجر لعدة ساعات إلى زوسن كي يودّع الأب كروتي. لم يدخل إلى المعسكر. أرسل يستدعي الكاهن الدومينكاني وقاما بجولة طويلة في غابة أشجار تنوب وحور بدأت تخضّر. استمع الأب كروتي إلى مناجيات روجر الشاحب، دون أن يقاطعه ولو مرة واحدة. وعندما انتهى من الكلام، رسم الكاهن إشارة الصليب. وظل صامتاً لوقت طويل.

- ذهابك إلى أيرلندا، وأنت تعتقد أن الانتفاضة محكومة بالإخفاق، هي طريقة في الانتحار - قال كمن يفكر بصوت عالٍ.

- إنني ذاهب بنية وقف الانتفاضة يا أبتِ. سأتحدث إلى توم كلارك، وإلى جوزيف بلانكيت، وباتريك بيرز، سأتحدث إلى جميع القادة. سأعرض عليهم أسباب رؤيتي أن هذه التضحية غير مجدية. وأنها بدل أن تسرع الاستقلال، سوف تؤخره. و...

أحس بانغلاق في حنجرته، وصمت.

- ماذا جرى يا روجر. إننا أصدقاء وأنا هنا لمساعدتك. يمكنك الثقة بي.

- هنالك رؤيا لا أتمكن من انتزاعها من رأسي أيها الأب كروتي. فأولئك المثاليون والوطنيون الذين يذهبون بأنفسهم إلى الموت،

سيخلّفون عائلات محطمة، في حالة من البؤس والتعرّض لحملات عقابية رهيبة، غير أن هؤلاء يدركون ما يفعلونه. ولكن. . . أتعلم في من أفكر طيلة الوقت؟

أخبره أنه ذهب في العام ١٩١٠ إلى ندوة في «ذي هيرمياج»، مكان في رتفرنهام، على مقربة من دبلن، حيث توجد مدرسة سانت إنداز، مدرسة باتريك بيرز ثنائية اللغة. وبعد أن تحدث إلى التلاميذ، تبرع لهم بشيء يحتفظ به من رحلته إلى الأمازون ـ ثرباتانا[١] من قبيلة هيتوتو ـ كجائزة لأفضل موضوع إنشاء باللغة الغيليّة يكتبه طلاب السنة الأخيرة. لقد تأثر بعمق لحماسة أولئك العشرات من الفتيان لفكرة أيرلندا، والمحبة النضالية التي يتذكرون بها تاريخها، أبطالها، قديسيها، ثقافتها، وحالة النشوة الدينية التي يُغنُّون بها أغنيات السلت القديمة. وكذلك الروح الكاثوليكية العميقة التي تسود المدرسة في آن واحد مع الوطنية الحماسية: لقد توصل بيرز إلى دمج الأمرين معاً ليكونا شيئاً واحداً في أولئك الفتيان، مثلما هما فيه وفي أخويه ويلي ومرغريت، وهما معلمان أيضاً في مدرسة سانت إنداز.

ـ جميع أولئك الفتيان سيندفعون إلى موتهم، سيكونون لحم المدافع أيها الأب كروتي. سيندفعون ببنادق ومسدسات لا يعرفون حتى كيف يطلقون النار منها. مئات، وآلاف الأبرياء مثلهم سيواجهون مدافع ورشاشات وضباط وجنود أقوى جيش في العالم. وكل هذا من أجل عدم الحصول على شيء. أليس هذا رهيباً؟

---

(١) ثرباتانا: cerbatana قصبة مجوفة يستخدمها السكان الأصليون في بعض مناطق أميركا الجنوبية لإطلاق السهام بالنفخ.

ـ إنه رهيب بكل تأكيد يا روجر ـ وافق رجل الدين ـ. ولكن ربما ليس دقيقاً القول إنهم لن يحصلوا على شيء.

توقف في صمت طويل، ثم راح يتكلم ببطء، متألماً ومتأثراً.

ـ أيرلندا بلاد مسيحية بعمق، وأنت تعرف ذلك. ربما بسبب وضعها الخاص، كبلد محتل، كانت أكثر تقبلاً لرسالة يسوع. أو لأنه كان لدينا مبشرون ورُسل، مثل القديس باتريك، مُقنِعون بصورة هائلة، ترسَّخ الإيمان هناك أعمق مما في أمكنة أخرى. فديانتنا هي قبل كل شيء لمن يتألمون، للمهانين، للجوعى، للمهزومين. هذا الإيمان حال دون تحللنا كبلد على الرغم من القوة التي تسحقنا. ألم يفعل يسوع ذلك؟ لقد تجسد وأخضع نفسه لأشد الفظاعات قسوة: خيانات، تعذيب، وموت على الصليب. ألم يفد ذلك في شيء يا روجر؟

تذكّر روجر كلاً من بيرز وبلانكيت وأولئك الفتيان المقتنعين بأن النضال من أجل الحرية هو عمل صوفي فضلاً عن أنه مدني.

ـ أتفهم ما تريد قوله أيها الأب كروتي. أنا أعرف أن أشخاصاً مثل بيرز وبلانكيت، وحتى توم كلارك المشهور بأنه واقعي وعملي، يعرفون أن الانتفاضة هي تضحية. وهم واثقون من أنهم بموتهم سيخلقون رمزاً يحرك طاقات الأيرلنديين كلها. أنا أتفهم إرادتهم في التضحية. ولكن. . . ألهم الحق في أن يجرّوا أناساً يفتقرون إلى مثل خبرتهم وتنورهم، شباباً لا يعرفون أنهم يُساقون إلى المسلخ لا لشيء سوى أن يقدموا مثالاً؟

ـ أنا لا أشعر بالتقدير لما يفعلونه يا روجر، لقد قلتُ لك ذلك ـ تمتم الأب كروتي ـ. الشهادة هي شيء يتقبله المسيحي، وليست هدفاً يسعى إليه. ولكن. . . ألم يجعل التاريخ بني البشر يتقدمون بهذه

الطريقة. . . بمآثر وتضحيات؟ ما يهمني الآن على كل حال هو أنت. إذا ما أُلقي القبض عليك، لن تتاح لك الفرصة للنضال. وستُحاكم بتهمة الخيانة العظمى.

ـ لقد دخلت بنفسي في هذا الأمر أيها الأب كروتي، وواجبي أن أكون مخلصاً له وأذهب فيه حتى النهاية. لا يمكنني أن أفيك حقك من الشكر الذي تستحقه على كل ما قدمته إليّ. هل يمكنني أن أطلب مباركتك؟

جثا على ركبتيه، وقام الأب كروتي بمباركته ثم كان الوداع بعناق.

XV

عندما دخل الأبوان كاري وماككارول إلى زنزانته، كان روجر قد تلقى الورق وريشة الكتابة اللذين طلبهما، وكان قد كتب بسرعة، بيد ثابتة، ودون تردد، رسالتين مقتضبتين. واحدة لابنة خالته جيرترود وأخرى، جماعية، لأصدقائه. وكلتاهما متشابهتان جداً. فإلى جي، فضلاً عن بضع جمل مؤثرة يذكر فيها كم أحبها وكم هي طيبة ذكرياته عنها التي يحتفظ بها في ذاكرته، يقول: «غداً، في يوم القديس ستيفن، سأنال الموت الذي سعيتُ إليه. آمل من الرب أن يغفر أخطائي ويتقبل توسلاتي». وفي الرسالة إلى أصدقائه النفحة المأساوية نفسها: «رسالتي الأخيرة إلى الجميع هي *sursum corda*[1]. أتمنى الأفضل لمن سينتزعون مني الحياة ولمن حاولوا أن ينقذوها. فجميعهم الآن إخوتي».

---

(١) تعبير لاتيني بمعنى فلترفع القلوب، أو فلتتسام المشاعر.

جاء مستر جون إيليس، الجلاد، بملابسه السوداء المعهودة، يرافقه مساعد شاب قدّم نفسه باسم روبرت باكستر وبدا عصبياً وخائفاً، ليأخذ مقاساته ـ طول القامة، الوزن، وحجم الرقبة ـ وذلك، مثلما أوضح بتلقائية، لتحديد ارتفاع المشنقة ومتانة الحبل. وبينما هو يأخذ المقاسات ويسجلها في دفتر، أخبره أنه إضافة إلى هذه الوظيفة، مازال يواصل مهنته كحلاق في روشديل، ويحاول زبائنه هناك أن يحصلوا منه على أسرار عن عمله، لكنه يحتفظ بصمت أبي الهول في ما يتعلق بهذا الموضوع. وقد أسعد انصرافهما روجر.

بعد قليل جاءه حارس بآخر دفعة من الرسائل والبرقيات: أناس يتمنون له حسن الطالع أو يشتمونه ويدعونه خائناً. كان يلقي عليها نظرة سريعة، غير أن برقية طويلة استرعت انتباهه. وكانت من تاجر المطاط خوليو س. آرانا. آتية من ماناوس ومكتوبة بإسبانية يمكن حتى لروجر أن يلحظ أنها تغص بأخطاء. ويحثه فيها على «أن يكون عادلاً ويعترف أمام محكمة بشرية، بذنوبه التي لا تعرفها إلا العدالة الإلهية، حول سلوكه في بوتومايو». ويتهمه بأنه «اختلق وقائع وأثَّر على الباربادوسيين ليؤكدوا أفعالاً غير واعية لم تحدث قطّ» بهدف وحيد هو «الحصول على الألقاب والثروة». وينهي بالقول: «إنني أسامحك، ولكن يجب أن تكون عادلاً وتعلن الآن بصورة كاملة وصحيحة الوقائع الحقيقية التي لا يعرفها أحد خير منك». وفكر روجر: «هذه الرسالة لم يحررها محاموه وإنما هو نفسه».

كان يشعر بالطمأنينة، فالخوف الذي كان يصيبه بقشعريرة ويجمِّد ظهره في الأيام والأسابيع السابقة تلاشى الآن بالكامل. وهو واثق من

أنه سيذهب إلى الموت بصفاء مثلما ذهب إليه، دون شك، باتريك بيرز، وتوم كلارك، وجوزيف بلانكيت، وجيمس كونلي وسائر الشجعان الذي ضحوا بأنفسهم في دبلن خلال ذلك الأسبوع من شهر نيسان كي تكون أيرلندا حرة. شعر بأنه قد تحلل من المشاكل والهموم وصار جاهزاً لترتيب أموره مع الرب،

جاء الأب كاري والأب ماككارول بملامح جدّية وشدّا إلى يده بحرارة. كان قد التقى بالأب ماككارول ثلاث أو أربع مرات ولكنه تحدث معه قليلاً. إنه كاهن اسكتلندي، في أنفه انحراف خفيف يعطي الانطباع بميل كوميدي. أما مع الأب كاري فيشعر بالمقابل بالثقة. أعاد إليه نسخة كتاب ***محاكاة يسوع*** لتوماس كيمبس.

ـ لا أدري ماذا أفعلُ به، يمكنك أن تهديه إلى أحدهم. إنه الكتاب الوحيد الذي سمحوا لي بقراءته في سجن بينتونفيل. ولست نادماً على قراءته. فقد كان رفقة جيدة لي. وإذا ما تواصلت ذات يوم مع الأب كروتي، قل له إنه محق. فقد كان توماس كيمبس، مثلما قال لي هو عنه، رجلاً قديساً، بسيطاً، وممتلئاً بالحكمة.

قال له الأب ماككارول إن ***الشريف*** يتولى أمر ملابسه المدنية وسيأتيه بها سريعاً. فقد اتسخت الملابس وتجعدت في مستودع السجن، ويشرف مستر ستاسي شخصياً على تنظيفها وكيّها.

ـ إنه رجل طيب ـ قال روجر ـ فقد ابنه الوحيد في الحرب وتحول هو أيضاً إلى شبه ميت من الحزن.

بعد صمت قصير، طلب منهما أن يركزا الآن على تحوله إلى الكاثوليكية.

ـ الانضمام مجدداً وليس التحول ـ ذكّره مرة أخرى الأب كاري ـ. فقد كنتَ كاثوليكياً على الدوام بقرار من تلك الأم التي أحببتَها كثيراً وسوف تعود للقائها قريباً.

بدا كما لو أن الزنزانة الضيقة قد ضاقت أكثر بوجود الأشخاص الثلاثة. وكادوا لا يجدون مجالاً يركعون فيه. وخلال عشرين أو ثلاثين دقيقة ظلوا يصلّون «أبانا الذي في السماء» و«يا قديسة مريم»، في البدء بصمت، ثم بصوت عالٍ بعد ذلك، وكان الكاهنان يرتلان بداية الصلاة، ويرتل روجر نهايتها.

بعد ذلك انسحب الأب ماككارول من الزنزانة كي يتلقى الأب كاري اعتراف روجر كيسمنت. جلس الكاهن على حافة السرير وظلّ روجر جاثياً في بداية تعداده الطويل، والطويل جداً، لخطاياه الحقيقية والمزعومة. وعندما انفجر بكاؤه الأول، بالرغم من الجهود التي بذلها لكبح نفسه، طلب منه الأب كاري أن يجلس إلى جانبه. وواصل على هذا النحو ذلك الطقس النهائي، وبينما هو يتكلم، ويوضح، ويتذكر، ويسأل، أحس روجر أنه آخذ، فعلاً، بالاقتراب أكثر فأكثر من أمه. وللحظات، كان يراوده انطباع سريع بأن شبح آن جيفسون الرشيق يتجسد ويختفي في جدار آجر الزنزانة الأحمر.

بكى عدة مرات، ومثلما لا يتذكر أنه بكى من قبل، ولم يعد يحاول كبح الدموع، فبها يفرّج عن توتره ومراراته، ويبدو له أن ليس روحه وحدها، وإنما جسده كذلك، يصبح أكثر خفة. تركه الأب كاري يتكلم، وهو صامت وثابت بلا حراك. كان يوجه إليه سؤالاً في بعض الأحيان، أو ملاحظة، أو تعليقاً مقتضباً ومطمئناً. وبعد أن أشار إليه

بإشارة التكفير ومنحه الغفران، عانقه: «أهلاً بك مجدداً يا روجر في ما كان بيتك على الدوام».

بعد قليل من ذلك فُتح باب الزنزانة مرة أخرى وعاد للدخول إليها الأب ماككارول يتبعه *الشريف*. كان مستر ستاسي يحمل على ذراعيه بدلة روجر القاتمة وقميصه الأبيض ذا الياقة، وربطة عنقه والصديري، بينما يحمل الأب ماككارول الجزمة والجوربين. إنها الملابس التي ارتداها روجر في اليوم الذي حكمت عليه فيه محكمة أولد بايلي بالموت شنقاً. كانت ملابسه نظيفة لا تشوبها شائبة ومكوية، وحذاؤه مطلياً وملمعاً للتو.

ـ أشكر لطفك جزيل الشكر أيها *الشريف*.

هز مستر ستاسي رأسه. كان وجهه ممتلئاً وحزيناً كالعادة. ولكنه يتجنب الآن النظر إلى عينيه.

ـ هل يمكنني الاستحمام قبل ارتداء هذه الثياب أيها *الشريف*؟ سيكون من المؤسف توسيخها بهذا البدن المقرف الذي لي.

هز مستر ستاسي رأسه موافقاً، وأرفق ذلك هذه المرة بابتسامة تواطؤ. وخرج بعد ذلك من الحجرة.

تدبر الثلاثة أمر جلوسهم على السرير متلاصقين. وظلوا على تلك الحال، يصمتون حيناً ويُصلّون حيناً ويتبادلون الحديث حيناً. حدثهم روجر عن طفولته، عن سنواته الأولى في دبلن، وفي جرسي، وعن الإجازات التي كان يقضيها مع إخوته عند أخواله في اسكتلندا. وأبهج الأب ماككارول سماعه يقول إن الإجازات في اسكتلندا كانت بالنسبة للطفل روجر تجارب فردوسية، هذا يعني تجارب نقاء وسعادة.

وبصوت خافت ترنم لهما ببعض أغاني الطفولة التي علمته إياها أمه وأخواله، وتذكر كذلك أنه كان يحلم بمآثر جنود الخيالة الخفيفة في الهند التي يرويها له ولإخوته الكابتن روجر كيسمنت حين يكون رائق المزاج.

أعطاهما بعد ذلك الكلام طالباً منهما أن يخبراه كيف صارا كاهنين. هل دخلا المدرسة الدينية بسبب ميول ذاتية أم دفعت بهما الظروف، والجوع، والفقر، والرغبة في الحصول على التعليم، مثلما يحدث لكثير من رجال الدين الأيرلنديين؟ الأب ماككارول تيتَّم قبل أن يبلغ سن الرشد. فالتقطه أقارب مسنون وسجلوه في مدرسة الأبرشية، حيث أحبه الكاهن وأقنعه بأن ميوله هي الكنسية.

ـ وماذا كان بمقدوري فعله سوى تصديقه؟ـ فكر الأب ماككارول ثم قال ـ الحقيقة أنني دخلت مدرسة الكهنوت دون قناعة كبيرة. وقد جاء نداء الرب في ما بعد، خلال سنوات دراستي الأخيرة. لقد استحوذت دراسة اللاهوت على اهتمامي بشدة. ولكننا نعرف جيداً أن الإنسان يريد ولكن الرب هو من يقرر.

حالة الأب كاري كانت مختلفة جداً. فهو من أسرة تجار ميسورة في ليمرك، وكانوا كاثوليكاً بالكلام أكثر منهم بالأفعال، أي أنه لم يترعرع في جو ديني. ومع ذلك فقد سمع منذ فتوته نداء الرب، بل إنه يستطيع الإشارة إلى واقعة ربما كانت حاسمة. مؤتمر قُرباني، حين كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، استمع فيه إلى كاهن آت من بعثة تبشيرية، الأب أليسوس، تحدث عن العمل الذي يقوم به في

أدغال المكسيك وغواتيمالا رجال دين أمضى معهم عشرين سنة من حياته.

ـ لقد كان خطيباً مفوهاً إلى حدّ أبهرني ـ قال الأب كاري ـ وبسببه أنا في هذا الذي أنا فيه. لم أره بعدها ولم أعد أعرف أي شيء عنه قطّ. ولكنني أتذكر على الدوام ذلك الصوت، وحماسته، وفصاحته، ولحيته الطويلة جداً. وكذلك اسمه: الأب ألويسوس.

عندما فتحوا باب الزنزانة ليُدخلوا إليه العشاء البسيط المعهود ـ حساء، وسلطة وخبز ـ، انتبه روجر إلى أنه أمضى ساعات في الحديث. كان الغروب يموت والليل يبدأ، مع أن شيئاً من الشمس كان يلمع على قضبان النافذة الضيقة. رفض أخذ وجبة العشاء واستبقى قارورة الماء الصغيرة.

عندئذ تذكر أنه في واحدة من حملاته الأولى في أفريقيا، خلال سنة وجوده الأولى في القارة السمراء، بات عدة أيام في ضيعة صغيرة، لقبيلة نسي اسمها (ربما تدعى البانغوي؟). وتبادل الحديث بمساعدة مترجم مع بعض أهالي المكان. وهكذا عرف أن المسنين في القبيلة، حين يشعرون بأنهم سيموتون، يربطون ممتلكاتهم الضئيلة في حزمة، وبتكتم، دون أن يودعوا أحداً، محاولين المضي دون لفت أي انتباه، يتوغلون في الغابة. يبحثون عن مكان هادئ، شاطئ على ضفة بحيرة أو نهر، أو ظل شجرة ضخمة، أو مرتفع فيه صخور، ويقبعون هناك بانتظار الموت دون إزعاج أحد. إنها طريقة حكيمة ولبقة للمغادرة.

أراد الأبوان كاري وماككارول قضاء الليل معه، ولكن روجر لم يوافق. أكد لهما أنه على ما يرام، وأكثر طمأنينة مما كان عليه خلال

الشهور الثلاثة الأخيرة. وأنه يفضّل البقاء وحيداً والراحة. كان كلامه صحيحاً. فحين رأى الكاهنان الهدوء الذي يبديه، وافقا على المغادرة.

عندما خرجا، ظل روجر يتأمل طويلاً ملابسه التي أحضرها *الشريف*. ولسبب غريب، كان يظن واثقاً أنهم سيأتونه بتلك الملابس التي اعتُقل بها فجر يوم ٢١ نيسان الكئيب، في ذلك الحصن السلتي الدائري المدعو ماكيناز فورت، ذي الأحجار المتآكلة، والمغطى بأوراق يابسة وسراخس ورطوبة، والمحاط بأشجار تغرد عليها الطيور. ثلاثة شهور مضت وتبدو له قروناً. ما الذي حدث لتلك الملابس! أيكونون قد صادروها واحتفظوا بها كأحراز أيضاً مع ملف قضيته؟ البدلة التي كواها له مستر ستاسي والتي سيموت بها بعد ساعات اشتراها له المحامي غافن دوفي ليظهر بصورة لائقة أمام المحكمة التي حاكمته. وكيلا تتجعد، مددها تحت فراش السرير الضيق. ثم استلقى وهو يفكر في أن ليلة أرق طويلة تنتظره.

المذهل أنه غفا بعد لحظات. ولا بد أنه نام ساعات عديدة، لأنه حين فتح عينيه برعشة مفاجأة صغيرة، وعلى الرغم من أن الزنزانة كانت مظلمة، لاحظ من مربع النافذة الصغير ذي القضبان أن الفجر آخذ بالبزوغ. يتذكر أنه حلم بأمه. كان لها وجه محزون، بينما هو طفل، يواسيها قائلاً: «لا تحزني، قريباً سنعود للقاء». كان يشعر بالطمأنينة، دون خوف، متمنياً أن ينتهي ذلك كله دفعة واحدة.

لم يمر وقت طويل، وربما كان قد مرّ، ولكنه لم ينتبه كم من الوقت مضى، عندما فُتح باب الزنزانة، ومن فراغ الباب ظهر *الشريف* ـ وجهه متعب وعيناه محتقنتان كما لو أنه لم يغمض عينيه ـ وقال له:

ـ إذا كنت تريد الاستحمام فيجب أن تفعل ذلك الآن.

هز روجر رأسه موافقاً. وبينما هو يتقدم باتجاه الحمامات عبر ممر الآجر الطويل الملطخ بالسواد، سأله مستر ستاسي إن كان قد استطاع أخذ قسط من الراحة. وحين قال له روجر إنه قد نام عدة ساعات، تمتم الآخر: «أنا سعيد لأجلك». بعد ذلك، وبينما روجر يستبق الإحساس اللطيف الذي سيتلقى به جسده دفق الماء البارد، أخبره مستر ستاسي أن أناساً كثيرين، بينهم رهبان وقسس، أمضوا الليل كله عند بوابة السجن، يصلّون حاملين صلباناً ولافتاتٍ مناهضة لأحكام الإعدام. كان روجر يشعر بأنه غريب، كما لو أنه ليس هو نفسه، كما لو أنه قد استُبدل بشخص آخر. ظل لوقت لا بأس به تحت الماء البارد. فرك بدنه بالصابون بدقة ثم وقف تحت الماء المتدفق وهو يدعك جسمه بكلتا يديه. حين رجع إلى الزنزانة، وجد هناك من جديد الأب كاري والأب ماككارول. أخبراه عن الناس الذين يقرعون على بوابات سجن بينتونفيل، ويصلّون ويلوحون بلافتات، وأن أعدادهم قد ازدادت كثيراً منذ الليلة الفائتة. كثيرون منهم رهبان جاء بهم الأب إدوارد مورنو من كنيسة الثالوث المقدس التي تؤمها عائلات الحي الأيرلندية. ولكن هنالك أيضاً جماعة تهتف مؤيدة إعدام «الخائن». لم يُبد روجر اهتماماً بهذه الأخبار. انتظر الكاهنان خارج الزنزانة كي يرتدي ملابسه. فوجئ بالنحول الذي صار إليه. فالملابس والحذاء ترقص عليه.

وبحراسة الكاهنين يتبعهم *الشريف* وحارس مسلح، ذهب إلى كنيسة سجن بينتونفيل. لم يكن يعرفها. إنها صغيرة ومعتمة، ولكن هنالك شيئاً مرحِّباً وهادئاً في ذلك المكان ذي السقف البيضوي. ترأس الأب

كاري القداس وقام الأب كاككارول بدور المعاون. تابع روجر الطقس الديني بتأثر، وإن لم يدرِ إن كان ذلك بسبب الظروف أو لأنه سيتلقى خبز القربان لأول وآخر مرة في حياته. وفكر: «ستكون مناولتي الأولى ومسحتي الأخيرة». وبعد المناولة، حاول أن يقول شيئاً للأبوين كاري وماككارول ولكنه لم يجد الكلمات، فظل صامتاً، يحاول الصلاة.

عند عودته إلى الزنزانه، وجد أنهم قد تركوا له الفطور إلى جانب السرير، ولكنه لم يشأ أن يأكل شيئاً. سأل عن الساعة، وفي هذه المرة ردوا عليه وقالوا: الثامنة وأربعون دقيقة صباحاً. ففكر: «بقي لي عشرون دقيقة». وعلى الفور تقريباً، وصل حاكم السجن، ومعه *الشريف* وثلاثة رجال بملابس مدنية، أحدهم دون شك هو الطبيب الذي سيُثبت وفاته، والآخران هما موظف ما يمثل التاج، والجلاد مع مساعده الشاب. كان مستر إيليس، الجلاد، رجلاً مربوعاً وأقرب إلى قِصر القامة، يرتدي السواد أيضاً، مثل الآخرين، ولكنه يرفع كمي سترته من أجل العمل براحة أكبر. وكان يحمل حبلاً ملفوفاً على ذراعه. طلب منه بصوته المهذب والخشن أن يضع يديه وراء ظهره لأن عليه أن يقيدهما. وبينما هو يربطهما بالحبل، وجّه إليه مستر إيليس سؤالاً بدا له سخيفاً: «هل أُسبب لك ألماً؟». فنفى بحركة من رأسه.

راح الأب كاري والأب ماككارول يصلّيان مرتلين بصوت عالٍ. وواصلا الترتيل بينما هما يرافقانه، كل منهما على جانب، في الممر الطويل عبر أقسام من السجن يجهلها: أدراج، أروقة، بهو صغير، كلها مقفرة. لم يكد روجر ينتبه إلى الأمكنة التي يخلّفونها وراءهم. كان يصلي ويرد على التراتيل ويشعر بالسعادة لأن خطواته ثابتة ولأنه لم

يفلت منه نحيب أو دمعة واحدة. في بعض اللحظات كان يغمض عينيه ويطلب الرحمة من الله، ولكن ما يظهر لعينيه هو وجع آن جيفسون.

خرجوا أخيراً إلى أرض خلاء تغمرها الشمس. كانت بانتظارهم فصيلة حراس مسلحين. يحيطون بهيكل خشبي مربع، له سلّم من ثماني أو عشر درجات. قرأ حاكم السجن بضع جمل لا شك أنها الحكم الصادر عليه، ولكن روجر لم يولها اهتماماً. ثم سأله بعد ذلك إن كان يريد أن يقول شيئاً. فهز رأسه بالنفي، لكنه تمتم بين أسنانه: «أيرلندا». التفت إلى الكاهنين فعانقه كلاهما. ومنحه الأب كاري المباركة.

عندئذ اقترب منه مستر إيليس وطلب منه أن ينحني قليلاً كي يتمكن من عصب عينيه، ذلك أن روجر كان طويلاً بالنسبة إليه. فانحنى، وبينما الجلاد يربط عصابة أدخلته في الظلام أحس أن يدي مستر إليس صارتا أقل ثباتاً الآن، وأقل تحكماً بنفسيهما مما كانتا عليه عندما قيدّتا يديه. أمسك به الجلاد من ذراعه وجعله يصعد الدرجات نحو المنصة، ببطء كيلا يتعثر.

سمع بعض التحركات، وصلوات الكاهنين، وأخيراً، همس له مستر إيليس مرة أخرى طالباً منه أن يُخفض رأسه وينحني قليلاً، *please, sir*. ففعل ذلك، وأحس عندئذ أنه قد وضع الأنشوطة حول عنقه. واستطاع أن يسمع لآخر مرة همس مستر إيليس له: «إذا حبست نفسك سيكون الأمر أسرع يا سير». وقد أطاعه.

خاتمة

قصة روجر كيسمنت تسطع، وتنطفئ وتولد من جديد بعد موته مثل تلك الألعاب النارية التي بعد أن ترتفع عالياً وتنفجر في الليل مُكَوّنه مطراً من النجوم والرعود، تنطفئ، تصمت، وبعد لحظات من ذلك، تنبعث من جديد في ضجة تملأ السماء بالحرائق.

حسب رأي الطبيب الذي حضر الإعدام، الدكتور بيرسي ماندر، فإن العملية نُفذت «دون أية عقبات» وكان موت المحكوم عليه فورياً. وقبل أن يُعطي الإذن بدفنه، قام التقني الطبي بتنفيذ أوامر السلطات البريطانية التي تريد بعض التأكيد العلمي بشأن «الميول المنحرفة» للمحكوم عليه، فبادر وهو يضع قفازين بلاستيكيين إلى سبر فتحة الشرج وبداية المعي. تأكد من أن في الشرج «بالرؤية المجردة» توسعاً واضحاً، مثلما هي حال «الجزءالسفلي من المعي، إلى حيث يمكن أن تصل أصابع اليد». وينتهي الطبيب إلى القول إن هذا الاختبار يؤكد «الممارسات التي كان المحكوم كما يبدو هدفاً لها».

بعد اخضاع الجثمان لهذه المعالجة اليدوية، تم دفن رُفات روجر كيسمنت بلا لوحة، ولا صليب، ولا كتابة الحرفين الأولين من اسمه، وكان الدفن بجوار قبر بلا علامات أيضاً، للدكتور كريبين، وهو قاتل

مشهور أُعدم قبل زمن من ذلك. جثوة التراب غير المنتظمة التي صارت مدفنه كانت محاذية للطريق الروماني، الدرب الذي دخلت عليه الجيوش الرومانية، في بداية الألفية الأولى من تقويمنا، لنشر الحضارة في ذلك الركن الضائع من أوروبا الذي سيصبح في ما بعد إنكلترا.

بدا بعد ذلك كما لو أن قصة روجر كيسمنت قد غابت. فالمساعي التي بذلها محاميه جورج غافن دوفي لدى السلطات البريطانية، باسم إخوة روجر، من أجل تسليم جثمانه إلى أسرته لتوفير دفن مسيحي له في أيرلندا، قوبلت بالرفض، في ذلك الحين وفي كافة الأوقات التالية على امتداد نصف قرن، وكلما أقدم أقرباؤه على محاولات مماثلة. وخلال وقت طويل لم يتحدث أحد عنه، باستثناء عدد محدود من الأشخاص ـ منهم الجلاد، مستر جون إيليس الذي خلّف، في كتاب ذكريات ألفه قبل قليل من انتحاره، قوله «من جميع الأشخاص الذين كان علي إعدامهم، الشخص الذي مات بأكبر قدر من الشجاعة هو روجر كيسمنت» ـ. لقد اختفى من الاهتمام العام، في إنكلترا وفي أيرلندا على السواء.

احتاج إلى زمن لا بأس به كي يُقبل في بلاط أبطال استقلال أيرلندا. فقد نجحت الحملة الملتوية التي أطلقتها المخابرات البريطانية لتشويه سمعته باستخدامها مقاطع من مذكراته السرية. بل إنها لم تنجلِ تماماً حتى الآن: فهالة شذوذ جنسي سوداء وتغرير بقاصرين رافقت صورته على امتداد القرن العشرين. وكانت صورته تزعج بلاده لأن أيرلندا، حتى سنوات غير بعيدة، كانت تحافظ رسمياً على أخلاقيات شديدة الصرامة، حيث مجرد الشبهة بـ «زيغ جنسي» يُغرق المرء في

الغفلة والمجهولية ويُستبعد من الاحترام العام. ولشطر كبير من القرن العشرين ظل اسم روجر كيسمنت ومآثره وعوزه مقتصراً على أبحاث سياسية ومقالات صحفية وسير مؤرخين، معظمها إنكليزية.

ومع ثورة العادات والتقاليد، في الميدان الجنسي بصورة خاصة، بدأ اسم كيسمنت يشق طريقه في أيرلندا، شيئاً فشيئاً، ولكن بتحفظ وتمنع على الدوام، إلى أن جرى قبوله مثلما كان: أحد كبار مناضلي زمانه المناهضين للاستعمار والمدافعين عن حقوق الإنسان وثقافات السكان الأصليين، ومناضل قدم التضحيات في سبيل انعتاق أيرلندا. وببطء راح مواطنوه يرضخون لتقبل بطل وشهيد ليس من النمط التجريدي ولا نموذج في الكمال وإنما كائن بشري، مُكّون من تناقضات وتضادات، من ضعف وعَظَمَة، ذلك أن كل إنسان، مثلما كتب إنريكي رودو «هو عدة أشخاص»، ما يعني أن ملائكة وشياطين يختلطون في شخصيته بطريقة معقدة.

لم يتوقف قطّ، وربما لن يتوقف، الجدل حول ما سمي ***اليوميات السوداء*** *Black Diaries*. هل لها وجود حقاً ومكتوبة بخط يد روجر كيسمنت، بكل ما فيها من بذاءات نتنة، أم إنها زيف اختلقته الأجهزة السرية البريطانية من أجل إعدام الدبلوماسيّ السابق أخلاقياً وسياسياً كذلك، بهدف تقديم أمثولة زاجرة لصرف خونة كامنين عن نواياهم؟ خلال عشرات السنين رفضت الحكومة الإنكليزية السماح لمؤرخين وخبراء خطوط مستقلين بفحص تلك اليوميات، معلنة أنها من أسرار الدولة، مما أفسح المجال لشكوك وحجج مؤيدة للقائلين بالتزوير. وعندما رُفعت السرية، قبل سنوات قليلة نسبياً، تمكن الباحثون من

فحصها وإخضاع النصوص لاختبارات علمية، ولكن الجدل لم يتوقف. وربما سيستمر لزمن طويل. وهذا ليس بالأمر السيئ. ليس بالأمر السيئ أن تحيط دوماً أجواء من عدم اليقين حول روجر كيسمنت، كدليل على أنه من المستحيل التوصل إلى معرفة الكائن البشري بصورة حاسمة، فهو كلّيّة مجملة تتفلت دوماً من كافة الشِّباك النظرية والعقلانية التي تحاول الإمساك بها. انطباعي الشخصي ـ وهو انطباع روائي بالطبع ـ أن روجر كتب تلك اليوميات الشهيرة ولكنه لم يعشها، لم يعشها كلها على الأقل، إذ إن فيها الكثير من المبالغات والتخييل، وأنه كتب بعضها لأنه رغب في أن يعيشها لكنه لم يعشها.

في العام ١٩٦٥ سمحت حكومة هارولد ويلسون الإنكليزية أخيراً بإعادة عظام روجر كيسمنت إلى وطنه. ووصل الرفات إلى أيرلندا بطائرة عسكرية وتلقى تكريماً عاماً في ٢٣ شباط من ذلك العام. وعُرض لأربعة أيام في قاعة جنائزية في كنيسة غاريسون مثلما تُعامل رفات الأبطال. ومرت جموع قُدرت بمئات آلاف الأشخاص قبالة الرفات لتقدم احترامها. وحُملت في موكب عسكري إلى الكاتدرائية وقُدمت إليها التشريفات العسكرية أمام مبنى البريد التاريخي، مقر القيادة العامة لانتفاضة ١٩١٦، قبل أن يُحمل النعش إلى مقبرة غلاسنفين، حيث دفن في صباح يوم ماطر ورمادي. ومن أجل إلقاء خطاب تكريم، نهض إيمون دي فاليرا ـ أول رئيس لأيرلندا، المناضل البارز في انتفاضة ١٩١٦، وصديق روجر كيسمنت ـ من فراش احتضاره، وألقى تلك الكلمات المؤثرة التي يُوَدّع بها عادة الرجال العظماء.

لم يبق في الكونغو أو في بوتومايو أي أثر لمن فعل الكثير للتنديد بالجرائم الكبرى التي اقتُرفت في تلك الأراضي في أزمنة المطاط.

وفي أيرلندا بقيت بعض الذكريات منه، مبعثرة في أنحاء الجزيرة. ففي مرتفعات ***غلين*** في غلينشيسك، أنتريم، والتي تنحدر باتجاه خليج مورلو، غير بعيد عن البيت ماغيرنتمبل العائلي، أقامت له الشين فين تمثالاً دمره دعاة الاتحاد المتعصبون في أيرلندا الشمالية. وقد بقيت أجزاؤه مبعثرة هناك على الأرض. وفي بالهيغوي بمقاطعة كيري، في ميدان صغير يطل على البحر تنتصب منحوتة لروجر كيسمنت نحتها الأيرلندي أوسيسين كيلي. وفي متحف كيري كنتري بتريلي توجد آلة التصوير التي حملها روجر معه عام ١٩١١ في رحلته إلى الأمازون، وإذا طلب الزائر، يمكنه أن يرى أيضاً معطف الجوخ الخشن الذي تلفع به في الغواصة الألمانية U-19 التي جاءت به إلى أيرلندا. وفي مجموعة خاصة يملكها مستر شين كوينلان في منزله الصغير بباليدوف، غير بعيد من مصب نهر شانون على الأطلسي، يوجد قارب هو القارب نفسه (يؤكد ذلك بتفخيم) الذي نزل منه، على شاطئ بانا ستراند، كلٌ من روجر والنقيب مونتيث والرقيب بايلي. وفي مدرسة اللغة الغيليّة «روجركيسمنت» بترايلي، يُعرض في مكتب المدير طبق الخزف الذي أكل به روجر كيسمنت في البوبليك بار سفن ستارز، في أيام ذهابه إلى محكمة استئناف لندن التي اتخذت القرار في قضيته. وفي ماكيناز فورت يوجد نصب صغير بالغيليّة والإنكليزية والألمانية ـ عمود حجري أسود ـ يُذكر فيه أنه جرى اعتقاله هناك على يد الشرطة الملكية الأيرلندية يوم

٢١ نيسان ١٩١٦ . وفي بانا ستراند، الشاطئ الذي وصل إليه، تنتصب مسلة صغيرة يظهر فيها وجه روجر كيسمنت إلى جانب وجه روبرت مونتيث. وفي صباح اليوم الذي ذهبتُ لرؤية تلك المسلة وجدتها مغطاة ببراز النوارس الزاعقة التي تحلق حول المكان وتُرى في كل الأنحاء أزهار البنفسج البري التي أثّرت فيه كثيراً فجر ذلك اليوم الذي رجع فيه إلى أيرلندا ليُلقى عليه القبض، ويُحاكم ويشنق.

مدريد ١٩ نيسان ٢٠١٠

الفهرس

هذا الكتاب

عندما فتحوا باب الزنزانة، دخلت أيضاً، مع دفقة الضوء وهبة الريح، ضجة الشارع التي تُخمدها الجدران الحجرية فاستيقظ روجر مذعوراً. وبينما هو لا يزال يرمش، مشوشاً، مصارعاً من أجل استعادة السكينة، لمح شبح *الشريف* مستنداً إلى فراغ الباب. كان وجهه المترهل، بشاربه الأشقر وعينيه النمامتين، يتأمله بجفاء لم يحاول مداراته من قبل قطّ. هذا شخص سيتألم إذا ما استجابت الحكومة الإنكليزية لطلبه بالرحمة.

